تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

الجزء الثاني

رواية

الترجمة الكاملة



ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ديفيد كوبرفيلد

تشارلز ديكنز

◆ المؤلف: تشارلز ديكنز

◆ العنوان: ديفيد كوبرفيلد - الجزء الثاني

◆ ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

◆ طبعة آفاق الأولى 2022

◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

◆ مستشار النشر: سوسن بشير

◆ المدير العام: مصطفى الشيخ





رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٩٢٦٩

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 332 - 9

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

رواية

ترجمة

زينب محمد عبد الحميد

الجزء الثاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : ديفيد كوبرفيلد – الجزء الثاني

ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2022

520 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 29269 / 2021

الترقيم الدولي 9 – 332 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء (روايات)

2 – ديكنز، تشارلز



الفصل الحادي والعشرون

إيميلي الصغيرة

كان بالمنزل خادم، وقد فهمت أن هذا الرجل يرافق ستيرفورث عادة، وأنهم أحضروه لخدمته خلال فترة الدراسة الجامعية، وكان يبدو من مظهره أنه يتمتع بنوع من الاحترام. أحسب أنه كان الرجل الوحيد من بين قُرناء عمله، الذي يظهر بهذا القدر من الوقار والاحترام. كان قليل الكلام، هين الخطى، صاحب أسلوب هادئ ومتزن، محترمًا وملتزمًا، قريبًا للغاية عندما يكونون في حاجة إليه، ولا يدنو من أي إنسان أبدًا بلا سبب؛ أما أَجَلُّ مظاهره وأدعاها إلى الاعتبار فكان احترامه. لم يكن وجهه طيع الحركة، بل كان عنقه قاسيًا، أما رأسه فذو شعر ناعم قصير مهذب، ومفروق من جانبه، أما طريقة تحدثه فناعمة سلسة، مع عادة غريبة تتمثل في الهمس بحرف السين بشكل واضح، حتى يبدو أنه يكثر استخدام هذا الحرف أكثر مما سواه، إلا أنه راح يضفي على كل شيء غريب فيه نوعًا من الوقار. كان أنفه يبدو مقلوبًا، وقد أضفى

عليه بدوره نوعًا من الاحترام أيضًا. لقد أحاط نفسه بهالة من الاحترام، واطمأن إليها. كان من المستحيل أن يتبادر الشك في أن يخطئ في أي شيء، لما بدا عليه من وقار بالغ. لا يجرؤ أحد على التفكير في إلباسه ثوبًا خاصًّا كالخدم، لأنه كان ذا هيبة بالغة. إن فرْض أي عمل مهين عليه، كان بمثابة إلحاق إهانة طائشة بمشاعر رجل محترم. لاحظت من هنا أن الخادمات في المنزل أدركن مكانته بالفطرة، فرُحن يقمن دائمًا بالأعمال الهينة بأنفسهن، فيتركن له فسحة ليجلس بجوار المدفأة يتصفح الجريدة.

لم أقابل في حياتي رجلًا منطويًا مثله. إلا أنه بدا مع هذه الصفة، كما هي الحال في كل السمات الأخرى التي يمتلكها، أكثر احترامًا دون غيره. آل به الانطواء إلى الحد الذي جهل الناس فيه اسمه المسيحي، وقد بدا أن هذا الجهل يشكل جزءًا من هيبته. لا يستطيع أحد الاعتراض على لقبه ليتيمر، الذي صار معروفًا به. ربما لو كان قد دُعي بيتر لشُنق، أو كان اسمه توم لنُفي، لكن ليتيمر كان اسمًا محترمًا تمامًا.

تسبب هذا الاحترام الموقر والمجرد في ظني، في شعوري بالضآلة والصغر في حضور هذا الرجل بشكل خاص. لم أستطع تخمين عمره الحقيقي، وقد زاده هذا الأمر مكانة أخرى، إذ أكسبه كل الهدوء والوقار مظهرًا قد يلوح به في الخمسين من عمره، وربما هو لم يتجاوز الثلاثين.

كان ليتيمر في غرفتي قبل أن أستيقظ بعدما حل الصباح، ليحضر لي ماء الحلاقة، ويجهز لي ملابس مناسبة. أزحت عني الستائر ونظرت

من السرير، فإذا بي أراه في مهابته غير مكترث بأجواء الرياح الشرقية الباردة لشهر يناير، فلا ينفث ذاك الصقيع عن فمه، بل يرتب وضعية حذائي يمينًا ويسارًا كما لو أنه في وضع أولي للقص، وقد راح ينفخ شذرات من الغبار عن معطفي بينما يبسطه كطفل في مهده.

ألقيت عليه تحية الصباح وسألته عن الساعة في تلك اللحظة. أخرج من جيبه أفخم ساعة صيد رأيتها على الإطلاق، وراح يمنع غطاءها من الانفتاح على آخره بإبهامه فيزيحه بعيدًا، ثم أخذ ينظر إلى صفحتها كما لو أنه يستشير محارة مخروطية الشكل، ثم أغلقها مرة أخرى، وقال في أدب بالغ إنها الثامنة والنصف.

قال: «إن السيد ستيرفورث يسره أن يسمع أنك تمتعت بالراحة يا سيدي».

قلت: «أشكرك، حسنًا، لقد استرحت حقًّا. هل السيد ستيرفورث بخير؟».

أجاب: «شكرًا لك يا سيدي، إن السيد ستيرفورث بخير نوعًا ما». كانت هذه سمة أخرى من سماته، ألا وهي عدم استخدامه لصيغ التفضيل، بل يعبر عما يريد باعتدال ورزانة دائمين.

«هل تطلب أي شيء آخر يمكنني أن أتشرف بفعله لك يا سيدي؟ سيرن جرس الاستعداد عند الساعة التاسعة، لأن الأسرة تتناول الإفطار في التاسعة والنصف».

«لا شيء، أشكرك».

«العفو يا سيدي، الشكر لك». أمال رأسه قليلًا حين مر بسريري، كما لو أنه يعتذر لي عن خطأ اقترفه، ثم خرج، وأغلق الباب بلطف جم، كما لو أنني استغرقت للتوِّ في نوم حلو لم أعهد مثله في حياتي.

أجرينا في كل صباح هذه المحادثة بالضبط، لم نزد عليها شيئًا قَطُّ، ولم ننقص منها كذلك. رحت أشعر مع انقضاء المدة التي أقضيها طوال الليل بأنني أدنو نحو سنوات النضوج بصورة ثابتة، وبعد مرافقتي لستيرفورث، والثقة التي منحتني إياها السيدة والدته، وكذلك بعد محادثات الآنسة دارتل، في حضور هذا الرجل المحترم، أصبحت، كما يغني شعراؤنا الصغار: «شابًّا من جديد».

أُعدت لنا الخيول. أما ستيرفورث، الذي كان يعرف كل شيء، فقد أعطاني دروسًا في ركوبها. قُدمت لنا سيوف، ومن ثَم أعطاني ستيرفورث دروسًا في المبارزة أيضًا، تزودنا بالقفازات، وبدأت أتدرب مع السيد نفسه على الملاكمة. لم يُبدِ ستيرفورث أي علامات على الانزعاج، بعد أن وجدني حديث عهد مبتدئًا في هذه الفنون، لكنني لم أتحمل قَطُّ إظهار حاجتي لتعلم هذه المهارات أمام ليتيمر المحترم. لم أَكُن أي سبب يدفعني إلى الظن بأن ليتيمر لا يفهم مثل هذه الفنون، فلم تقُدني أي إيماءة منه قَطُّ إلى افتراض أي شيء من هذا القبيل، ولو باهتزاز أحد رموشه المهيبة، ومع ذلك فإنني شعرت في كل مرة كنا نتدرب فيها بأنني أكثر الكائنات سذاجة وأقل الأشخاص خبرة من بين البشر.

خصصت جزءًا كبيرًا لهذا الرجل، لأنه ترك تأثيرًا خاصًّا عليَّ في هذا الوقت تحديدًا، وكذلك بسبب ما وقع بعد ذلك.

انقضى الأسبوع في بهجة. مر سريعًا، كما كان من المفترض له أن يمر على إنسان في مثل نشوتي. مررت في هذا الوقت بمواقف عديدة، فدفعني إلى معرفة ستيرفورث بصورة أفضل، بل والإعجاب به أكثر، على كثير من الأصعدة، حتى إنني في نهاية هذا الأسبوع بدا لي أنني قد عشت معه زمنًا فسيحًا. كان يتمتع بطريقة جريئة في معاملتي، فقد عاملني مثل دمية. كنت أستحسن دربه هذا أكثر من سواه، حيث ذكَّرني بمعرفتنا القديمة، وقد بدا بهذا الأسلوب كما لو أننا في تتمة طبيعية لمعرفتنا السالفة، حيث أظهر لي أنه لم يتغير ناحيتي. أزاح ستيرفورث عني أي قلق قد يساورني. لو أنني قارنت مزاياه ومواهبه بمواهبي، أو وازنت بين حقوقي من صداقته بحقوقه علي لربحت كفته. صار سلوكه كصديق لي مألوفًا وغير مصطنع بل حنونًا ودون أن يسلك هذا المسلك ذاته مع أي إنسان آخر. عاملني في المدرسة بشكل مختلف عن بقية الصبية، مما دفعني للظن بأنه يعاملني معاملة خاصة لا أضاهي بها أي صديق آخر لديه. كنت أؤمن بأنني أقرب الأصدقاء إلى قلبه، وقد بات قلبي يشعر بالدفء وازداد تعلقي به. لقد عقد عزمه على الذهاب معي إلى الريف، وحان يوم رحيلنا. تردد في بداية الأمر مستفهمًا: هل سيأخذ ليتيمر معه أم لا، لكنه قرر تركه في المنزل. أما هذا المخلوق المحترم، فقد رضي عن نصيبه أيًا كان، وراح يرتب لنا حقائبنا وينسقها فوق العربة الصغيرة التي كان من المقرر أن تقلنا إلى لندن، فأتقن عمله كما لو أن حقائبنا ستتحدى صدمات العصور المتتالية، ثم تلقى عطائي المتواضع له في هدوء تام.

ودَّعنا السيدة ستيرفورث والآنسة دارتل، وقد قدمت إليهما خالص شكري وامتناني، وأثنيت على هذا اللطف البالغ الذي شملتني به الأم المخلصة. كان آخر شيء أبصرته هو عين ليتيمر الهادئة، وقد تصورت أنها تنظر إليَّ مشحونة بالعواطف، في ظل قناعة صامتة بأنني لم أزل صغيرًا جدًّا إلى أبعد مدى.

لا يسعني أن أصف مشاعري تجاه هذه العودة الميمونة إلى الأماكن القديمة التي آلفتها، لن أستطيع حقًّا أن أصف ما أحسست بعد أن أقلتنا العربة. أذكر أنني لبثت قلقًا للغاية، معتزًّا بانتمائي إلى يارموث، بل صرت سعيدًا مزهوًّا حين تحدث ستيرفورث -في أثناء تجوالنا في شوارعها المظلمة في طريقنا إلى النزل- قائلًا إن هذه البلدة طيبة من وجهة نظره، وإنها منعزلة غير مألوفة. أوينا إلى الفراش بعد وصولنا مباشرة - لاحظت وجود زوج من الأحذية المتسخة والجوارب على باب محل صديقنا القديم «الدولفين» بعدما مررنا به، ثم تناولنا الإفطار في وقت متأخر من صباح يومنا التالي. أما ستيرفورث، فكان في حالة معنوية مرتفعة، فإذا به يتجول حول الشاطئ قبل أن أستيقظ من نومي، وقد قال لي إنه تعرَّف إلى نصف رجال المراكب في هذا المكان، بل علاوة على ذلك، أضاف أنه رأى من بعيد منزلًا يتطابق وصفه مع منزل السيد بيجوتي، وأنه تأكد منه بعد خروج الدخان من مدخنته، وأخبرني أنه فكر كثيرًا في الدخول إلى أهل هذا البيت ومن ثَم إقناعهم أنه أنا، وأنني قد كبرت إلى الحد الذي جعلهم لا يعرفون شكلي.

قال: «متى تنتوي تقديمي إليهم يا أقحوانتي؟ إنني تحت أمرك، فاتخذ ترتيباتك اللازمة».

قلت: «إنني كنت أفكر في أن هذا المساء سيكون وقتًا جيدًا للذهاب إليهم يا ستيرفورث، حيث يجتمعون حول نار المدفأة. إنني أود أن تشاهد المنزل بينما يحاوطه الدفء، فهو مكان مثير للعجب».

أجابني ستيرفورث قائلًا: «فليكن ما أردت! لنذهب هذا المساء».

قلت في سعادة: «لن أبلغهم بأننا هنا، لأننا نريد أن نفاجئهم، كما تعلم».

قال ستيرفورث: «نعم، بالتأكيد. لن نستمتع بالزيارة إلا إذا فاجأناهم. دعنا نرى السكان الأصليين في حالتهم الفطرية».

قلت: «على الرغم من أنهم من هذا النوع من الناس الذين ذكرتهم...».

صرخ بينما يبدي نظرة خاطفة نحوي: «آها! ماذا تقصد أو ما الذي تريده؟! إنك تذكر مناوشاتي مع روزا، أليس كذلك؟ يا للفتاة المربكة، إنني لم أزل متوجسًا منها إلى حد ما. إنها مثل عفريت أمامي. لكن لا تهتم لأمرها الآن؛ ماذا ستفعل؟ إنك ذاهب لزيارة مربيتك، على ما أظن، أليس كذلك؟».

قلت: «حقًّا، نعم، يجب أن أرى بيجوتي أولًا».

أردف ستيرفورث وهو ينظر إلى ساعته قائلًا: «حسنًا. لنفترض أنني سأرسلك إليها لبضع ساعات حتى تُنهي بكاء لقائها بك. هل هو وقت كافٍ؟».

ضحكت وأجبته أنني أظن أنه وقت كافٍ لقضاء الأمر، لكن عليه أن يأتي معي أيضًا لأنه سيجد أن شهرته قد سبقته إلى هناك، بعد أن صار شخصية عظيمة مثلي تقريبًا.

قال ستيرفورث: «سآتي إلى أي مكان تريده، أو أفعل أي شيء تريده. قل لي أين آتي إليك، وما هما إلا ساعتان حتى أمتثل أمامك في أي حالة تفضلها، عاطفية كانت أم هزلية».

أعطيته توجيهات دقيقة ليتمكن من العثور على مكان إقامة السيد باركس، السائق المتوجه إلى بلندرستون أو أماكن سواها، وبناءً على هذا الفهم انطلقتُ بمفردي. كان الهواء باردًا حادًّا، وكانت الأرض جافة، والبحر نقيًّا ورائقًا. أما الشمس فقد راحت تنشر وفرة من سنا ضوئها، إن لم يكن الكثير من الدفء، فلاح كل شيء نضرًا يشع بالحياة. صرت بدوري منتعشًا ومفعمًا بالحيوية، محفوفًا بالسرور لكوني في هذا المكان، حتى إنني وددت لو أوقفت المارة في الشوارع لأصافحهم بكلتا يدي.

بدت الشوارع صغيرة بالطبع. وإني أحسب أن الشوارع التي رأيناها صغيرة ثم تركناها، تغدو أصغر بعد أن نعود إليها. لكنني لم أنسَ شيئًا فيها، ولم أجد شيئًا قد تغير، حتى إنني مررت بمتجر السيد عمر، فإذا بلافتته قد كتب عليها الآن «عمر وجومار»، بعد أن كان يحوز اسم عمر فقط، وإن ظلت عبارة «تاجر وخياط، بائع ملابس، ولوازم جنازات...» إلخ، كما كانت.

بدت خطواتي ترنو بشكل طبيعي نحو باب المتجر، بعد أن قرأت هذه الكلمات بينما كنت أمر بالطريق، فإذا بي أعبره ثم ألقي بنظري

إلى الداخل. أبصرت امرأة جميلة في نهاية المتجر، ترقص مع طفل صغير بين ذراعيها، بينما تشبث صغير آخر بمئزرها. لم أجد صعوبة في التعرف على ميني أو طفليها. لم يكن باب الحجرة الزجاجي مفتوحًا، إلا أنني سمعت صوتًا يتناهى إلى أذني عبر الورشة الموجودة في الفناء، فإذا بها النغمة القديمة التي سمعتها منذ زمن، كما لو أنها لم تتوقف قَطُّ.

قلت: «هل السيد عمر موجود؟ أود أن أراه للحظة، إن كان هنا».

قالت ميني: «آهٍ، نعم يا سيدي، إنه موجود. إن الطقس في الخارج لا يناسبه لأنه مريض بالربو. يا جو، فلتنادِ جدك».

أطلق الصغير الذي كان يمسك بمئزرها صيحة مفعمة بالحيوية، حتى إن دويها أحاله خجلًا، فدفن وجهه في مئزر أمه من جديد، بينما أثار إعجابها الشديد. وما إن سمعت نفثًا ونفخًا ثقيلًا يقتربان منا، حتى لاح السيد عمر واقفًا أمامي بأنفاسه القصيرة المتقطعة، من دون أن يبدو في سن أكبر مما كان عليها في الماضي.

قال السيد عمر: «إنني في خدمتك يا سيدي. كيف أستطيع مساعدتك يا سيدي؟». قلت: «يمكنك أن تصافحني يا سيد عمر، إذا سمحت»، ثم مددت إليه يدي مستطردًا: «لقد كنت كريمًا محبًّا لي ذات يوم، وأخشى أنني لم أُظهر امتنانًا لهذا الفضل بما فيه الكفاية».

راح الرجل العجوز يقول: «هل فعلت ذلك حقًّا؟ إنني سعيد لسماع ذلك، لكنني لا أتذكر متى حدث ذلك. هل أنت متأكد أنك تقصدني أنا؟».

قلت: «إنني واثق من ذلك إلى أبعد حد».

قال السيد عمر بينما ينظر إليَّ ويهز رأسه: «أظن أن ذاكرتي صارت قصيرة مثل أنفاسي، لأني لا أتذكرك».

«ألا تتذكر مجيئك إلى السائق لمقابلتي، وتناول الإفطار هنا، وركوبنا إلى بلندرستون معًا، أنت وأنا، والسيدة جورام، والسيد جورام أيضًا، ولم يكن قد تزوجها بعد؟».

صاح السيد عمر، بعد أن آلت به الدهشة إلى نوبة من السعال: «يا للعجب! رحماك يا إلهي! لا تقل إنك تذكر ذلك! يا ميني، يا عزيزتي، هل تتذكرين؟ يا ربي! نعم. كانت المتوفاة سيدة، على ما أظن؟».

تابعته قائلًا: «كانت أمي».

قال السيد عمر بينما يلامس معطفي بسبابته: «بالتأكيد، وكان ثمة طفل صغير أيضًا! كانا ميتين. دفنا الميت الصغير جوار الميت الآخر. لقد وقع الأمر في بلندرستون بالطبع. رحماك يا رب! وكيف حالك منذ ذلك الحين؟».

حسنًا، شكرت سؤاله، أجبته بأنني بخير، ثم تمنيت له أن يكون هو الآخر في أحسن حال.

قال السيد عمر: «آهٍ، أجد أنفاسي تقصر، لكنها نادرًا ما تطول مع رجل يتقدم مثلي في السن. أما أنا فأعتبر حالي كما هي، وأحاول أن أستفيد من تنظيم أنفاسي إلى أقصى حد. إنها أفضل طريقة للعيش، أليس كذلك؟».

سعل السيد عمر مرة أخرى بعدما ضحك، وساعدته ابنته لتخطي نوبة سعاله، وصارت تقف الآن على مقربة منا، تراقص طفلها الأصغر فوق المنضدة.

قال السيد عمر: «رحماك يا ربي! نعم، بالتأكيد، كانا ميتين! عجبًا! في تلك الرحلة بالذات، إذا كنت ستصدقني، فإنه كان يوم زواج ميني من جورام، وقد قال جورام: «هل حددت اليوم يا سيدي؟». وقالت ميني: «نعم، افعل ذلك يا أبي». أما الآن فقد شاركني جورام في العمل. وانظر هناك، إنه الأصغر».

ضحكت ميني، وربتت على شعرها المسدل على صدغيها، بينما وضع والدها إحدى أصابعه السمينة في يد الطفلة التي كانت ترقص فوق المنضدة.

قال السيد عمر بعد أن أومأ برأسه موافقًا على ما تذكره من لفتات الماضي: «ميتان بالطبع، بالضبط، وقد كان جورام يعمل في هذه اللحظة بالذات، على تجهيز صندوق أسود بمسامير فضية، من دون هذا القياس» - كان يقصد قياس الطفل الراقص على المنضدة - «أقل من ذلك ببوصتين كاملتين تمامًا... هل ستتناول شيئًا؟».

شكرته، لكنني اعتذرت.

قال السيد عمر: «دعني أتذكر. إن زوجة السائق باركس هي بيجوتي أخت الملاح، فهل لها علاقة بأسرتك؟ كانت في الخدمة هناك بالتأكيد، أليس كذلك؟».

أجبته بالإيجاب، فأراحه ردي وأسعده إلى حد كبير.

قال السيد عمر: «أظن أن أنفاسي ستمتد لفترة أطول بعد ذلك، وكذلك ستتمدد ذاكرتي كثيرًا. حسنًا يا سيدي، إن لدينا هنا شابة من أقاربها تتمرن، وإن لها ذوقًا رفيعًا في تفصيل الملابس. أؤكد لك أنني لا أظن أن ثمة دوقة في إنجلترا يمكنها أن تضاهيها ذوقًا».

قلت لا إراديًّا: «أتعني إيميلي الصغيرة؟».

قال السيد عمر: «حقًّا، إن اسمها إيميلي، وهي صغيرة أيضًا. ولكن صدقني، لديها وجه خاص أغضب منها نصف نساء هذه المدينة».

صاحت ميني: «هذا هراء يا أبي».

قال السيد عمر: «يا عزيزتي، إنني لا أقول إن هذا الأمر ينطبق عليكِ». ثم غمز أمام وجهي مستطردًا: «لكني أتكلم عن نصف النساء في يارموث. آه، فهن على محيط خمسة أميال في حالة من الجنون والغيرة من تلك الفتاة».

قالت ميني: «كان الأجدر بها إذن أن تحافظ على مكانتها الخاصة في الحياة يا أبي، ولا تمنحهن أي فرصة للتحدث عنها، ومن ثَم كانت ستخرسهن ولم يكن ليقلن شيئًا».

أجاب السيد عمر: «أكان ذلك بإمكانه أن يمنع ثرثرتهن يا عزيزتي؟! ألن يتجرأن على هذا الفعل؟! هل هذه هي حدود معرفتك بالحياة؟ ما هو الشيء الذي لا تستطيع أي امرأة فعله، ولا ينبغي عليها فعله، خاصة فيما يتعلق بالمظهر الجيد لامرأة أخرى؟».

لقد حسبت أن الأمر انتهى حقًّا مع السيد عمر، بعد أن قال هذه الفكاهة. إلا أنه راح يسعل بشراسة، واستحالت استعادة أنفاسه على الرغم من كل محاولاته لاستعادتها، حتى إنني ظننت أنني سأجد رأسه ملقى أسفل المنضدة تمامًا، وبنطاله الأسود القصير مع تلك الحزم الصغيرة من الشرائط الصدئة الملتفة حول ركبتيه، وقد تعالت مرتجفة في صراع أخير مع الحياة بلا جدوى. ومع ذلك، فقد تحسنت حالته من جديد، إلا أنه ظل يلهث بشدة، وبات منهكًا جدًّا، فاضطر إلى الجلوس على كرسي المكتب القابع في المتجر.

قال وهو يمسح رأسه ويتنفس بصعوبة: «كما تعلم الآن، إنها لم تنل محبة الكثير من الرفاق هنا، لم تحُز أي مودة خاصة من المعارف ولم يكن لها أصدقاء مقربون، ناهيك عن عدم وجود أحباء لها. وكانت النتيجة أن اختلقوا قصة غريبة، مفادها أن إيميلي أرادت أن تصير سيدة. أما رأيي الآن في مصدر ما تم تداوله بشكل أساسي، فإنه يعود إلى قول أدلت به في المدرسة قديمًا، إذ قالت إنها إذا صارت سيدة فإنها تود أن تفعل كذا وكذا لعمها... أتفهمني؟ تقصد أنها تريد شراء أشياء جيدة له مثل كذا وكذا».

أجبته بحرارة ويقين: «أؤكد لك يا سيد عمر، إنها قالت لي الشيء نفسه حين كنا طفلين».

أومأ السيد عمر برأسه وفرك ذقنه، ثم راح يقول: «هذا كل ما في الأمر. كما أنها تستطيع أن تُفصِّل لنفسها من قماش بسيط ثوبًا ترتديه، وكما تعلم، فإنه سيكون أروع مما تهدره الأخريات لتفصيل ثوب، وهذا

ما يجعل الأمور أسوأ من جانبهن. علاوة على ذلك، فإنها بالأحرى ممن يمكن أن نصفهن بالعنيدات - بل سأذهب إلى أبعد حد فأقول إن بوسعي أن أنعتها بالعنيدة حقًّا، وإنها لم تراجع آراءها مطلقًا، بعد أن أفسدها التدليل بعض الشيء - فلم تستطع في البداية، أن تتحكم في عنادها تمامًا. هذا كل ما قيل عنها لا أكثر، أليس كذلك يا ميني؟».

قالت السيدة جورام: «لا يا أبي. إني أحسب أن هذه الأقوال هي أسوأ ما قيل».

قال السيد عمر: «لذلك فإنها بعدما حصلت على عمل، وهو المكوث بصحبة سيدة عجوز غضوب لترافقها في وحدتها، لم تتفاهما معًا، ومن ثَم غادرت. جاءت في النهاية إلى هنا، لتتلقى تدريبًا لمدة ثلاث سنوات، وقد انقضى ما يقرب من سنتين، كانت فيهما فتاة طيبة كعهدها دومًا. تساوي في عملها عمل ست فتيات. يا ميني، هل تساوي ست فتيات الآن؟».

أجابت ميني: «نعم يا أبي. لا تقل أبدًا إنني أنقص من قدراتها!».

قال السيد عمر: «جميل جدًّا، وهذا صحيح».

أضاف السيد عمر بعد بضع لحظات مكث فيها يفرك ذقنه مرات، ثم راح يقول: «وهكذا، أيها الشاب النبيل -حتى لا تظن أنني ثرثار متقطع الأنفاس- فإني أحسب أن هذا كل ما في الأمر».

راحوا يتحدثون بنبرة خافتة عن إيميلي، مما جعلني أتأكد أنها في مكان قريب بلا شك. سألت السيد عمر في هذه اللحظة عما إذا كانت

هنا، فأومأ برأسه مؤكدًا وجودها، وأشار بها نحو باب الردهة. أجاب استفساري العاجل عن إمكانية الدخول بالموافقة فورًا، فأطللت بنظري عبر الزجاج، وإذا بي أبصرها جالسة تؤدي عملها. لاحت أمام ناظري كما لو أنها أجمل المخلوقات صغرًا، ذات عينين زرقاوين صافيتين، قد اخترقت نظراتها أعماق قلبي الغض. استدارت ضاحكة نحو طفل آخر لميني كان يلعب بالقرب منها، فلمحت في طيات وجهها المشرق سمات عناد تكفي لتبرير ما سمعته عنها، يتخلله كثير من الخجل القديم النافر الكامن فيها، لكني لم أرَ أي شيء قد خالط مظهرها الجميل، إنني متأكد من أنه لم يخلُ من مظاهر الخير والسعادة، وكل ما يشملها من دروب الطيبة والسرور.

راح ذلك اللحن يسري عبر الفناء وقد بدا كما لو أنه لم يتوقف قَطُّ - يا للأسف! كان كلحن الحياة الذي لا ينقطع - فظل ينبض بثبات في تكراره الأبدي.

قال السيد عمر: «ألا ترغب في الدخول والحديث معها؟ ادخل وتحدث معها يا سيدي، إن البيت بيتك».

كنت خجولًا جدًّا إلى الحد الذي يمنعني من الدخول إليها في ذلك الوقت - كنت أخشى أن أربكها بمجيئي، ولم أكن أقل خوفًا من إرباك نفسي أيضًا - لكنني ذكَّرت نفسي بالساعة التي غادرت فيها في إحدى الأمسيات، وقد حددت وقتًا لاحقًا لزيارتنا، فاستأذنت من السيد عمر وابنته الجميلة وأطفالها الصغار أن أنصرف، ثم انطلقت بعيدًا نحو منزل بيجوتي العزيزة.

ها هي تقبع في المطبخ المكسوة جدرانه بالبلاط، تطهو طعام الغداء، ما إن طرقت الباب حتى فتحته في اللحظة ذاتها، وسألتني ماذا أريد. نظرت إليها بابتسامة، لكنها لم تبادلني إياها. لم أكن قد توقفت قَطُّ عن الكتابة إليها، إلا أن ثمة سبع سنوات قد انقضت منذ أن التقينا آخر مرة.

قلت متظاهرًا بالتحدث معها بقسوة: «هل السيد باركس في المنزل يا سيدتي؟».

أجابت بيجوتي: «إنه هنا يا سيدي، لكنه ماكث في سريره يعاني من أمراض الروماتيزم».

سألتها: «ألا يذهب إلى بلندرستون الآن؟».

أجابت: «عندما يكون بحالة صحية جيدة فإنه يذهب إليها».

سألتها: «هل ذهبتِ أنتِ إلى هناك من قبل يا سيدة باركس؟».

نظرت إليَّ باهتمام بالغ، وقد لاحظت حركة سريعة من يديها لتشبيكهما.

قلت: «لأنني أريد أن أسألكِ عن أحد المنازل هناك، يسمونه... ماذا يقولون؟ آه، عش الطيور».

تراجعت خطوة إلى الوراء، ومدَّت يديها بخوف مترددة، كما لو أنها تبعدني عنها.

صرخت مناديًا: «بيجوتي».

صرخت قائلة: «ابني الحبيب». وانفجر كلانا بالبكاء، ومكثنا متعانقين.

يا لها من مبالغة وإسراف اقترفته! يا لضحكها وبكائها اللذين امتزجا! أي فخر أظهرته تجاهي، ويا له من فرح وحزن، فهي الأولى في أن تكون محط فخري وفرحي. لم تستطع أن تحملني بين أضلعها لتحتضني مغرمة. لا يسع قلبي أن أصف ما أحسست به. يا لابتهاجي وارتباكي اللذين منعاني من دون أدنى شك من أن أوحي لها بأنني لم أعد صغيرًا لأستجيب لمشاعرها! أجرؤ على القول بأنني لم أضحك قَطُّ أو أبكي طوال حياتي -حتى لها- بحرية أكثر مما فعلت في ذلك الصباح.

قالت بيجوتي، وهي تمسح عينيها بمئزرها: «سيسعد باركس للغاية، لأنك ستُسكِّن من ألمه أكثر مما تفعل مكاييل من المراهم. هل لي أن أذهب وأخبره أنك هنا؟ هل تصعد لرؤيته يا عزيزي؟».

قلت: «بالطبع سأراه». إلا أن بيجوتي لم تستطع الخروج من الغرفة التي أجلس فيها بسهولة. كلما وصلت إلى الباب، كانت تلتفت نحوي، ثم تعود مرة أخرى لتضحك من جديد وتبكي فوق كتفي. اضطررت في النهاية، لتسهيل الأمر، إلى أن أصعد معها إلى الطابق العلوي، لم أنتظر في الخارج سوى دقيقة، بينما تمهد نبأ قدومي ليستعد السيد باركس لاستقبالي، حتى قدَّمت نفسي إلى ذلك المريض.

استقبلني في جو مفعم بالحماس. كان مرضه بالروماتيزم قد حال بيني وبين مصافحته، لكنه توسل إليَّ أن أصافح الشارة التي تعلو طاقيته، ففعلت ما طلبه بود جم. جلست إلى جوار السرير، فقال لي إنني جعلته يشعر بأنه قد حاز العالم بجلستي هذه، وإنه يشعر كما لو أنه يقودني

على الطريق إلى بلندرستون مرة أخرى. مكث مستلقيًا على السرير، مُسندًا رأسه لأعلى، وكان مغطى تمامًا باستثناء وجهه، بحيث لم يظهر منه شيء، بل لم يعد سوى وجه -مثل أيقونات الكاروبيم[1] التقليدية- فبدا لي في هيئته هذه أغرب شيء رأيته في حياتي.

تحدث السيد باركس بينما يرسم ابتسامة بطيئة توحي بتألمه من الروماتيزم، قائلًا: «ما ذلك الاسم الذي كتبته في العربة يا سيدي؟».

قلت: «آه يا سيد باركس، لقد أجرينا العديد من المحادثات الجادة حول هذا الموضوع، أليس كذلك؟».

قال السيد باركس: «لقد كنت أرغب في أن أستغرق وقتًا أطول يا سيدي».

قلت: «لقد مضى وقت طويل بالفعل».

قال السيد باركس: «وأنا لست نادمًا على ذلك. هل تتذكر ما قلته لي مرة عنها، وعن فطائر التفاح، وكذلك كل ما تطهوه؟».

أجبته: «نعم، أتذكر ذلك حقًّا».

قال السيد باركس: «كان ذلك صحيحًا جليًّا في وضوح اللفت». كان السيد باركس يتحدث بينما يومئ برأسه محركًا طاقيته، التي باتت وسيلته الوحيدة لتأكيد قوله، ثم أكمل قائلًا: «كان الأمر صحيحًا كما هي الحال مع الضرائب، فلا شيء حولنا أصدق منها».

---

(١) رتبة من الملائكة مذكورة في العهد القديم، تحيط بالعرش الإلهي، ولكل منهم ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. ترسم بالأيقونات فلا يظهر منها سوى الوجه فقط.

أدار السيد باركس عينيه نحوي، وكأنه موافق على هذه النتيجة التي استنتجها في السرير، فأعطيته موافقتي.

كرر السيد باركس قائلًا: «لا شيء أصدق منها. إن رجلًا فقيرًا مثلي، يكتشف هذه الحقيقة في ذهنه عندما يكون مستلقيًا. إنني رجل فقير جدًّا يا سيدي».

«يؤسفني سماع ذلك يا سيد باركس».

قال السيد باركس: «إنني رجل فقير للغاية، حقًّا أنا كذلك».

هنا مد يده اليمنى ببطء وضعف من تحت أغطية السرير، وبقبضة واهنة لا هدف منها، أمسك بعصا كانت مربوطة بشكل غير محكم إلى جانب السرير. وبعد قليل من التخبط بهذه العصا، راحت ملامح وجهه خلالها تتخذ مجموعة متنوعة من التعبيرات المشتتة، فإذا بالسيد باركس يدسها في صندوق، كان طرف نهايته ظاهرًا أمامي طوال الوقت. ثم هدأت ملامح وجهه.

قال السيد باركس «إنها ملابس قديمة».

قلت: «آهٍ».

قال السيد باركس: «أتمنى لو كانت مالًا يا سيدي».

قلت: «أتمنى لو كانت كذلك بالفعل».

قال السيد باركس وقد فتح عينيه على أقصى اتساع ممكن لهما: «إلا أنها ليست كذلك».

عبَّرت له عن يقيني من ذلك، ثم قال السيد باركس، وهو يوجه عينيه بلطف أكثر نحو زوجته:

«إنها أفضل وأطيب النساء، سي بي باركس. أما سائر أنواع الثناء الذي يمكن لأي شخص أن يقدمه إلى سي بي باركس، فهي تستحقه، بل أكثر. يا عزيزتي، هلا أعددتِ لنا مأدبة غداء اليوم؛ صنوفًا طيبة من المأكل والمشرب؟».

كان يجب أن أحتج على هذه المظاهر غير الضرورية التي ستقام تكريمًا لي، إلا أنني أبصرت بيجوتي، على الجانب الآخر من السرير، قلقة للغاية، يزعجها عدم تقبلي لها، ولذلك آثرت السكوت والقبول.

قال السيد باركس: «إن لديَّ قدر ضئيل من المال في مكان ما قريب مني هنا يا عزيزتي، لكنني متعب قليلًا. فهلا تركتِني أنتِ والسيد ديفيد لأنعم بقيلولة قصيرة، وسوف أحاول العثور عليه عندما أستيقظ».

غادرنا الغرفة امتثالًا لهذا الطلب. ما إن خرجنا من الباب، حتى أخبرتني بيجوتي أن السيد باركس، صار «أكرم قليلًا» الآن مما كان عليه، وأنه يلجأ دائمًا إلى هذه الطريقة قبل إخراج عملة واحدة من صندوقه، وأنه يتحمل معاناة لم يسمع أحد بها من قبل للزحف من السرير وحده، وإخراج النقود من ذلك الصندوق المشؤوم. لقد سمعناه في الواقع، ينطق في هذه اللحظة بآهات مكبوتة أكثر إيلامًا مما اعتدناها منه، حيث صارت أوجاعه تملأ كل مفاصل جسده. أما بيجوتي فكانت عيناها مليئتين بالشفقة عليه، حين قالت لي إن اندفاعه هذا إلى السخاء سيفيده، وإنه من الأفضل عدم منعه من هذا الفعل. سمعنا تأوهاته حتى عاد إلى فراشه مرة أخرى، لا يراودني أدنى شك في أنه تحمل أوجاعًا تفوق آلام الموت. نادى علينا، متظاهرًا بأنه قد

استيقظ للتوِّ من نوم منعش، وأخرج جنيهًا من تحت وسادته. وبدا راضيًا عن هذه الخدعة المرحة التي صدقناها، وحفاظه على سر الصندوق الذي لا يمكن اختراقه، وكان الأمر بمثابة تعويض كافٍ له عن كل ما عاناه من تعذيب.

هيَّأت بيجوتي لخبر وصول ستيرفورث في زيارة، ولم يمضِ وقت طويل بعدها حتى وصل. إنني على يقين من أنها لا تعرف أي فارق بين كونه زائرًا شخصيًّا لها، أو صديقًا لطيفًا لي، وأنها كانت ستستقبله بأقصى درجات الامتنان والتفاني على أي حال. إلا أن روح الدعابة السلسة والحيوية التي يتمتع بها، وأسلوبه اللطيف، ومظهره الوسيم، وموهبته الفطرية في التكيف مع من يشاء، وبساطته الواضحة - عندما يهتم بفعل ذلك - ووصوله إلى قلب أي شخص مباشرة، كانت قد أسرتها بالكامل في غضون خمس دقائق. أما طريقته معي، فكانت وحدها كفيلة من أن تقربه منها، وبعد كل هذه الأسباب مجتمعة، فإنني أحسب بصدق أنها باتت تضمر له نوعًا من المحبة والإعجاب قبل أن يغادر المنزل في تلك الليلة.

مكث معي حتى تناولنا العشاء، ولا يسعني أن أصف طواعيته، ومدى اندماجه وبهجته الصادقة. لقد دخل إلى غرفة السيد باركس كما لو أنه الضوء والهواء، فراح يضيئها وينعشها كما لو أنه الطقس الصحي الذي يحتاجه. لم يظهر صخبه، ولم يَبدُ عليه تصنع، أو تظاهر في أي شيء من أفعاله، بل لاح بسيطًا في خفة لا توصف في كل شيء، حتى إنه من المستحيل أن يبدو أنه غير ذلك، أو أن ثمة ما هو أفضل مما يفعله،

فقد لبث رشيقًا وطبيعيًّا، ومقبولًا، للحد الذي يجعل التفكير في أمره يطغى عليَّ حتى الآن، حين أتذكره.

كم استمتعنا وفرحنا في تلك الحجرة الصغيرة، حيث أبصرت كتاب الشهداء يعلو المكتب كما هو منذ وقت طويل، فالتقطته وقمت في هذه اللحظة بتصفح صوره الرائعة، متذكرًا الأحاسيس القديمة التي أيقظها. إلا أنهم لم يشعروا بما فعلت. تحدثت بيجوتي عما تسميه غرفتي، وعن أنها جاهزة لي لقضاء ليلي ونومي، وعن أملها في أن أشغلها، وقبل أن أتمكن من النظر إلى ستيرفورث، أو التفكير في الأمر، إذا به يجزم ويحكم الأمر في القضية بأكملها.

قال: «بالطبع. ستنام هنا طوال فترة مكوثنا، وسأنام أنا في الفندق».

قلت: «إلا أنك قد صاحبتني في هذه الزيارة، ويبدو أن ذهابك إلى الفندق سيحول بيننا ويفرقنا يا ستيرفورث».

قال: «لِمَ! يا إلهي! إلى أين تنتمي فطرتك هذه؟ ما موقع كلمة «يبدو» في حديثنا؟». هكذا تمت تسوية الأمر على الفور.

لقد حافظ على كل صفاته المبهجة حتى النهاية، حتى انطلقنا في الثامنة مساءً إلى قارب السيد بيجوتي. ظل ستيرفورث على دعاباته في صورة تزداد سطوعًا مع مرور الوقت، لأنني حسبت أنه ظل طوال هذا الوقت - ولا يراودني أدنى شك في ذلك حتى الآن - يسعى إلى مواصلة نجاحه بإرضاء من حوله، في تصميم على ذلك، وقد ألهمه الأمر رقة جديدة، وجعله بشكل ما خفي، ألين طباعًا وأرهف شعورًا. إذا أخبرني

أي إنسان أن كل ما فعله ستيرفورث لم يكن سوى لعبة رائعة، أداها فور شعوره بالإثارة حيالها في لحظته الجارية، من أجل إشباع تقلباته المزاجية في ذلك الوقت، فأظهر نوعًا من الحب الطائش؛ رغبة منه في الظهور واكتساب مشاعر لا قيمة لها عنده، ثم طرح تلك المشاعر بعيدًا عنه في الدقيقة التالية، فلن يسعني إلا أن أقول: إنه لو أن أحدًا حدثني بأن كل ما صنعه في تلك الليلة لم يكن سوى كذبة، فإني لأتساءل كيف كنت سأستقبل سخطي العارم، وأي هياج كان من شأنه أن يُنفِّس عن ثورتي! ربما لم أتصور ذلك إلا لفيض مشاعري حينها، وتفاقم إحساسي بالإخلاص والصداقة التي سرت في أفعاله، فجعلتني أسيرًا يخطو معه فوق رمال الشتاء القاتمة باتجاه القارب القديم، بينما تتنهد الريح من حولنا شجية، يزداد أنينها أكثر من ليلتي الأولى التي جئت فيها إلى باب السيد بيجوتي.

قلت: «إن هذا المكان أقرب إلى الأماكن البرية الموحشة يا ستيرفورث، أليس كذلك؟».

قال: «إنه يبدو كئيبًا يحاوطه الظلام، كما أن البحر يزمجر كما لو أنه جائع سينقض لالتهامنا. هل هذا هو القارب الذي أرى نورًا ينبعث منه هناك؟».

قلت: «نعم، إنه القارب».

راح يقول: «إنه القارب نفسه الذي رأيته هذا الصباح. أحسب أنني قد أتيت إليه مباشرة بالفطرة».

لم نزِد من قولنا شيئًا حتى اقترابنا من الضوء، فخطونا على مهل نحو الباب. وضعت يدي على المقبض، ثم همست إلى ستيرفورث ليبقى قريبًا مني، ثم دخلنا.

تناهت إلى أسماعنا همهمة من أصوات ممتزجة ونحن بالخارج، وما إن دخلنا حتى ارتفعت أصوات تصفيق بالأيدي، وقد انتابتني دهشة حين رأيت هذه الضوضاء قد انبثقت من السيدة جامدج، التي لم أكن أعهدها إلا في حالها البائسة عمومًا. إلا أنها لم تكن الشخص الوحيد الذي بدا بهذه الحماسة الفائقة. كان وجه السيد بيجوتي متهللًا يشع بنوع من الرضا غير المألوف، وقد راح يضحك بكل قوته، وقد بسط ذراعيه الخشنتين على آخرهما، كما كان يفعل مع إيميلي الصغيرة حين راحت تصطدم بهما. أما هام، فقد تنوعت تعابير وجهه، فامتزجت بين الإعجاب والبهجة، وتخللها نوع من الخجل المتخبط الذي حاول تجاوزه، وراح يمسك إيميلي الصغيرة بيده، كما لو أنه يقدمها إلى السيد بيجوتي. بدت إيميلي الصغيرة خجلة يحفها الحياء، لكن مسرورة بالفرحة التي يبديها السيد بيجوتي، وقد ظهر ذلك من خلال عينيها المبتهجتين. كانت قد وقفت عند الباب بعد دخولنا -لأنها كانت أول من رآنا- ثم انتقلت من يد هام نحو حضن السيد بيجوتي وتعانقا. هكذا كانت اللمحة الأولى التي رأينا فيها الجميع، بعد لحظات من انتقالنا من الليل البارد المظلم إلى غرفة يكسوها النور والدفء، وكانت هذه هي حالتهم مجتمعين، بينما لاحت السيدة جامدج في الخلفية، تصفق بيديها كامرأة مجنونة.

تلاشت هذه الصورة الصغيرة على الفور بعد دخولنا، إلى الحد الذي يتشكك فيه المرء في حدوثها في أي وقت مضى. مكثت وسط الأسرة المذهولة، وجهًا لوجه مع السيد بيجوتي، باسطًا يدي إليه، فإذا بهام يصرخ:

«سيد ديفي، إنه السيد ديفي».

صرنا جميعًا نتصافح بعد لحظات، ويسأل كل منا عن أحوال الآخر، وكيف سارت الأمور معه، ويخبر بعضنا بعضًا عن مدى سعادتنا بهذا اللقاء، وقد لبثنا نتحدث في وقت واحد. كان السيد بيجوتي فخورًا للغاية وقد غمرته السعادة لرؤيتنا، حتى إنه لم يكن يعرف ماذا عليه أن يقول أو يفعل، لكنه ظل يصافحني مرارًا، ثم فعل الشيء نفسه مع ستيرفورث، ثم عاود فعله معي، ثم ينفش شعره الأشعث حول رأسه، ويضحك في سعادة وانتصار، وكم سعدت لرؤيته على هذه الحال!

قال السيد بيجوتي: «حقًّا، إن زيارتكم لهذا البيت أيها الشباب بعد أن كبرتم وفي هذه الليلة خاصة دون أي ليلة سواها في حياتي، هي حدث عظيم لم يجرِ من قبل، وإني لأقسم على ذلك بحق. تعالي إلى هنا يا إيميلي يا حبيبتي، تعالي إليَّ يا ساحرتي الصغيرة. إن ثمة صديقًا للسيد ديفي يا عزيزتي، إنه الرجل اللطيف الذي سمعتِ عنه من قبل يا إيميلي. ها قد جاء لزيارتك، جنبًا إلى جنب مع السيد ديفي، في ألمع ليلة في حياة عمكِ لم تُضاهِ ولن تضاهى أبدًا، فما أجمل هذه الليلة! مرحى، مرحى».

ألقى السيد بيجوتي خطبته تلك في نفَس واحد، وبتعبيرات وانفعالات وسرور غير معهود، ثم وضع أحد يديه الكبيرتين في نشوة على إحدى وجنتي ابنة أخيه، وراح يُقبِّلها عشرات المرات، ثم أخذ يُقرِّبها منه ويحتضنها بكل فخر ومحبة وارفين، وراح يربت عليها كما لو أنها امرأة ذات فضل عليه، ثم تركها في نهاية الأمر. انطلقتْ نحو الغرفة الصغيرة حيث اعتدت أن أنام، فإذا بالسيد بيجوتي يلتفت إلينا، في سعادة حارة وأنفاس متقطعة تتخللها بهجة غير معهودة، وراح يقول: «إذن صرتما الآن شابين لطيفين، وقد كبرتما وبلغتما مبلغ الرجال...».

قاطعه هام قائلًا: «إذن هما كذلك، نعم إنهما كذلك. لقد أحسنت القول. لذلك يا سيد ديفي الكبير - صارا شابين - إنهما كذلك».

استطرد السيد بيجوتي قائلًا: «لا تؤاخذاني أيها الشابان اللذان كبرا، لما أبديه من مشاعر، فإنكما حين تفهمان الأمور، ستعذران حالي. يا إيميلي، يا عزيزتي. إنها تعرف ما سأقول، ولذلك همت بالفرار». اندلعت هنا نوبة من الفرح مرة أخرى، ثم تابع حديثه قائلًا: «هل تكرمتِ يا سيدتي بالذهاب إليها وملاحظتها لدقيقة واحدة؟».

أومأت السيدة جامدج برأسها ثم اختفت.

تحدث السيد بيجوتي، بينما يجلس في وسطنا بجوار المدفأة، فراح يقول: «إذا لم تكن هذه الليلة هي ألمع ليالي حياتي، فلأصِر محارًا، بل محارًا مسلوقًا أيضًا، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك».

التفت السيد بيجوتي نحو ستيرفورث وراح يتحدث إليه بصوت منخفض قائلًا: «هذه هي إيميلي الصغيرة، التي رأيتها هنا يا سيدي، وكما ترى، لقد صارت في خجل تام الآن».

أومأ ستيرفورث برأسه فقط، إلا أن ملامحه لم تفقد الاهتمام المبهج والشغف بمشاركة السيد بيجوتي مشاعره، مما جعل الأخير يجيبه كما لو أنه تحدث إليه بالفعل.

قال السيد بيجوتي: «بالتأكيد. إنها طبيعتها، وهو كذلك. شكرًا يا سيدي».

أومأ لي هام برأسه عدة مرات، كما لو أنه كان على وشك قول الأمر نفسه.

راح السيد بيجوتي يقول: «إن هذه الصغيرة التي لدينا؛ أقصد إيميلي، قد نشأت في منزلنا هذا، على ما يقرب من... - إنني رجل جاهل، لكن هذا ما أحسبه - منذ الوقت الذي يستطيع أي إنسان أن يحيا فيه في هذا المنزل. إنها ليست مولودتي، لأنني لم أرزق بمولود من قبل، لكني أحببتها كما لو أنها ابنتي، بل أكثر. إنك تفهم مقصدي، لم أستطع فعل ذلك».

قال ستيرفورث: «إنني أفهم الأمر تمامًا».

رد السيد بيجوتي قائلًا: «أعلم ذلك يا سيدي، وأشكرك مرة أخرى. إن السيد ديفي يستطيع أن يتذكر ما كانت عليه، ويمكنك أن تحكم بنفسك على ما هي عليه الآن، لكن أحدًا منكم لا يستطيع أن يدرك تمامًا

ما كانت عليه في الماضي، وكيف هي الآن، وكيف ستصير منزلتها في قلبي المغرم بها. إنني قاسٍ يا سيدي، إنني خشن خشونة قنفذ البحر، لكن لا يسع أحد -ما لم تكن امرأة على ما أظن- أن يعرف مكانة إيميلي الصغيرة في قلبي». ثم أخفض صوته في هذه اللحظة واستطرد قائلًا: «وإن اسم هذه المرأة ليس السيدة جامدج أيضًا، على الرغم من أنها تتمتع بمزايا متنوعة».

نفش السيد بيجوتي شعره مرة أخرى بكلتا يديه، ثم أسند يده إلى ركبتيه، ومضى يكمل حديثه قائلًا: «كان ثمة شخص بعينه، عرف إيميلي الصغيرة بعد أن غرق والدها، كما أنه قد رآها عندما كانت وليدة، ثم تابعها طفلة ثم صبية ففتاة، إلى أن صارت امرأة. إنه رجل لا يسر مظهره الناظرين، فهو في هيئتي وحجم بنيتي، خشن، تكسوه طبقة سميكة من الملح، إلا أنه على كل حال يتسم بالصدق والإخلاص، وقد وضع قلبه في موضعه المناسب».

أحسب أنني لم أرَ قَطُّ هام يبتسم بهذا الشكل الذي أبداه من ابتسامته، مُطلًّا علينا بها في مجلسنا في هذه اللحظات.

قال السيد بيجوتي، بعد أن استعاد وجهه الفرح في جو ظهيرة حار: «ماذا يفعل هذا القاسي المكسو والمشمع بالملح؟ لقد منح قلبه المبارك هذا إلى صغيرتنا إيميلي. إنه يراعيها، ويجعل من نفسه خادمًا لها، ثم راح يفقد إلى حد كبير شهيته بسبب ولعه بها، وعلى مدى طويل صرَّح لي بأمره في النهاية. أما الآن فلا أتمنى شيئًا، كما تعرفون، سوى أن تصير إيميلي الصغيرة في طريقها إلى زواج بهيج. ولا حلم لديَّ على

الإطلاق سوى أن أراها بين يدي زوج أمين يحق له أن يرعاها ويدافع عنها. أنا لا أعرف كم تبقى لي من الحياة، أو متى سأموت، فربما أرحل عن دنياكم قريبًا. إن كل ما أعلمه هو أنني لو انقلب بي قارب في أي ليلة، مع هبوب رياح في طريق «يارموث» إلى هنا، وقد لاحت لعيني أضواء المدينة تتألق للمرة الأخيرة فوق الأمواج المتعالية التي لم أتمكن من مواجهتها، فإنني ساعتها لن يسعني سوى الغرق في سكينة بعد أن أطمئن إلى التفكير في أن ثمة رجلًا يقبع على الشاطئ، بمثابة درع حقيقية لإيميلي الصغيرة، بارك الله فيها، فلا يمسها سوء طوال حياة هذا الرجل».

لوَّح السيد بيجوتي بذراعه اليمنى بجدية وبساطة متناهية، كما لو أنه يلوِّح أمام أضواء المدينة للمرة الأخيرة، ثم تبادل إيماءة مع هام، الذي التقت عيناه به، ثم استكمل حديثه الذي بدأه من قبل، وراح يقول:

«حسنًا، لقد نصحته بالتحدث إلى إيميلي في الأمر. إنه رجل كبير بما فيه الكفاية، إلا أنه لم يزل خجلًا على الرغم من سنه البالغة، فلا يستطيع الحديث إليها بنفسه، لذلك تحدثت أنا بدلًا منه. قالت لي إيميلي: «ماذا تقول؟! هل تقول هام؟ إنه الرجل الذي أعرفه عن قرب متناهٍ لسنوات عديدة، وقد أحببته كثيرًا. آهٍ يا عمي! إنني لا أستطيع الموافقة عليه أبدًا. إنه رجل طيب»، منحتها قبلة، ولم أقل لها أكثر من قولي ذلك: «يا عزيزتي، إنكِ محقة في تحدثك إليَّ بوضوح، عليكِ أن تختاري بنفسك من تريدين، إنكِ حرة مثل طائر صغير». ثم ذهبت إلى هام، وقلت له: «كنت أتمنى لو تقبل الأمر، لكنني لا أستطيع فعل

شيء. إلا أنكما تستطيعان أن تبقيا على حالكما». وكان كل ما استطعت قوله له: «كن معها كما كنت معها دومًا رجلًا نبيلًا». فما كان منه إلا أن قال لي، مصافحًا يدي: «سأفعل»، وقد ظل شريفًا وبالغ الرجولة لمدة عامين، وبقينا كما كنا في سابق عهدنا في منزلنا السابق».

مضى وجه السيد بيجوتي يوحي بتعبيرات مختلفة، راحت تتغير مع المراحل المتتالية من حكايته، ثم راح يستعيد بعد لحظات كل بهجته المنتصرة السابقة، وقد وضع يدًا على ركبتي والأخرى على ركبة ستيرفورث - كان قد بللهما من قبل، بعد مزيد من التركيز والانفعال - وراح يُقسِّم نظراته نحونا، موجهًا خطابه التالي إلينا:

«فجأة، وذات مساء - أو لنقل في ليلة بعينها - جاءت إيميلي الصغيرة من عملها، وهو معها، ستقولان إنه لا شيء يمنع ذلك، أو يعارضه، فهو يعتني بها مثل أخ، راح يحرسها في ذلك الظلام الدامس أو حتى قبل حلول الظلام، بل في جميع الأوقات. إلا أن هذا الرجل المكسو بالخشن، كان يمسك بيدها وقد صرخ فيَّ مبتهجًا، وراح يقول: «انتبه إليَّ، إن هذه الفتاة ستصير زوجتي الصغيرة»، أما هي فقد راحت تقول بين جرأة وخجل، في حالة بين الضحك والبكاء: «نعم يا عمي، إذا سمحت، بعد إذنك»».

راح السيد بيجوتي يصرخ، بينما يدحرج رأسه في نشوة بعدما تذكر هذه الفكرة، قائلا: «يا ربي! لقد راحت تقول: «إذا سمحت». كما لو أنني كنت لأفكر في أي شيء آخر، ثم أكملت: «إنني الآن أكثر ثباتًا، وقد فكرت في الأمر جيدًا، وسأكون زوجة صغيرة له، طيبة قدر

استطاعتي، لأنه عزيز على قلبي، ورجل صالح»، ثم راحت السيدة جامدج تصفق كما لو أنها أمام عرض مسرحي. هذا كل شيء! هيا! لقد حدث كل ذلك في هذه الساعة التي دخلتما فيها تمامًا. وها هو الرجل الذي سيتزوج ابنتي، في اللحظة التي تبلغ فيها عمر الزواج».

ترنح هام، وهذا شيء متوقع، إثر الضربة التي وجهها إليه السيد بيجوتي في فرحته التي لا حدود لها، كدليل على الثقة والصداقة، إلا أنه ظل يشعر بأنه مدعو لقول شيء لنا، ومن ثَم راح يتحدث إلينا في تعثر بالغ وصعوبة، قائلًا:

«لم تكن تفوقك طولًا يا سيد ديفي، حين جئت إلينا أول مرة. رحت أفكر حينها كيف ستصبح بعدما تكبر. إنني - أيها السادة - أراها تكبر وتزدهر مثل الوردة. سأبذل روحي من أجلها - يا سيد ديفي - آهٍ، ويا لبهجتي وامتناني بتضحيتي! إنها بالنسبة لي - أيها السادة - أثمن من... إنها كل ما أبتغيه، بل أكثر مما كنت أتصور يومًا أن أرجوه... إنها تفوق قدرتي على الوصف. إنني أحبها حقًّا. لم يخلق رجل على هذه الأرض بأسرها، أو وجد حتى فوق موج البحار، يستطيع أن يحب سيدته أكثر مما أحبها، وإن كان العديد من الرجال العاديين يستطيعون قول كلام أفضل يفي بشرح ما أقصده».

أحسب أنني تأثرت بالغ التأثر حين رأيت رجلًا قويًّا مثل هام يرتجف في هذه اللحظة من قوة ما يشعر به تجاه المخلوقة الصغيرة الفاتنة التي أسرت قلبه. وأحسب أن الثقة الساذجة التي منحنا إياها السيد بيجوتي

وهام، كانت مؤثرة في حد ذاتها. لقد تأثرت بالقصة بأكملها تمامًا، من دون أن أستطيع أن أحدد إلى أي مدى تأثرت مشاعري بذكريات طفولتي هذه. ولست متأكدًا هل ذهبت إلى هناك وأنا أحمل بين جوانحي أي نزوة باقية من حب إيميلي الصغيرة أم لا. أعلم أنني كنت سعيدًا بكل ما حدث، إلا أن متعة شعوري التي لا توصف في البداية راح يتحول القليل منها ويمتزج بالألم.

لو أنهم طلبوا مني ساعتها أن أمس هذا الوتر السائد بينهم بمهارة حديثي، لما فعلت ذلك، إلا أنني اعتمدت على ستيرفورث. هم بإلقاء كلمة طيبة، فإذا بنا قد غدونا سعداء في غضون دقائق قليلة وقد تباسط الجميع قدر الإمكان.

قال ستيرفورث: «يا سيد بيجوتي، إنك رجل صالح معطاء، وتستحق أن تحتفل بسعادة كما هي حالك الليلة. وإني لباسط يدي إليكم، ها هي! وأنت يا هام، فلتفرح أيها الشاب. وإني أبسط يدي إليك أيضًا. وأنت يا أقحوانتي، فلتشعل النار وتحركها حتى تتوقد سريعًا. وأنت يا سيد بيجوتي، إذا لم تتمكن من حث ابنة أختك اللطيفة على العودة إلينا -وها أنا قد أخليت لها هذا المقعد في الزاوية- فإني سأرحل. لن أسمح أن أتسبب في التفريق بين جمعكم حول المدفأة في مثل هذه الليلة - إن هذه فجوة مكانها على الأقل واضحة - لن أتسبب في هذا وإن منحوني ثروات جزر الهند!».

توجه السيد بيجوتي بعد هذا الكلام إلى غرفتي القديمة لإحضار إيميلي الصغيرة. لم تود إيميلي أن تأتي في بداية الأمر، ثم ذهب هام إليها

وأحضرها لتجلس إلى جانب المدفأة. كانت مرتبكة يسيطر عليها خجل عظيم، لكنها سرعان ما استردت ثقتها بعدما راح ستيرفورث يتحدث إليها في لطف واحترام بالغين، كما تجنب بمهارة أي شيء من شأنه أن يحرجها. مضى ستيرفورث يتحدث إلى السيد بيجوتي عن القوارب والسفن والمد والجزر والأسماك، ثم أشار إلى الوقت الذي شاهد فيه السيد بيجوتي في مدرسة سالم هاوس، وكم كان مسرورًا برؤيته للقارب وبكل ما ينتمي إليه. هكذا استمر في حديثه بخفة وسهولة، حتى وصل بنا مجلسنا إلى دائرة ساحرة، وصرنا جميعًا نتحدث منطلقين من دون أي تحفظ.

لم تتحدث إيميلي في الواقع إلا في أضيق الحدود، ومكثت على ذلك طوال المساء، لكنها راحت تنظر وتستمع إلينا وأخذت ملامحها تبدي انفعالًا بالحديث، وقد باتت ساحرة كعادتها. راح ستيرفورث يروي قصة حزينة عن سفينة محطمة -وقد كان حديثه قد بدأ مع السيد بيجوتي- كما لو أنها كانت شاخصة بتفاصيلها أمامه. أما عينا إيميلي الصغيرة فكانتا مثبتتين عليه طوال الوقت، كما لو أنها ترى حطام السفينة نفسها أيضًا. مضى بعدها يحكي لنا مغامرة مرحة قد مر بها، بدلًا من قصة السفينة المأساوية تلك. أخذ يقصها بقدر من البهجة كما لو أن القصة جديدة بالنسبة إليه كما هي لنا، فضحكت إيميلي الصغيرة حتى رن القارب بصدى صوتها الرنان، وضحكنا جميعًا بمن فينا ستيرفورث أيضًا، في عاطفة لفَّتنا جميعًا من دون أن نقاوم هذا اللطف البالغ الذي سرى في قلوبنا. راح ستيرفورث يشجع السيد بيجوتي على

الغناء، وقد فعل أو بالأحرى لقد راح يزأر، قائلًا: «عندما تهب الرياح، تهب، تهب»، وقد غنى أغنية أخرى للبحارة. كان غناؤه جميلًا ومؤثرًا، حتى إنني رحت أتخيل أن ريحًا حقيقية أخذت تزحف في حزن حول المنزل، وتغمغم بصوت خافت في ثغرات صمتنا المتقطع، وأنها هنا لتنصت إلى قولنا.

أما السيدة جامدج، فقد أيقظها ذلك من حالة قنوطها بنجاح لم يحققه أحد من قبل (على حد تعبير السيد بيجوتي)، منذ وفاة الرجل القديم. فلم يدع لها فسحة من الوقت لتلتهم فيه يأسها، بل قالت في اليوم التالي إنها تحسب أنها قد سُحِرت.

لم يستولِ ستيرفورث على الانتباه العام، ولم يحتكر الحديث لنفسه فقط، بل غدت إيميلي الصغيرة أكثر شجاعة، وتحدثت إليَّ - وإن كان حديثها على خجل بينما تتوارى خلف المدفأة، مسترسلة عن تجوالنا القديم على الشاطئ، والتقاط القذائف والحصى. سألتها إذا كانت تذكر كيف كنت مخلصًا لها، فرحنا نضحك معًا وقد احمر وجهانا خجلًا، وإذا بنا نستعيد ذكريات الماضي بكل ما تحمله من سرور بعدما صار من المستحيل استعادتها في هذا الزمان. ظل صامتًا ومنتبهًا، يراقبنا بعناية طوال هذا الوقت. أما هي فظلت طوال هذا الوقت من المساء قابعة في مجلسها فوق الخزانة القديمة في ركنها الصغير القديم بجوار المدفأة، بينما يجلس هام بجانبها في الموضع الذي كنت أجلس فيه يومًا. لم أستطع التوصل إلى إجابة بنفسي؛ هل تراها جلست في ركنها القصي إمعانًا في طريقتها المعذبة الصغيرة، أو لتصير في مأمن عنا، أم

أنها أرادت أن تبقى قريبة جدًّا من الحائط وبعيدة عنه، لكنني لاحظت أنها مكثت على حالها طوال المساء.

أذكر أننا مكثنا حتى منتصف الليل تقريبًا، ثم استأذنا في الانصراف بعد أن تجاوزناه. كنا قد تناولنا في عشائنا بعض المخبوزات والأسماك المجففة، وكان ستيرفورث قد أخرج من جيبه قارورة ممتلئة من النبيذ الهولندي، والتي أجهزنا عليها نحن الرجال - وإنني أقول نحن الرجال الآن، من دون أن تحمر وجنتي خجلًا - ثم توادعنا في مرح بالغ. وقف الجميع متزاحمين عند الباب، محاولين إضاءة الطريق لنا قدر المستطاع، وإذا بي أبصر عيني إيميلي الصغيرة الزرقاوين الساحرتين تختلسان النظر إلينا من خلف هام، وسمعت صوتها الناعم ينادينا ناصحًا بأن نأخذ حذرنا من الطريق.

قال ستيرفورث وهو يمسك بذراعي: «يا لهذا الجمال الصغير الجذاب! يا لي من مسحور! إنه مكان جذاب، وإنها صحبة جذابة، ويا له من شعور بديع للغاية وممتع أن يختلط المرء بهم!».

أجبت قائلًا: «كم نحن محظوظان أيضًا لأننا وصلنا في ذاك الوقت لنشهد سعادتهم بهذا الزواج المرتقب! إنني لم أرَ هؤلاء الناس في مثل هذه الحالة من قبل. كم كان ممتعًا أن نرى ذلك، وأن نشاركهم فرحتهم الصادقة، على النحو الذي فعلناه».

قال ستيرفورث: «إن هذا الإنسان الخشن لا يليق به أن يصير زوجًا لتلك الفتاة، أليس كذلك؟».

كان ستيرفورث متوددًا إلى هام جدًّا، وظل على هذه الحال معهم جميعًا، مما جعلني أعجب من هذا الرد الصادم البارد غير المتوقع. إلا أنني التفت نحوه سريعًا، فأبصرت أثرًا من الضحك داخل عينيه، فأجبته بارتياح جم قائلًا:

«آه، يا ستيرفورث! أليس من الأفضل ألا تتفكه على الفقراء! قد تتشاجر مع الآنسة دارتل، أو تحاول إخفاء ميلك إلى الاستهزاء أمامي، إلا أنني أعرفك حق المعرفة. رأيت مدى تفهمك لهم تمامًا، وإلى أي مدى يمكنك الدخول في مثل هذه الدائرة من السعادة والفرح مع هذا الصياد البسيط، أو تستوعب محبة مربيتي القديمة، فأوقن أنه ليس ثمة فرح أو حزن أو عاطفة يمكنك أن تستهين بها مع مثل هؤلاء الناس. وإنني معجب بك وأحبك لتفهمك يا ستيرفورث، بل إنني قد أحببتك أضعاف حبي لك سابقًا».

توقف عن المسير والتفت ناظرًا إلى وجهي، ثم قال: «يا أقحوانتي، أحسب أنك إنسان نبيل وصالح. أتمنى لو كنا جميعًا مثلك».

لم تمضِ لحظات حتى راح يغني في مرح أغنية السيد بيجوتي، بينما كنا نسير بخطى دائبة عائدين إلى يارموث.



الفصل الثاني والعشرون

بعض المشاهد القديمة، وبعض المعارف الجدد

بقيت أنا وستيرفورث لأكثر من أسبوعين في هذا الموضع من البلدة. لا يسعني أن أقول إننا مكثنا أغلب الأوقات معًا، إلا فيما ندر، فقد كان كل منا يفترق لبضع ساعات عن الآخر أحيانًا. كان ستيرفوث بحارًا ماهرًا، أما أنا فلم أكن ذا خبرة في هذه الأمور، ولذلك فإني كنت أمكث على اليابسة بينما يغدو هو في القارب مع السيد بيجوتي، وقد أحس أن الأمر مسلٍّ بالنسبة إليه. فَرَضَ وجودي في غرفة بيجوتي الاحتياطية قيدًا عليَّ، بينما ظل ستيرفورث طليقًا حرًّا، لأنني عرفت مدى تفاني بيجوتي في خدمة السيد باركس طوال اليوم، ولم أرغب في البقاء خارج البيت حتى وقت متأخر من الليل، في حين بات ستيرفورث طوال فترة مقامه في الفندق حرًّا لا ترافقه سوى روح الدعابة الخاصة التي يتمتع بها، وهكذا راح يفعل ما يحلو له. وقد سمعت أنه أقام بعض الموائد الصغيرة للصيادين في وجود السيد بيجوتي، أو في مكان اجتماعه بالصيادين المعروف باسم «العقل الراغب»، بينما كنت أغط في نومي،

وأنه كان ينزل إلى البحر ملتحفًا بملابس الصيادين، طوال الليالي القمرية، ومن ثَم يعود في الصباح عندما يفيض المد. عرفت بحلول هذا الوقت، أنه يميل بطبيعته إلى الحركة المستمرة، وأن روحه تتمتع بالجرأة، وأنه يسعد بإيجاد متنفس في العمل الشاق والطقس القاسي، بل يسعد بأي وسيلة أخرى تجنح إلى الإثارة على أي حال، لذلك فإنني لم أتفاجأ من أي إجراءات أو تصرفات كان قد أقدم عليها.

تراءى لي سبب آخر لانفصالنا أحيانًا، ألا وهو اهتمامي بطبيعة الحال بالذهاب إلى بلندرستون، وتكرار زيارتي لمواضع قديمة تحمل ذكرى مألوفة لطفولتي، بينما لم يهتم ستيرفورث بالعودة لتكرار زيارته للمكان بعد أن زاره لمرة واحدة. ومن ثَم أتذكر أننا قضينا ثلاثة أو أربعة أيام مفترقين منذ أن تناولنا الإفطار مبكرًا، ثم التقينا مرة أخرى في موعد غداء متأخر. لم تكن لديَّ أي فكرة عن كيفية قضاء وقته في الفترة الفاصلة بينهما، إلا أنني أعلم أنه صار يحظى بشعبية كبيرة في المكان، وأنه يملك عشرين طريقة لتسلية نفسه بنشاط ما، بينما قد لا يتحصل إنسان غيره على شيء واحد مسلٍّ.

أما أنا فقد رحت أحج منفردًا إلى مزارات طفولتي، وغدوت أتذكر كل فسحة من الطريق القديم بينما أسير، فأخذت أطارد البقاع القديمة، من دون أن أتعب أو أمل من زيارتها على الإطلاق. رحت أتعقب سبل ذكرياتي كما نسجتها في مخيلتي في كثير من الأحيان، حيث أمتعني البقاء بين جنباتها كاستمتاعي باستدعاء ذكريات مراتع الطفولة حينما كنت بعيدًا عنها. رحت أنظر إلى ذلك القبر القابع أسفل

الشجرة، حيث يرقد والداي. إنه القبر نفسه الذي عرفته منذ أن رقد به والدي وحيدًا. وقفت بجوار القبر محملًا بمشاعر غريبة يتخللها الرثاء واليأس، متذكرًا الوقت الذي فُتح فيه لاستقبال رفات أمي الجميلة وطفلها. إنه القبر الذي حافظت بيجوتي المخلصة على رعايته قديمًا، وأنبتت حديقة حوله، وها أنا أطأ أرضه. كان القبر بعيدًا عن ممر ساحة الكنيسة، يقبع في زاوية هادئة غير بعيد، وكان بإمكاني قراءة الأسماء المنقوشة فوق الحجر، حين رحت أسير ذهابًا وإيابًا، مذهولًا بعد أن علت أصوات أجراس ساعة الكنيسة، فبدا دويها بعيدًا كعهدي به في الأيام الخوالي. ارتبطت تأملاتي في هذه الأوقات دائمًا بالشخصية التي يجب أن أصبح عليها في الحياة، والأشياء المميزة التي كنت أنتوي تحقيقها. لم تتبدل أصداء خطواتي إلى أي نغمة أخرى، بل كانت ثابتة على منوالها القديم، كما لو أنني عدت إلى المنزل لبناء قلعتي في الهواء بجانب أمي الحية.

توالت تغييرات عظيمة على بيتي القديم. اختفت الأعشاش، بعد أن هجرتها الطيور لفترة طويلة. وقُطِّعَت الأشجار، وتهدلت حتى صارت هيئتها فجة. صارت الحديقة موحشة، وقد سدت بأفرع أشجارها نصف نوافذ المنزل. لم يشغل البيت سوى رجل فقير مجنون، وقد تناوب عليه بعض الأشخاص ممن يقومون على رعايته. كان يجلس دائمًا عند نافذتي الصغيرة، وينظر إلى فناء الكنيسة، وقد رحت أتساءل هل تقاطعت أفكاره الشاردة مع أي من الأوهام التي شغلتني يومًا، كما كنت في الصباحات الوردية أختلس النظر من النافذة الصغيرة نفسها مرتديًا

ثياب النوم، بينما أراقب الخراف ترعى في هدوء تحت ضوء الشمس الساطعة؟

سافر جيراننا القدامى، السيد جرايبر والسيدة زوجته، إلى أمريكا الجنوبية، ومن ثَم شق المطر طريقه عبر سقف منزلهما الفارغ، ولطخ الجدران الخارجية للمنزل. أما السيد تشيليب فقد تزوج مرة أخرى من امرأة طويلة نحيفة ذات عظام بارزة وأنف كبير مدبب، ورُزقا بطفل صغير يجمع بين ملامحهما، ذي رأس ثقيل لا يستطيع حمله، وعينين ضعيفتين محدقتين، وقد بدا كما أنهما تتساءلان دائمًا عن سبب مجيئه إلى هذا العالم.

رحت أجول محملًا بخليط فريد من الحزن والسرور، ومشاعر اعتدت أن أكنها في موطني الأصلي، إلى أن نبهتني شمس الشتاء بأشعتها الحمراء في الغروب إلى أن الوقت قد حان لأستأنف رحلة العودة. تركت هذا المكان خلفي، وجلست أنا وستيرفورث سعيدين على مائدة العشاء بجوار نار المدفأة المشتعلة، وإذا بي أحن إلى الوجود هناك وأجد في أفكاري هذه نشوة ممتعة. إلا أن الأمر لم يستمر على هذا النحو، بعد أن تخففت من حدة انفعالي بهذه الأفكار، حينما ذهبت إلى غرفتي الأنيقة ليلًا. بعد أن تصفحت أوراق كتاب التمساح - الذي ظل موجودًا دائمًا في موضعه فوق طاولة صغيرة - تذكرت بقلب ممتن كم أنا سعيد بوجود صديق مثل ستيرفورث، وصديقة مثل بيجوتي، كما لو أنهما بديل لافتقادي لعمتي الرائعة والكريمة.

كان أقرب طريق لعودتي إلى يارموث، هو الانتقال بالعبَّارة بدلًا من أي مسيرات طويلة أخرى. وصلت إلى مكان يقع بين البلدة والبحر، حيث أمكنني أن أشق طريقًا مستقيمًا نحو البلدة، وبالتالي أنقذت نفسي من مغبة الطريق السريع الملتف. كان منزل السيد بيجوتي قابعًا في ذلك المكان، من دون أن يبتعد عن طريقي أكثر من مائة ياردة. كنت دائمًا أنظر صوب البيت بينما أمضي في طريقي نحوه. كنت على يقين من وجود ستيرفورث هناك، وكان لنا أن ننطلق معًا في الهواء البارد وقد رافقنا الضباب من حولنا، متجهين نحو الأضواء المتلألئة في المدينة.

تأخرت عن المعتاد في إحدى الأمسيات المظلمة، لأنني كنت أقوم بزيارتي الأخيرة إلى بلندرستون في ذلك اليوم، وقد صرنا الآن على وشك العودة إلى المنزل، وإذا بي أجد ستيرفورث في منزل السيد بيجوتي، يجلس وحيدًا ساهمًا أمام نار المدفأة. لقد كان مستغرقًا في تفكيره للغاية، حتى إنه لم ينتبه مطلقًا إلى وجودي على مقربة منه، ربما كان السبب خفة خطواتي فوق الأرض الرملية بالخارج، فلم تُحدث صوتًا ولم تجذب انتباهه، لكنه لم ينتبه كذلك إلى دخولي إلى المنزل، بل كنت أقف على مقربة منه ناظرًا إليه ولم يزل شاردًا عاقد الحاجبين فوق جبينه، شاردًا في تأملاته.

لقد انتفض بعدما وضعت يدي فوق كتفه، وقد جعلني أنتفض بدوري أيضًا.

قال بنبرة غاضبة: «هل تُقبل عليَّ مثل شبح يعاتب صاحبه؟!».

أجبته: «لقد اضطررت إلى الإعلان عن وجودي بطريقة ما. هل قطعت عليك شرودك في النجوم؟».

رد قائلًا: «لا. كلا».

جلست على مقربة منه قائلًا: «أي مكان شردت إليه إذن؟».

قال: «لقد كنت أنظر إلى اللوحات التي تشكلها النار».

راح يحرك محتويات المدفأة سريعًا بقطعة من الخشب المحترق، وقد خرج منها قطار من الشرر شديد السخونة، وراحت تتصاعد الأدخنة من المدخنة الصغيرة، وتتناثر في الهواء. قلت: «لكنك تفسد هذه الصور من أمامي بفعلك هذا».

راح يقول: «ما كنت ستراها. إنني أكره هذا الوقت الهزيل، حيث لا ليل منسدل ولا نهار ساطع. كم تأخرتَ اليوم! أين كنت؟».

قلت: «لقد كنت أنعم بمسيرتي المعتادة».

راح ستيرفورث يلقي نظرة خاطفة إلى الغرفة، ثم قال: «لقد كنت جالسًا هنا أفكر في جميع الأشخاص الذين وجدناهم في غاية السعادة في ليلة زيارتنا لهم، وأفكر في احتمالية أن يتفرقوا فيسود فراغ هادر كالذي يُعبئ المكان الآن، أو تفنى ساحتهم لأي سبب أو يلحق بهم أي ضرر. يا ديفيد، كم تمنيت من الله لو أن لي أبًا حكيمًا في السنوات العشرين الماضية!».

تساءلت: «يا عزيزي ستيرفورث، ما خطبك؟».

صرخ قائلًا: «تمنيت من أعماق روحي لو أحصل على إرشاد قويم،

أتمنى من أعماق روحي أن أتمكن من توجيه نفسي إلى الأفضل».

لاح على حديثه نوع من الاكتئاب، الأمر الذي أدهشني تمامًا. بدا لي مختلفًا كما لم أعهده أو أتخيله من قبل.

نهض من مجلسه وراح يترنح متوترًا وقد استند إلى المدخنة موليًا وجهه شطر النار، ثم قال: «ألم يكن من الأفضل أن أكون في مكان بيجوتي الفقير، أو ابن أخيه التافه، بدلًا من أن أفوق كليهما ثراءً بعشرين مرة، وبدلًا من أن أفوقهم برجاحة عقلي عشرين مرة، فأعذب نفسي وأشقى بها على مدار نصف ساعة بين لحاء هذا القارب الملعون؟!».

صرت مرتبكًا للغاية إثر التغيير الذي طرأ عليه، حتى إنني لم أتمكن في البداية من فعل شيء سوى النظر إليه في صمت، بينما وقف أمامي متكئًا برأسه فوق يده، محملقًا نحو النار في كآبة. أحسست بجدية كلماته في النهاية، الأمر الذي دفعني لأن أستحثه على أن يخبرني بما حدث، وما دفعه إلى هذا التغيير المفاجئ الذي طرأ عليه، وأن يسمح لي أن أشاركه مشاعره على الأقل إن لم أستطع أن أسدي إليه نصائحي، إلا أنني لم أوشك على إنهاء حديثي حتى تهلل ضاحكًا. كانت ضحكاته متقطعة في البداية يشوبها القلق، ولكنه سرعان ما عاوده ابتهاجه.

قال: «يا توت، لم أقصد شيئًا يا أقحوانتي! لا شيء! لقد أخبرتك في الفندق في لندن؛ إنني أثقل على نفسي في بعض الأحيان. لقد كنت كابوسًا لنفسي، وأحسب أنه راودني للتوِّ، كما لو أنني أحلم. تلوح حكايات المربيات في الذاكرة في بعض الأوقات الغريبة التي يتخللها الملل، من دون أن ندرك منبعها الحقيقي ومغزاها. أحسب أنني كنت

أمزج بين ذاتي وولد سيئ «لا يعبأ بشيء»، فأصير كما تقول النساء العجائز «طعامًا للأسود يُهدر ويُطرح للكلاب». أخذ الخوف يغلفني من منبت رأسي إلى أخمصي القدم. لقد كنت خائفًا من نفسي حقًّا».

قلت: «أحسب أنك لا تخشى أي شيء آخر».

أجاب: «ربما لا، ومع ذلك قد أحوز ما يكفي للخوف أيضًا. لا عليك! فلندع هذا الأمر! إنني لن أعاود هذا الأمر مرة ثانية يا ديفيد. إلا أنني سأخبرك بشيء يا صديقي الطيب، فإنني أقر من جديد أنه كان من الأفضل لشخص مثلي - ولمن على شاكلتي - لو فاز بأب حازم وحكيم».

كان وجهه مفعمًا دائمًا بالانفعالات، لكنني لم أَرَه قَطُّ مبديًا مثل هذا النوع الصارم من الجدية، كما بدا عليه هذه المرة حين باح لي بهذه الكلمات، بينما طأطأ نظراته نحو النار.

لوح بيده كما لو أنه ينفض عنه شيئًا في الهواء، قائلًا: «دعنا من هذا كله! لقد استعدت رشدي مرة أخرى بعد أن تجاوزت هذه الحادثات على حد تعبير ماكبث. أما الآن فهيا بنا إلى الغداء. إن لم أكن قد أفسدت الاحتفاء مثل ماكبث مع اضطرابي المثير للإعجاب يا أقحوانتي».

قلت: «إنني أعجب أين ذهب الجميع!».

قال ستيرفورث: «الله أعلم. لقد أتيت إلى هنا بعد تفقدي لك ووصولي بالعبَّارة، فإذا بي أجد المكان مهجورًا. وهذا ما دفعني إلى التفكير، وقد جئتَ لتجدني منخرطًا في التفكير».

أوضح لنا قدوم السيدة جامدج ومعها سلة، سبب فراغ المنزل، فقد كانت قد أسرعت إلى الخارج لشراء شيء ما تحتاجه، قبل عودة السيد بيجوتي من البحر مع المد، وتركت الباب مفتوحًا خلال فترة غيابها، لئلا يعود هام وإيميلي الصغيرة فيجدا الباب مغلقًا بعد أن توقعت أن يعودا مبكرًا هذه الليلة. ألقى ستيرفورث تحية مبهجة على السيدة جامدج واحتضنها بمرح، وما إن تحسنت حالتها المزاجية، حتى أخذ بذراعي وأسرع بي بعيدًا.

تحسنت حالته المزاجية، كما حدث للسيدة جامدج بالضبط، فقد عادا مرة أخرى إلى حالتهما المعتادة وانطلاقهما، بل صار ستيرفورث مقبلًا على المحادثات المفعمة بالحيوية في أثناء سيرنا.

تحدث في مرح قائلًا: «ها نحن ذا، سنتخلى عن حياة القراصنة هذه غدًا، أليس كذلك؟».

أجبته قائلًا: «هذا ما اتفقنا عليه، وقد حجزنا مقاعدنا من مركبة السائق من قبل، كما تعلم».

قال ستيرفورث: «آه، أظن أنه لا سبيل لتغيير الأمر. لقد كدت أنسى تقريبًا أنني أؤدي أي دور في هذا العالم سوى أنني أخرج للولوج إلى البحر هنا. كم أتمنى لو لم أفعل شيء سواه!».

قلت ضاحكًا: «ما دمت جادًّا، فيجب عليك أن تستمر».

أجابني قائلًا: «هذا على الأرجح ما عليَّ فعله. إن هذه العبارة لا تخلو من معنى ساخر، وهي نابعة من مداعبة لطيفة من صديقي الشاب. ليكن

ما يكون! لا أخفيك القول بأنني رجل متقلب المزاج يا ديفيد. أعترف بأنني كذلك، لكنني سأطرق الحديد ساخنًا بقوة أيضًا، وأحسب أنني أستطيع أن أجتاز امتحانًا ملائمًا يؤهلني لأن أصير بحارًا في هذه المياه».

قلت: «إن السيد بيجوتي يقول إنك أعجوبة».

ضحك ستيرفورث وقال: «إنني ظاهرة بحرية، أليس كذلك؟».

استطردتُ قائلًا: «إنه يظن أنك كذلك حقًّا، وإنك لمدرك حقًّا لمدى حماسك في أي مسعى تبتغي الولوج فيه، وكيف يمكنك إتقانه بسهولة إن أردت. وإن أكثر ما يذهلني فيك يا ستيرفورث أنك مكتفٍ بهذا المسلك المتقلب في استخدام قواك ومواهبك».

أجاب في مرح: «مكتفٍ؟ إنني لا أكترث لشيء أبدًا إلا بنضارتك يا أقحوانتي العزيزة. فيما يتعلق بالملاءمة، لم أتعلم قَطُّ فن ربط نفسي بأي من العجلات التي يدور بها إكسيون[1] هذه الأيام. لقد فاتتني هذه الطريقة في تدريبي المهني السيئ، وصرت لا أعبأ بمثل هذه العذابات الآن. هل تعلم أنني اشتريت قاربًا هنا؟».

توقفت عن مواصلة المسير بعدما انتابتني الدهشة - فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الخبر - ثم صرخت قائلًا: «يا لك من رفيق استثنائي يا ستيرفورث! تقدم على هذا الفعل في وقت قد لا تهتم فيه أبدًا بالاقتراب من هذا المكان مرة أخرى!».

---

(١) إكسيون ملك قبيلة لابيثوس، تحكي عنه الأساطير الإغريقية خيانته للإله زيزس ووقوعه في حب الإله هيرا. أمر زيوس بمعاقبته بربط قدميه ويديه إلى حافة عجلة تدور في النيران إلى الأبد.

عاد: «لا أعرف لم فعلت ذلك».

جذبني ناحيته وقد أسرعنا الخطى، وقد استطرد قائلًا: «لقد أحببت المكان، وعلى أي حال فإنني قد اشتريت قاربًا كان معروضًا للبيع. إنه قارب سريع منطلق فوق أمواج البحار، على حد تعبير السيد بيجوتي عنه، وسيصير هو صاحبه والمسؤول عنه في غيابي».

قلت في بهجة ظاهرة: «الآن فهمتك يا ستيرفورث! إنك تتظاهر بشرائه لنفسك، لكنك فعلت ذلك حقًّا لمنحه للسيد بيجوتي. كان يجدر بي أن أدرك الأمر من البداية، خاصة وأنا أعرف طباعك. يا عزيزي الغالي ستيرفورث، كيف يسعني أن أصف مدى امتناني لكرمك؟».

أجابني بينما تحول وجهه إلى اللون الأحمر: «خير الكلام ما قل ودل».

صرخت قائلًا: «ألم أعرف؟ ألم أقل إن الفرح أو الحزن أو أي عاطفة تنبع من هذه القلوب الصادقة؛ كانت جميعها منصبة عليك؟».

أجاب: «نعم، لقد أخبرتني بكل ذلك. فلننُهِ هذا الحديث. لقد قلنا ما يكفي!».

خشيت أن أسيء إليه بمتابعتي للحديث في هذا الموضوع، بعدما ألقى الضوء عليه، إلا أنني تابعت التفكير فيه في أعماقي فقط، بينما أكملنا المسير بخطى أسرع من ذي قبل.

قال ستيرفورث: «أحسب أن القارب يحتاج إلى تجديد، وسأترك

ليتيمر ورائي ليخبرني بما أنجز فيه من عمل، حتى أتأكد من صلاحه على أكمل وجه. هل قلتُ لك إن ليتيمر قد جاء؟».

«كلا».

«حسنًا، لقد جاء هذا الصباح محملًا برسالة من والدتي».

التقيت بستيرفورث وجهًا لوجه، فإذا بي ألاحظ أنه بدا شاحبًا حتى فاض شحوبه على شفتيه، إلا أنه أخذ ينظر نحوي في ثبات شديد. خشيت أن يكون ثمة خلاف قد وقع بينه ووالدته، وربما كان هذا الخلاف سببًا في شروده وحالته التي وجدته عليها حين أبصرته مختليًا بجوار المدفأة. ألمحت إليه بهواجسي تلك.

راح يهز رأسه ويضحك قليلًا قائلًا: «آهٍ، لا! لم يحدث شيء من هذا القبيل. نعم، لقد جاء الرجل الذي أعرفه».

قلت: «هل مكث على حالته المعهودة؟».

قال ستيرفورث: «إنه على حالته المعهودة؛ غريب وهادئ مثل سكون القطب الشمالي. يجب أن يتأكد من تسمية القارب بعد التجديد. إن اسمه الآن «طائر البحار». ما الذي يجعل السيد بيجوتي مهتمًا بطيور البحار هذه؟! سأغير هذا الاسم».

سألته: «ماذا ستطلق عليه؟».

«إيميلي الصغيرة».

ظل ينظر إليَّ في ثبات، وقد اعتبرت نظراته هذه بمثابة تذكرة باعتراضه على الثناء على كرمه وعطائه. لم أستطع كبح نفسي أو عدم

إظهار مدى سروري البالغ الذي أطل من قسمات وجهي، إلا أنني لم أقل شيئًا، فاستأنف ابتسامته المعتادة وبدا مرتاحًا مطمئنًّا.

راح يمد أنظاره إلى الأفق وأخذ يقول: «لكن انظر هناك، ها هي إيميلي الصغيرة الأصلية! هل تقبل نحونا مصطحبة هذا الرفيق؟! آه، رحماك يا ربي، يا له من فارس حقيقي، لا يفارقها أبدًا».

كان هام يعمل بنَّاءً للقوارب في هذه الأيام، حيث نمَّى مهارته الفطرية التي اكتشفها في هذه الحرف اليدوية، حتى صار عاملًا ماهرًا. كان يرتدي لباس العمل، وقد بدا متينًا قوي البنية ترتسم عليه صلابة الرجال، حتى لاح لائقًا لأن يكون حارسًا للمخلوق الصغير المزدهر الذي يسير إلى جانبه، فاض على وجهه في صراحة وأمانة وتجلٍّ لا يخفى على العيان مدى اعتزازه بها، وحبه لها، وقد لاحت لي طلتهما من أجمل الإطلالات وأبدعها. وأحسب أنني شعرت في مجيئهما أنهما كانا متقاربين جيدًا يشتركان في طيب الصفات.

سحبت يدها من ذراعه في خجل بعدما توقفنا للحديث إليهما، واحمر وجهها خجلًا حين مدت يدها لمصافحتي ومصافحة ستيرفورث. انصرفنا عنهما بعد أن تبادلنا بضع كلمات، إلا أنها لم تشأ أن تعيد يدها كما كانت، بل سيطر عليها الخجل، فسارت بمفردها. أحسب أن الأمر كله قد بدا لي فاتنًا وجذابًا، ويبدو أن ستيرفورث راح يفكر في الأمر ذاته أيضًا، حيث رحنا نتتبعهما بنظراتنا بينما يسيران في ضوء قمر لم يكتمل بعد.

مرت بنا فجأة امرأة شابة، لم نكن قد لاحظنا اقترابها، وكان من الواضح أنها تتبعهما. أبصرت وجهها بوضوح حين مرت من أمامنا، وأحسب أنني تذكرت أنني التقيت بها من قبل. كانت ترتدي ملابس خفيفة، لاحت فيها جريئة وهائمة، متكبرة وفقيرة، لكنها بدت في هذه اللحظة أنها نثرت كل هذه الانطباعات في مهب الرياح، فلم تشغل بالها بشيء سوى ملاحقتهما. كان الظلام حالًّا يلف مرمى البصر، فإذا بها تتوارى بينما تلاحقهما من دون أن تدنو منهما، ويمتص الظلام شبحها كما فعل معهما تمامًا، وقد ترك غيومه بين البحر والسماء.

قال ستيرفورث: «إن ظلًّا أسود يتبع الفتاة. ماذا يعني هذا؟».

تحدث بصوت خفيض، كان وقعه غريبًا على أذني.

قلت: «أظن أنها ستطلب منهما إحسانًا».

قال ستيرفورث: «إن التسول ليس شيئًا جديدًا، لكن الغريب أن يبدو المتسول بهذه الهيئة التي أراها الليلة».

سألته: «لماذا؟».

قال بعد صمت قصير: «لا أعرف سببًا واضحًا حقًّا، إلا أنني كنت أفكر في شيء من هذا القبيل حالًا، فإذا بي أبصره. إني لأعجب من أين أتت هذه الشيطانة!».

سرنا في طريق يتاخمه جدار، فإذا بي أقول: «أحسب أنها جاءت من ظل هذا الجدار».

راح ينظر من فوق كتفه، قائلًا: «لقد اختفت، واختفى كل شيء سيئ معها. أما الآن فهلم بنا إلى العشاء».

أخذ ينظر مرة أخرى من فوق كتفه صوب البحر وصفحته المتلألئة الممتدة بعيدًا، بل راح يكرر النظر إليه مرة تلو الأخرى. أخذ يتساءل عنها في بعض عبارته المبتورة عدة مرات، طوال الفترة القصيرة التي قضيناها في مسيرتنا، ولم ينسَ أمرها إلا بعدما ظهر أمامها ضوء نيران المدفأة وأشعلنا شمعة لتنير مجلسنا، ثم اتخذ كل منا مقعده من الطاولة في دفء وبهجة.

كان ليتيمر قد جاء، وقد ترك عليَّ قدومه تأثيره المعتاد. قلت له إنني آمل أن تكون السيدة ستيرفورث والآنسة دارتل على ما يرام، فأجاب باحترام وتقدير معهود قائلًا إنهما على ما يرام، ثم شكرني، وأبلغني تحياتهما لي. كان هذا ما قاله لا غير، إلا أنه بدا لي كما لو أنه يود لو يقول بوضوح ما يمكن لرجل مثله قوله: «إنك صغير جدًّا يا سيدي، إنك لم تزل صغيرًا غضًّا».

كنا قد انتهينا من تناول العشاء، حين راح ليتيمر يخطو خطوة أو خطوتين نحو الطاولة، مبتعدًا عن الزاوية التي كان يراقبنا منها، أو بالأحرى من مكان مراقبته لي - بحسب ما يخيل إليَّ، ثم قال لسيده:

«أستميحك عذرًا يا سيدي. إن الآنسة ماوتشر موجودة هنا».

صرخ ستيرفورث مبديًا دهشة بالغة وسائلًا: «من؟».

«إنها الآنسة ماوتشر يا سيدي».

قال ستيرفورث: «لماذا، ماذا تفعل هنا وأي درب جاء بها إلينا؟».

«يبدو أنها هنا في موطنها الأصلي يا سيدي. أبلغتني أنها تقوم بإحدى زياراتها المهنية، فتأتي إلى هنا كل عام يا سيدي. التقيتها في الشارع بعد ظهر اليوم، وأرادت أن تستأذن في أن تتشرف بزيارتك بعد العشاء يا سيدي».

سأل ستيرفورث: «هل تعرف يا أقحوانتي هذه المرأة الغولة؟».

لقد اضطررت إلى الاعتراف بأنني لا أعرفها، بعد أن شعرت بالخجل لكوني في هذا الوضع المخزي أمام ليتيمر، إذ لم أكن أنا أو الآنسة ماوتشر على معرفة تامة.

قال ستيرفورث: «إذن ستعرفها، لأنها واحدة من عجائب الدنيا السبع. عندما تأتي الآنسة ماوتشر أدخلها إلينا».

شعرت ببعض الفضول والإثارة تجاه هذه السيدة، خاصة أن ستيرفورث كان قد انفجر في نوبة من الضحك عندما أشرت إليها، ورفض الإجابة عن أي سؤال حول أمرها رفضًا قاطعًا. لذلك بقيت في حالة ترقب عظيم حتى رفعت المائدة بعد ما يقرب من نصف ساعة، وقد اتخذ كل منا مجلسه حول دورق شراب النبيذ في مواجهة المدفأة. انفتح الباب، وإذا بليتيمر يعلن عن قدومها بهدوئه المعتاد من دون إزعاج، قائلًا:

«الآنسة ماوتشر».

نظرتُ نحو الباب ولكني لم أرَ شيئًا. طال بي النظر إلى الباب، متأهبًا لرؤية الآنسة ماوتشر متصورًا أنها طويلة القامة مهيبة المظهر، وما أشد دهشتي اللا متناهية، حين أبصرتها تتجول حول أريكة تحول بيني وبينها، وإذا بها قزمة، يبلغ عمرها ما يقرب من الأربعين أو الخامسة والأربعين. تسعى نحونا برأس كبير ووجه عريض للغاية، وزوج من الأعين الرمادية ذات نظرات خشنة، وذراعين قصيرتين إلى أبعد مدى، بحيث إنها أرادت وضع إصبعها على أنفها الأفطس، بينما كانت تبحث بنظراتها عن ستيرفورث، فاضطرت إلى مقابلة إصبعها في منتصف الطريق، لتقرب أنفها منه. أما ذقنها، فمن النوع الذي يطلق عليه اسم الذقن المزدوج، ولشدة سمنة ذقنها أخذ يبتلع أربطة قبعتها وعقدة الأربطة وكل شيء. بدت بلا عنق وبلا خصر، ومن الجدير بالذكر أنها لاحت كما لو أنها بلا ساقين؛ على الرغم من أنها كانت أقرب إلى الهيئة مكتملة الحجم حتى خصرها - إذا كان ما لديها يمكن أن أصفه بالخصر - وعلى الرغم من انتهاء جسدها كبقية البشر عمومًا، بما يشبه القدمين، فإنها كانت قصيرة للغاية، وقد وقفت أمام كرسي متوسط الحجم، فإذا به يبدو أمامها مثل طاولة. وضعت حقيبتها على المقعد واستراحت من حملها. كانت هذه السيدة ترتدي ملابس غير رسمية وبسيطة. وقفت بعد أن جمعت أنفها وسبابتها معًا بالصعوبة التي وصفتها من قبل، ثم وقفت وقد أمالت رأسها إلى جانب واحد، وأغمضت إحدى عينيها الحادتين، مما جعل وجهها يبدو غير مألوف، خاصة بعد أن زجرت ستيرفورث بنظراتها لبضع لحظات، ثم استرسلت في الحديث من دون توقف.

شرعت تتحدث في بهجة، بينما تهز رأسها الكبير في وجه ستيرفورث، قائلة: «ماذا أرى؟! يا وردتي، ها أنت ذا، هل هذا أنت حقًّا؟! آهٍ، أيها الفتى المشاغب، يا للعار، ماذا تفعل بعيدًا عن المنزل؟ أكاد أجزم أنك تسعى إلى الأذى. آهٍ، إنك شخص مشعر الجسد يا ستيرفورث، لذا تحتاجني، وأنا من نفس نوعك، أليس كذلك؟ هاهاهاها! كنت ستراهن بمائة جنيه مقابل خمسة، على حساب يقينك أنك لن تراني هنا الآن، أليس كذلك؟ فليبارك الله فيك يا رجل ما دمت على قيد الحياة. إنني أسعى في كل مكان. إنني أظهر هنا وهناك، وأحل من حيث لا تحتسب، كما لو أنني نصف كروان يخرجه الساحر من منديل سيدة. وبمناسبة الحديث عن المناديل، والحديث عن السيدات، فيا لك من عزاء لأمك المباركة، وسعادة لها يا بني العزيز، وما أغلى وجودك فوق كتفها، ولن أزيد بقول أي شيء!».

فكت الآنسة ماوتشر أربطة قبعتها وأزاحتها وراء ظهرها، بعد أن وصلت إلى هذا الجزء من حديثها، ثم جلست تلهث، عند مسند الأقدام القابع أمام نيران المدفأة. بدت هيئتها كما لو أنها تحتمي بطاولة الطعام، كما لو أنها شجرة مورقة، قد ارتسمت ألواحها الخشبية البنية كمظلة تعلو رأسها.

واصلت الآنسة ماوتشر حديثها، بعد أن راحت تضرب بيدها فوق ركبتيها الصغيرتين، قائلة: «يا نجماتي وما هي أسماؤها؟!». أخذت تلقي نظرة خاطفة ماكرة نحوي، ولبثت تقول: «لقد مللت من نفسي. إنها الحقيقة يا ستيرفورث. إنني أجد صعوبة بالغة بعد

صعود السلالم في التقاط كل نفس أريده، كما لو أنني أستنشق دلوًا من الماء. لو كنت رأيتني أطل من نافذة عالية، لحسبتني امرأة فاتنة، أليس كذلك؟».

أجاب ستيرفورث: «أحسب أنني أتصور أنكِ كذلك أينما رأيتكِ».

صرخ ذاك المخلوق الصغير، بعد أن ضربت ستيرفورث بالمنديل الذي كانت تمسح به وجهها، قائلة: «هيا أيها الكلب، هيا تعالَ، ولا تكن وقحًا. لكني أقسم لك بشرفي، إنني كنت في الأسبوع الماضي عند السيدة ميذرز -يا لها من امرأة! يا لعجبي وإعجابي بها!- ثم دخل ميذرز نفسه إلى الغرفة حيث كنت أنتظرها - يا له من رجل! ويا لجمال ملابسه! كيف حافظ على شعره المستعار أيضًا؟ لقد حافظ عليه طوال السنوات العشر الماضية - لقد استمر الرجل في تحياته لي بهذا المعدل وحافظ على وتيرته، إلى أن بدأت أعتقد أنني سأكون مضطرة إلى دق الجرس لإنهاء هذه التحيات. ها! ها! ها! إنه بائس لطيف، لكن تنقصه بعض أساسيات فنون التعامل».

سأل ستيرفورث «ماذا كنتِ تفعلين للسيدة ميذرز؟».

راحت تنقر فوق أنفها مرة أخرى، وتفسد وجهها بعبوسها، وأخذت عيناها تلمعان مثل عفريت في ذكاء خارق للطبيعة، ثم ردت قائلة: «إنها أسرار يا طفلي المبارك. لا تهتم بالأمر. تريد أن تعرف ما إذا كنت قد أوقفت تساقط شعرها، أو صبغته، أو أنني كنت أصقل بشرتها، أو أُحسن حاجبيها، أليس كذلك؟ لا تكترث يا حبيبي، يكفي ما أقصه عليك. هل تعرف ما اسم جدي الأكبر؟».

قال ستيرفورث: «لا».

أجابت الآنسة ماوتشر: «لقد كان يدعى ووكر يا حبيبي الأليف اللطيف، وقد جاء من سلسلة طويلة من ووكرز آخرين، وقد ورثت عقارات الهوكي جميعها منهم».

لم أرَ قَطُّ ما يشبه غمزة الآنسة ماوتشر، لقد امتلكت طريقة استثنائية في حركتها. حازت طريقة رائعة في الاستماع إلى ما قيل لها أيضًا، أو في انتظار الإجابة عما قالته. كانت تطرق برأسها في مكر فتميله جانبًا، وتحملق بعين واحدة مثل الهدهد. أثارت حركاتها في مجملها دهشتي، فجلست أحدق فيها، وكم كنت أخشى أن أبدو غافلًا تمامًا عن قواعد الذوق.

سحبت الكرسي إلى جانبها، بعد أن أفضت بحديثها هذا، وراحت تدس ذراعها القصيرة في حقيبتها حتى كتفها في كل مرة تغطس فيها لاستخراج شيء، ثم انشغلت بإخراج عدد من الزجاجات الصغيرة والإسفنج والأمشاط والفرش وقطع من القماش من حقيبتها، وأزواج صغيرة من مصففات الشعر وأدوات تجعيده، وغيرها من الأدوات، وقد كوَّمت جميع أدواتها فوق الكرسي. توقفت فجأة عن حركتها، ثم تحدثت إلى ستيرفورث بحديث أثار دهشتي أيما دهشة، فقد سألته قائلة:

«من يكون صديقك هذا؟».

قال ستيرفورث: «إنه السيد كوبرفيلد. إنه يريد أن يتعرف إليكِ».

تجولت الآنسة ماوتشر حاملة في يدها حقيبة، وقد ابتسمت لي بينما راحت تقترب مني وتقول: «حسنًا، إذن سيعرفني. أحسب أنه يود لو يعرفني حقًّا. إن وجهه يلوح مثل الخوخ».

وقفت على رؤوس أصابع قدميها حتى تقرص خدي بينما أجلس في مكاني، ثم أكملت حديثها قائلة: «يا له من مغرٍ للغاية، إنني مغرمة جدًّا بالخوخ. أؤكد لك أنه يسعدني أن أتعرف إليك يا سيد كوبرفيلد».

قلت إنني أهنئ نفسي على تشرفي بمعرفتها، وإن السعادة متبادلة بيننا.

صرخت الآنسة ماوتشر، وهي تحاول تغطية وجهها الضخم بقمة يدها: «آهٍ، يا إلهي، كم نحن مؤدبون! يا له من عالم من يشبه ألعاب الطاولة والنرد والاحتيال، أليس كذلك؟!».

كانت هذه الكلمات موجهة إلينا معًا، بينما راحت تزيح يدها الصغيرة من أمام وجهها، ثم دفنت نفسها وذراعها بل سائر جسدها في الحقيبة مرة أخرى.

قال ستيرفورث: «ماذا تقصدين يا آنسة ماوتشر؟».

ردت تلك المرأة الصغيرة، بينما تتحسس حقيبتها مطوحة برأسها إلى الجانب وقد هامت عينها في الهواء، فقالت: «ها! ها! ها! يا لها من حزمة منعشة من الهراء بلا شك، أليس كذلك يا طفلي اللطيف؟ انظر هنا». أخرجت في هذه اللحظة شيئًا ما، واستأنفت قائلة: «إنها قصاصات من أظافر الأمير الروسي. الأمير ألف باء، وقد انقلبت رأسًا على عقب،

وإنني أدعوه بهذا الاسم، لأن اسمه يحتوي على جميع الأحرف، إلا أنها مبعثرة مثل خنازير مضطربة».

قال ستيرفورث: «إن الأمير الروسي زبون عندكِ، أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة ماوتشر: «أنا أصدقك القول يا حبيبي الأليف. إنني أقلم أظافره مرتين في الأسبوع! أقلم أصابع اليدين والقدمين».

قال ستيرفورث: «آمل أن يكون سخيًّا في دفع الأجر، أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة ماوتشر: «إنه يدفع كما يتحدث يا طفلي العزيز، من أنفه. إن الأمير ليس من مدمني الحلاقة مثلكما. ستقول مثل قولي هذا إذا رأيت شاربه. إنه أحمر اللون بطبيعته، إلا أنه يميل إلى اللون الأسود بالفن».

قال ستيرفورث: «من دروب فنكِ بالطبع».

غمزت الآنسة ماوتشر بالإيجاب، وراحت تقول: «كان مجبرًا على طلبي. لا يمكنه الاستغناء عن خدماتي. لقد أثَّر المناخ على صبغته. كانت قد حققت أداءً جيدًا في روسيا، لكنها لم تستطع الثبات هنا. أحسب أنك لم ترَ قَطُّ مثل هذا الأمير الصدئ طوال أيام حياتك. إنه مثل الحديد القديم الصدئ».

راح ستيرفورث يسألها: «هل وصفته لهذا السبب للتوِّ بأنه تافه؟».

عادت الآنسة ماوتشر تهز رأسها بعنف وتقول: «آهٍ، إنك صبي لمَّاح، أليس كذلك؟ لقد قلت، يا لنا من مجموعة من المحتالين بشكل عام، وقد

أريتكم قصاصات من أظافر الأمير لإثبات ذلك. إن أظافر الأمير تمثل لي الكثير أمام بعض العائلات الخاصة من الطبقة الراقية، بل تدر عليَّ أكثر ما تدره كل مواهبي مجتمعة. إنني أحملها دومًا، لأنها أفضل مقدمة أبدأ بها مع الناس. إذا كانت الآنسة ماوتشر هي من يقلم أظافر الأمير، فلا بد أنها ماهرة. إنني أمنحها للشابات، فيحتفظن بها بين ألبومات الصور، على ما أظن. ها! ها! ها! أقسم لكما بحياتي، إن «النظام الاجتماعي بأكمله - كما يسميه الرجال عندما يلقون الخطب في البرلمان - إنما هو نظام مكون من أظافر الأمير!»، هذا ما قالته أتفه النساء، بينما تحاول ثني ذراعيها القصيرتين، وهي تومئ برأسها الكبير».

ضحك ستيرفورث ودوت ضحكاته من أعماق قلبه، وضحكتُ أيضًا، في حين واصلت الآنسة ماوتشر هز رأسها طوال الوقت -الذي ظل على جانب واحد- وأخذت تشيح بنظرها بإحدى العينين في الهواء، وتغمز بالأخرى.

قالت وهي تضرب ركبتيها الصغيرتين وتنهض من مجلسها: «حسنًا، هذا ليس عملًا. تعالَ يا ستيرفورث، فلنستكشف المناطق القطبية، وننتهي من أمرها».

ثم اختارت اثنتين أو ثلاثًا من الآلات الصغيرة، وتناولت زجاجة صغيرة، وسألت - كان سؤالها قد أثار دهشتي - عما إذا كانت الطاولة ستتحمل أم لا؟ ما إن أجاب ستيرفورث بالإيجاب حتى دفعت كرسيًّا ليستقر في مقابله، ثم طلبت مني مساعدتها فمددت يدي، وإذا بها تصعد برشاقة إلى القمة، كما لو أنها تصعد إلى منصة.

قالت بعد أن استقرت على منصتها في أمان: «إذا رأى أي منكما كاحلي، فليقل لي، حتى أعود إلى منزلي وأقتل نفسي».

قال ستيرفورث: «لم أرَه».

قلت: «لم أرَه».

صرخت الآنسة ماوتشر قائلة: «حسنًا، سأوافق على الاستمرار في العيش. أما الآن، فهيا يا بطتي، يا بطة، يا بطة، تعالَ إلى السيدة بوند لتذبحك».

كانت هذه دعوة موجهة إلى ستيرفورث ليضع نفسه تحت يديها؛ وقف فعلًا واستجاب لها. جلس وقد أولى ظهره إلى الطاولة، وأطل بوجهه الضاحك نحوي، ثم قدَّم رأسه لتفتيشه. كان من الواضح أنه لم يقصد أي غرض آخر غير الترفيه. كانت رؤية الآنسة ماوتشر تقف فوقه، بينما تنظر إلى شعره البني الكثيف عبر عدسة مكبرة مستديرة كبيرة، كانت قد أخرجتها من جيبها، تمثل مشهدًا مدهشًا للغاية.

قالت الآنسة ماوتشر، بعد فحص لم يَدُم لفترة طويلة: «يا لك من إنسان جميل! ستصير أصلع مثل الراهب، وينزاح شعر رأسك في غضون اثني عشر شهرًا إن لم أسعفك. أما أنا فأمهلني نصف دقيقة فقط، يا صديقي الشاب، وسأمنحك زيتًا يحافظ على تجعيد الشعر على مدى السنوات العشر القادمة».

قامت إثر إنهاء حديثها بإمالة بعض محتويات الزجاجة الصغيرة إلى قطعة صغيرة من القماش، وأضافت مرة أخرى بعضًا من هذا المزيج

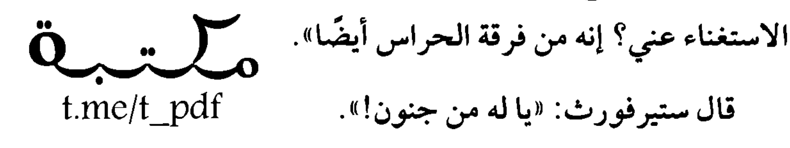
المميز إلى فرشاة صغيرة، ثم بدأت في فرك وكشط كليهما فوق قمة رأس ستيرفورث بأكثر الطرق نشاطًا شهدتها في حياتي على الإطلاق، ثم راحت تتحدث طوال الوقت.

قالت: «إن تشارلي بيجريف، ابن الدوق... هل تعرف تشارلي؟».

اختلست النظر هنا إلى وجهه منتظرة الإجابة.

قال ستيرفورث: «قليلًا».

«يا له من رجل! إنه طولي! أما بالنسبة لساقي تشارلي، فلو كانتا اثنتين لكانتا خارج المنافسة (وهو ليس كذلك). هل تصدق أنه حاول الاستغناء عني؟ إنه من فرقة الحراس أيضًا».



قال ستيرفورث: «يا له من جنون!».

عادت الآنسة ماوتشر تقول: «يبدو أنه كذلك. وعلى أي حال، فقد حاول فعل ذلك سواء كان مجنونًا أم عاقلًا. أتدري ماذا فعل؟ هيهات أن تتخيل. لقد ذهب إلى العطار، وأراد شراء زجاجة من سائل مدغشقر».

قال ستيرفورث: «هل فعل تشارلي ذلك؟».

«حقًّا هذا ما فعله تشارلي. إلا أنه لم يحصل على قطرة واحدة من سائل مدغشقر».

سأل ستيرفورث: «ماذا يكون هذا السائل؟ هل هو شيء للشرب؟».

توقفت الآنسة ماوتشر لتصفع خده، ثم عادت تقول: «أتقول للشرب؟ إنك تعلم أنه لإصلاح شواربه. تمكث امرأة مسنة في المتجر

تبدو مثل الغرفين[1] تمامًا، ولكنها لم تسمع بهذا بالاسم من قبل. قالت المرأة الغرفين لتشارلي: «عفوًا يا سيدي، أليس هو أحمر الشفاه، أليس هو، أليس كذلك؟». قال تشارلي لغرفين: «أحمر شفاه». «ما الذي يرن على مسامعي، هل تعتقدين أنني أريد أحمر الشفاه؟». قالت المرأة الغرفين: «لا أقصد أي نوع من الإهانة يا سيدي. لقد طلبنا من هذا الصنف تحت عدة مسميات، وإنني حسبت أنه قد يكون الصنف نفسه»». واصلت الآنسة ماوتشر فركها طوال الوقت بنشاط كما كانت دائمًا بينما واصلت حديثها قائلة: «أما الآن يا ولدي، فهاك مثال آخر على الاحتيال المنعش الذي كنت أتحدث عنه. أنا أفعل شيئًا من هذا القبيل بنفسي، وربما يصير صفقة جيدة أو ربما أقل. أعرف أن كلمتي حادة قاسية يا فتايَ العزيز، لا تكترث لقولي».

قال ستيرفورث: «بأي طريقة تقصدين؟ هل تقصدين على طريقة أحمر الشفاه؟».

أجابت الآنسة ماوتشر الماكرة، بعد أن دعكت أنفها، فقالت: «ضع هذا وذاك معًا يا تلميذي الرقيق، واحسبها وفقًا لقاعدة الأسرار في جميع المهن، وستمنحك النتيجة الغاية المرجوة. أقول إنني أقترف القليل من هذه الطريقة بنفسي. تسميه إحدى الأرامل باسم مرهم الشفاه، وأخرى تسميه بالقفازات، وغيرهما تسميه دهانًا، وأخرى تسميه معجونًا. أطلق عليه أسماء أيًا ما كان اسمه، أما أنا فأوفره لهن،

(١) حيوان أسطوري له جناحان ورأس نسر وجسد أسد. قيل إنه ملك الحيوانات وحارس للكنوز والممتلكات الثمينة.

إلا أننا نحفظ سره فيما بيننا، ونجتمع على الحفاظ عليه على هذا النحو، حتى إنهن سرعان ما يفكرن في وضعه، قبل الدخول إلى غرفة الاستقبال أمامي، أو قبل قدومي. أنتظرهن، فيقبلن ثم يقلن لي أحيانًا، بعدما أبدأ في تطبيقه عليهن: «فلتجعليه سميكًا، بلا خطأ. كيف أبدو يا ماوتشر؟ هل أبدو شاحبة؟». ها! ها! ها! أليس هذا حديثًا منعشًا يا صديقي الشاب؟!».

لم أشهد في حياتي قَطُّ أي شيء يشبه ماوتشر بينما تقف على طاولة الطعام، مستمتعة بشدة بكل هذه المسليات، بينما تفرك رأس ستيرفورث باهتمام، وتغمز في وجهي من فوقه.

قالت: «آه، لكن مثل هذه الأشياء ليست مطلوبة كثيرًا هنا. وهذا ما يثير داخلي رغبة في العودة مرة أخرى، إنني لم أرَ امرأة جميلة منذ وجودي هنا يا جيمي».

قال ستيرفورث: «لم تري ولو واحدة؟».

أجابت الآنسة ماوتشر: «بل لم أرَ شبحها على الأقل».

قال ستيرفورث بينما يدير عينيه: «يمكننا أن نظهر لها جوهرة واحدة، على ما أظن؟ أليس كذلك يا أقحوانتي؟».

قلت: «بلى، حقًا».

صرخت هذه المخلوقة الصغيرة، بينما تنظر إلى وجهي في حدة، ثم تختلس نظرة خاطفة إلى ستيرفورث، وراحت تقول: «آه، أحقًّا هذا؟».

بدا تعجبها الأول بمثابة سؤال موجه إلى كل منا، أما سؤالها الثاني فبدا مطروحًا على ستيرفورث فقط. وكان من الجلي أنها لم تتلقَّ إجابة عن أي منهما، لكنها استمرت في حك أنفها، وإمالة رأسها إلى جانبها وبدت عينها غامزة كما هي، كما لو راحت تبحث عن إجابة في الهواء، بل كانت واثقة من ظهورها في تلك اللحظة.

صرخت بعد صمت قصير، وكانت لم تزل محافظة على هيئتها المراقبة نفسها، وإذا بها تقول: «هل هي أختك يا سيد كوبرفيلد؟ إيبيه، إيبيه».

أجاب ستيرفورث قبل أن أتمكن من الرد، فقال: «لا. ليس شيئًا من هذا القبيل، بل على العكس من ذلك، فقد اعتاد السيد كوبرفيلد على إبداء الإعجاب بها كثيرًا قبل ذلك، أو ربما أكون مخطئًا كثيرًا عند هذا الحد».

عادت الآنسة ماوتشر تسأل: «لماذا لم يستمر إعجابه إلى الآن؟ هل هو متقلب؟ آهٍ، يا للعار! هل يشم رحيق كل زهرة، ثم يتغير كل ساعة، حتى أنهى شغفه ببولي؟ هل اسمها بولي؟».

لقد أربكتني مفاجأة هذه الجنية حين انقضت علينا بهذا السؤال، ثم جحدتنا بنظرة فاحصة متمحصة في لحظة واحدة.

أجبتها: «لا، يا آنسة ماوتشر. إنها تُدعى إيميلي».

صرخت كسابق صرخاتها من قبل تمامًا، فقالت: «أوف، يا لي من عجوز تثرثر بحشرجة الموت! ألست متقلب المزاج يا سيد كوبرفيلد؟».

كانت لهجتها ومظهرها يتضمنان شيئًا لم أكن أستسيغه، خاصة بعدما أدت هذا السلوك بعد طرح هذا الموضوع. وإذا بي أتحدث بطريقة جادة لم يفترض أي منا التحدث بها حتى الآن، فأقول: «إنها فاضلة عفيفة بقدر جمالها، ومخطوبة لرجل فاضل يستحق أن يحظى بمكانة خاصة من حياتهما. إنني أحترمها لخلقها القويم، بقدر إعجابي بمظهرها الجميل الفاتن».

صاح ستيرفورث: «أحسنت القول. مرحى، مرحى، فلتسمعني. سأشبع الآن فضول فاطمة الصغيرة[1] يا أقحوانتي العزيزة، من دون أن أترك لها مجالًا للتخمين والشك. إنها تتدرب حاليًّا، أو تمارس تدريبها - أيًّا كان المسمى - يا آنسة ماوتشر، في متجر عمر وجورام لبيع مستلزمات الخردوات والأدوات وما إلى ذلك، في هذه البلدة. هل تفهمين قولي؟ إنها في متجر عمر وجورام. أما الوعد بالزواج الذي حدثتكِ عنه صديقي فقد تم مع ابن عمها، الذي يدعى بحسب اسمه المسيحي: هام، ولقبه بيجوتي، كما أنه يعمل صانعًا للقوارب، ويمكث أيضًا في هذه البلدة. أما هي فتعيش مع قريب لها، اسمه المسيحي غير معروف، أما لقبه فبيجوتي، كما أنه يعمل في مجال الملاحة أيضًا ويقيم في البلدة نفسها. إنها أجمل جنية صغيرة والأكثر جاذبية في العالم. إنني معجب بها، مثل إعجاب صديقي البالغ بها. ولولا أنني قد أبدو كمن يحط من قدر خطيبها - وهو ما أخشى ألا يعجب صديقي - فإنني أود

---

(١) إحدى شخصيات قصة «ذو اللحية الزرقاء» للكاتب الفرنسي شارل بيرو، وقد كانت فاطمة إحدى زوجات البطل. عرف عنها الفضول وعرف عن البطل القتل المتسلسل لزوجاته.

أن أضيف أنني أشعر أنها تضحي بنفسها، بالإقبال على هذا الزواج، وإنني متأكد من أنها قد تُقدِم على اختيارٍ أفضل إن أرادت، بل أقسم إنها وُلدت لتكون سيدة مكرمة».

استمعت الآنسة ماوتشر إلى هذه الكلمات، التي نطق بها ستيرفورث ببطء شديد وبشكل واضح، بينما أمالت المرأة رأسها إلى الجانب، وطوحت بنظرات عينيها في الهواء كما لو أنها لم تزل تبحث عن الإجابة. ما إن توقف عن حديثه، حتى عادت إلى نشاطها مرة أخرى بعد لحظة واحدة، واندفعت تسترسل في حديثها بكلام مفاجئ.

راحت تقص شاربه بمقص صغير بحركات سريعة، ثم أخذت تلفه حول رأسه في جميع الاتجاهات، قائلة: «آهٍ، هذا كل ما في الأمر، أليس كذلك؟ جيد جدًّا، جميل جدًّا. يا لها من قصة طويلة للغاية. يجب أن تنتهي بقولنا: «وقد عاشا سعيدين إلى الأبد»، أليس كذلك؟ آه، ما هذه اللعبة الساذجة؟ أنا أحب فتاة يبدأ اسمها بحرف الألف لأنها جذابة، ثم أكره الفتاة صاحبة حرف الألف لأنها مخطوبة. لقد اصطحبتها إلى عالم متأنق، وشجعتها على الفرار، وإن اسمها إيميلي، وهي تعيش في الشرق، أليس كذلك؟ ها! ها! ها! إنني سريعة البديهة يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلكَ؟».

رمقتني بنظرات شديدة المكر، من دون أن تنتظر أي رد على كلامها، ثم تابعت من دون أن تلتقط أنفاسها قائلة:

«هيا انظر، إذا ظهر وغد يتطلع إلى الكمال، فإنه أنت يا ستيرفورث. وإذا كنت أفهم أي إيماءة في هذا العالم، فإنني بالطبع أفهم ما يدور في رأسك. هل تسمع قولي هذا يا حبيبي؟ إنني أفهم مبتغاك». رحت

أختلس هنا النظر إلى وجهه، أما ماوتشر فقد تابعت حديثها قائلة: «الآن يمكنك أن تنصرف يا جيمي (كما نقول في المحكمة)، وإذا جاء السيد كوبرفيلد فاتخَذ مكانه من المقعد فسوف أفعل له ما فعلته معك».

استفسر ستيرفورث ضاحكًا بعد أن تخلى عن مقعده: «ما رأيك يا أقحوانتي؟ هل تريد أن تتجمل؟».

أجبتُ قائلًا: «شكرًا لكِ يا آنسة ماوتشر، ليس في هذا المساء».

راحت المرأة الصغيرة تحدثني بينما تنظر إليَّ بوجه الخبير قائلة: «لا تقل لا. إن حاجبيك كثيفان إلى حد ما، أليس كذلك؟».

أجبتها قائلًا: «شكرًا لكِ. سأقوم بذلك في وقت آخر».

قالت الآنسة ماوتشر: «دعني أنقصه نصف بوصة باتجاه خدك. يمكننا القيام بذلك في غضون أسبوعين».

«لا، أشكركِ. ليس في الوقت الراهن».

وحثتني قائلة: «تعالَ لتحصل على تجميل سري. ألا ترغب في ذلك؟ فلنمهد الطريق، إذن إلى زوج من الشوارب الكثة. هيا تعالَ».

لم أستطع منع ظهور حمرة الخجل على وجهي حين رحت أبدي رفضي، لأنني شعرت أنها قد لامست نقطة ضعفي الآن. أما الآنسة ماوتشر، فقد شعرت أنني لن أستطيع أن أتخلص في الوقت الحالي من الخضوع لأي تجميل قد تضفيه على وجهي ضمن نطاق فنها. صرت في هذه اللحظة منصاعًا أمام إغراء هذه الزجاجة الصغيرة التي رفعتها أمام عيني، فأجبرتني على الطاعة، إلا أنها قالت إننا سنبدأ غدًا في وقت

مبكر، وطلبت مني مساعدتها وأن أمد إليها يدي حتى تنزل من موضعها المرتفع، وبهذه الطريقة قفزت إلى أسفل بخفة بالغة، وبدأت في ربط ذقنها المزدوج بأربطة قبعتها.

قال ستيرفورث: «أما الأجر فهو...».

ردت الآنسة ماوتشر: «خمسة شلنات، ويا له من ثمن بخس. ألست متقلبة المزاج يا سيد كوبرفيلد؟».

أجبتها في أدب: «كلا على الإطلاق». إلا أنني ظننت أنها كذلك، حينما راحت تطوح بنصفي الكروان كما لو أنها تطوح بعفريت أبيض، ثم أمسكت بهما، وأسقطتهما في جيبها، مطرقعة بيدها عليه في صفعة مدوية عالية.

عقبت الآنسة ماوتشر بعد حركتها بقولها: «هذه هي حصيلتي!»، بينما وقفت عند الكرسي مرة أخرى، وراحت تعيد إلى حقيبتها مجموعة متنوعة من الأشياء الصغيرة التي استخدمتها قبلًا. ثم أردفت قائلة: «هل جمعت كل ما أملك من الفخاخ؟ يبدو أنني انتهيت. لن تصير حالي مثل نيد بيدوود، حين أخذوه إلى الكنيسة «للزواج من امرأة ما»، فإذا به يقول: «وتركت العروس ورائي». ها! ها! ها! يا لهذا الوغد الشرير! كم كان نيد شقيًّا، ولكنه مرح! أما الآن، فإنني أعلم أنني سأحطم قلبيكما، لكنني سأضطر إلى المغادرة. هيا عليكما استدعاء كل ما تستطيعانه من ثبات، لتتحملا وقع مغادرتي. وداعًا يا سيد كوبرفيلد. اعتنِ بنفسك يا فارس نورفولك. يا لي من ثرثارة مهزارة! يعود الخطأ في كل ذلك إليكما أيها التعيسان. إنني أسامحكما. «بون سوار» - كما يقول الإنجليزي بدلًا من

«ليلة سعيدة» حينما تعلم الفرنسية لأول مرة، ويظن أنها كالإنجليزية. «بون سوار يا بطتي»».

أخذت تدنو من الباب متمايلة الخطى، تتأبط الحقيبة المتدلية على ذراعها، وتصدر خشخشة مدوية، وقد توقفت لتسألنا عما إذا كنا نريد منها أن تترك لنا خصلة من شعرها، ثم أضافت تعقيبًا على اقتراحها ذاك فقالت: «ألست ذكية متقلبة المزاج؟». ثم رفعت إصبعها إلى أنفها وغادرت.

راح ستيرفورث يضحك إلى الحد الذي جعل من المستحيل أن أتمالك نفسي من دون أن أضحك أيضًا. أتصور أنه ما كان لي أن أضحك بهذه الطريقة، لكنني لم أستطع مقاومة هذا الإغراء. عندما انتهينا من الضحك تمامًا بعد مرور مدة طويلة، راح ستيرفورث بعدها يحكي لي أن الآنسة ماوتشر لها علاقات واسعة النطاق، وأنها تقدم خدماتها لمجموعة متنوعة من الأشخاص بطرق متباينة. قال إن بعض الناس يعبثون بها ويعاملونها باعتبار أنها شخصية شاذة تمامًا، إلا أنها داهية وحادة الملاحظة، بل تفوق أي إنسان عرفته، وهي ذات بُعد نظر ولمَّاحة، كما أنها قصيرة الساق. أخبرني أن ما قالته عن وجودها بين مكان هنا وآخر هناك، أو في أي مكان، هو أمر صحيح تمامًا، وذلك لأنها تجوب المقاطعات لتجذب العملاء من كل مكان، وأنها لذلك على دراية بالجميع. سألته عن موقفها؛ هل كان مؤذيًا بأي شكل من الأشكال أم لا، وما إذا كان تعاطفها وانحيازها عمومًا إلى الجانب الصحيح من الأمور أم لا. إلا أنني لم أنجح في لفت انتباهه إلى هذه

الأسئلة بعد محاولتين أو ثلاث محاولات، فنسيت أن أكرر أسئلتي عليه أو تناسيت ذكرها. أخذ يتلو عليَّ بتواتر وسرعة بالغة قدرًا كبيرًا عن مهارتها وأرباحها، وأنها ممن برعوا في فنون العلاج بالحجامة، وأنني أستطيع -إن أردت- الاستفادة بخدماتها في هذا الأمر.

غدت الآنسة ماوتشر موضع محادثتنا الرئيسي طوال المساء، حتى إننا حين افترقنا في تلك الليلة ودعني ستيرفورث في أثناء نزولي من السلم قائلًا: «بون سوار».

انتابتني الدهشة بعدما عدت إلى منزل السيد باركس، حيث وجدت هام يغدو ذهابًا وإيابًا أمام البيت، بل زادت دهشتي حين عرفت منه أن إيميلي الصغيرة بالداخل. سألته بطبيعة الحال لماذا لم يدخل هو أيضًا، بدلًا من أن يسير في الشوارع وحده.

أجابني بتردد جديد قائلًا: «تسألني لماذا؟ لأن إيميلي - كما تعرف يا سيد ديفي - تتحدث إلى أحد هنا».

قلت مبتسمًا: «أظن أنه من الأجدر للسبب نفسه وجودك بالداخل أيضًا يا هام».

قال: «حسنًا يا سيد ديفي». ثم خفض صوته وراح يتحدث بلهجة جادة للغاية قائلًا: «أنصت إليَّ يا سيد ديفي، إنها تتحدث إلى شابة يا سيدي - امرأة شابة، كانت إيميلي قد عرفتها ذات مرة، ولا ينبغي لها أن تكون على علاقة بها بعد الآن».

ما إن سمعت هذه الكلمات، حتى ظهر ضوء أمام أفكاري، وإذا به

يسقط مشيرًا إلى الهيئة التي رأيتها تتبعهما منذ بضع ساعات.

قال هام: «إنها امرأة فقيرة يا سيد ديفي، لقد دهستها أقدام البلدة بأسرها. إنها شريدة تجول الطرقات. لا يستطيع إنسان هنا وإن كان في جوف قبر فناء الكنيسة أن ينأى عن كلام الناس وأعينهم».

سألته: «وهل هي من رأيتها الليلة يا هام تسعى فوق الرمال بعد أن قابلناك؟».

قال هام: «أكانت تراقبنا؟ أحسب أنها هي يا سيد ديفي، ليس لأنني كنت أعرف أنها تتبعنا يا سيدي، وإنما لأنها سرعان ما تسللت تحت نافذة إيميلي الصغيرة عندما أبصرت النور منبعثًا منها، وراحت تهمس منادية: «إيميلي، يا إيميلي، أستحلفكِ بالمسيح، فلتنظري إليَّ بقلب امرأة. لقد كنت مثلك في يوم من الأيام». وكم كان وقع هذه الكلمات جللًا يا سيد ديفي على مسامعها».

قلت: «لقد كانت مؤثرة بالفعل يا هام. وماذا فعلت إيميلي؟».

أجاب: «راحت إيميلي تقول: «هل هذا أنتِ يا مارثا؟ آهٍ يا مارثا، هل يمكن أن تكوني أنتِ؟» - لأنهما كانتا قد جلستا معًا في العمل عدة مرات يوميًّا، في متجر السيد عمر».

صرخت قائلًا: «أتذكرها الآن، أتذكرها جيدًا». كنت قد تذكرت إحدى الفتاتين اللتين رأيتهما في أولى زياراتي إلى المتجر.

قال هام: «إنها تُدعى مارثا إندل. تكبر إيميلي بسنتين أو ثلاث سنوات، لكنها كانت زميلتها في المدرسة».

قلت: «لم أسمع اسمها قَطُّ. آسف لم أقصد مقاطعتك».

أجاب هام: «إن كل ما يتعلق بأمرها يا سيد ديفي قد قيل للجميع في كلماتها هذه: «إيميلي، يا إيميلي، أستحلفكِ بالمسيح، فلتنظري إليَّ بقلب امرأة. لقد كنت مثلك في يوم من الأيام». أرادت التحدث إلى إيميلي. لم تستطع إيميلي التحدث معها، لأن عمها الحبيب كان قد عاد إلى المنزل، ولا يقبل أبدًا... لا، يا سيد ديفي». تحدث هام بنبرة بالغة الجدية واسترسل قائلًا: «لم يستطع القبول بهذا الأمر، على الرغم من لطفه ورقة قلبه المعهودة، لا يقبل أن يراهما معًا جنبًا إلى جنب، ولو منحوه كنوز البحار الغارقة بأسرها».

شعرت أن هذا الكلام صحيح. صرت على يقين من أمره في الحال، تمامًا مثلما شعر هام.

تابع هام قائلًا: «لذلك فقد كتبت إيميلي شيئًا بالقلم الرصاص على قطعة من الورق، وزجت إليها بلفافة الورق لتأتي إلى هنا، فقد قالت لها: «أظهري هذه الورقة لعمتي السيدة باركس، وستُجلسكِ بجانب المدفأة، من أجل محبتها لي، حتى يخرج عمي، وساعتها يمكنني أن آتي إليكِ». ثم أخبرتني بهذا الأمر الذي قلته لك يا سيد ديفي وطلبت مني إحضارها إلى هنا. ماذا أفعل الآن؟ لا ينبغي لها أن تعرف امرأة على هذه الشاكلة، لكنني لا أستطيع أن أرفض طلبها، خاصة حين تسألني وقد انسكبت الدموع على صفحة وجهها».

وضع يده في صدر سترته الشعثاء، وأخرج محفظة صغيرة جدًّا بعناية فائقة.

قال هام بينما يُعدِّل من هيئة المحفظة في حنان فوق كف يده الخشنة: «وإن كنت أستطيع منعها حين انهمرت الدموع على صفحة وجهها يا سيد ديفي، فكيف يمكنني منعها بعد أن أعطتني هذه المحفظة لأحملها لها؟ هل أعرف سبب إحضارها؟ يا لهذه اللعبة الصغيرة! إنها لا تحوي سوى مال زهيد يا إيميلي العزيزة». تحدث هام بهذه الكلمات بينما راح ينظر إلى المحفظة متأملًا حجمها الصغير.

شددت على يديه في حرارة بينما راح يعيد وضع المحفظة إلى جيبه مرة أخرى - كان هذا التصرف أكثر إرضاء لي من أن أتفوه بقول أي شيء، ثم سرنا في صمت جيئة وذهابًا لمدة دقيقة أو دقيقتين. انفتح الباب بعد ذلك، وظهرت بيجوتي، تطلب من هام الدخول إلى البيت. وقد كنت سأبقى بعيدًا، لولا أنها لحقت بي وراحت تحثني على الدخول أيضًا. أردت حينها أن أتجنب الغرفة التي جلسوا فيها مجتمعين، لولا أنهم كانوا في المطبخ الأنيق النظيف الذي ذكرته أكثر من مرة فيما قبل. فُتح الباب على الفور، فوجدت نفسي بينهم قبل أن أفكر في وجهتي.

كانت الفتاة - هي التي رأيتها على الرمال - تجلس بالقرب من المدفأة. جلست على الأرض وقد أسندت رأسها وذراعيها على مقعد. تخيلت من تصرفات إيميلي أنها قد نهضت من المقعد نفسه لتوِّها، وأن رأسها البائس ربما كان ملقى على حجرها. لم أرَ سوى مساحة قليلة من وجه الفتاة، حيث تساقط شعرها وتناثر، كما لو أنها نشرته بيديها لتخفي ملامحها، لكنني لاحظت ملامحها الفتية وأنها ذات بشرة فاتحة. كانت بيجوتي تبكي، وكذلك بدا على إيميلي الصغيرة النحيب. لم نسمع

كلمة واحدة بعدما دخلنا في أول الأمر، حتى إنه قد بدا لي أن الساعة الهولندية القابعة على جانب الخزانة، تدق بصوت أعلى من المعتاد وسط هذا الصمت المطبق، إلى أن افتتحت إيميلي الحديث.

قالت لهام: «إن مارثا تريد الذهاب إلى لندن».

سأل هام قائلًا: «لماذا تتجه إلى لندن؟».

وقف هام بينهما ينظر إلى الفتاة المنحنية فوق المقعد بمزيج من الشفقة، والغيرة من مرافقتها للفتاة التي ولع بها، وقد ظلت هذه الذكرى ماثلة أمام خاطري دائمًا في جلاء. ظلا يتحدثان كما لو أن الفتاة مريضة. كانت نبراتهما خافتة ومكتومة إلا أنها ظلت مسموعة بوضوح، على الرغم من أنها لم ترتفع عن كونها همسات تدور بينهما.

تحدث صوت ثالث بنبرة عالية مدوية. كان الصوت لمارثا، إلا أنها لم تتحرك من مكانها، بل قالت: «هناك أفضل من هنا. لا أحد يعرفني هناك أما هنا فالجميع يعرفني».

سألها هام: «ماذا ستفعلين هناك؟».

رفعت رأسها ونظرت حوله للحظة في نظرات يائسة مقبضة. ثم أشاحت بوجهها مرة أخرى، وقد قوست ذراعها اليمنى حول رقبتها، كما لو أنها امرأة مصابة بالحمى، أو أنها تتلوى على نفسها إثر عذاب الألم من قذيفة نيران قد أصابتها.

قالت إيميلي الصغيرة: «ستحاول أن تتدبر أمرها بشكل جيد. إنك لا تعرف ما قالته لنا. هل يعرف الأمر يا عمتي؟».

هزت بيجوتي رأسها في نوع من الشفقة.

قالت مارثا: «سأحاول أن أتدبر أمري، إذا ساعدتني على الرحيل بعيدًا. لن أقدم أبدًا على اقتراف فعل أسوأ مما فعلت هنا. قد أسلك دربًا أفضل». راحت ترتجف بشكل مخيف، وغدت تقول: «آهٍ، أخرجني من هذه الشوارع، التي يعرفني فيها أهل المدينة بأكملها منذ طفولتي».

مدت إيميلي يدها إلى هام، فإذا بي أبصره بينما يضع فيها محفظة صغيرة من قماش. أخذتها - حيث ظنت أنها محفظتها، ثم تقدمت خطوة أو خطوتين للأمام، لكنها اكتشفت أنها ليست المحفظة التي تريدها، فعادت أدراجها، واقتربت من هام الذي كان يجلس بالقرب مني، ونبهته لأمر المحفظة.

تحدث بصوت كنت أستطيع سماعه حين قال: «إن كل شيء ملك لكِ يا إيميلي. إنني لا أملك شيئًا الآن إلا وتملكينه يا عزيزتي. لا تسعدني غير سعادتكِ».

فاضت الدموع من عينيها، لكنها استدارت ومثلت أمام مارثا. لا أعرف ما الشيء الذي أعطته إياها، إلا أنني رأيتها تنحني وتضع مالًا في حضنها، همست إليها بشيء، كما لو أنها تسألها هل هذا يكفي؟ فأجابت الأخرى: «يكفي وزيادة»، ثم أمسكت بيدها وقبلتها.

قامت مارثا، ولفت أطراف شالها حولها، ثم غطت وجهها به، وظلت تبكي بصوت عالٍ، ثم توجهت ببطء نحو الباب. توقفت لحظة قبل أن تخرج، وبدت كما لو أنها ستقول شيئًا ما أو أنها ستتراجع عن

شيء، إلا أنها لم تنبس ببنت شفة. مشت وهي تئن أنينًا موجعًا، بائسة بين لفحات شالها.

أُغلق الباب، فنظرت إيميلي الصغيرة إلى ثلاثتنا نظرات سريعة، ثم أخفت وجهها بين يديها، وخرت منهارة باكية.

راح هام يربت على كتفها في رفق بينما يقول: «لا تبكي يا إيميلي، لا تبكي يا عزيزتي. ليس عليكِ أن تنتحبي بهذا الشكل يا جميلة».

صرخت، بينما ظلت تبكي بصورة مثيرة للشفقة: «آهٍ يا هام! إنني لست فتاة طيبة كما ينبغي أن أكون. أعلم أنني لا أملك قلبًا ممتنًّا في بعض الأحيان، بينما عليَّ أن أتحلى بالعرفان».

قال هام: «بلى، بلى، إنكِ تملكين قلبًا شاكرًا، إنني متأكد من ذلك».

صرخت إيميلي الصغيرة وهي تبكي وتهز رأسها قائلة: «لا! لا! لا! إنني لست فتاة طيبة كما ينبغي أن أكون. ولست حتى قريبة من ذلك. إنني بعيدة كل البعد»، ثم ظلت تبكي كما لو أن قلبها على وشك أن ينفطر.

أخذت تبكي قائلة: «إنني أختبر حبك في مواضع شتى. أعلم أنني أفعل ذلك. كنتُ غالبًا ما ألجأ إليك، ثم أغير معاملتي معك، في الوقت الذي لا بد فيه أن أتعامل معك بصورة مغايرة تمامًا. إنك لا تبادلني هذه المعاملة المتقلبة نفسها. أي شيء يدفعني لأن أتصرف بهذا السوء معك، في حين أن الأجدر بي ألا أفكر بشيء سوى الامتنان لك، وأن أحاول إسعادك!».

قال هام: «إنكِ تشعرينني بالسعادة دائمًا يا عزيزتي، إنني أسعد لرؤيتكِ، كما أسعد طوال اليوم لمجرد التفكير بكِ».

بكت قائلة: «آه، هذا لا يكفي. إنك تستشعر السعادة لأنك إنسان طيب، وليس لأنني أُشعرك بها. آهٍ يا عزيزي، ربما كان من الأنفع لك لو أحببت فتاة أخرى توليك اهتمامًا وامتنانًا يفوق ما أقوم به، وترتبط بك وتحافظ عليك بما يفوقني، فلا تقابل فتاة متقلبة مثلي».

تحدث هام في صوت منخفض، فراح يقول: «يا لقلبكِ الصغير المسكين. لقد أثَّرت مارثا عليه تمامًا».

بكت إيميلي قائلة: «أرجوكِ يا عمتي، اقتربي مني هنا، ودعيني أسند رأسي إليكِ. آهٍ، يا لي من فتاة في أقصى درجات البؤس هذه الليلة يا عمة! آهٍ، إنني لست بالفتاة الطيبة كما ينبغي أن أكون. أعلم إنني لست صالحة».

سارعت بيجوتي إلى المقعد القابع قبالة المدفأة. بينما ركعت إيميلي بجانبها، وقد أحاطتها بيجوتي بذراعيها فطوقت رقبتها، وراحت تنظر بجدية إلى وجهها.

راحت إيميلي تقول: «آهٍ، صلي لأجلي يا عمتي، فلتطلبي لي الرحمة. يا عزيزي هام، فلتطلب لي الرحمة. يا سيد ديفيد، من فضلك، إني أرجوك باسم الأيام الخوالي أن تطلب لي الرحمة. أريد أن أكون فتاة أفضل مما أنا عليه. أريد أن أشعر بالامتنان أضعافًا تفوق ما أشعر به. أريد أن أتعلم أكثر، ويا لها من مباركة لو أنني تعلمت كيف أصير زوجة

صالحة لرجل صالح، وأن أعيش حياة سالمة طيبة. آه من حالي! آه من حالي! آه يا قلبي! يا قلبي!».

غاص وجهها بين نهدَي مربيتي العجوز، بعد أن أوقفت هذا الدعاء الذي كان عذابه وحزنه يبدوان تارة كعذاب وحزن امرأة، وتارة كعذاب وحزن طفل، فكانت هيئتها كما كانت حالها أقرب إلى هذا الامتزاج وأنسب لها. كانت حالتها في ظني أقرب إلى الجمال، عوضًا عن أي طريقة أخرى. لقد راحت تذرف الدموع في صمت، بينما مكثت مربيتي العجوز تهدهدها لتسكتها كما لو كانت رضيعة.

أخذت تهدأ تدريجيًّا، ثم رحنا نواسيها في هذه اللحظة فنتحدث إليها بشكل مشجع، وبدأنا بعدها نمزح معها قليلًا، حتى بدأت ترفع رأسها وتتحدث إلينا. واصلنا مزاحنا معها حتى استطاعت أن تبتسم، ثم تضحك، ثم تجلس بنوع من الخجل، بينما أخذت بيجوتي تلملم خصلات شعرها الضالة، وتجفف عينيها، وترتب هيئتها مرة أخرى خشية أن يتساءل عمها بعدما تعود إلى المنزل، عن سبب بكاء حبيبته الغالية.

رأيتها في تلك الليلة، تقوم بشيء لم أرَها تفعله من قبل. لقد رأيتها تُقبل زوجها المختار على خده ببراءة، وتزحف بالقرب من جسده الممشوق كما لو أنها ستجد فيه أفضل داعم لها. انطلقا معًا في ضوء القمر المتضائل، وقد رحت أنظر إليهما وأتابعهما، بعد أن رحت أقارن في ذهني بين هيئة رحيلهما وهيئة رحيل مارثا، وإذا بي أبصر إيميلي تمسك بذراع هام بكلتا يديها، ولم تزل قريبة منه ملتصقة به.

الفصل الثالث والعشرون

أشاور السيد ديك وأختار مهنة

استيقظت في الصباح، وإذا بي أفكر في إيميلي الصغيرة، وأنشغل بانفعالاتها التي أبدتها في الليلة الماضية بعد أن غادرتنا مارثا. أحسست أنني لم أضع يدي على نقاط ضعف وحنو هذه العائلة إلا لأنني أتمتع بقدر من الثقة المقدسة، وأن الكشف عنها سيكون تصرفًا مكروهًا حتى لو كان لستيرفورث. لم أَكُن أي شعور حانٍ لأي إنسان إلا لتلك المخلوقة الجميلة التي كانت رفيقة الطفولة واللعب، وقد كنت مقتنعًا دائمًا بأنني أحببتها بإخلاص، بل سأبقى على هذه القناعة حتى توافيني المنية. أما البوح بسرها إلى أي آذان -حتى لو كانت آذان ستيرفورث- والإفصاح عما لم تستطع قمعه بعد أن انفتح قلبها أمامي بسبب حادث، فهو ليس إلا عمل فظ، بل إنه لا يليق بي، ولا يليق بوهج طفولتنا النقية، الذي لبث يحيط برأسها دومًا على مرأى مني. فلم يكن مني إلا أن اتخذت قرارًا بإبقاء سرها بين جوانحي، بينما أهب لصورتها وهجًا جديدًا.

كنا نتناول الإفطار، وإذا برسالة تصلني من عمتي. كانت رسالتها تحوي أمرًا ما، وقد ظننت أن بإمكان ستيرفورث أن ينصح لي في هذا الأمر، كأي إنسان آخر لديه مثل هذه الخبرات، كما أنني أعرف أنني سأسعد بالتشاور معه، لذا فقد عقدت العزم على أن أناقشه في رحلة عودتنا إلى الوطن. كنا في ذلك الوقت منشغلين بتوديع جميع أصدقائنا. لم يستطع السيد باركس أن يفرغ من توديعه لنا، لما أبداه من غم لرحيلنا، وأحسب أنه كان ليفتح الصندوق مرة أخرى، ويضحي بجنيه آخر، إن كان سيبقينا ثماني وأربعين ساعة أُخر في يارموث. أحست بيجوتي وأفراد عائلتها جميعًا بحزن بالغ لرحيلنا، كما جاء أفراد بيت عمر وجورام لوداعنا. حضر كثير من الملاحين إلى ستيرفورث، كما تطوع عدد من العاملين بالبحر ونقلوا حقائبنا إلى الحافلة، فلو أننا أردنا نقل أمتعة فوج كامل معنا، لما احتجنا إلى استئجار من يحملها لنا. باختصار، لقد رحلنا وسط أسف وإعجاب جميع المهتمين بنا، وتركنا أناسًا كثيرين في غاية الحزن خلفنا.

قلت: «هل ستمكث هنا طويلًا يا ليتيمر؟». لقد كان يقف منتظرًا رؤية السائق حين يشرع في التحرك.

أجاب: «لا يا سيدي. ربما لن أمكث طويلًا يا سيدي».

قال ستيرفورث بنوع من اللا مبالاة: «لا يستطيع الآن تحديد أوقاته. إنه يعرف ما يجب عليه فعله، وسيؤدي دوره».

قلت: «إنني متأكد من أنه سيؤدي عمله على أكمل وجه».

رفع ليتيمر قبعته اعترافًا برأيي السديد، فشعرت أنني قد كبرت في نظره نحو ثمانية أعوام تفوق عمري تقريبًا. رفع قبعته مرة أخرى، متمنيًا لنا رحلة سعيدة، ثم تركناه واقفًا على الرصيف ليبدو لغزًا معتبرًا كأحد أهرامات مصر.

لم نخُض حديثًا لبعض الوقت، وقد ظل ستيرفورث صامتًا على غير عادته، بينما كنت منخرطًا في كثير من التساؤلات التي تجول في خاطري، فرحت أفكر متى تحين لي الفرصة لزيارة الأماكن القديمة مرة أخرى، وما التغييرات الجديدة التي قد تلحق بي أو بها في هذه المدة؟ إلا أن ستيرفورث جذبني إليه من جديد، ونبهني إلى حديث كان قد بدأه في لحظة، حيث يستطيع أن ينتقل من أي نقطة إلى أي شيء يحبه في لحظة خاطفة. جذبني من ذراعي متسائلًا:

«أسمعني صوتك يا ديفيد. ما أمر الرسالة التي كنت تتحدث عنها وقت الإفطار؟».

أخرجتها من جيبي قائلًا: «آهٍ، إنها من عمتي».

«وما الأمر الذي تحتاج فيه إلى النصح؟».

قلت: «يا ستيرفورث، إنها تذكرني أنني خرجت في هذه الرحلة للبحث عن ذاتي والتفكير قليلًا فيما أبتغيه».

«ألم تفعل ذلك بالطبع؟».

«في الواقع لا أستطيع أن أقول إنني حققت هدفي على وجه الدقة، بل أصارحك بقول الحقيقة، أخشى أنني نسيت هذا المرمى».

قال ستيرفورث: «حسنًا. تأمل الآن، وعوِّض إهمالك. انظر إلى اليمين، ترَ بلدًا منبسطًا، يحوي عددًا لا بأس من المستنقعات، ثم انظر إلى اليسار، وسترى الشيء نفسه. انظر إلى الأمام، ولن تجد فرقًا، انظر إلى الخلف، فلن تجد ما يخالف المشهد ذاته».

ضحكت، وأجبت أنني لم أرَ في كل الاحتمالات أي مهنة مناسبة لي، ولعل الأمر يعود إلى رتابة هذه البلدان.

ألقى ستيرفورث نظرة خاطفة على الرسالة التي في يدي وسألني: «ما رأي عمتنا في هذا الموضوع؟ هل تقترح أي شيء؟».

قلت: «بالطبع، نعم، إنها تسألني هنا، عما إذا كنت أستطيع أن أعمل وكيلًا أم لا؟ فما رأيك في هذه المهنة؟».

أجاب ستيرفورث في برود: «حسنًا، لا أظنها مهنة ملائمة. أحسب أنك تستطيع القيام بهذه الوظيفة مثل أي وظيفة أخرى، أليس كذلك؟».

لم يسعني إلا أن أضحك مرة أخرى، بعدما صرح بأنه يرى أن الوظائف والمهن جميعها على قدم المساواة، وقد صرحت له بذلك.

سألته: «وما وظيفة وكيل الأعمال يا ستيرفورث؟».

أجاب ستيرفورث: «حسنًا، إنه نوع من المحامين أشبه بالرهبان. تتصور بعض المحاكم الباهتة المنعقدة في حي المحامين، أن أصحاب هذه المهنة قابعون في زاوية قديمة خاملة بالقرب من كنيسة القديس بولس، وأنهم أشبه بجماعة من المحامين لا يترافعون أمام محاكم القانون أو الاستئناف. إن الوكيل ليس إلا موظف كان من الممكن أن ينتهي وجوده

ودوره في دائرة المسار الطبيعي للأشياء منذ نحو مائتي عام. أما أفضل ما يمكن قوله لك هو أن أحدثك عن حي المحامين. إنه مكان بعيد المنال، على منأى من الناس، حيث يديرون ما يسمى بالقانون الكنسي، فيلجون إلى جميع أنواع الحيل لتطبيق قوانين ضاربة قديمة، قد عفا عليها الزمن في أعمال البرلمان، والتي لا يعرف عنها ثلاثة أرباع العالم شيئًا، أما الربع الأخير فيفترضون أنهم قد نقبوا عنه واستخرجوه في حالة تشبه الحفريات التي استخرجت أيام إدوارد. إنه مكان احتكر الدعاوى المتعلقة بالوصايا وزيجات الناس والخلافات بين السفن والقوارب».

صرخت: «يا لهذا الهراء يا ستيرفورث! أظن أنك لا تقصد أن تقول إن ثمة صلة بين الأمور البحرية والأمور الكنسية؟».

أجابني قائلًا: «لا، لم أقصد ذلك في الواقع يا بني العزيز، لكنني أقصد أن أقول إنهم يدارون ويراقبون من الجماعة ذاتها التي تدير كلية المدنيين[1]. ستذهب إلى هناك يومًا، وستجد أنهم يتخبطون بين نصف المصطلحات البحرية في قاموس يونج، على غرار اصطدام سفينتي «نانسي» و«سارة جين» بعد أن أبحرتا، أو أن السيد بيجوتي ورجال المراكب في يارموث قد خاضوا البحار وسط الريح العاصفة، وقد ألقوا بالحبال والمراسي إلى «نيلسون»[2] لإنقاذها من محنتها، ثم

---

(١) يطلق على «كلية المدنيين» اسم «مجلس الأطباء *Doctors 'Commons*»، وهم جماعة من المحامين الذين يمارسون القانون غير العرفي في لندن، أي القانون الكنسي وقانون الأميرالية. كانت لهم مبانٍ بها غرف ومكتبة كبيرة حيث عاشوا وعملوا، كما عرف مكانهم باسم «حي المحامين».

(٢) انطلق ضابط يدعى نيلسون يحمل الحبال في محاولة لإرساء سفينة لإنقاذها من الانزلاق، وتثبيتها بالحبال حتى يتفادى دمارها، وقد أطلق على السفينة التي أنقذت اسم الضابط نفسه.

ستذهب في يوم آخر إلى المكان نفسه، فتجدهم في بحث دؤوب عن الأدلة بما فيها من تأييد أو نفي، لتدين قسيسًا أساء التصرف، ثم تجد القاضي الذي حكم في القضية البحرية، وقد صار محاميًا في قضية رجل الدين، أو العكس. إنهم مثل الممثلين؛ يكون الرجل قاضيًا الآن، ثم يبتعد عن القضاء في اللحظة ذاتها. يكون شيئًا في لحظة، ثم يتلون إلى شيء آخر في اللحظة ذاتها. يتغير ويتغير، إلا أنها أمور لطيفة للغاية دائمًا ومربحة جدًا، كالمسرحيات الخاصة التي تعرض أمام جمهور تم اختياره بصورة».

قلت في حيرة: «لكن المحامين والوكلاء ليسوا سواء، أليس كذلك؟».

قال ستيرفورث: «كلا، إن المحامين مدنيون - رجال حصلوا على درجة الدكتوراة في الكلية - وهذا هو السبب الأول لمعرفتي بأمورهم. أما الوكلاء فإنهم من يوظفون المحامين. يحصل كلاهما على رسوم مجزية للغاية، فيحوزا معًا غنيمة صغيرة رائعة وممتعة. خلاصة القول أوصيك يا ديفيد أن تطرق أبواب كلية المدنيين بتيقظ وتمهل. وأستطيع أن أقول لك شيئًا سيرضيك إن أردت؛ هو أنهم يضفون على أنفسهم مهابة وقدرًا رفيعًا».

لقد استوعبت طريقة ستيرفورث واستخفافه خلال معالجة الموضوع، كما أخذت في الاعتبار ذاك الهواء الخشن الذي يحاوط تلك البلدة العتيقة التي يشير إليها بـ«الزاوية العتيقة الخاملة التي تقع بالقرب من ساحة كنيسة القديس بولس»، فلم أشعر بارتباك أمام اقتراح

عمتي، فقد تركت لي حرية اتخاذ قراري، ولم تتردد في إخباري أن الأمر لم يكن سوى محض خاطرة منها، بعد زيارتها الأخيرة لوكيلها الخاص في حي المحامين إثر رغبتها في تسوية وصيتها بما يصب في مصلحتي.

قال ستيرفورث عندما ذكرت له هذا الأمر: «إنه إجراء جدير بالثناء من جانب عمتنا، ونشكرها عليه في كل الأحوال. وإنها لخطوة تستحق كل التشجيع. نصيحتي لك يا أقحوانتي هي أن تتعامل بلطف مع مجتمع كلية المدنيين».

لقد عقدت العزم على الالتحاق بهذه الكلية. أخبرت ستيرفورث أن عمتي تنتظرني في المدينة (كما فهمت من رسالتها)، وأنها قد أقامت في حجرة لأسبوع في فندق خاص في شارع «لينكولن إن فيلدز»، حيث تحوي حجرتها سلمًا حجريًّا خاصًّا، وبابًا مريحًا، وتقبع على السطح، لأن عمتي كانت على قناعة بأن كل منزل في لندن سينشب فيه حريق كل ليلة.

لقد قضينا بقية رحلتنا في جو ممتع، وكنا نتطرق من وقت لآخر إلى الحديث عن كلية المدنيين، ونتخيل المستقبل البعيد حين أصير فيها وكيلًا. أما ستيرفورث فقد راح يتخيل صورتها وقد اتخذت عدة تنويعات متلألئة الأضواء، فكانت مرحة ومتقلبة، فضحك كلانا متفكهًا بهذه الصور. وصلنا إلى نهاية رحلتنا، فعاد ستيرفورث إلى منزله، بعد أن وعدني بالزيارة بعد الغد. أما أنا فقد اتجهت بالعربة إلى لينكولن إن فيلدز، حيث وجدت عمتي تنتظر تناول العشاء.

لو كنت أجوب العالم منذ أن افترقنا، لما كنا سعيدين باللقاء مرة أخرى إلى هذا الحد الذي كنا عليه. لقد بكت عمتي علانية بينما راحت تعانقني. ثم أثنت تقول متظاهرة بالضحك، إنه لو كانت أمي المسكينة على قيد الحياة، فلا شك أن هذا المخلوق الصغير السخيف كان ليذرف الدموع أنهارًا.

قلت: «هل تركت السيد ديك وراءكِ إذن، أيتها العمة؟ آسف له. آه يا جانيت، كيف حالك؟».

كانت جانيت تلوح لي بيدها، وبينما راحت تسألني عن أحوالي وصحتي، إذا بي ألاحظ أن وجه عمتي يستطيل للغاية.

قالت عمتي وهي تفرك أنفها: «إنني آسفة لذلك أيضًا. لم أشعر براحة البال يا تروت، منذ أن كنت هنا». وقبل أن أتمكن من السؤال عن السبب كانت قد أخبرتني.

قالت عمتي وهي تضع يدها بحزم وحزن على الطاولة: «إنني مقتنعة بأن شخصية مثل شخصية ديك ليست مجرد شخصية تصلح لإبعاد الحمير وحسب. إنني واثقة من أن كل ما يحتاجه هو أن يدعم قوة إرادته. كان الأجدر بي أن أترك جانيت في المنزل، فربما كنت قد أرحت خاطري بدلًا من أن أشوشه». أكملت عمتي حديثها مع تأكيد أقوالها: «إذا كان ثمة حمار تعدى على ممتلكاتي يومًا، فإنه ذاك الحمار الذي جاءني في الساعة الرابعة بعد الظهر؛ حين تملكني شعور بالبرد من رأسي إلى أخمصي قدمي، وأنا أوقن أنه كان حمارًا!».

حاولت مواساتها في هذه النقطة لكنها رفضت عزائي.

قالت عمتي: «لقد كان حمارًا ذا ذيل قصير، ركبته هذه الشقيقة المُرْدِية، عندما جاءت إلى منزلي». كان هذا هو الاسم الوحيد الذي تعرفه عمتي عن الآنسة مردستون منذ ذلك الحين. استطردت عمتي حديثها بينما راحت تضرب الطاولة بيدها وتقول: «إذا كان ثمة حمار في دوفر، يصعب عليَّ تحمل جرأته أكثر من سواه، فهو هذا الحيوان!».

غامرت جانيت بالتلميح إلى أن عمتي تزعج نفسها من دون داعٍ، وأنها تعتقد أن الحمار المعني كان يقوم بأعمال نقل للرمل والحصى، ولم يكن يستخدم لأغراض التعدي على ممتلكات الغير. لكن عمتي لم تستمع إلى كلماتها.

قُدِّم إلينا العشاء الساخن الشهي، على الرغم من أن غرفة عمتي كانت مرتفعة جدًّا وبعيدة عن موضع إعداده. لا أعرف السبب الذي جعل عمتي تستأجر هذا الموضع البعيد؛ هل تقبلت المزيد من السلالم الحجرية مقابل اقتصاد جزء من نقودها، أو ربما اختارت أن تكون قريبة من باب السطح طلبًا للأمان. كان العشاء على أي حال يتكون من دجاج مشوي وشريحة من اللحم مع بعض الخضار، وقد ذقت كل صنوفه وكانت جميعها ممتازة. أما عمتي فكان لديها بعض التحفظات الخاصة بأطعمة لندن، فلم تأكل إلا القليل.

قالت عمتي: «أفترض أن هذا الطير المؤسف ولد ونشأ في قبو، ولم يستقبل الهواء أبدًا إلا في موقف حديث للعربات. آمل أن تكون شريحة

اللحم من اللحم البقري، لكنني لا أتوقع ذلك. لا يوجد شيء حقيقي في رأيي في هذا المكان سوى الأوساخ».

ألمحتُ قائلًا: «ألا تحسبين أن الدجاج ربما يكون من خارج البلاد يا عمتي؟».

ردت عمتي: «بالتأكيد لا. لن يكون من دواعي سرور أي تاجر في لندن أن يبيع أي شيء حقيقي وإن تظاهر به».

لم أجرؤ على مخالفة هذا الرأي، لكنني اكتفيت بالتزود بمثل هذا العشاء الشهي، وقد أسعد عمتي أن ترى إقبالي على الطعام. رفعت الطاولة، ثم ساعدتها جانيت في ترتيب شعرها، وارتداء طاقية النوم الخاصة بها، والتي كانت ذات هيئة أصلب من المعتاد. علقت عمتي على هيئة هذه الطاقية قائلة: «إنها حامية في حالة نشوب حريق». ثم راحت تلف رداءها حول ركبتيها، وكانت هذه هي استعداداتها المعتادة لتدفئة نفسها قبل النوم. هيأت جانيت عمتي للنوم؛ وفقًا لبعض العادات المعمول بها، والتي لا يُسمح بأي انحراف عنها مهما كان طفيفًا، فأعدت لها كوبًا من النبيذ الساخن والماء، وشريحة من الخبز المحمص المقطع إلى شرائح رفيعة طويلة. رحلت جانيت بعد أن تركتنا مع هذه الرفقة وحدنا لإنهاء المساء، وقد جلست عمتي أمامي تشرب الخمر والماء، وقد أخذت تنقع فيه شرائح الخبز المحمص واحدة تلو الأخرى قبل أن تتناولها، بينما راحت تنظر إليَّ في حنان من بين حدود طاقيتها الليلية.

طفقت تقول: «حسنًا يا تروت، ما رأيك في فكرة أن تعمل وكيلًا؟ أم أنك لم تبدأ في التفكير في الأمر بعد؟».

قلت: «لقد فكرت كثيرًا في الأمر يا عمتي العزيزة، وتحدثت كثيرًا عن هذه المسألة مع ستيرفورث. إنني أحببت تعلم هذا الأمر في الواقع حبًّا جمًّا. أحب القيام بذلك للغاية».

قالت عمتي: «مرحى، يا له من أمر مبهج!».

«ليس لديَّ سوى عقبة واحدة يا عمتي».

راحت تقول: «قل ما هي يا تروت».

«حسنًا، أريد أن أسأل يا عمتي -بعد أن بدت لي هذه المهنة كما فهمت محدودة - ما إذا كان دخولي إليها سيكون مكلفًا للغاية أم لا؟».

ردت عمتي قائلة: «سيكلفك التدرب ألف جنيه فقط، حتى تستطيع اجتياز الامتحان».

رحت أقرب مقعدي منها قائلًا: «أما الآن يا عمتي العزيزة، فإن بالي لم يعد يرتاح إلى هذا الأمر. إنه مبلغ كبير. لقد أنفقتِ الكثير على تعليمي، وكنتِ دائمًا سخية في كل شيء في كل ما يتعلق بتعليمي. لقد كنتِ تجسيدًا لروح الكرم. لا أشك في وجود بعض الطرق المختلفة التي قد أبدأ بها حياتي بنفقات أقل، ومع ذلك سأبدأ على أمل طيب في المضي قدمًا بالإصرار والعزيمة الصادقة. هل أنتِ متأكدة من أنه لن يكون من الأفضل سوى تجربة هذا المسار في التدرب؟ هل أنتِ متأكدة من قدرتكِ على تحمل هذا القدر من المال، وأنه من الصواب أن ينفق هذا القدر الكبير؟ إنني أسألكِ فقط بصفتكِ أمي الثانية، أن تفكري في الأمر. هل أنتِ متيقنة من الفكرة ذاتها؟».

انتهت عمتي من تناول قطعة الخبز المحمص التي كانت في يدها، وقد لبثت تنظر إلى وجهي تتأمله طوال الوقت، ثم وضعت كأسها فوق المدفأة، وراحت تقبض بين يديها أطراف تنورتها المطوية، ثم أجابت بما يلي:

«أنصت إليَّ يا بُني، إذا كان ثمة شيء أبتغيه من الحياة، فهو أن أوفر لك ما يجعل منك رجلًا صالحًا عاقلًا، وسعيدًا. إنني عازمة على إتمام دوري وكذلك ديك. أود أن يستمع بعض الأشخاص الذين أعرفهم إلى رأي ديك حول هذا الموضوع، لأن حكمته بالغة، لكن لا أحد يقدر موارد عقل هذا الرجل إلا أنا».

توقفت عن الكلام للحظة حتى تمسك بيدي بين يديها، ثم تابعت قائلة:

«من العبث يا تروت، أن نتذكر الماضي، إلا إذا كان لتذكره تأثير على الحاضر. كان من الممكن أن أصير أقرب أصدقاء والدك المسكين، ربما ربطتني علاقة أفضل بتلك الطفلة المسكينة والدتك، حتى بعد أن خيَّبت أملي في أختك بيتسي تروتوود. أحسب أنني فكرت في هذا كله بعدما أتيت إليَّ، صبيًّا صغيرًا هاربًا، مغبرًا تمامًا ومرهقًا. صرت من ذلك الحين وحتى الآن يا تروت، موضع فخري وسعادتي. لا تراودني أي مطالب أو آمال فيما أملك سوى أن أحقق لك ما تريد، على الأقل...» - ترددت هنا، وقد تعجبت لها ولارتباكها في هذه اللحظة - «لا، ليست لديَّ أي مطالب أو آمال فيما أملك، وإنك لطفلي الذي أرعاه. لتكن طفلًا محبًّا لي في عجزي، ولتتحمل تقلباتي وأوهامي،

وأعرف أنك ستفعل ما في وسعك من أجل امرأة عجوز لم تعِش حياتها سعيدة أو سلسة كما كان الأجدر بها أن تكون، فلتحسن إليها ولتجُد بما يفوق ما أسدته تلك المرأة العجوز إليك في يوم من الأيام».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عمتي تشير إلى ماضيها. كانت قد أضفت نوعًا من النضج على طريقتها الهادئة التي استرسلت بها في حكيها، وكذلك على الطريقة التي أنهت بها حديثها، مما جعلني أبجلها وأزيد من احترامي ومحبتي لها.

قالت عمتي: «صار كل شيء متفقًا عليه ومفهومًا بيننا الآن يا تروت، ولا نحتاج إلى الحديث عنه أكثر من ذلك. أعطني قبلة، وسنذهب إلى مجلس العموم غدًا بعد تناول الإفطار».

أجرينا محادثة طويلة بالقرب من المدفأة قبل أن نأوي إلى الفراش. كنت أنام في غرفة في نفس الطابق مع عمتي. كنت منزعجًا قليلًا في أثناء الليل لأنها طرقت باب غرفتي لتشكو غضبها واستياءها من صوت بعيد لعجلات العربات أو عربات السوق، وأخذت تسألني: «هل سمعت صوت المحركات؟»، ولكن بحلول الصباح راحت في سبات، فغصت في النوم بدوري أيضًا.

حلت الظهيرة، فانطلقنا إلى مكتب الأستاذين سبنلو وجوركنز في كلية المدنيين. كان لعمتي رأي آخر في لندن، أرادت أن تشير إليه بوجه عام، وهو أن كل رجل رأته كان نشالًا، لذا أعطتني حقيبتها لأحملها لها، وقد كانت تحتوي على عشرة جنيهات وبعض الفضة.

توقفنا مؤقتًا في متجر الألعاب في شارع فليت، لرؤية عمالقة سانت دونستان يقرعون الأجراس[1] -لقد حددنا توقيت تحركنا، بحيث نصل في تمام الساعة الثانية عشرة- ثم اتجهنا نحو لودجيت هيل وكنيسة القديس بولس. كنا نعبر الطريق حيث المكان سابق الذكر، فإذا بعمتي تسرع الخطى بصورة كبيرة وملحوظة، وقد بدت خائفة كذلك. لاحظت في الوقت نفسه وجود رجل رث الملبس كان قد توقف جوارنا وأخذ يحدق فينا، بل راح يقترب منا شيئًا فشيئًا حتى صار أقرب ما يكون منا.

قالت لي عمتي بصوت خافت، بينما راحت تضغط على ذراعي: «أسرع يا عزيزي تروت، إنني لا أعرف ماذا أفعل».

قلتُ: «لا تنزعجي، ليس في الأمر ما نخاف. ادخلي إلى ذاك المتجر، وسأتخلص قريبًا من هذا الشخص».

راحت تقول: «لا، لا يا بني! أستحلفك بالله ألا تتحدث معه. أتوسل إليك، إني آمرك».

قلت: «يا إلهي، يا عمتي! إنه ليس سوى متسول قوي البنية».

ردت عمتي: «إنك لا تعرف من هو! إنك لا تعرف من هو! إنك لا تعرف ماذا تقول!».

---

(١) كنيسة سانت دونستان من أشهر كنائس لندن. خضعت للعديد من التغيرات في هيئتها المعمارية قبل استبدال المبنى بالكامل في أوائل القرن التاسع عشر. اشتهر محيطها بعدد من المتاجر، وقد صارت مركزًا لبيع الكتب. كان يعلو واجهتها أول ساعة عامة في لندن بها عقرب للدقائق، وقد ثبتت عام ١٦٧١م، كما يتقدم الساعةَ تمثالان من العمالقة يدقان أجراس الساعة.

توقفنا في الطريق عند باب مهجور، بينما كان هذا الرجل يمر، فإذا به يتوقف أيضًا.

أدرتُ رأسي نحوه في سخط، فإذا بعمتي تقول: «لا تنظر إليه! وأحضر لي عربة يا عزيزي، وانتظرني في كنيسة القديس بولس».

سألتها: «هل أنتظرك؟».

أجابتني عمتي: «نعم، يجب أن أذهب وحدي. يجب أن أذهب معه».

«أتذهبين معه يا عمة؟ هل تقصدين هذا الرجل؟».

فأجابت: «إنني بكامل قواي العقلية، وأقول لك إنني يجب أن أفعل ذلك. هيا أحضر لي عربة!».

أحسست أنني لا أستطيع سوى الإذعان والامتثال لهذا الأمر القاطع، بغض النظر عن مدى دهشتي. أسرعت مبتعدًا بضع خطوات، فجلبت عربة صغيرة فارغة كانت تمر من أمامي، وما إن وطئت درجات السلم حتى قفزت عمتي داخلها، ولا أعرف كيف تبعها ذلك الرجل إليها. لوحت لي بيدها لأذهب بعيدًا عنهما في حزم قاطع، حتى إنني استدرت عنها في الحال وقد تملكني الارتباك تمامًا. سمعتها بعد التلويح لي تقول للسائق: «سر إلى أي مكان، وواصل المسير مباشرة»، فإذا بالعربة تمر من أمامي في هذه اللحظة في طريقها للصعود إلى التل.

خطر على بالي في هذه اللحظة ما قاله لي السيد ديك، وما كنت أحسبه محض أوهام وترهات. لم يعد يساورني شك في أن هذا الشخص

هو الرجل نفسه الذي حكى عنه السيد ديك بنوع من الإشارات الغامضة، إلا أنني لم أفهم كيف استطاع إحكام قبضته على عمتي، بل لم أتخيل هذا تمامًا. مكثت لنصف ساعة في باحة الكنيسة، وإذا بي أبصر العربة عائدة. توقف السائق بجانبي وكانت عمتي جالسة داخلها وحدها.

لم تكن قد استعادت كامل قوتها بشكل يكفي لأن تتهيأ تمامًا للزيارة التي جئنا من أجلها. طلبت مني أن أركب العربة، وأن أقول للسائق أن يقود ببطء ذهابًا وإيابًا لبعض الوقت. لم تقل أكثر من ذلك، باستثناء قولها: «يا بني العزيز، لا تسألني أبدًا عما حدث، ولا تُشِر بحديثك إليه»، إلى أن استعادت رباطة جأشها تمامًا، وأخبرتني أنها صارت في أفضل حال الآن، وأن بوسعنا الآن أن نفارق العربة. ناولتني حقيبتها لأدفع للسائق أجرته، فإذا بي أكتشف اختفاء الجنيهات كلها، ولم يتبقَّ شيء سوى العملات الفضية.

اقتربنا من حي المحامين وكان الدخول إليه عبر ممر ضيق منخفض بعض الشيء. ما إن سرنا عدة خطوات قليلة بعد أن غادرنا الشارع وراءنا، حتى بدا أن ضجيج المدينة قد ذاب، كما لو أنه سحر منقضٍ، وأفضى بنا الطريق إلى السكون، ثم قادتنا بضع ساحات مملة وطرق ضيقة إلى مكتب سبنلو وجوركنز المضاء بالسماء، حيث يؤدي دهليز ذلك المعبد إلى المكان الذي يقصده الحجاج، فيصلون إليه من دون استئذان أو طرق الأبواب. ظهر ثلاثة أو أربعة كتبة يعملون بالنسخ، وكان أحد هؤلاء الكتبة رجلًا نحيفًا ضعيف البنية، يجلس بمفرده مرتديًا شعرًا مستعارًا باللون البني، وقد بدا ملمسه صلبًا كما لو أنه مصنوع من خبز الزنجبيل.

نهض الرجل لاستقبال عمتي، وأدخلنا إلى غرفة السيد سبنلو.

قال الرجل النحيل الجاف: «إن السيد سبنلو في المحكمة يا سيدتي. إنه يوم المحكمة، لكنه قريب، وسأرسل إليه من يناديه فورًا».

صرنا وحدنا في أثناء بحثهم عن السيد سبنلو ومناداته، لذا فقد انتهزتُ هذه الفرصة ورحت أتأمل أثاث الغرفة قديم الطراز وقد علاه الغبار والأتربة، أما المفرش الأخضر الذي يعلو المكتب فقد خفَّت ألوانه، وصار رثًّا وباهتًا كما لو أنه عجوز فقير. لاح أمام ناظري عدد كبير جدًّا من حزم الأوراق التي تعلو المكتب، وقد كتب على بعضها أنها تتعلق بنزاعات السبِّ، وأدهشني بعضها إذ علاها اسم قضايا التشهير، والبعض الآخر تضمن اسم المحكمة التأسيسية، والبعض الآخر اسم محكمة الاستئناف، والبعض تحت عنوان محكمة الامتياز، والبعض يعلوه اسم المحكمة الأميرالية، والبعض باسم محكمة التفويض. أتاحت لي هذه الفرصة أن أتساءل كثيرًا عن عدد المحاكم في مجملها، وكم من الوقت سيستغرق المرء لفهم اختصاصاتها جميعًا؟ ظهر إلى جانب ذلك كله الكثير من شهادات الشهود ومدونات الأدلة المخطوطة هائلة الحجم ومحفوظة في شهادات خطية. كانت مربوطة بقوة، ومجموعة معًا في حزم ضخمة، وقد لاحت حزم كل قضية، كما لو أنها تتكون من تاريخ مدون في عشرة أو عشرين مجلدًا. ظننت أن كل هذه الحزم من الأوراق على الأرجح باهظة الثمن، وقد منحني هذا المشهد برمته فكرة مقبولة عن عمل الوكيل. صرت ألقي بنظري في رضا متزايد على هذه الأشياء، وكذلك أتفحص عديدًا من الأشياء المماثلة بالرضا

نفسه، إلى أن سمعت خطى متسارعة من الخارج تدنو من الغرفة. جاء السيد سبنلو في ثوب أسود مزين بالفراء الأبيض، مسرع الخطى، ما لبث أن رفع قبعته لتحيتنا فور أن امتثل أمامنا.

كان رجلًا أنيقًا قصيرًا ذا شعر فاتح، يرتدي حذاءً لا يعلوه الغبار، وقد أحكم رابطة عنق بيضاء فوق ياقة قميصه. أما قميصه فقد أحكمت أزراره، وقد لاح مشذبًا ومتينًا، ولا بد أنه قد جاهد كثيرًا في تهذيب شاربه، الذي بدا مرتبًا في دقة. تدلت من صدره سلسلة ضخمة للغاية تشير إلى ساعته الذهبية، إلى الحد الذي سرح فيه خيالي راسمًا صورة لذراعه الذهبية المتعرجة القادرة على الإمساك بتلك الساعة، مثل تلك الأذرع التي توضع فوق دكاكين الساعات الذهبية. بدت عليه هذه العناية البالغة، إلى الحد الذي جعلته متيبسًا لا يستطيع الانحناء، إلا أنه نظر إلى بعض الأوراق المكومة على مكتبه بعد الجلوس على كرسيه، وإذا به يجد نفسه مضطرًّا لتحريك جسده بالكامل، ومن ثَم الانحناء بجذعه، كما يفعل المترنح إثر الشراب.

قدمته عمتي لي قبل قليل، وقد استقبلني بلطف وترحاب. ثم راح يقول بعد ذلك:

«حسنًا يا سيد كوبرفيلد، هل تفكر في الالتحاق بمهنتنا؟ لقد ذكرت الآنسة تروتوود هذا الأمر بشكل عرضي. وإنه لمن دواعي سروري إجراء هذه المقابلة معها اليوم...». أمال جسده مرة ثانية بالانحناءة ذاتها، وأكمل حديثه قائلًا: «لديَّ مكان شاغر هنا. كانت الآنسة تروتوود الطيبة قد ذكرت أن لديها ابن أخ تعتني به بشكل خاص، وأنها تسعى

لتأمين مساره المهني في الحياة. وأحسب أنه يسعدني أن أكون أمام ابن الأخ هذا الذي تعنيه». ثم أحنى جذعه مرة أخرى.

أبديت تقديري، وقلت إن عمتي قد أخبرتني عن هذا المكان الشاغر، وإنني أظن أنني سأسعد للغاية لو أنني حصلت عليه. لقد أعجبت بهذا العمل وصرت أميل بشدة إليه، وأنني قد قبلت على الفور هذا الاقتراح من عمتي. إلا أنني لا أستطيع أن أتعهد على الإطلاق بإحراز تقدم فيه، حتى أتزود بمعرفة الكثير عن هذا المجال، وعلى الرغم من أن الأمر لا يتجاوز الشكليات، فإنني افترضت أنه يجب أن تتاح لي الفرصة لتجربة الطريقة التي أحبها في التعلم، قبل أن ألزم نفسي بها بشكل لا رجعة فيه.

قال السيد سبنلو: «آهٍ بالتأكيد، إننا هنا، في هذا المكتب، نقترح دائمًا شهرًا. إنه شهرًا ابتدائيًّا للتدرب، وإن كنت لأسعد عن نفسي بأن أقترح شهرين أو ثلاثة بل في الواقع من الممكن أن تكون فترة مفتوحة للتدرب، لكنني ألتزم باتفاق شريكي السيد جوركنز».

سألته: «وهل الأجر هو ألف جنيه يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو: «نعم، إن الأجر بما يشمله من دمغات يعادل ألف جنيه. وكما ذكرت للآنسة تروتوود، فإنني لا أتأثر بأي اعتبارات ربحية، وأحسب أن قلة من الرجال من لا يلتفت إلى الغنيمة، إلا أن السيد جوركنز له آراء خاصة حول هذه الموضوعات، وأنا ملزم باحترام آراء السيد جوركنز. يظن السيد جوركنز باختصار أن ألف جنيه هي مبلغ أقل من المستحق».

تحدثت إليه محاولًا أن أوفر لعمتي قدرًا من المال، فرحت أقول: «أفترض يا سيدي أنه ليس من المعتاد هنا، إذا كان الموظف المتدرب مفيدًا في مجاله، وقد جعل نفسه متدربًا مثاليًّا في مهنته...»، لم أستطع منع ما بدا عليَّ من خجل، بعد أن بدا كلامي امتداحًا لنفسي، لكنني استطردت قائلًا: «أحسب أنه ليس من المعتاد، أن تسمحوا للمتدرب في السنوات الأخيرة من وقت عمله، أن يتقاضى منكم أي شيء».

قام السيد سبنلو بعد جهد كبير برفع رأسه بعيدًا عن رابطة عنقه بما يكفي ليومئ بها، ثم أكمل حديثي بكلمة قائلًا: «راتبًا». ثم استطرد قائلًا:

«لا. لا أستطيع بشكل شخصي أن أبوح بالاعتبارات التي أراعيها حول هذه النقطة يا سيد كوبرفيلد، حتى إن كنت غير مقيَّد بشريك. إن موقف السيد جوركنز جامد وصارم».

انتابتني رهبة عميقة من جراء التفكير في أمر جوركنز المريع، إلا أنني اكتشفت بعد ذلك أنه ليس سوى رجل لطيف ذي مزاج ثقيل، ولم يكن موقفه من العمل يتعدى إبقاء نفسه في الكواليس، ومن ثَم إظهار دوره باستمرار باسم أكثر الرجال قسوة وحدة. إذا أراد أحد الموظفين زيادة راتبه، فسيقولون له إن السيد جوركنز لن يستمع إلى هذا الاقتراح. إذا تباطأ العميل في تسوية أجر أعماله، فإن السيد جوركنز يشدد على ضرورة دفعها، ومهما كانت هذه الأمور مؤلمة - وهي دومًا كذلك - لمشاعر السيد سبنلو، فإن السيد جوركنز سيكون له من رباطة الجأش ما يدفع إلى تنفيذها. أما قلب ويد الملاك الطيب سبنلو فمفتوحان دائمًا،

إلا أنه مقيد دومًا بذلك الشيطان جوركنز. وأحسب أنني مع التقدم في العمر، صارت عندي خبرة ومعرفة ببعض الهيئات الأخرى التي تمارس الأعمال التجارية وفقًا لمبدأ سبنلو وجوركنز.

اتفقنا على أن أبدأ فترة التدريبات الشهرية في أقرب وقت ممكن، وأنه لا داعي من بقاء عمتي في المدينة أو العودة عند انتهاء مدة التدريب، حيث يمكن بسهولة إرسال عقد اتفاقية التدريب، التي كان من المقرر أن أكون خاضعًا له، إلى المنزل لتوقيعه. وصلنا إلى هذا الاتفاق، فعرض السيد سبنلو أن يأخذني إلى المحكمة في ذلك الوقت، ليطلعني على طبيعة هذا المكان. كنت على أهبة الاستعداد لاكتشاف هذا المكان، لذا فقد خرجنا تاركين عمتي وراءنا بعد أن قالت: «مَن الذي سيأمن على نفسه في مكان كهذا؟». وأحسب أنها كانت تظن أن جميع المحاكم هي نوع من مطاحن البارود التي قد تنفجر في أي وقت.

قادني السيد سبنلو إلى فناء مرصوف يحاوطه عدد من قوالب الطوب المنتصبة كشواهد قبر، وقد استنتجت من أسماء الطلبة المدونة على الأبواب، أنها أماكن الإقامة الرسمية للمتعلمين الذين أخبرني ستيرفورث عنهم. انعطفنا بعدها ناحية اليسار حيث قاعة كبيرة هادرة، لا تختلف من وجهة نظري في هيئتها عن هيئة كنيسة صغيرة. كان الجزء العلوي من هذه الغرفة مسورًا ومعزولًا عن بقيتها، وتقبع على الجانب منصة مرتفعة على شكل حدوة حصان. تراءى أمامي عدد من الرجال يجلسون فوق كراسي تبدو مثل كراسي غرفة طعام قديمة الطراز، يرتدون عباءات حمراء ويعلو رؤوسهم شعر مستعار رمادي، وقد عرفت أنهم

الأساتذة المعلمون كما ذكرنا سابقًا. لاح عند منحنى حدوة الحصان هذه رجل منكب فوق مكتب صغير يشبه المنبر، وقد كان رجلًا عجوزًا، لو أنني رأيته في قفص لأشفقت عليه فتناولته بين يدي بالتأكيد كفرخ صغير، إلا أنني عرفت فيما بعد أنه رئيس الجلسة. أما الفراغ المنبسط أمام حدوة الحصان هذه، الذي يقبع في مستوى منخفض وجلس أدنى من هؤلاء، فقد جلس فيه العديد من السادة الآخرين ممن في رتبة السيد سبنلو، وقد ارتدوا عباءات سوداء يكسوها فرو أبيض، وجلسوا إلى طاولة خضراء طويلة. أحسب أن رابطة عنقهم قاسية بشكل عام، وقد سيطرت الغطرسة على مظهرهم. إلا أنني عرفت بعد ذلك أنني أخطأت بشأن هذا الوصف الأخير لهم، لأنه بعدما اضطر اثنان أو ثلاثة منهم إلى النهوض والإجابة عن سؤال الرئيس، لم أرَ قَطُّ أي شيء يبدو عليهم سوى ارتباك الخجل. أما الجمهور، فقد تمثل أمامي في فتى يرتدي لباسًا مرقعًا، ورجل رث يأكل سرًّا فتات خبز من جيوب معطفه، وآخر يدفئ جسده عند مدفأة في وسط قاعة المحكمة. لم يكسر هذا السكون إلا طرقعة نيران المدفأة وصوت أحد الأساتذة، الذي كان يتجول ببطء شارحًا عددًا من أدلة قضيته، وقد راح يتوقف بين حين وآخر على جانب الممر الصغير ليقدم دليلًا جديدًا في قضيته. مجمل القول إنني لم أقم قَطُّ في أي مناسبة في حياتي، بحضور محفل صغير عتيق الطراز، وخارج عن حدود الزمن مثل هذا المحفل الصغير الذي ذهبت إليه، وقد غلب على الحاضرين فيه النعاس، وشعرت أنه أشبه بمادة أفيون مهدئة تمامًا لأي شخص قد يلجأ إلى هذا المكان ربما باستثناء أن تكون واحدًا من الطلبة.

صرت راضيًا تمامًا عن الطبيعة الهادرة لهذا المجتمع، فأبلغت السيد سبنلو أنني رأيت ما يكفيني هذه الساعة، وطلبت منه أن أعود إلى عمتي، وغادرت معها بعد ذلك من كلية المدنيين، بعد أن لفني شعور بأنني لم أزل صغيرًا جدًّا عند خروجي من مكتب سبنلو وجوركنز، بعد أن لاحظت أن الكتبة فيه راحوا ينكزون بعضهم بعضًا بالأقلام مشيرين إليَّ هازئين بي.

وصلنا إلى لينكن إن فيلدز من دون أي مغامرات جديدة، باستثناء مواجهة حمار مشؤوم يجر عربة تاجر خضراوات، مما استدعى بعض ذكريات عمتي المؤلمة. تحدثنا كثيرًا مرة أخرى عن خططي المستقبلية، بعد أن أوينا إلى الفندق في أمان. كنت أعلم أنها حريصة على العودة إلى منزلها مرة أخرى، لتهجر هنا هذه الحرائق والطعام القذر والنشالين، ولم تعد تتحمل البقاء بسهولة في لندن ولو لنصف ساعة أخرى، لذا فقد طلبت منها العودة لديارها حتى لا تتكبد العناء لأجلي، وأن تترك لي فرصة الاعتناء بنفسي.

قالت: «لم يبقَ سوى الغد حتى ينقضي أسبوع على مقامي هنا، إلا أنني لم أغفل التفكير في شيء آخر يا عزيزي. إن ثمة عددًا صغيرًا من الغرف المفروشة في حي أديلفي يا تروت، وأرجو أن يناسبك ويروق لك المقام فيها لأنها جميلة».

ما إن انتهت من هذه المقدمة الموجزة، حتى أخرجت من جيبها إعلانًا مقطوعًا بعناية من إحدى الصحف، يشير إلى أن وجود حجرات في شارع باكنجهام في أديلفي، متاحة للإيجار بما فيها من أثاث، مع

إطلالتها على النهر، وأنها مجموعة مرغوبة وفريدة الطراز. تصلح الغرف مسكنًا لشاب مهذب، أو عضو في إحدى المحاكم، أو غير ذلك، مع إمكانية التسكين الفوري. كانت الشروط معتدلة، ويمكن أن تؤجر لشهر فقط، إذا لزم الأمر.

قلت: «حسنًا، يا له من مسكن مناسب يا عمة!»، صرت بعدها غارقًا في تصور نعيم العيش في هذا المسكن.

تناولت عمتي قبعتها على الفور في لحظة خاطفة ولم تكن قد مرت لحظات منذ أن وضعتها جانبًا، وراحت تقول: «إذن، هيا بنا. سنذهب ونلقي نظرة عليها».

انطلقنا. وجَّهنا الإعلان إلى الاستفسار من السيدة كروب المقيمة في المبنى. دق جرس العمارة التي سنتواصل فيها مع السيدة كروب. لم نستطع الوصول إلى السيد كروب إلا بعد المرة الثالثة أو الرابعة. فظهرت أخيرًا، وكانت تبدو سيدة بدينة ترتدي مئزرًا قصيرًا تعلوه عباءة نسائية من القطن.

قالت عمتي: «إذا سمحتِ يا سيدتي، دعينا نرى الغرف المتاحة لديكم».

قالت السيدة كروب بينما تتحسس المفاتيح في جيبها: «أهي لهذا الرجل المحترم؟».

قالت عمتي: «نعم، إنها لابن أخي».

قالت السيدة كروب: «يا لها من مجموعة غرف رائعة تناسبه».

صعدنا بعد ذلك إلى الطابق العلوي.

كانت الغرف تقبع في الجزء العلوي من المنزل - وإنه لموقع رائع بالنسبة لعمتي، حيث أصير بالقرب من مخرج الحريق - وتقبع الغرف بعد مدخل صغير مظلم إلى حد كبير حتى لا تكاد ترى عبره أي شيء، ومخزن صغير معتم مصنوع من الحجارة حيث لا يمكنك أن ترى أي شيء فيه على الإطلاق، ثم غرفة جلوس وغرفة نوم. كان الأثاث باهتًا، ولكنه يلائم استخدامي إلى حد كبير، وكان من المؤكد أن النهر يمتد خارج نوافذ الغرفة.

كنت سعيدًا برؤية هذا المكان، فانسحبت عمتي والسيدة كروب إلى غرفة المؤن لمناقشة الشروط، بينما بقيت جالسًا على أريكة غرفة الجلوس، ولم أتجرأ على التفكير في أنه من الممكن أن يُقدَّر لي أن أعيش في مثل هذا المكان الجميل. عادتا إليَّ بعد نقاش ومفاوضات استمرت لبعض الوقت، ويا لفرحتي حين ألمحت في وجه السيدة كروب وفي وجه عمتي، أن الاتفاق قد تم.

سألت عمتي: «هل هذا هو أثاث الساكن الأخير؟».

قالت السيدة كروب: «نعم، إنه كذلك يا سيدتي».

سألت عمتي «ماذا حل به؟».

أصيبت السيدة كروب بسعال مزعج ثم راحت تتحدث بصعوبة بالغة، قائلة: «آه، لقد مرض هنا يا سيدتي. يا إلهي! يا وجعي! يا حبيبي! ثم مات».

سألت عمتي: «مهلًا! ما سبب وفاته؟».

قالت السيدة كروب في ثقة: «حسنًا يا سيدتي، لقد مات من كثرة الشراب والدخان».

قالت عمتي: «الدخان؟ أحسب أنكِ لا تقصدين أدخنة المداخن؟».

أجابت السيدة كروب قائلة: «لا يا سيدتي. إنها أدخنة السجائر والغليون».

التفتت عمتي إليَّ، ثم قالت: «إنه أمر غير مزعج يا تروت على أي حال».

قلت: «لا، إطلاقًا».

أما مختصر القول، فقد رأت عمتي كم كنت مبتهجًا بهذا النزل، فاستأجرت الغرف لي لمدة شهر، مع فرصة لاستئجار المكان لاثني عشر شهرًا بعد انتهاء ذلك الوقت إذا وجدت فيه راحتي. كان على السيدة كروب أن تنظف المفروشات وأن تطهو لي؛ أي توفر لي كل سبل العيش الضرورية، وألمحت السيدة كروب صراحةً إلى أنها ستعاملني دومًا بصفتي ابنًا لها. كان من المفترض أن أتسلم الغرف بعد غد، وقد قالت السيدة كروب، إنها تحمد الله أنها عثرت الآن على ابن ترعاه وتعتني به.

أبلغتني عمتي في طريق عودتنا أنها تثق تمامًا في أن الحياة التي سأعيشها الآن ستجعلني رجلًا صلبًا ومعتمدًا على نفسي، وهذا كل ما أحتاج إليه. كررت هذه العبارات عدة مرات في اليوم التالي، وفي

الفترات الفاصلة بين ترتيبنا لنقل ملابسي وكتبي من منزل السيد ويكفيلد. كنا قد عكفنا طوال أيام عطلتي الأخيرة على كتابة رسالة طويلة إلى أجنيس، التي تولت عمتي مسؤولية توصيلها، حيث كان من المقرر أن تغادر في اليوم التالي. لا أريد أن أطيل في سرد هذه التفاصيل، لكني أحتاج فقط إلى أن أضيف أنها وفرت لي كل تدابير العيش الممكنة لسد جميع احتياجاتي خلال شهر تدريبي، وقد استأت كثيرًا وكذلك كان حال عمتي من أن ستيرفورث خيَّب أملي وأملها، فلم يظهر قبل أن تغادر. ودعتها بعد أن اتخذت مكانها في عربة دوفر في أمان، وقد كانت تشعر باللهفة للعودة إلى جانيت حيث الإزعاج القادم من بطش الحمير المتشردة. شق السائق طريقه، فإذا بي أولي وجهي شطر أديلفي، متأملًا الأيام الخوالي عندما كنت أتجول بين أزقته الجوفاء، وآملًا الخير في تلك التغييرات السعيدة التي أوصلتني إلى العيش على السطح.



الفصل الرابع والعشرون

فجوري الأول

كان حصولي على هذه القلعة الفاخرة حدثًا جللًا. ما إن أغلقت بابي الخارجي، حتى شعرت أنني مثل شخصية روبنسون كروزو، بعدما وصل إلى حصنه، وسحب خلفه سلمه. كم كان رائعًا أن أتجول في المدينة وقد حوى جيبي مفتاحًا منزليًّا، وقد صار في مقدوري أن أطلب من أي زميل أن يأتي إلى منزلي، وقد تأكدت تمامًا من أنه يحوي ما يحتاجه أي إنسان، وإن لم أدعُ أحدًا فإنه يلائمني. يا له من أمر رائع أن تتاح لي فرصة الدخول والخروج من المنزل في أي وقت، وأن أروح وأغدو من دون أن أستأذن أحدًا، وأن أنادي السيدة كروب، فتأتيني لاهثة الأنفاس تعدو من أعماق الأرض، حين أحتاج إليها أو حين تكون مستعدة للمجيء إليَّ لخدمتي. يمكنني أن أقول إن كل هذه الأمور كانت ممتعة ورائعة للغاية، إلا أنها كانت كئيبة أيضًا في بعض الأحيان.

بدا الطقس رائعًا في الصباح، لا سيما في أوله. ولاحت لي الحياة منعشة، فأصير حرًّا مع بزوغ ضوء النهار، وتبدو الحالة أعذب وأكثر حرية مع ضوء الشمس. إلا أنه مع تراجع ضوء النهار، إذا بالحياة تبدو كما لو أنها تنهار كذلك. لا أعرف كيف يتحول المشهد تمامًا، فقلما كان يبدو على حال أفضل على ضوء الشموع. كنت أرغب أحيانًا في أن أتحدث إلى أي إنسان. لقد افتقدت أجنيس، وشعرت بفراغ وهوة هائلين لافتقادي لهذا الوجه المبتسم، مستودع ثقتي وأسراري. بدا لي أن السيدة كروب بعيدة كل البعد عني. وقد رحت أفكر في الساكن الذي سبقني الذي مات بسبب الشراب والدخان. وكنت أتمنى لو أنه يحيا بيننا، فلا يزعجني بالتفكير في ملابسات وفاته.

لم يمر سوى يومين، حتى شعرت كما لو أنني عشت هنا عامًا كاملًا، من دون أن يتقدم عمري ولو ساعة واحدة، بل راودني عذاب متواتر، طالما كنت أستشعر فيه صغر سني أكثر من أي وقت مضى.

لم يظهر ستيرفورث بعد. دفعني غيابه إلى الظن أنه قد يكون مريضًا، لذا فقد غادرت مجلس العموم في وقت مبكر من يومي الثالث، وتوجهت إلى هاجيت. كانت السيدة ستيرفورث سعيدة برؤيتي، وقالت إنه سافر مع أحد أصدقائه في أكسفورد لزيارة صديق آخر يعيش بالقرب من سانت ألبانز، لكنها توقعت عودته غدًا. كنت مغرمًا به لدرجة أنني شعرت بغيرة قاتلة من أصدقائه في أكسفورد.

ألحت عليَّ للبقاء حتى تناول العشاء، فاستجبت لطلبها، وأحسب أننا لم نخض في التحدث عن شيء غير ستيرفورث طوال اليوم.

أخبرتها كم أَحبه الناس في يارموث، وأنه رفيق عذب مبهج. أما الآنسة دارتل فقد زادت من تلميحاتها وأسئلتها الغامضة، لكنها أبدت اهتمامًا كبيرًا بالإنصات إلى كل ما قمنا به في يارموث، وقالت: «هل وقع ذلك حقًّا؟»، وما إلى هذا من مثل هذه الأسئلة. كانت في كثير من الأحيان تستفسر عن تفاصيل كل شيء تريد معرفته مني. كان مظهرها يبدو كما وصفته بالضبط، عندما رأيتها أول مرة، إلا أن صحبة السيدتين كانت أمرًا غاية في الإمتاع، وقد أحسست نوعًا من الألفة بينهما، حتى إنني شعرت أنني على وشك الوقوع في حب هذه الرفقة إلى حد ما. لم أستطع منع نفسي من التفكير فيها عدة مرات في المساء، وخاصة عندما أعود إلى المنزل ليلًا، فأتخيلها رفقة مبهجة سترافق سيري في شارع باكنجهام.

كنت أحتسي قهوتي وأتناول رغيفي في الصباح، قبل الذهاب إلى مجلس العموم - ويجدر بي أن أعقب هنا فأقول إنني اندهشت أيما دهشة من كمية البن الذي استخدمته السيدة كروب في إعداد قهوتي، مع الأخذ في الاعتبار مدى رداءتها - وهنا أقبل ستيرفورث عليَّ، فإذا بفرحة تلفني بلا حدود.

صرخت قائلًا: «عزيزي ستيرفورث، كنت أظن أنني لن أراك مرة أخرى».

قال ستيرفورث: «لقد أجبرت على النقل بقوة السلاح، في صباح اليوم التالي بعد عودتي إلى المنزل. آه يا أقحوانتي، يا لك من أعزب فريد بديع يقيم هنا!».

رحت أجول به فأعرض عليه الغرف، ولم أتجاهل المخزن في زهو، فأثنى عليه بشدة. وأضاف: «اسمع أيها الشاب، سأتخذ هذا المنزل ملاذًا لسكني في هذه البلاد، ما لم تعطني إشعارًا بالترحال».

كم سعدت لسماع هذه الكلمات منه. إلا أنني أخبرته أنه إذا انتظر مني هذا العرض، فإن عليه الانتظار إلى يوم القيامة.

أسندت يدي ممسكًا بحبل الجرس، وقلت له: «هلا تناولت الإفطار! ستعد لك السيدة كروب قدحًا من القهوة الطازجة، وسأسوِّي قطعة من لحم الخنزير المقدد في فرن يملكه هذا الشاب العازب هنا».

قال ستيرفورث: «لا، لا. لا تقرع الجرس، لا أستطيع، فأنا ذاهب لتناول الإفطار مع أحد هؤلاء الزملاء في فندق بيازا، في كوفنت جاردن».

سألته: «لكنك ستعود لتناول الغداء؟».

أجابني: «أقسم بروحي إنني لن أستطيع. لا شيء أفضل من أن أكون بصحبتك، ولكن عليَّ أن أبقى مع هذين الزميلين. إن ثلاثتنا في إجازة سنبدأها من صباح الغد».

قلت: «أحضرهما إذن إلى هنا لتناول العشاء. هل تظن أنهما سيأتيان؟».

قال ستيرفورث: «آهٍ، سيلبيان هذه الدعوة سريعًا. ولكننا سنضايقك بمجيئنا ومن الأفضل أن تأتي وتتناول الطعام معنا في مكان ما».

لم أكن لأوافق على هذا الاقتراح على أي حال، إذ خطر لي أن عليَّ أن أحصل على شيء من الدفء في المنزل، وأن فرصة مثل هذه لن تسنح لي قريبًا. كنت أستشعر زهوًا بعد ما أبداه ستيرفورث من قبول لمنزلي الجديد، وقد امتزج هذا الفخر برغبة في تطوير إمكاناته إلى أقصى حد ممكن. رجوته أن يقسم لي بأسماء اثنين من أصدقائه أن يأتي، ثم حددنا موعد زيارتهم في الساعة السادسة لتناول العشاء.

رحل ستيرفورث، فناديت السيدة كروب، وأطلعتها على خطتي الجريئة. قالت السيدة كروب إنه من المعروف أولًا قبل أي شيء أنني لا يمكن أن أتوقع خدمتها لنا بتقديم الطعام وما إلى ذلك، إلا أنها تعرف شابًّا نبيهًا، تحسب أنه بارع في القيام بمثل هذه الأمور، وأن أجره خمسة شلنات وما قد أجود به إليه. قلت لها إننا سنحظى به بالتأكيد. أضافت السيدة كروب قائلة إن الأمر الثاني هو أنه من الواضح أن هذا الشاب لن يستطيع أن يوجد في مكانين في وقت واحد - وهو ما شعرت أنه أمر منطقي - وأنه لا غنى عن الاستعانة بـ«شابة» تقف في المخزن مع شمعة غرفة النوم، فلا تكف أبدًا عن غسل الصحون المستخدمة. قلت وما أجر هذه الشابة؟ فقالت السيدة كروب إنها تفترض أنها تتقاضى ثمانية عشر بنسًا، وأنه مبلغ ضئيل لن يعجزني أو يحطمني. قلت إنني أحسب هذا أمرًا معقولًا، وسوينا المسألة. ثم قالت السيدة كروب، أما الآن فلنتفق على أطعمة هذا العشاء.

لم يكن مطبخ السيدة كروب سوى مثال رائع على ضآلة عقل الحداد الذي صنع لها الموقد، إذ إنه لا يصلح لطهي أي شيء سوى

قطع اللحم والبطاطس المهروسة. قالت السيدة كروب: «إنه لا يصلح لطهو السمك، حسنًا، هلا جئت لإلقاء نظرة على هذا المطبخ؟». ولم تستطع أن تقول شيئًا يمكنه أن يشرح الوضع بصورة أكثر إنصافًا من أن تدعوني لرؤيته. إلا أنني لم أجد فائدة من النظر إليه، فلن أكون أكثر خبرة منها، لذلك رفضت وقلت: «لا داعي لطهو السمك». إلا أن السيدة كروب قالت: «لا تقل ذلك، لماذا لا نقدم لهم المحار بدلًا من السمك؟». وافقتها على ذلك. ثم قالت السيدة كروب إنها تقترح أن أقدم زوجًا من الدجاج المشوي الساخن، أستطيع شراءهما من طهاة السوق، وطبقًا من اللحم البقري المطهو مع الخضر المتوفرة عند طهاة السوق أيضًا، مع طبقين جانبيين صغيرين، واقترحت أن يكونا من الفطائر الرقيقة، أو طبقًا من الكلى المطهوة مع المعجنات، كما أوصت بتقديم «تورتة» أشتريها من متاجر المعجنات، وإذا أحببت زيادة شيء فمن الأفضل تقديم حلوى «الجيلي» من متاجر المعجنات أيضًا. قالت السيدة كروب إن هذا التدبير سيجعلها بكامل حريتها للتركيز في أمر إعداد البطاطس، وتقديم الجبن والكرفس بالشكل اللائق الذي ترتضيه.

عملتُ بنصيحة السيدة كروب، فذهبت إلى السوق بنفسي لطلب هذه الأصناف من متجر المعجنات. رحت أتمشى بعدها في شارع ستراند، فإذا بي أبصر شيئًا صلبًا مرقطًا معلقًا خلف واجهة زجاجية لمتجر لحوم الخنازير والأبقار، وقد كانت أشبه ما يكون بالرخام، إلا

أنها تسمى «السلحفاة الوهمية»[1]، دخلت إلى المتجر فاشتريت قطعة منه. وقد رأته السيدة كروب فعلقت قائلة إنها تظن أنه يكفي لإطعام خمسة عشر شخصًا. وافقت السيدة على طهوه، بعدما واجهت بعض الصعوبة، فإذا به يتقلص وينكمش حتى صار أشبه بالحالة السائلة، إلى الحد الذي وجدناه فيه بحسب وصف ستيرفورث «إن هذا الحساء يكفي بصعوبة لإطعام أربعة أشخاص».

أتممت هذه الاستعدادات في سعادة، كما اشتريت بعض الحلوى من سوق كوفنت جاردن، كما طلبت من أحد متاجر بيع النبيذ بالتجزئة في المنطقة المجاورة، أن يرسل لنا عددًا كبيرًا من الزجاجات. عدت إلى المنزل بعد الظهر، فوجدت الزجاجات مرصوصة في مربع على أرضية المخزن، وقد بدت لناظري كثيرة للغاية - على الرغم من نقص زجاجتين - الأمر الذي جعل السيدة كروب مستاءة للغاية، حتى إنني كنت في شدة الخوف مما أبدته من انزعاج.

كان أحد أصدقاء ستيرفورث يدعى جرينجر، والآخر ماركهام، وكانا مرحين وحيويين. كان جرينجر أكبر سنًّا من ستيرفورث، أما ماركهام فشاب، لا يزيد عمره في نظري على عشرين عامًا. لاحظت أن هذا الأخير يتحدث دائمًا عن نفسه إلى أجل غير مسمى، باعتباره «رجلًا ما»، ونادرًا ما تحدث بصيغة المتكلم أو ربما لم يتحدث بها قَطُّ.

---

(١) رأس العجول المقطعة التي يصنع منها حساء بني اللون، يطلق عليه اسم حساء السلحفاة الوهمية، لأنه أشبه بحساء السلحفاة في مذاقه.

قال ماركهام: «قد يكون الرجل على ما يرام هنا يا سيد كوبرفيلد»، وكان يعني نفسه.

قلت: «إنها حال لا بأس بها، والغرف جيدة حقًّا».

قال ستيرفورث: «أتمنى أن تكونا قد جئتما مقبلين بشهية إلى الطعام».

أجاب ماركهام: «أقسم بشرفي، إنه يبدو أن المدينة تزيد من شهية الرجل. وإن الرجل ليتضور جوعًا طوال اليوم. فلا يكف الرجل عن الأكل على الدوام».

راودني في البداية شعور ضئيل بالإحراج، وأحسست أنني أصغر من أن أترأس المائدة، فطلبت من ستيرفورث أن يتخذ مكانه على رأس المائدة حين أعلن موعد العشاء، بينما جلست مقابلًا له. بدا كل شيء على أفضل حال، وكنا قد أقبلنا على احتساء الخمر من دون هوادة. أما ستيرفورث فقد بذل جهدًا بارعًا لإدارة الأمور، حتى إننا واصلنا الاحتفال في صخب من دون انقطاع. إلا أنني لم أشعر بطيب الصحبة في أثناء العشاء، ولم أكن كما كنت أرجو أن أكون، حيث كان مقعدي مقابلًا للباب، وظل انتباهي مشتتًا بملاحظة الشاب الذي استأجرته وقد راح يتنقل بين أرجاء الغرفة كثيرًا، ومكثت أتابع خياله المنعكس على الجدار، الذي راح يسبقه دومًا حين خروجه وعودته إلى الغرفة، رافعًا زجاجة من الشراب إلى فمه. أما الفتاة، فقد جلبت لي نوعًا من الإزعاج أيضًا، ليس بسبب إهمال غسل الأطباق، بل لأنها راحت تكسر واحدًا تلو الآخر. كانت فتاة فضولية، وغير قادرة على تركيز انتباهها في حجرة المؤن فقط، وقد نبهتها إلى هذا الأمر، إلا أنها راحت تنظر إلينا باستمرار، ثم يخيل

إليها أن أمرها قد كُشِف، فترتبك وتتعثر عدة مرات في الأطباق (التي رصفت بها الأرضية بعناية)، ومن ثَم تسببت في قدر كبير من التدمير.

لم تكن كل هذه الأمور سوى عيوب صغيرة، ويمكن نسيانها بسهولة بعد أن تُرفع المائدة، وتُقدَّم الحلوى فوق الطاولة، ومن ثَم تبدأ فترة التسلية والمرح. وقد اكتشفت أن الشاب كان عاجزًا عن الكلام، فأمرته هامسًا باصطحاب الفتاة، والانتظار عند السيدة كروب بالطابق السفلي، ثم تركت نفسي للتمتع بالحفل.

بدأت الاستمتاع مبتهجًا مشرقًا مرحًا وطليق الفؤاد، وقد عادت إلى ذاكرتي مختلف الأحداث التي كدت أن أنساها، بل دفعتني إلى الحديث عنها بعد أن تواترت إليَّ، وشرعت أستطرد في قص تفاصيلها. رحت أضحك في حرارة على نكاتي، وكذلك على نكات الآخرين، ثم نبهت ستيرفورث إلى إغفاله لتمرير النبيذ بيننا. رحت أرتب بعض الارتباطات للذهاب إلى أكسفورد، كما أعلنت أنني أنتوي إقامة حفل عشاء مثل هذا تمامًا مرة في الأسبوع حتى إشعار آخر، ثم أخذت الكثير من السعوط من صندوق جرينجر بنوع من الجنون، حتى إنني اضطررت إلى الذهاب إلى المخزن، لإطلاق نوبة عطس فريدة دامت لمدة عشر دقائق.

واصلت الاحتفال بينما أمرر النبيذ بشكل أسرع، مرة تلو الأخرى من دون توقف، حاملًا في يدي مفتاحًا لفتح المزيد من زجاجات النبيذ قبل أن نحتاج إليها بوقت طويل. اقترحت أن نشرب نخبًا في صحة ستيرفورث. قلت إنه أعز أصدقائي، وحامي طفولتي، ورفيق دربي،

وقلت إنني مسرور لاقتراح هذا النخب. قلت إنني مدين له بالكثير بما يفوق قدرتي على سداد هذا الدين في يوم من الأيام، وإن إعجابي به يتزايد أكثر من أي وقت مضى، ثم قلت مختتمًا حديثي: «أقدم لكم ستيرفورث، حفظه الله، يا هلا». شربنا نخبه ثلاث مرات ثم شربنا مرة أخرى، ثم أخرى، إلى أن فاض بنا كيل الاحتمال. كسرت كأسي بينما أستدير لأصافحه، وقلت له - واصلًا الكلام كما لو أنهما كلمتان:

«ستيرفورث... إنك نجم هدايتي في هذا الوجود».

تنبهت، فإذا بي أنصت إلى أحدهم وقد بدأ الغناء فجأة. كان ماركهام هو المغني، وقد غنى قائلًا: «حينها يغدو فؤاد المرء مكتئبًا من الهموم»[١]. ما إن انتهى من الغناء حتى اقترح أن نشرب نخبًا في صحة «امرأة». اعترضت على اقتراحه، ولم أستطع السماح بذلك. قلت إنها ليست طريقة محترمة في شرب النخب، ولن أسمح أبدًا بأن يشرب هذا النخب في منزلي، وإنه لا مانع عندي في شرب نخب أي شيء باستثناء «السيدات». وأحسب أنني كنت مبالغًا، لأنني رأيت ستيرفورث وجرينجر يضحكان مني - أو منه - أو من كلينا. قال إن الرجل لا يحب أن يُملى عليه. قلت بل يملى على الرجل، فقال إذن فلا تجوز إهانة الرجل إذن. قلت إنه محق في قوله هذا، إلا أنني لا أسمح بمثل هذا الفعل تحت سقف بيتي أبدًا، حيث إنني أحفظ قدسية البيوت،

---

(١) مقطع من المشهد الأول من أوبرا المتسول، وهي مسرحية من ثلاثة أعمال كتبها جون جاي عام ١٧٢٨م، مع موسيقى يوهان كريستوف بيبوش. تعد مثالًا حيًّا لأوبرا القصص الساخرة التي لا تزال تحظى بشعبية حتى اليوم.

ولم تزل قوانين الضيافة هي الأهم. قال إنه لا ينتقص من كرامة الرجل أن يعترف بأنني رفيق صالح وجهنمي، فاقترحت على الفور أن نشرب نخبًا في صحته.

راح أحدهم يدخن، فإذا بنا جميعًا نشاركه التدخين أيضًا. كنت أدخن بينما أحاول كبت رغبتي الملحة في الارتعاش. كان ستيرفورث قد ألقى كلمة عني، فتأثرت إلى حد بالغ ففاضت من عيني الدموع. شكرته، متمنيًا أن تأتي هذه الصحبة إليَّ غدًا لتناول العشاء، وأن نكرر الأمر بعد الغد، بل في كل يوم في تمام الساعة الخامسة، حتى نتمتع بلذة صحبتنا وبهذا الحديث الممتع في أمسيات طوال. ثم أحسست أنه قد حان دوري لاقتراح اسم نشرب نخبه، فاقترحت عمتي. إنها الآنسة بيتسي تروتوود، أفضل بنات جنسها!

خُيّل إليَّ أن أحدًا ينحني مطلًّا من نافذة غرفة نومي، كما لو أنه ينعش جبهته ببرودة الحجر الحاجز لها، ويتحسس لفحة الهواء على وجهه. كان هذا الشخص هو أنا. لقد لبثت أخاطب نفسي باسم «كوبرفيلد»، وأقول: «لماذا حاولت التدخين؟ إنك تدرك أنه لا ينبغي لك التدخين». أما بعده بلحظات، فقد راح هذا الشخص يتأمل ملامحه المنعكسة على صفحة الزجاج، وكان هذا الشخص هو أنا أيضًا. بدوت شاحبًا جدًّا على السطح الزجاجي، وقد لاح تجويف عيني شاغرًا. أما شعري – شعري فقط، لا شيء سواه – فبدا في حالة نكراء من السكر.

قال لي أحدهم: «دعنا نذهب إلى المسرح يا كوبرفيلد». لم أرَ أمامي غرفة النوم، بل لاحت لي طاولة مرة أخرى مكدسة بالزجاجات، وقد

خُيِّل إليَّ أنها تجلجل مهتزة، ولاح لناظري المصباح، وجرينجر عند يدي اليمنى، وماركهام على يساري، وستيرفورث في الجهة المقابلة لي. إنهم جالسون جميعًا في ضباب، بعيدًا عني. أهو المسرح؟ بلا شك. نِعم الرأي. هيا بنا! لكن يجب أن يسمحوا لي أن أراهم جميعًا يتقدمونني إلى الخارج أولًا، ومن ثَم أطفئ المصباح خوفًا من نشوب حريق.

صرت مرتبكًا في الظلام، وإذا بالباب ينغلق إثر ارتباكي، فرحت أتحسسه عند ستائر النافذة فضحك ستيرفورث، وجذبني من ذراعي ثم أخرجني. هبطنا جميعًا واحدًا تلو الآخر، إلا أن واحدًا منا كان قد سقط بالقرب من بئر السلم ثم تدحرج إلى الأسفل. قال شخص آخر إن من وقع هو كوبرفيلد. كنت غاضبًا من هذا الإعلان الكاذب، حتى أدركت أنني مستلقٍ على ظهري عند الردهة، وبدأت أفكر في أنه قد يكون هذا الإعلان مبنيًّا على أسس صحيحة.

كم كانت ليلة ضبابية للغاية، وقد تحلقت الغيوم حول المصابيح في الشوارع! تناهى إلى أذني حديث غير واضح، يقول إن السماء تمطر، إلا أنني لم أستشعر سوى البرودة القارصة. نفض ستيرفورث الغبار عني تحت عمود إنارة، وعدَّل هيئة قبعتي فوق رأسي، التي وضعها شخص ما في مكان ما بطريقة غير مألوفة، لأنني لم أكن مرتديًا لها من قبل. ثم قال ستيرفورث: «إنك بخير يا كوبرفيلد، أليس كذلك؟». فقلت له: «لم أكن بحال أفضل من قبل».

رأيت رجلًا جالسًا في مكان أشبه ببرج الحمام، وقد أطل عليَّ من الضباب، ثم أخذ المال من شخص ما، واستفسر عما إذا كنت ضمن

السادة الذين دفعوا أجرهم أم لا. كان يبدو متشككًا في أمري إلى حد ما - كما أتذكر من اللمحة التي رمقني بها - سائلًا ما إذا كان سيأخذ مني المال أم لا. كنا بعد ذلك بقليل جالسين في مكان مرتفع في مسرح شديد الحرارة، بينما ننظر إلى الأسفل نحو حفرة كبيرة، بدا لي وكأننا ندخن فتتناثر الأدخنة على الناس الذين حُشروا فيها حتى صاروا غير واضحي المعالم. انتقلت إلى مرحلة رائعة في مسرح آخر يبدو نظيفًا جدًّا مقارنة بحالة الشوارع، وقد لاح أناس يتحدثون عن شيء أو آخر، ولكنهم يتكلمون بطريقة غير واضحة على الإطلاق. لمعت الأضواء الساطعة في وفرة، وانسابت الموسيقى، وظهرت بعض السيدات في المقصورات، ولا أعرف أكثر مما قلت. بدا لي المبنى بأكمله راقصًا كما لو أنه يتعلم السباحة. حاولت أن أُثبِّت هذا الانسياب بطريقة ما لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من الترنح.

اقترح شخص ما شيئًا، فامتثلنا وإذا بنا نقرر النزول إلى الطابق السفلي حيث مقصورات السيدات. لاح أمام عيني رجل نبيل، مرتديًا ملابس رسمية كاملة، يجلس على أريكة، وفي يده عدسات الأوبرا المكبرة، وقد أبصرت أمامي كامل جسدي مترنحًا منعكسًا في المرآة. دخلت بعد ذلك إلى إحدى هذه المقصورات، وإذا بي أقول شيئًا ما وأنا أجلس، فيصيح الناس من حولي قائلين: «صه»، لشخص ما، أما السيدات فرحن يلقين نظرات ساخطة عليَّ، وماذا؟! نعم! أبصرت أجنيس جالسة على مقعد أمامي، في المقصورة نفسها، بجانب سيدة ورجل نبيل لا أعرفه. أرى وجهها الآن، أفضل من ذي

قبل. أجرؤ على القول إن نظراتها التي لا تمحى لم تخلُ من الأسف والدهشة والتساؤل.

قلت بصوت غليظ: «أجنيس، يا للعجب! أجنيس».

أجابت، ولم أستطع أن أتخيل السبب: «صه، اسكت، إنك تزعج الحاضرين. فلتنظر إلى المسرح».

حاولت، بناءً على أمرها، أن أصلح الأمر وأن أسمع شيئًا مما يدور هناك، لكن من دون جدوى. نظرت إليها مرة بعد أخرى، فرأيتها تتقلص في ركنها، وقد رفعت يدها الملتحفة بالقفاز إلى جبهتها.

قلت: «أجنيس، إنني أخشى ألا تكوني بخير».

قالت: «نعم. نعم. لا تنشغل بي يا تروتوود. أنصت إليَّ، هل ستغادر قريبًا؟».

كررت سؤالها: «هل أغادر قريبًا؟».

قالت: «نعم».

أضمرت نية تبدو غبية للرد عليها بأن أقول إنني سأنتظر، حتى ننزل إلى الطابق السفلي، وأفترض أنني عبَّرت عن نيتي هذه بطريقة ما، لأنها بعد أن نظرت ناحيتي باهتمام لبرهة، بدت كما لو أنها تفهم مقصدي، وقد أجابتني بنبرة منخفضة قائلة:

«أعلم أنك ستفعل ما أطلبه منك، إذا قلت لك إنني جادة فيه. انصرف الآن يا تروتوود، رجاء من أجلي، واطلب من أصدقائك أن يصطحبوك إلى المنزل».

استعدت وعيي في هذه اللحظة بعض الشيء، وشعرت بالخجل على الرغم من أنني كنت غاضبًا منها، وببرد قصير قلت: «سعد» - كنت أنوي قول «ليلة سعيدة» - ثم نهضت ورحلت. تبعني أصدقائي وخرجت على الفور من باب المقصورة متجهًا إلى غرفة نومي، حيث اصطحبت ستيرفورث، الذي ساعدني على خلع ملابسي، بينما أخبره في تذبذب أن أجنيس أختي، وأطلب منه أن يحضر الفتاحة، حتى أفتح زجاجة نبيذ أخرى.

كيف راح هذا الشخص المستلقي على سريري، يتحدث بكل هذا، ويقوم بكل هذه الأفعال في دفعات متقطعة، كما لو أنه في حلم محموم يسري طوال الليل، وقد لاح السرير بحرًا هائجًا لم تسكن ثورته؟! وكيف استقر هذا الشخص ببطء حتى عاد إليَّ؟! بدأت أشعر بالعطش، ثم أحسست أن بشرتي الخارجية أشبه ما تكون بألواح صلبة، وقد صار لساني أسفل غلاية مجوفة، وقد راح يحترق على نار بطيئة بعد طول اتقاد، أما راحتا يدي، فصارتا مثل صفائح معدنية ساخنة لا يُبرد توهجها الجليد.

يا لعذاب خاطري وندمي وعاري الذي لفني بعدما أفقت في صباح اليوم التالي! ويا لارتعابي من أن أكون قد ارتكبت ألف جريمة ثم نسيتها، من دون أن أستطيع أن أكفر عن أي منها! تذكرت تلك النظرة التي لا تمحى التي رمقتني بها أجنيس، ويا لعذابي حين أدركت أنني لن أستطيع التواصل معها، بعد جهلي -حين صرت وحشًا همجيًا- كيف أتت إلى لندن، أو أين تقيم؟ تملكني اشمئزازي من مشهد الغرفة

التي أقيم فيها الاحتفال، مع رأسي المتصدع ورائحة الدخان التي تلف المكان، ومشهد الزجاجات، وقد استحال نهوضي بل استحالت إفاقتي! آهٍ، يا له من يوم!

آهٍ، يا لها من أمسية بائسة! جلست أستدفئ إلى ناري مع صحن من مرق لحم الضأن، كان مغمورًا بالدهن، وقد ظننت أنني أسير في درب المستأجر السابق، وأنني سأتبع خطى قصته الكئيبة كما تبعته إلى غرفه. كدت أتسرع فأهرع إلى دوفر لأحكي ما وقع لي وأكشف عما أضمره. يا لها من أمسية بائسة! وقد حضرت السيدة كروب لأخذ صحن المرق، ثم أخرجت قالبًا من الجبن على طبق قائلة إنه كل ما تبقى من احتفال الأمس. وكنت أميل حقًّا إلى السقوط على صدرها اللين، فأقول بندم صادق: «آهٍ، يا سيدة كروب، لا تشغلي بالك يا سيدة كروب باللحوم الباقية! كم أنا بائس للغاية!»، إلا أنني ظننت -على الرغم من المحنة التي أمر بها- أن السيدة كروب ليست من النوع الذي أثق فيه.



الفصل الخامس والعشرون

ملائكة وشياطين

خرجت من باب المنزل في الصباح بعد يوم مشين، لفني فيه الصداع والمرض والندم. صرت مرتبكًا مشوش الذهن، ولم أعد متيقنًا متى أقمتُ حفل العشاء هذا، كما لو أن بعض الجبابرة قد اتخذوا رافعة هائلة ودفعوا بهذا اليوم الفائت خلف بضعة أشهر سالفة. أدركت ساعي البريد قادمًا إلى الطابق العلوي وقد حمل في يده رسالة لي. بدا أنه لا يعبأ بوقته وقد صعد متأنيًا في مهمته، إلا أنه ما إن لاحظ وجودي على قمة الدرج، حتى رفع عينيه نحو الأعلى وأخذ يتأرجح مهرولًا، ثم صعد يلهث كما لو أنه شق على نفسه وقد أعياه الإرهاق.

قال ساعي البريد وهو يلامس قبعته بعصاه الصغيرة: «حضرة السيد ت. كوبرفيلد؟».

أكدت له اسمي على مضض، حيث كنت منزعجًا جدًّا من فكرة أن الرسالة قد تكون من أجنيس، ومع ذلك فقد أخبرته أنني حضرة ت.

كوبرفيلد، وقد صدق ذلك، وأعطاني الرسالة التي قال إنها تتطلب مني إجابة. أبقيت الساعي على درجات السلم في انتظار الرد، ثم عدت إلى غرفتي مرة أخرى، وأنا في مثل هذه الحالة العصبية التي جعلتني واهنًا غير قادر على بسط الرسالة فوق مائدة الطعام، حتى قرأت عنوانها الخارجي، من دون أن أقوى على فتح غلافها.

فتحتها، فوجدتها تحوي ملاحظة لطيفة للغاية، من دون أن تتضمن أي إشارة إلى حالتي في المسرح. كان كل ما قيل هو: «يا عزيزي تروتوود. أقيم في منزل وكيل أبي، إنه السيد ووتربروك، القابع في شارع هولبورن. هل ستأتي لزيارتي اليوم، أو في أي وقت تريد تعيينه؟ صديقتك القديمة المخلصة أجنيس».

استغرقت وقتًا طويلًا حتى أستطيع كتابة رد يرضيني تمامًا، ولا أعرف ماذا دار في خلد ساعي البريد حول هذا التأخير، ربما ظن أنني لا أزال أتعلم الكتابة. أظن أنني كتبت ما يقرب من ست رسائل على الأقل. بدأت أولها قائلًا: «كم أتمنى يا عزيزتي أجنيس، أن أمحو الانطباع السيئ من ذاكرتك...». لم يعجبني هذا الرد، ومن ثَم مزقته. بدأت الكتابة مرة أخرى قائلًا: «لقد قال شكسبير، يا عزيزتي أجنيس، كم أعجب من رجل يضع عدوه في فمه». إلا أنني تذكرت ماركهام، فلم أستطع الاسترسال في هذا الخطاب. ثم إنني جربت أن أكتب شعرًا، وشرعت في تدوين قصيدة واحدة من ستة مقاطع، فكتبت: «آهٍ، لا تَذكُري...»،

إلا أن البيت ذكرني بأحداث الخامس من نوفمبر[1]، وصار من العبث مواصلة أشعاري. كتبت بعد عدة محاولات ما نصه: «عزيزتي أجنيس، إن رسالتكِ تشبهكِ، فما الثناء الذي يمكنني أن أمدحكِ به أكبر من هذا الوصف؟ سآتي في الساعة الرابعة محملًا بمودة وحزن. صديقك ت. ك» وبهذه الرسالة - التي فكرت في استرجاعها مرات بعد أن خرجت من يدي - غادر ساعي البريد أخيرًا.

لو أن رجلًا من رجال مجلس المحامين كان قد مر بمثل هذا اليوم الذي يحمل هذا الزخم، لظننت أنه قدم ما يكفي ليكفر عن نصيبه من ذلك الجبن القديم المتعفن. تركت المكتب في الساعة الثالثة والنصف، ورحت أتجول حول المكان المعهود لبضع دقائق بعد انصرافي، ثم انقضى ما يقرب من ربع ساعة، متجاوزًا الوقت المحدد للقاء، وفقًا لساعة كنيسة سانت أندرو. يمكنني القول إنني صرت مترددًا قبل أن أستجمع قواي لسحب مقبض الجرس المثبت إلى عمود الباب الأيسر لمنزل السيد ووتربروك.

كان الطابق الأرضي مخصصًا لتنفيذ الأعمال المهنية للسيد ووتربروك، أما الطابق العلوي، فكان لممارساته الخاصة (توافرت لديه أعمال لا بأس بها). دخلت إلى غرفة استقبال جميلة ولكنها ضيقة إلى حد ما، جلست أجنيس فيها وهي تحمل بين يديها محفظة.

---

(١) الخامس من نوفمبر عام ١٦٠٥ ذكرى «مؤامرة البارود» التي قبض فيها على جاي فوكس، بعد محاولته الفاشلة في القضاء على الملك وحاشيته عن طريق كمية هائلة من البارود، وضعها مع زملائه تحت مبنى البرلمان. قُبض على جاي فوكس وحُكم عليه بالموت، وصار يوم الخامس من نوفمبر احتفالًا رسميًا في البلاد.

بدت هادئة وفي أحسن حال، حتى أنعشت ذاكرتي بأيام مدرستي السعيدة الحرة في كانتربري، وكذلك تذكرت هذا البائس الغبي المعبأ بالدخان الذي كنته في الليلة الماضية، حتى إنني استسلمت لتوبيخ نفسي وتحمل عار الخزي كما لم أفعل من قبل، وباختصار، كنت قد جعلت من نفسي أضحوكة. لا أستطيع أن أنكر أنني ذرفت الدموع، بل لم أقرر حتى هذه الساعة ما إذا كان الأمر برمته كان الأكثر حكمة أم الأكثر سخافة من بين أفعالي.

قلت بينما أدرت رأسي بعيدًا خجلًا: «لو كان أحد غيرك يا أجنيس، لما فكرت أو عبأت بالأمر كثيرًا. لكن أن تكوني أنتِ من رآني! كم كنت أتمنى لو أنني مت قبل هذا!».

مدت يدها - لم تكن لمستها مثل لمسة أي يد أخرى - وألقتها على ذراعي للحظة. وشعرت بمودة وطمأنينة، حتى إنني لم أستطع منع نفسي من أن أبسط شفتي فأُقبِّل يدها امتنانًا وعرفانًا.

قالت أجنيس في مرح: «اجلس. لا تحزن يا تروتوود. إذا كنت لا تستطيع الوثوق بي تمام الثقة، فبمن تثق؟».

قلت: «آه يا أجنيس! إنكِ ملاكي الطيب».

اعتقدت أنها ابتسمت في حزن شديد، ثم أومأت برأسها.

«نعم يا أجنيس، إنكِ ملاكي الطيب. إنكِ دائمًا ملاكي الطيب».

قالت: «لو أنني كنت هذا الملاك بالفعل تروتوود، فإن شيئًا واحدًا يجب أن أعلق قلبي به وأرعاه».

نظرت إليها متسائلًا. إلا أنني كنت أعرف سابقًا ما ترمي إليه.

قالت أجنيس في نظرة ثابتة: «عليَّ أن أحذرك من شيطان السوء».

قلت: «يا عزيزتي أجنيس، أتقصدين ستيرفورث؟».

أجابتني: «أقصده يا تروتوود».

قلت: «إنكِ يا أجنيس تظلمينه ظلمًا بينًا. إنه ليس بشيطان يضلني، أو يضل أي شخص آخر. إنه مرشد، وداعم وفي، وصديق لي. عزيزتي أجنيس، أما الآن، أليس هذا ظلمًا - وإنه على عكس طبعكِ - أن تحكمي عليه بناء على ما بدر مني تلك الليلة؟».

ردت في هدوء قائلة: «إنني لا أحكم عليه بناء على ما رأيته منك الليلة الماضية».

«كيف تحكمين إذن؟».

«من أشياء كثيرة - تفاهات في حد ذاتها، لكنها لا تبدو لي كذلك، بعدما أضمها معًا. أحكم عليه جزئيًّا مما ترويه عنه يا تروتوود، ومن طبيعة شخصيتك، ومن تأثيره عليك».

كان صوتها الرقيق ينطوي على شيء ما، فيلامس وترًا حساسًا بداخلي، ولا يستجيب إلا لهذا الصوت وحده. كانت نبرتها دائمًا جادة، وعندما يصير الأمر أكثر جدية، كما هي الحال الآن، فإذا بنبرتها الهادرة تزيد من رهبتي كما أخافتني تمامًا في هذه اللحظة. جلست أنظر إليها بينما تضع ما تقوم به من أعمال التطريز نصب عينيها، وقد مكثت أنصت إليها، وإذا بصورة ستيرفورث تظلم، على الرغم من كل التعلق به، وأنا تحت تأثير تلك النبرة الهادرة.

قالت أجنيس، وقد راحت تنظر إليَّ مجددًا: «إنها جرأة شديدة تنبعث من داخلي؛ أنا التي عشت في عزلة ولا أملك سوى قدر ضئيل من الخبرة بهذا العالم، أن أمنحك نصيحتي بكل ثقة، أو حتى أحوز هذا الرأي القوي القاطع. إلا أنني أعرف ما الذي يدفعني إلى هذا القول يا تروتوود، إنه الإخلاص إلى ذكرى نشأتنا معًا، واهتمامي الصادق بكل ما يتعلق بك؛ هذا ما يدفعني إلى هذه الجرأة. إنني واثقة من صحة قولي، لا يراودني أدنى شك فيها. أشعر كما لو أن شخصًا آخر يتحدث إليك، إنه ليس أنا، لكنني أحذرك من أنك قد اتخذت صديقًا خطيرًا».

نظرت إليها مرة أخرى، ورحت أنصت إليها، وحين عاودت الحديث بعد صمت، أخذت صورة ستيرفورث تظلم من جديد، على الرغم من أنها كانت لم تزل راسخة بين جوانحي.

استأنفت أجنيس حديثها بنبرتها المعتادة بعد فترة صمت قصيرة، وأخذت تقول: «إنني لست بلهاء حتى أتوقع أنك ستغير، أو يمكنك في الحال، أن تغير أي شعور ناحيته بعد أن صار راسخًا في داخلك، أو على الأقل تُبدِّل المشاعر المتجذرة النابعة من نياتك الطيبة السليمة. بل أطلب منك ألا تتسرع في الوثوق به. إنني لا أطلب منك يا تروتوود إلا أمرًا يسيرًا، إن كنت قد كننت لي يومًا أي معزة؛ أعني...». ابتسمت هنا ابتسامة هادئة، لأنني كنت على وشك مقاطعتها، وكانت تعرف سبب ذلك، فاستطردت تقول: «كلما خطرت على بالك - أرجو أن تفكر فيما قلته لك. فهلا تسامحني على كل ما قلته لك؟».

أجبتها: «سوف أسامحكِ يا أجنيس، عندما تمنحين ستيرفورث حقه، فتحبينه مثلما أحبه تمامًا».

قالت أجنيس: «ألن تسامحني حتى ذلك الحين؟».

لمحت طيفًا عابرًا يبدو على وجهها عندما أشرت إليه، لكنها ردت ابتسامتي لها بمثلها، وقد عدنا مرة أخرى متآلفين وقد استعاد كل منا ثقته في الآخر كما كنا في سابق عهدنا.

قلت: «ومتي ستسامحينني يا أجنيس على تلك الليلة السالفة؟».

قالت أجنيس: «عندما أتذكرها».

أنهينا الموضوع على هذا النحو، إلا أنني كنت مشغول الفؤاد إلى الحد الذي يمنعني من إنهائه، ومن ثَم أصررت على إخبارها كيف جلبت هذا الخزي لنفسي، وما وقع من سلسلة الأحداث العرضية لها حتى أدت الحلقة الأخيرة إلى قاعة المسرح. أحسست ارتياحًا لإقدامي على الحكي، كما توسعت في سرد ما أدين به لستيرفورث بعد رعايته لي حين لم يكن بمقدوري الاعتناء بنفسي.

تحدثت أجنيس بمجرد أن انتهيت من حديثي، بينما تحاول تغيير موضوع هذه المحادثة في هدوء، فقالت: «يجب ألا تنسى أنه عليك أن تحكي لي دومًا، ليس ما تقع فيه من المشكلات فقط، بل تخبرني حين تقع في الحب أيضًا. مَن جاءت بعد الآنسة لاركنزا يا تروتوود؟».

«لا أحد يا أجنيس».

قالت أجنيس بينما تضحك وترفع إصبعها ناحيتي: «فتاة يا تروتوود؟».

«لا، بشرفي يا أجنيس، إن في منزل السيدة ستيرفورث بلا شك سيدة ذكية للغاية، وإنني أرغب في التحدث معها -إنها الآنسة دارتل- لكنني لا أعشقها».

ضحكت أجنيس مرة أخرى مفتخرة بقدرتها على سبر أغواري، وأخبرتني أنني إذا كنت مخلصًا لها صادقًا فيما أحكي، فإنها تظن أنها يجب أن تحتفظ بسجل صغير لتدوين غرامياتي المتوهجة، مع تدوين التاريخ ومدة وانتهاء كل علاقة منها، مثل جدول عهود حكم الملوك والملكات في تاريخ إنجلترا. ثم سألتني إذا ما كنت قد رأيت يورايا.

قلت: «يورايا هيب؟ هل هو في لندن؟».

قالت أجنيس: «إنه يأتي إلى المكتب القابع في الطابق السفلي كل يوم. لقد كان في لندن قبلي بأسبوع. أخشى أنه جاء لإتمام عمل بغيض يا تروتوود».

قلت: «أيقوم بعمل مقلق بالنسبة لكِ يا أجنيس؟ تُرى ماذا يمكن أن يكون هذا العمل؟».

تركت أجنيس تطريزها جانبًا، وأجابت بعد أن وضعت إحدى يديها على الأخرى، وراحت تنظر إليَّ بعينيها الناعستين الفاتنتين قائلة:

«أظن أنه سيتشارك مع أبي».

صرخت في سخط أقول: «ماذا؟ يورايا؟ أتقصدين أن هذا الرفيق المزعج، قد تطلع إلى هذه المكانة! ألم تحتجي على ذلك يا أجنيس؟ ضعي في اعتباركِ العواقب المحتملة والناجمة عن هذه الشراكة. يجب أن يصير لكِ رأي في الأمر، فلا تسمحي لوالدكِ بالإقدام على مثل هذه الخطوة المتهورة. يجب أن تمنعيه يا أجنيس، ما دامت الفرصة لا تزال سانحة».

كانت أجنيس لم تزل تنظر إليَّ، وقد أومأت برأسها حين واصلت حديثي، ثم أجابتني بابتسامة باهتة مجيبة على انفعالي، فقالت:

«هل تتذكر محادثتنا الأخيرة عن أبي؟ لم يمضِ وقت طويل بعد هذا الحديث - ليس أكثر من يومين أو ثلاثة أيام - حتى أنبأني بأول تلميحاته حول ما أخبرتك به. كان من المحزن أن أراه مشتتًا بين رغبته في التظاهر أمامي بأنه قد اختار هذا الأمر رغبة منه، وعدم قدرته على إخفاء ما فُرض عليه. كم شعرت بحزن وأسف عليه».

«مُجبر عليه يا أجنيس! من فرض الأمر عليه؟».

أجابت بعد لحظة من التردد، قائلة: «إنه يورايا. لقد وضع نفسه في مكانة لا غنى عنها عند أبي. إنه حاذق ويقظ. لقد أتقن السيطرة وأثقل معرفته بنقاط ضعف أبي ثم عزَّزها، واستغلها حتى - لنقل بكل ما أعنيه من كلمة يا تروتوود - جعل أبي يخاف منه».

كان من الجلي أن ثمة الكثير مما يفوق ما يمكنها قوله، وأنها تَكُن أكثر مما باح به خاطرها. لم أستطع أن أسألها تجنبًا لإثارة آلامها، لأنني

فهمت أنها حجبت عني بعض التفاصيل، حفاظًا على هيبة والدها. أدركت أن الأمور قد استمرت على هذا النحو منذ فترة طويلة، نعم، لم أستطع إلا أن أتيقن من شعوري، بأقل قدر من التأمل، إذ استمر هذا الأمر لفترة طويلة، ولذا فقد آثرت الصمت.

قالت أجنيس: «إن سيطرته على أبي هائلة جدًّا. إنه يعترف بالتواضع والامتنان – ربما يكون هذا حقيقيًّا، ربما... آمل ذلك – لكن منصبه صار قويًّا حقًّا، وأخشى أن يستخدم قوته في البطش».

قلت إنه كلب، وقد كان هذا الوصف مصدر ارتياح كبير لي في ذلك الحين.

تابعت أجنيس كلامها فقالت: «في ذلك الوقت الذي أحدثك عنه، كان أبي يتحدث معي وإذا به يخبرني أن يورايا قال إنه يريد أن يتركه، وأنه آسف لتركه وغير راغب في المغادرة، لولا أنه سيحظى بفرصة أفضل. بات أبي مكتئبًا في ذلك الوقت، وقد رأيت أن هامته قد انحنت فصار هرمًا أضعف من أي وقت مضى، ثم بدا مرتاحًا لهذه الطريقة، ألا وهي الشراكة، على الرغم من أنه بدا في الوقت نفسه متألمًا بل خجلًا منها».

«وكيف تلقيتِ الأمر يا أجنيس؟».

أجابت: «لقد فعلت يا تروتوود ما أرجو أن يكون صحيحًا. كنت متأكدة من أنه من الضروري أن تحدث هذه التضحية ضمانًا لسلامة الأب، ومن ثَم ناشدته أن يشاركه. قلت إن المشاركة ستخفف عن أبي عبء حياته – وإني لأرجو أن يحدث ذلك! – وإنه سيمنحني فرصًا أوفر

لأكون برفقته». راحت أجنيس تبكي، وهي تضع يديها أمام وجهها، بعدما بدأت دموعها في الانهمار، وقالت: «آهٍ يا تروتوود! أشعر كما لو أنني أكن لأبي عداوة، بدلًا من أن أكون طفلته المحبة. إنني أدرك كيف أنه أفنى نفسه إخلاصًا لي. أعرف كيف ضيق دائرة عواطفه وواجباته ليركز كل انتباهه إلى حالي. أعرف كم من أمور عدة أغلق أبوابها من أجلي، وكيف أن انشغاله القلق والدائم بمستقبلي قد طغى على حياته بأسرها، فأضعف من قوته وحدَّ من طاقته، بعد أن أفناهما من أجلي وحدي. آه لو أن بإمكاني رد هذا الجميل! آه لو أن بإمكاني العمل على استعادة ما فقد! لقد كنت سببًا في تدهوره، أنا البريئة الساذجة».

لم أكن قد رأيت أجنيس تبكي من قبل. لاحظت الدموع في عينيها عندما جئت إليها في المنزل معلنًا حصولي على درجات عالية ومشرفة في المدرسة، ثم رأيتها في آخر مرة تحدثنا فيها عن والدها، كما رأيتها تدير رأسها اللطيف جانبًا عندما نفترق، لكني لم أرَها حزينة تبكي بمثل هذا الأسى من قبل. لقد شعرت بأسف شديد، حتى إنني لم أستطع إلا أن أقول كلمات حمقاء وعاجزة: «لا تبكي يا أجنيس، لا تبكي، لا يا أختي العزيزة».

أما أجنيس فكانت متفوقة عليَّ من حيث الشخصية والإرادة، كما بت أعرفها جيدًا الآن، باستثناء كل ما عرفته أو لم أعرفه عنها في ذلك الوقت، فلم تكن في حاجة إلى توسلاتي لفترة طويلة. إن طريقتها الفاتنة والهادئة جعلتها مختلفة تمامًا في ذاكرتي عن أي امرأة أخرى، فقد عادت مرة أخرى إلى طبيعتها، كما لو أن سحابة قد انقشعت عن سماء صافية.

قالت أجنيس: «لا أحسب أننا سنبقى بمفردنا لفترة أطول، لذا سأنتهز الفرصة لأرجوك يا تروتوود بجدية وإلحاح، أن تكون ودودًا مع يورايا. لا تصده ولا تستَأْ - كما أظن أن لديك نزعة عامة لاحتقاره - مما قد يبدر منه فيزعجك. إنه لا يستحق هذا الاحتقار، لأننا لا نعرف عنه سوءًا. على أي حال، فلتفكر أولًا في أبي ولتفكر فيَّ».

لم يكن لدى أجنيس وقت لتزيد القول، فقد انفتح باب الغرفة، وأقبلت السيدة ووتربروك، وهي امرأة ضخمة، أو ربما كانت ترتدي فستانًا كبيرًا، لا أعرف بالضبط أيهما، لأنني لم أستطع أن أفرق بين السيدة وملابسها، لأنها همت إلينا كما لو كانت مُبحرة في ثيابها. لاح لخاطري أنني ربما أكون قد رأيتها في المسرح، كما لو أبصرت صورتها في فانوس سحري شاحب، لكنها بدت تتذكرني تمامًا، ولم تزل تشك في أنني في حالة من السكر.

اكتشفت مع مُضي الوقت أنني رصين واعٍ، وأرجو أن تكون قد أدركت أنني شاب متواضع خجول. خففت السيدة ووتربروك من حدتها معي كثيرًا، وسألتني أولًا عما إذا كنت أكثر من زيارتي إلى الحدائق العامة، واستفسرت ثانيًا عن مدى اختلاطي بالمجتمع. أجبت عن هذين السؤالين بالنفي، ثم خطر لي أنني قد فزت بثقتها مرة أخرى، لكنها أخفت هذه الحقيقة بلباقة، ثم دعتني لتناول العشاء معها في اليوم التالي. قبلت الدعوة، ثم استأذنت في الانصراف، وتوجهت إلى يورايا في المكتب قبل أن أنصرف لكني لم أجده، فتركت له بطاقة ليراها حين عودته.

ذهبت لتناول العشاء في اليوم التالي. انفتح الباب لاستقبالي، فإذا بسحابة دخان تعبئ المكان ناشرة روائح شواء لحم الضأن. أدركت أنني لست الضيف الوحيد بعد أن تعرفت على الفور على حامل رسائل أجنيس الذي جاءني متخفيًا، وقد كان خادم العائلة، الذي انتظر أسفل السلم يسأل عني. كان قد حاول أن ينظر إليَّ بأقصى ما أوتي من الحذر ليتظاهر أنه لم يرَني من قبل، وقد أضمر كل منا شيئًا، لأنني كنت أعرفه جيدًا، وكان يعرفني جيدًا، إلا أن كلًّا منا لم يتحلَّ بالشجاعة الكافية ليبوح بسره.

رأيت السيد ووتربروك، فإذا به رجل نبيل في منتصف العمر، قصير الرقبة، يرتدي قميصًا كبير الياقة، لا ينتقص وجهه سوى أنف أسود ليصير أشبه بكلب «البولدوج». أعرب لي عن سعادته وتشرفه بمعرفتي. قدمت التحية ومراسم الاحترام للسيدة ووتربروك، وإذا بها تقدمني - في احتفاء بالغ - إلى سيدة بشعة للغاية ترتدي فستانًا أسود مخمليًّا، وقبعة سوداء مخملية هائلة الحجم، أتذكر أنها كانت تبدو أقرب ما تكون إلى إحدى قريبات هاملت، أو على سبيل المثال أشبه بعمته.

كانت هذه السيدة تدعى هنري سبايكر. أما زوجها فكان حاضرًا أيضًا، وهو رجل شديد البرودة، حتى إنه بدا كما لو أن ذرات الثلوج قد تناثرت فوق رأسه فغطت سواده بدلًا من أن يشيب. أظهر الجميع احترامًا وتبجيلًا لآل هنري سبايكر، لكل من الرجل وزوجته على حد سواء. كانت أجنيس قد أخبرتني أن هذا الاحترام يعزى إلى كون السيد

هنري سبايكر وكيلًا لشيء ما أو لشخص ما -نسيت ما الشيء أو أيهما- وأنه مرتبط بصورة ما بوزارة المالية.

رأيت يورايا هيب بين هذا الجمع، مرتديًا حلة سوداء، يظهر تواضعًا جمًّا. صافحته، فأخبرني أنه فخور بملاحظتي لوجوده، وأنه يشعر بالامتنان لتنازلي بإلقاء التحية عليه. كنت أتمنى لو لم يكن مدينًا لي بشيء، لأنه ظل يحوم حولي طوال المساء، مظهرًا هذا الامتنان، وكنت كلما تحدثت بكلمة إلى أجنيس أراه يرمقنا بوجهه الشاحب وعينيه الضامرتين المطلتين من الظلال، وقد بات ينظر إلينا نظرات واهنة.

خيل إليَّ أن الضيوف الآخرين كانوا جميعهم مجمدين لمثل هذه المناسبة، أو مُعتَّقين كما يُعتق النبيذ. إلا أن شخصًا كان قد لفت انتباهي قبل أن يطل علينا، بعد أن سمعت صوتًا معلنًا عن دخوله، إنه السيد ترادلز! ألحت على ذاكرتي حينها ذكريات مدرسة سالم هاوس، بل حسبت أنه قد يكون تومي؛ ذلك الصبي الذي كان يرسم الهياكل العظمية.

لقد بحثت عن السيد ترادلز باهتمام غير عادي. كان شابًّا رصينًا وثابتًا ذا خلق، يبدو شعره مضحكًا، وقد انفتحت عيناه على مصراعيهما، وسرعان ما غاص في ركن ما، حتى صار من الصعب تمييزه من بين المدعوين. استطعت أخيرًا رؤيته من جديد، ولا أدري هل خدعني بصري، أم أنه تومي القديم ذاك الصبي البائس!

شققت طريقي إلى السيد ووتربروك، وقلت إنني أحسب أنه من دواعي سروري رؤية زميل مدرستي القديمة هنا.

قال السيد ووتربروك مندهشًا: «أحقًّا هذا؟ إنك أصغر من أن تكون قد ذهبت إلى المدرسة مع السيد هنري سبايكر».

قلت: «آهٍ، إنني لا أقصده! إنني أقصد الرجل المحترم الذي يدعى ترادلز».

قال مضيفي بعد أن أبدى اهتمامًا: «آهٍ، نعم، نعم، ربما».

قلت، بينما ألقي بنظراتي نحو ترادلز: «إذا كان هو الشخص الذي أقصده حقًّا، فقد كان في مكان يُدعى سالم هاوس وقد كنا معًا، وكان زميلًا ممتازًا».

راح مضيفي يومئ برأسه مُظهِرًا نوعًا من القبول والرضا، قائلًا: «نعم بالتأكيد. إن ترادلز رجل صالح. إنه رفيق جيد حقًّا».

قلت: «يا لها من مصادفة غريبة!».

عاد مضيفي قائلًا: «حقًّا، يا لها من مصادفة، خاصة مع حضور ترادلز إلى هنا لأنه لم يُدعى إلى هذا الجمع سوى اليوم وفي هذا الصباح. لقد أتيح مكان على الطاولة، وقد كان من المفترض أن يشغله شقيق السيدة هنري سبايكر، إلا أنه اعتذر بسبب توعكه. ويا له من رجل نبيل للغاية؛ أقصد شقيق السيدة هنري سبايكر يا سيد كوبرفيلد».

تمتمت بالموافقة في جو مليء بالمشاعر، معتبرًا أنني لا أعرف شيئًا عنه على الإطلاق، ثم استفسرت عن مهنة السيد ترادلز.

قال السيد ووتربروك: «إن ترادلز شاب يهتم بدراسة القانون. نعم. إنه رجل طيب، لا يعادي أحدًا سوى نفسه».

قلت آسفًا لسماع هذ القول: «أهو عدو نفسه؟».

أخذ السيد ووتربروك يثني شفتيه ويلعب بسلسلة ساعاته في هيئة تعكس ترفًا وزهوًا، قائلًا: «حسنًا، من الأفضل أن أقول إنه أحد هؤلاء الرجال الذين يقفون عقبة في طريق نورهم. نعم، أقول إنه بالأحرى لن يصير لقيمته ما يساوي على سبيل المثال خمسمائة جنيه. كان أحد أصدقاء ترادلز في المهنة قد زكَّاه عندي. نعم بالتأكيد. نعم. إنه يتمتع حقًّا بقدر من الموهبة في كتابة المذكرات، وعرض القضية في كتابة واضحة. أما أنا فقادر على إلقاء شيء ما في طريق ترادلز، على مدار هذا العام؛ شيء سيكون كبيرًا بالنسبة له. نعم بالتأكيد. نعم».

لقد تأثرت بنبرة السيد ووتربروك التي راح يردد بها قوله «نعم بالتأكيد. نعم». إنها طريقة مترفة وناعمة. راح يكررها بين الحين والآخر بنغمة مبالغة متعالية. لقد أوحت طريقته بفكرة الرجل الذي ولد، ليس كما يقولون بملعقة فضية في فمه، بل ولد مع سلم صاعد ثم استمر في صعود كل قمم الحياة واحدة تلو الأخرى، حتى بدا الآن راسخًا فوق أعلى الحصون، يراقب الشعب أسفل الخنادق بعين الفيلسوف والراعي.

ظلت تأملاتي تحوم حول هذا الموضوع حتى أُعلن عن طعام العشاء. أقبل السيد ووتربروك وقد رافق السيدة عمة هاملت، ثم أولى السيد هنري سبايكر اهتمامه إلى السيدة ووتربروك واتجهوا نحو المائدة. أما أجنيس، فكم كنت أود لو أصطحبها بنفسي إلى

العشاء، لولا أن تقدم رجل متواضع ذو رجلين واهنتين واصطحبها. بقي يورايا وترادلز وأنا، ممثلين عن الشباب الأصغر سنًّا في الحفل، حتى كنا آخر مَن اتخذوا مواضعهم حول المائدة. لم أكن منزعجًا من خسارة اصطحاب أجنيس بالدرجة التي كنت أتوقعها، لأنها أتاحت لي الفرصة لأُعرف نفسي إلى ترادلز بينما كنا نهبط السلم، وقد استقبلني في حماس شديد، بينما راح يورايا يتلوى مظهرًا نوعًا من التذلل البالغ والتحقير من النفس، وكم وددت لو أنني أستطيع أن ألقي به من فوق درجات السلم! افترقت أنا وترادلز على المائدة، حيث جلس كل منا في زاوية نائية. جلس ترادلز في وهج سيدة ذات شعر أحمر مخملي، أما أنا فجلست في كنف كآبة وسواد عمة هاملت. كان وقت تناول العشاء طويلًا للغاية، وظل الحديث يدور عن الأرستقراطية والدم. قالت لنا السيدة ووتربروك مرارًا وتكرارًا، إنها إذا كانت تعاني من ضعف ما، فمصدره الدم.

خطر لي عدة مرات أن الأمور كانت لتتحسن، لو لم نكن مهذبين إلى هذا الحد. لقد كنا في غاية الرقة واللطف، وكان نطاق تصرفاتنا محدودًا للغاية. كان من بين الحضور السيد جالبدج والسيدة زوجته، وكانت لهما - أو على الأقل كانت للرجل - صلة غير مباشرة بالأعمال القضائية المتعلقة بالبنك، حتى انصرف الكلام حول الأمور المتعلقة بالبنك، أو الأمور المتعلقة بالخزانة العامة، فصرنا محاصرين بأجواء تشبه المحكمة. فضلًا عن ذلك كله، فقد عانت عمة هاملت بما ورثته عن العائلة، حيث الانغماس في مناجاة النفس، وراحت تُحدِّث نفسها

عن نفسها، كما راحت تُدلي بكلام متقطع حول كل موضوع يطرح للحديث. كانت هذه الموضوعات الثانوية قليلة بلا شك، إذ كنا نعاود دائمًا الحديث عن الدم، وقد لبث لدى عمة هاملت مجال واسع للمضاربة بالكلام تمامًا مثل ابن أخيها.

ساد الحديث عن الدم حتى أوشك جمعنا أن يبدو مثل الغيلان المجتمعة.

قال السيد ووتربروك بعد أن قرَّب كأس النبيذ من عينه: «أعترف أنني أوافق السيدة ووتربروك الرأي. إن كل الأشياء قد تبدو على ما يرام في ذاتها، ولكنها لا تساوي مسألة الدم».

قالت عمة هاملت: «آهٍ، لا شيء يرضي أحدًا أشد الرضا أكثر منه، بل لا يبدو أي شيء مثاليًّا من دونه، إنه أهم شيء من بين كل الأشياء بشكل عام. إن بعض العقول الوضيعة - ليس الكثير من العقول، يسعدني أن أحسب أنهم قلة - ممن يفضلون القيام بما يجب أن أسميه انحناءً أمام الأصنام. الأصنام بلا شك! أقصد الخدمات العظيمة والأفكار وما إلى ذلك، وهذه النقاط غير ملموسة. أما الدم، فليس كذلك، لأننا نرى الدم في الأنف ونعرفه. نبصره في ذقن، ونقول، «ها هو، هذا دم»، إنها حقيقة واقعة. نشير إليه في جلاء وبلا أدنى شك».

راح الرجل البسيط ذو الرجلين الواهنتين الذي اصطحب أجنيس، يشرح المسألة في هذه اللحظة، وقد بدا فيما أظن، شرحًا قاطعًا.

قال هذا الرجل، وهو يدير نظراته حول المائدة بابتسامة بسيطة: «آهٍ، كما تعلمون، إننا لا نستطيعِ أن نعيش بلا دماء. يجب أن نحيا بالدماء، كما تعلمون. قد يتأخر بعض الشباب، كما تعلمون، عن ذويهم قليلًا، ربما في التعليم أو السلوك، وقد يقترفون بعض الأخطاء، كما تعلمون، فيوقعون أنفسهم وغيرهم في سلسلة متنوعة من الأزمات، وما إلى ذلك من الصعاب التي أدعو بأن لو يأخذها الشيطان في طريقه إلى الجحيم. إنه لمن دواعي سروري أن أفكر في أن الدماء تسري بينهم، وأنا شخصيًّا أفضل أن يصرعني رجل تنضح عروقه بالدماء في أي وقت، على أن يلتقطني من الهاوية رجل لا يحوز دمًا وفيرًا».

كان هذا الشعور بمثابة تلخيص للرؤية العامة للموضوع، وقد نال أقصى درجات الرضا والقبول، بل جعل من الرجل محط الانتباه، حتى انصرفت السيدات عن الطعام. لاحظت بعد ذلك، أن السيد جالبدج والسيد هنريِ سبايكر، كانا بعيدين للغاية إلى أن حانت هذه اللحظة، فإذا بهما قد دخلا في تحالف دفاعي ضدنا، كما لو أننا عدو مشترك لكليهما، وتبادلا حوارًا غامضًا عبر الطاولة بهدف هزيمتنا والإطاحة بنا.

قال السيد جالبدج: «إن قضية السند الأول الذي يُحول أربعة آلاف وخمسمائة جنيه، لم تأخذ المسار الذي كان متوقعًا يا سبايكر».

قال السيد سبايكر: «هل تقصد قضية د. أ؟».

قال السيد جالبدج: «أقصد قضية ك. ب».

رفع السيد سبايكر حاجبيه وبدا قلقًا للغاية.

قال السيد جالبدج، بينما يراجع أقواله: «عندما تمت إحالة القضية إلى اللورد... لست بحاجة إلى ذكر اسمه».

قال السيد سبايكر: «أفهمك».

أومأ السيد جالبدج برأسه إيماءة بسيطة، واستطرد قائلًا: «عندما تمت الإحالة إليه، كانت إجابته؛ الدفع أو الحبس».

صاح السيد سبايكر: «رحماك يا ربي!».

كرر السيد جالبدج في حزم: «إنه الدفع، أو الحبس. إنه طريق لا رجعة فيه، هل تفهمني؟».

قال السيد سبايكر في نظرة متشائمة: «تقصد ك؟».

«رفض ك التوقيع رفضًا قاطعًا. لقد حضر إلى السوق الجديدة لهذا الغرض، ولقد رفض الأمر فعلًا».

صار السيد سبايكر منتبهًا للغاية حتى إنه تصلب في مكانه.

راح السيد جالبدج يتحدث مستلقيًا فوق كرسيه قائلًا: «لذا فقد تجمدت هذه المسألة عند هذه النقطة إلى وقتنا هذا. وألتمس من صديقنا ووتربروك المعذرة إذا لم أتمكن من شرح مقصدي بشكل عام، بسبب حجم المصالح الخاصة التي ينطوي عليها هذا الأمر».

بدا لي أن السيد ووتربروك سعيد جدًّا، فرِح بذكر مثل هذه المصالح، أو هذه الأسماء على طاولته، ولو بالتلميح إليها. فأضفى على وجهه سمات الفاهم، وملامح الذكاء - على الرغم من أنني على قناعة تامة بأنه لم يفهم شيئًا عن هذه المناقشة أكثر مما فهمته - فوافق بشدة

على هذه الطريقة الحكيمة، وامتدحها. أراد السيد سبايكر - بعد أن حاز هذه الثقة من صديقه الخاص - أن يتلو الحوار السابق بطبيعة الحال حوارًا آخر، حيث يصير الدور فيه للسيد جالبدج كي يُفاجأ بالألغاز، وتدور كرة أخرى تحل فيها المفاجأة على السيد سبايكر مجددًا، وهكذا دواليك على طريقة استدر وانعطف. أما نحن الغرباء فقد لبثنا كل هذا الوقت منهكين تحت عبء هذه المصالح الهائلة التي ينطوي عليها الحديث. وقد اعتبرَنا مضيفنا بكل فخر ضحايا الدهشة وفريسة الرهبة. سعدت أيما سعادة بالصعود إلى أجنيس، والتحدث معها عند إحدى الزوايا، ثم قدمت إليها ترادلز، وقد بدا أمامها خجولًا لكنه مقبول، لم يزل ذاك المخلوق نفسه حسن النية. اضطر ترادلز إلى المغادرة في وقت مبكر، نظرًا لظروف سفره في صباح اليوم التالي لشهر كامل. لم أستطع أن أجري معه محادثات كثيرة بالقدر الذي كنت أتمناه، لكننا تبادلنا بعض الآراء المشتركة، وتعاهدنا على لقاء آخر ممتع عندما يعود إلى المدينة. كان مهتمًّا جدًّا بسماع ما أعرفه عن ستيرفورث، وقد تحدثت عنه بحرارة حتى طلبت منه أن يخبر أجنيس عن رأيه فيه. أما أجنيس، فنظرت إليَّ خلال هذه الفترة من دون أن تنبس ببنت شفة، وراحت تهز رأسها قليلًا عندما ألتفت إليها فقط.

كنت أفكر في أن أجنيس لم تقم بين أشخاص تألف المقام بينهم، لذلك كنت سعيدًا لسماع أنها ستغادر في غضون أيام قليلة، على الرغم من أسفي على فراقها وقد صار الابتعاد عنها مرة أخرى وشيكًا. أبقاني هذا الأمر حتى رحيل كل الضيوف. كم كان الحديث معها، والاستماع

إلى غنائها، بمثابة تذكرة سارة لحياتي السعيدة في ذاك المنزل القديم الضخم الذي أضفت عليه من جمالها الأخاذ! وددت لو تسنح لي الفرصة لأبقى معها حتى منتصف الليل، إلا أنني لم يكن عندي ما أبديه من أعذار للبقاء أكثر من ذلك، بعدما أُطفئت جميع الأضواء وانصرف ضيوف السيد ووتربروك. استأذنت في الانصراف مقاومًا إرادتي في البقاء. شعرت حينها أن أجنيس تبدو لي ملاك خير لم أعهد وجوده من قبل، ثم خال لي وجهها الوضاء وابتسامتها الهادئة، كما لو أنهما قد أشرقا عليَّ من كائن أزلي يرنو كملاك، وكم أتمنى ألا تخالط أفكاري هذه أي شائبة.

لقد قلت إن الضيوف كانوا قد انصرفوا جميعًا، إلا أنني كان يجب أن أستثني يورايا، الذي لم أضمه إلى هذه الفئة، ولم يتوقف بدوره عن التحليق بالقرب منا. ظل يتبعني عن قرب حتى وجدته يهبط السلم إثري، ومكث على قربه مني متابعًا لي عندما خرجت من المنزل، وقد أبصرته يزج أصابعه الطويلة التي تشبه الهيكل العظمي ببطء في زوج من قفازات أشبه بجاي فوكس[١].

لم أستسِغ مرافقة يورايا، إلا أنني تذكرت ما طلبته أجنيس مني، فدعوته إلى بيتي واحتساء بعض القهوة معي.

أجابني قائلًا: «آهٍ، بالطبع يا سيد كوبرفيلد، أستميحك عذرًا يا سيد كوبرفيلد، إن كنت أدعوك بهذه السلاسة، وإنني لا أحب أن تقيد نفسك

---

(١) أشهر مشاركي «مؤامرة البارود». انظر الهامش السابق. يقال إن بعض المحتفلين يتخذون تمثالاً على هيئة ساخرة وملابس غريبة تجسيدًا لجاي فوكس قبل إحراقه.

بمثل هذا الطلب من إنسان تافه حقير مثلي، بأن تدعوه إلى سكنك».

قلت له: «لا قيود في هذه المسألة. هل ستأتي؟».

أجاب يورايا: «ما أجمل أن أفعل ذلك!».

قلت: «حسنًا، تعالَ معي».

لم يسعني إلا أن أوجز في حديثي معه، وبدا أنه لا يمانع هذا الاقتضاب. توجهنا إلى أقرب الطرق، من دون تبادل أي أحاديث طويلة، وقد لاح أكثر ضعة بعد ارتدائه لهذه القفازات المفزعة، وقد ظل يرتديها طوال الطريق، من دون أن يبدي أي محاولة لإخفاء مظهرها القميء حتى وصلنا إلى سكني.

تقدمته لأرشده إلى موضع السلالم المظلمة، حتى أُجنبه ارتطام رأسه بأي شيء، وقد شعرت بيده الباردة الرطبة وكأنني أمسك بضفدع بين يدي، إلى الحد الذي أغراني بإسقاطه والفرار منه. قيَّدني حديث أجنيس وحسن الضيافة، فعدلت عن هذه الفكرة وأجلسته إلى جانب المدفأة. أشعلت شموعي، فإذا به وقد لفه ذهول وعجب بعدما تكشَّفت أمامه الغرفة. سخَّنت القهوة في وعاء متواضع من القصدير؛ كانت السيدة كروب مسرورة بتحضير القهوة فيه - أظن أن هذا الوعاء لم يُخصَّص لهذا الغرض من الأساس، بل كان إناء للحلاقة. أما الغلاية المختصة باهظة الثمن فمكثت في خزانة المؤن. أبدى يورايا مشاعر كثيرة مفتعلة، حتى إنني وددت لو حرقته بالماء المغلي بكل سرور.

قال يورايا: «آهٍ، حقًّا يا سيد كوبرفيلد - أعني السيد كوبرفيلد[1]، لم أتوقع أن أراك في خدمتي على هذه الصورة قَطُّ. إلا أنني أجد، بطريقة أو بأخرى، أن مثل هذه الأشياء التي لم أكن أتوقعها قَطُّ باتت تحدث أمامي، وقد كنت على يقين، بل ولم أنتظر مطلقًا من موضعي الدنيء هذا أن تحدث لي مثيلاتها. يبدو أنها البركات والنعم صارت تمطر وتغمرني. أحسب أنك سمعت شيئًا عن تغيير حادث في مسيرتي المستقبلية يا سيدي الشاب كوبرفيلد... يجب أن أقول، يا سيد كوبرفيلد».

كان يورايا جالسًا على أريكتي، بينما ثبت ركبتيه الطويلتين ليستقر عليهما فنجان قهوته، وقبعته وقفازه فوق الأرض بالقرب منه، وقد أخذت ملعقته تدور بهدوء في فنجانه، وتلوح عيناه الحمراوان متقدتين كما لو أنهما احترقتا، فصارتا بلا أهداب. دارت مقلتاه نحوي من دون أن ينظر إليَّ. تجلت أمامي خدوشه وندوبه البغيضة التي تعلو أنفه وقد وصفتها سابقًا، فإذا بها تظهر وتختفي مع أنفاسه، وإذا بتموج مروع يخترق هيكله من ذقنه حتى حذائه، مما جعلني أوقن أنني أكرهه بشدة، بل شعرت بالنفور الشديد من وجوده ضيفًا عندي. كنت صغيرًا حينها، ولم أكن معتادًا على إخفاء مشاعري الطاغية.

قال يورايا: «أحسب أنك سمعت شيئًا عن تغيير حادث في مسيرتي المستقبلية يا سيدي الشاب كوبرفيلد... يجب أن أقول، يا سيد

(١) تستخدم كلمة *master* بمعناها «سيد» لمن لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، بينما تستخدم *mister* لمن يفوق هذا العمر. عمد يورايا إلى مناداة كوبرفيلد بكلمة تدل على حداثة سنه، ثم حاول أن يبدي مزيدًا من الاحترام بتعديلها، وسيكرر هذه اللعبة، وسأستعيض عنها بإضافة كلمة الشاب دلالة على استخدامه لكلمة *master*.

كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

قلت: «نعم، سمعت شيئًا».

أكمل حديثه في هدوء: «آه، كنت على يقين من أن الآنسة أجنيس ستخبرك بالأمر. كم يسعدني أن أجد الآنسة أجنيس مدركة للأمر! آهٍ، شكرًا لك سيدي الشاب... يا سيد كوبرفيلد».

كان بإمكاني أن ألقي حذائي عليه -كان جاهزًا فوق السجادة- لأنه جرني إلى الكشف عن شيء متعلق بأجنيس، مهما يكن هينًا. لكني لم أستطع فعل شيء سوى احتساء قهوتي.

تابع يورايا حديثه قائلًا: «يا لك من نبي تكشف الغيب، يا سيد كوبرفيلد! يا عزيزي، يا لك من نبي كاشف للغيب موقن بنفسك! ألا تتذكر أنك قلت لي ذات مرة، إنني ربما أصير شريكًا في أعمال السيد ويكفيلد، وربما يصير المكتب لأعمال ويكفيلد وهيب؟ ربما لا تذكر نبوءتك، ولكن الإنسان البسيط يا سيد كوبرفيلد، يعتز بمثل هذه الأشياء ويحفظها».

قلت: «أتذكر أنني تحدثت عن هذا الأمر، على الرغم من أنني لم أكن أتصور حينها أنه من الممكن حدوثه». قال يورايا في حماسة: «آهٍ، من كان يظن أنه من المحتمل حدوثه يا سيد كوبرفيلد! إنني على يقين من أنني لم أُقْدِم على الأمر بنفسي. أتذكر أنني قلت لك واثقًا إنني أتفه وأحط من أن أصير شريكًا، وقد كنت أصدق نفسي حقًّا وبصدق».

جلس، وقد اعتلت وجهه هذه الابتسامة المنحوتة على قسماته، وراح ينظر إلى النار، بينما أرمقه بنظراتي.

استأنف كلامه قائلًا: «لكن أحط الناس يا سيد كوبرفيلد، قد يصيرون أدواتٍ للخير. يسعدني أن أتصور أنني كنت أداة خير للسيد ويكفيلد، وربما أصير أكثر من ذلك. يا له من رجل جدير بالتقدير يا مستر كوبرفيلد، لكن يا لسذاجته!».

قلت: «كم يؤسفني سماع ذلك!». ثم لم أستطع منع نفسي من توضيح موقفي فقلت: «على جميع الأصعدة».

أجاب يورايا: «أقر بذلك من دون شك يا مستر كوبرفيلد... على جميع الأصعدة. وعلى الآنسة أجنيس قبل كل شيء. إنك لا تتذكر تعبيرك البليغ يا سيد كوبرفيلد، لكني أتذكر كيف قلت ذات يوم إنها تستحق إعجاب الجميع وكيف شكرتك على قولك هذا! لا يراودني شك في أنك قد نسيت هذه العبارة يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

قلت في هدوء: «لا».

صاح يورايا: «يا إلهي، كم أنا سعيد لأنك لم تنسَ! أحسب أنك أول من أوقد شرارة الطموح في صدري الحقير، وكم أسعد لأنك لم تنسَ هذا القول! آهٍ، هل تسمح لي بطلب فنجان آخر من القهوة؟».

كانت نبرته المؤكدة التي عبر بها عن تأجج شرارة طموحه، وكذلك النظرة التي وجهها إليَّ حينما تحدث عنها، قد دفعاني إلى أن أحملق فيه كما لو أنني أبصره مضاءً بنور وهالة من الضوء تحيط به. ثم تذكرت

طلبه الذي عرضه بنبرة صوت مختلفة تمامًا، وصيغة مغايرة لطبيعة حديثه، فتناولت وعاء الحلاقة لأعد له قهوته، لكنني شعرت بارتعاشة تسري في يدي، وانتابني شعور مفاجئ بأنني لم أعد أستطيع مجاراته، وسيطر عليَّ قلق ولهفة في ظل نوع من الارتباك حيال ما قد يقوله بعد ذلك، وأحسست أن حالتي هذه لا يمكن أن تَخفى عليه.

لم يقل شيئًا على الإطلاق. راح يحرك قهوته بشكل دائري ثم يحتسيها، ويتحسس ذقنه برفق بيده المروعة، ثم أخذ ينظر إلى النار، ويحملق في الغرفة، ويلهث بدلًا من أن يبتسم لي، يتلوى ويتموج بجذعه في خنوع وذل، وهكذا أخذ يتلوى ويرتشف القهوة مرة بعد أخرى، لكنه ترك استئناف حديثنا لي.

قلت أخيرًا: «حسنًا، إن السيد ويكفيلد الذي يساوي خمسمائة رجل من أمثالك أو من أمثالي...»؛ أقسم بحياتي إنني لم أتصور أنني أستطيع أن أكمل هذه العبارة من دون أن أقسم هذا الجزء من الجملة في نوع من الحرج، فأكملت قائلًا: «كان الرجل غير حكيم، أليس كذلك يا سيد هيب؟».

أخذ يورايا يجيب وهو يتنهد في تواضع وذل قائلًا: «آهٍ، لم يكن حكيمًا حقًّا يا سيد كوبرفيلد. آهٍ، على الإطلاق. لكني أرجو أن تناديني باسم يورايا، إذا سمحت، كما كنت تناديني دومًا».

قلت بينما أفلت من بين شفتي الكلام في صعوبة: «سأفعل يا يورايا».

رد في حماسة: «شكرًا. شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد. إن مناداتك لي باسم يورايا يلوح مثل هبوب النسائم القديمة، أو رنين الأجراس العتيقة على مسامعي. أستميحك عذرًا... هل كنت أبدي أي ملاحظة؟».

قلت: «نعم، حول السيد ويكفيلد».

أخذ يورايا يتحدث في بطء شديد، بينما يمد يده القاسية فوق طاولتي، ويضغط عليها بإبهامه، حتى اهتزت، واهتزت الغرفة كذلك، فقال: «آهٍ، نعم، حقًّا. آه، يا للحماقة التي اقترفها يا سيد كوبرفيلد. إنه موضوع لن أتطرق إليه، لأي مخلوق غيرك. وإن كنت لا أستطيع أن أتطرق إلى الأمر إلا معك؛ بالتلميح لا أكثر ومن دون تفصيل. لو أن إنسانًا آخر في مكاني خلال السنوات القليلة الماضية - خاصة في هذا الوقت - لاستطاع أن يجعل السيد ويكفيلد رهن إشارته. آهٍ، يا له من رجل جدير بالاحترام يا سيد كوبرفيلد».

أتصور أنني لو اضطررت إلى النظر إليه وقد وطأ بقدمه المفلطحة رأس السيد ويكفيلد، فما كنت لأكرهه أكثر مما كرهته في هذه اللحظة.

تابع حديثه بصوت ناعم، يتناقض بشكل ملحوظ مع حركة إبهامه، من دون أن يقلل من حدة الضغط ولو بدرجة واحدة، فراح يقول: «آهٍ يا عزيزي. حقًّا يا سيد كوبرفيلد، لا يراودني شك في الأمر. كان من الممكن أن تقع خسارة فادحة، وصمة عار، لا أعرف مداها على الإطلاق. إن السيد ويكفيلد يدرك الأمر. إنني الأداة الذليلة التي تخدمه في تواضع، وقد وضعني في مكانة مرموقة ما كنت لأتمنى الوصول إليها. فكم أنا ممتن له! وكيف أؤدي إليه شكري!». أدار وجهه بعدما

أنهى كلامه من دون أن يلتفت نحوي، ثم راح يرفع إبهامه المتعرجة نحو المكان الذي كان يضغطه. أخذ يحك فكه النحيل كما لو أنه يحلق ما نبت به من شعيرات.

أتذكر جيدًا كيف راح قلبي ينبض بكراهيته، عندما رأيت وجهه الماكر، يتلفت عاكسًا لهيب ضوء أحمر منبعثًا من نيران المدفأة، وقد استعد لقول شيء آخر.

استأنف حديثه قائلًا: «يا سيد كوبرفيلد، هل أبقيتك مستيقظًا لوقت متأخر؟».

«لا لم تفعل. إنني أخلد إلى النوم عادة في وقت متأخر».

«شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد، لقد تجاوزت مركزي الحقير منذ أن خاطبتني أول مرة، هذا أمر لا جدال فيه، لكني لم أزل وضيعًا. آمل ألا أكون غير ذلك أبدًا. وأرجو ألا تزيد من تفكيرك في وضاعتي لو منحتك بعض ثقتي يا سيد كوبرفيلد، هل ستفعل؟».

أجبته في مشقة قائلًا: «آهٍ، لا».

أخرج منديلًا من جيبه، وبدأ في مسح راحتَي يديه، وأخذ يقول: «شكرًا لك. إن الآنسة أجنيس يا سيد كوبرفيلد...».

قاطعته قائلًا: «حسنًا يا يورايا؟».

فصرخ: «آه، ما أجمل أن تناديني باسمي يورايا!»، ثم ارتعش جسده كما لو أنه سمكة متشنجة، وأكمل قائلًا: «ألا تحسب أنها تبدو جميلة جدًّا الليلة يا سيد كوبرفيلد؟».

أجبت قائلًا: «أتصور أنها تبدو كما هي دائمًا، فائقة من جميع النواحي، متفوقة على كل من حولها».

صاح قائلًا: «آهٍ شكرًا لك. هذا صحيح. آهٍ، شكرًا جزيلًا لك».

قلت في زهو: «لا داعي للشكر على الإطلاق. لا يوجد سبب يوجب شكرك لي».

قال يورايا: «تسألني لم هذا يا سيد كوبرفيلد، فأقول إنه في الواقع يتعلق بالسر الذي سأبوح لك به. كما أنني...». راح يفرك يديه بقوة أكبر، ثم ألقى بنظرة إليهما وإلى النار بالتناوب، واستطرد حديثه قائلًا: «مثل أمي، في حالة من البساطة كما كانت حال بيتنا الفقير البسيط ولكننا صادقان، وقد حفظت صورة الآنسة أجنيس - أنا لا أمانع في أن أثق بك فأبوح بسري يا سيد كوبرفيلد، لأنني كنت أسعد دائمًا بأن أتجه نحوك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها قادمًا في عربة يجرها مهر - فظلت بين جوانحي لسنوات. آهٍ يا سيد كوبرفيلد، يا لعواطفي المتقدة التي تجعلني أفتتن بحب الأرض التي تسير عليها أجنيس».

أحسب أن شعورًا بالهذيان قد استولى عليَّ، وراودني برغبة في الإمساك بأسياخ المدفأة الساخنة، وإحراقه بها. انطلقت هذه الفكرة لتخرج من وجداني وتغادره مثل صدمة مدوية لقذيفة أُطلقت من فوهة بندقية. أما صورة أجنيس، فقد مكثت في عقلي وقد استولى عليَّ غضب عارم من هذا الحيوان ذي الرأس الأحمر. رحت أتأمله فإذا به يجلس في هيئة منحرفة كما لو أن روحه اللئيمة قد تمثلت في جسده الناثل أمامي، مما جعلني أشعر بالدوار. بدا كما لو أنه ينتفخ وينمو أمام عيني، وبدت

الغرفة زاخرة بأصداء صوته، فتملكني شعور غريب - الذي ربما لا يخفى على أحد - وقد لاح لي أن كل هذا الأحداث قد وقعت من قبل، في زمن غير معلوم، وأنني كنت أعرف ما سيقوله سابقًا، وقد استحوذ عليَّ هذا الشعور كاملًا.

ما إن أدركت في هذه اللحظة ما بدا عليه من قوة بعد أن تغيرت ملامح وجهه حتى وجدتني أبذل جهدًا مضاعفًا لاستعادة ذكرياتي ومناشدة أجنيس لي بكامل قوتها حتى أحسن معاملته. لقد بذلت جهدًا يفوق سواه حتى استطعت أن أسأله في مظهر أهدأ مما كنت أتخيله عن نفسي قبل دقيقة واحدة؛ ما إذا كان قد أبلغ أجنيس بمشاعره أم لا.

قال: «آهٍ، كلا يا سيدي الشاب كوبرفيلد. كلا يا عزيزي. لم أبلغ أحدًا غيرك. كما ترى أنني خرجت للتوِّ فقط من موقعي المتواضع. وكل أملي أن تلاحظ مدى فائدتي لوالدها - لأنني أثق في مدى فائدتي البالغة له بالفعل يا سيد كوبرفيلد - وأدرك كيف أُيسر الطريق له وأبقيه على استقامته. إنها مرتبطة بوالدها أشد الارتباط يا سيد كوبرفيلد - آهٍ، يا له من خلق جميل في هذه الابنة! - وأظن أنها قد تتبسط، لأجل خاطره، فتصير لطيفة لينة معي».

لقد فهمت عمق مخطط هذا الوغد بأكمله، وفهمت لماذا كشفه أمامي.

استطرد قائلًا: «إذا تفضلت بالاحتفاظ بسري يا سيد كوبرفيلد من دون أن تتعارض معي، بشكل عام، فسأعتبر أنك تسدي إليَّ معروفًا خاصًّا. إنك لا تضمر لي الكراهية، فإني أعرف مقدار قلبك الودود، إلا أنك لم تتعرف مني إلا على وجهي الوضيع - يجب أن أقول الأكثر

حقارة، لأني لم أزل وضيعًا جدًّا - وقد تصير في موقف ضدي، مع حبيبتي أجنيس. وإني أدعوها لي، كما ترى يا سيد كوبرفيلد، فثمة أغنية تقول: «سأتخلى عن تاجي، لأدعو حبيبتي لي!»[1] أرجو أن أحظى بها في يوم من الأيام».

يا لحظكِ العاثر يا عزيزتي أجنيس! إنها أحب وأطيب من أن تكون زوجة لأي إنسان قد يخطر على بالي، فهل من الممكن أن تُحتجز لتصير زوجة لمثل هذا البائس؟!

تابع يورايا حديثه بطريقته اللزجة، بينما جلست محدقًا فيه، وقد انشغل خلدي بهذه الفكرة، فقال: «لا داعي للعجلة في الوقت الحاضر. فكما تعلم يا سيد كوبرفيلد، إن أجنيس ما زالت صغيرة السن، وسيتعين عليَّ أنا وأمي أن نعمل في طريقنا إلى التَّرقي، فنرتب الكثير من الأمور ونعد لها إعدادًا جيدًا، قبل أن نُقدم على إتمام الأمر. سيتاح أمامي الوقت لأمهد لأجنيس أمري، فتصير على دراية بآمالي، كلما سنحت لي الفرصة. آهٍ، كم أنا ممتن لك خالص الامتنان لمنحي هذه الثقة! آهٍ، وإنه لمن دواعي راحتي أن أدرك تفهمك لموقفنا، وأن أتأكد من أنك لن تعارض موقفي، لأنك لا ترغب في جلب التعاسة لهذه الأسرة».

تناول يدي من دون أن أجرؤ على منعه، وما إن ضغط عليها بكفه الرطب، حتى أشار إلى ساعته الصدئة، فقال:

---

(١) أغنية شهيرة عرفت باسم «وردة بلا شوك»، كتبها ليونارد ماكنالي في حب فرانسيس آي أنسون، ولحنها جيمس هوك، وغُنيت أول مرة عام ١٧٨٩م.

«آه يا عزيزي، لقد تأخر الوقت. تفلت اللحظات وتنقضي بينما أبوح بأسرار الأزمنة القديمة يا سيد كوبرفيلد. إنها الواحدة والنصف تقريبًا».

أجبت بأنني أظن أن الساعة تجاوزت الواحدة والنصف. لم أقل هذا لأنني أدركت الوقت حقًّا، ولكني لم أقوَ على استجماع كلماتي بعد أن صارت أفكاري مبعثرة.

قال مفكرًا: «رحماك يا ربي! إن المنزل الذي أبيت فيه هو بمثابة نوع من الفنادق الخاصة حيث المبيت الذي يشمل الطعام والخدمة يا سيد كوبرفيلد، وهو يقع بالقرب من نهر نيو إد. أحسب أن أهله قد خلدوا للنوم منذ ساعتين تقريبًا».

قلت: «يا للأسف، لا يوجد سوى سرير واحد هنا، وإنني...».

قاطعني مرة أخرى في نشوة، وقد رفع أحد رجليه ليتكئ بها على الأخرى قائلًا: «آهٍ، لا تشغل بالك بأمر الأسِرَّة يا سيد كوبرفيلد، ولكن هل تمانع إن استلقيت أمام المدفأة؟».

قلت: «إذا وصل الأمر إلى ذلك الحد، فلتتفضل بالنوم على سريري، وسأستلقي أنا أمام المدفأة».

كان رفضه لهذا العرض صاخبًا مدويًا، حتى إن صوته من بالغ دهشته وفداحة مذلته، كان قد اخترق آذان السيدة كروب، وأحسب أنها كانت نائمة في غرفة بعيدة تقع على مستوى منخفض قريب من الأرض. كانت تغط في سباتها وقد أمنت لدقات ساعة عتيقة لا يمكن إصلاحها، كانت

تشير إليها دومًا إن نشب بيننا أي خلاف بسيط حول الالتزام بالمواعيد. كانت الساعة بطيئة للغاية، تتأخر ما لا يقل أبدًا عن ثلاثة أرباع الساعة، وقد عاود ضبطها عدد لا بأس به من أفضل الصناع، إلا أنها كانت تعاود التأخر كل الصباح. لم أحُز من الحجج ما يدفعني إلى مجادلته، خاصة وأنا في مثل هذه الحالة من الذهول. ولم أستطع مواكبة تذلـله أو التأثير عليه لقبول الاستلقاء في غرفة نومي، ولذا صرت مضطرًّا إلى اتخاذ أفضل الترتيبات الممكنة، من أجل استراحته أمام المدفأة. جهزت مرتبة الأريكة - التي كانت قصيرة جدًّا بالنسبة لهيئته الضخمة - وبسطت وسائدها، وأحضرت البطانية، واستعنت بمفرش الطاولة، وقطعة قماش نظيفة، ومعطف رائع، فأعددت بهم سريرًا وغطاءً، مما جعل يورايا ممتنًّا شاكرًا. أعرته طاقية نوم، ارتداها فورًا، فأحالت شكله إلى أبشع ما يكون -حتى إنني لم أرتدِ طاقية للنوم منذ ذلك الحين- ثم تركته ليستريح.

لن أنسى تلك الليلة أبدًا. لن أنسى أبدًا كيف استلقيت في فراشي ورحت أتقلب على جانبي؛ كم كابدت نفسي من مشقة التفكير في أجنيس وهذا المخلوق؟ كيف رحت أفكر فيما أستطيع فعله، وأتساءل ماذا عليَّ أن أفعل، وكيف أنني لم أتمكن من التوصل إلى أي نتيجة أخرى سوى أن أفضل سلامها وراحتها فلا أقدم على فعل شيء، وأن أكتم سر ما سمعته! ما إن كنت أسترسل في النوم لبضع لحظات حتى تزورني صورة أجنيس بعينيها الرقيقتين، وإذا بوالدها ينظر إليها في اعتزاز، كما عهدتُ نظراته إليها؛ ويطلان أمامي كل بوجهه الجذاب، حتى يمتلأ فؤادي رعبًا غامضًا.

ما إن استيقظت، حتى تذكرت أن يورايا مستلقٍ في الغرفة المجاورة لي، وكم كان الأمر ثقيلًا عليَّ كما لو أنه كابوس يقظ أخذ يزحف بثقله فوق صدري، كما لو أنني أشاطر شيطانًا لعينًا سكني.

لم يفارقني مشهد سيخ المدفأة، بل راح يتسلل إلى أفكاري الغاضبة، على الرغم من انقضاء الليل. ظننت بين نومي ويقظتي، أن الجو لم يزل متوهجًا باللون الأحمر، وقد أخرجت السيخ من نيران المدفأة للتوِّ، ورحت أكوي به جسده. صرت أخيرًا مسكونًا بهذه الفكرة، على الرغم من أنني كنت أعرف أنها ليست إلا وهمًا، إلى الحد الذي دفعني لأن أتسلل إلى الغرفة المجاورة لألقي نظرة عليه. رأيته مستلقيًا على ظهره وقد مدد ساقيه إلى مكان لا أعرف مداه. لم أدرك من أين يأتي بهذه القرقرة المتصاعدة من حلقه وكيف تتوقف في أنفه وفمه مفتوح مثل مكتب البريد. لقد كان الواقع أسوأ بكثير مما دار في خيالي المضطرب، حتى إنني شعرت بعد ذلك بحالة من الانجذاب إلى مراقبته على الرغم من النفور الشديد منه، ولم أستطع منع نفسي من التجول بين داخل الغرفة وخارجها كل نصف ساعة أو نحو ذلك لإلقاء نظرة أخرى عليه. بدا الليل طويلًا ممتدًّا ثقيلًا وبائسًا كما كان دائمًا، من دون أن يلوح أن النهار يَعِد بانقشاع الظلام من صفحة السماء.

رأيته ينزل في الصباح الباكر - لأنه لم يمكث لتناول الإفطار - فبدا لي أن الليل أخذ يتوارى في شخصه، وعندما خرجت متجهًا إلى مجلس العموم كلفت السيدة كروب بعدة تعليمات معينة حتى تترك النوافذ مفتوحة لتهوية غرفة جلوسي وتطهيرها من وجوده.



الفصل السادس والعشرون

وقعت في الأسر

لم أرَ يورايا هيب حتى اليوم الذي غادرت فيه أجنيس المدينة. توجهتُ إلى مكتب تذاكر الحافلات لأرافقها وأودعها قبل السفر، وإذا بيورايا عائد إلى كانتربري في العربة نفسها. كان من دواعي سروري أن ألاحظ معطفه الكبير، قصير الخصر، عالي الكتفين، المكتسي بلون التوت، وقد بسطه بجانب مظلته مثل خيمة صغيرة، على حافة المقعد الخلفي على سطح الحافلة، بينما كان مقعد أجنيس بداخل الحافلة بالطبع. أما ما تكبدته من جهد لأتظاهر بالتودد إليه أمام أجنيس، فربما أستحق عليه مكافأة ولو يسيرة. ظل يورايا في موضعه عند نافذة الحافلة، كما كانت حاله في حفل العشاء، إذ راحت نظراته تحوم حولنا من دون توقف، كما لو أنه نسر عظيم يلتهم نفسه في كل مقطع أتلفظ به لأجنيس، أو كل كلمة توجهها أجنيس إليَّ.

سيطر عليَّ شعور بالاضطراب منذ أن كاشفني بسره عند المدفأة، فرحت أفكر كثيرًا في الكلمات التي استخدمتها أجنيس للإشارة إلى شراكته مع والدها حين قالت: «لقد فعلت ما أرجو أن يكون صحيحًا. كنت متأكدة من أنه من الضروري أن تحدث هذه التضحية ضمانًا لسلامة أبي، ومن ثَم ناشدته أن يشاركه». لاح لي نذير بائس بأنها تذل نفسها وتخذلها بهذا الشعور المهين من تضحيتها بنفسها من أجل أبيها، وقد بات هذا الشعور يؤلمني منذ ذلك الحين. أدرك كيف أحبته، وأعرف إلى أي مدى أخلصت له، بل عرفت من كلام شفتيها أنها تعتبر نفسها السبب البريء لأخطائه، وتوقن أنها مدينة له بدين كبير، ترغب بشدة في سداده. لم يراودني عزاء لتضحيتها بعد رؤية مدى اختلافها عن هذا الرجل البغيض ذي الشعر الأحمر الذي يرتدي معطفًا بشعًا بلون التوت، بل شعرت أن الخطر الأكبر يكمن في الاختلاف البين بينهما، وفي إنكار ذاتها وتفاني روحها الطاهرة أمام وقاحته ودناءته. تيقنت من دون أدنى شك أنه على دراية بذلك كله، وقد دبر الأمر بمكره وحيلته، ودرسه أدق دراسة.

كنت على يقين على الرغم من كل ما يجري، من أن هذه التضحية وهذا الفارق، سيدمران سعادة أجنيس ويبددانها، بل لم يراودني شك بعد طريقة حديثها في الوقت الراهن في أنها تتعامى عن الأمر، وإن لم يُلقِ هذا الحدث بظلاله عليها بعد. لم أشأ أن أجرح فؤادها في الوقت الراهن، إن أسديت إليها أي تحذيرات عن عواقب الأمور، فآثرت الصمت، وهكذا افترقنا من دون تفسير. لوحت بيدها لي وابتسمت

مودعة من نافذة الحافلة، بينما يتلوى هذا الشرير على السطح، وكأنها صارت في قبضة يده وقد ظفر بها.

لم أستطع التغلب لفترة طويلة على تأثري بلمحة الوداع هذه. كتبت أجنيس لي لتخبرني أنها قد وصلت في أمان، فإذا بي في بؤس لا يختلف عن ألمي لمغادرتها. صرت كلما شردت بذهني إلى التفكير في هذا التدبير الشرير، اشتد ألمي وتضاعف قلقي. ما من ليلة تمر من دون أن أحلم بأجنيس حتى صارت جزءًا من حياتي، لا ينفصل عن وجودي كما لا ينفصل رأسي عن جسدي.

بات لديَّ قدر من وقت الفراغ يتيح لي أن أتغلب على مخاوفي. كتب ستيرفورث إليَّ ليعلمني أنه في أكسفورد، وكذلك بقيت وحيدًا بعد إنهاء جلستي في مجلس العموم. أحسب أن نوعًا من عدم الثقة في ستيرفورث راودني في هذا الوقت. كتبت إليه في لهجة شديدة الود ردًّا على رسالته، لكنني أتصور أنني كنت سعيدًا بشكل عام لأنه لن يتمكن من القدوم إلى لندن في ذلك الوقت. أظن أن تأثير أجنيس كان قويًّا مهيمنًا عليَّ، فلا تزحزحه عني أي مشاهد، بل كانت له الغلبة عليَّ، حيث استحوذ أمرها على النصيب الأكبر من أفكاري واهتماماتي.

أدركتني الأيام والأسابيع في غضون انشغالي هذا، وبدأ تدريبي في مكتب سبنلو وجوركنز. كنت أتقاضى من عمتي تسعين جنيهًا في السنة؛ باستثناء إيجار المنزل والمصروفات الثانوية المتنوعة. أما غرفتي فصارت محجوزة لمدة اثني عشر شهرًا بالتأكيد؛ على الرغم من أنني ما زلت أجدها كئيبة في المساء، وباتت الأمسيات طوالًا، فإنني استطعت

أن أستقر بها في حالة مزاجية معتدلة، واستسلمت لشرب القهوة التي يبدو لي الآن بينما أستعيد ذكرياتي فأنظر إلى الوراء، أنني قد استهلكت الكثير منها في هذه الفترة من وجودي في السكن، كما أنني توصلت إلى ثلاثة اكتشافات أخرى؛ أولها: أن السيدة كروب كانت مصابة بداء غريب يُدعى «الأسبازوم»، وكان مصحوبًا عادة بالتهاب في الأنف، ويتطلب علاجه احتساء النعناع باستمرار. ثانيها: أن أمرًا غريبًا يزيد من درجة الحرارة في مخزني، مما يجعل زجاجات البراندي تنفجر. ثالثها: أنني صرت وحدي في هذا العالم، فأوليت الكثير من وقتي لتسجيل هذا الظرف في نظم مقاطع شعرية إنجليزية من تأليفي.

جاء يوم تخرجي، لم تُقَم أي احتفالات، باستثناء تناول الشطائر واحتساء شراب الشيري في مكتب الموظفين، ثم توجهت وحدي إلى المسرح في الليل. ذهبت لمشاهدة مسرحية الغريب، وهي نوع من المسرحيات التي يهتم بها دارسو كلية المدنيين، إلا أنها كانت شديدة القسوة على قطاع المحامين، حتى إنني كدت لا أتعرف على نفسي في المرآة بعدما عدت إلى المنزل. قال السيد سبنلو، في هذه المناسبة، بعد أن اختتمنا أعمالنا، إنه سيسعد برؤيتي في منزله في نوروود حيث يمكننا الاحتفال بالتخرج وإبرام عقد العمل، لولا أن ترتيبات منزله تسودها حالة من الفوضى، بسبب توقع عودة ابنته بعد انتهاء فترة تعلمها في باريس. إلا أنه ألمح إلى أنه يأمل في دعوتي لزيارته وتسليته بعدما تعود ابنته إلى المنزل. علمت أنه أرمل وله ابنة واحدة، فأعربت عن امتناني وشكري له.

كان السيد سبنلو بارًّا بوعده، فقد أعاد دعوته في غضون أسبوع أو أسبوعين، قائلًا إنه سيسعد أيما سعادة لو أنني تشرفت بزيارته يوم السبت المقبل، على أن أبقى عنده حتى يوم الاثنين. قلت بالطبع إنني أتشرف بقبول دعوته، وكان عليه أن يصطحبني معه في عربته الفارهة ثم يعيدني مرة أخرى.

حل اليوم الموعود، فإذا بحقيبتي المصنوعة من القماش صارت موضع تبجيل من الموظفين والكتبة أصحاب الرواتب المحدودة، ممن يعتبرون منزل نوروود بمثابة لغز مقدس. أخبرني أحدهم أنه سمع أن السيد سبنلو يأكل كامل طعامه في أطباق من خزف، وألمح آخر إلى أن الشمبانيا تترقرق باستمرار على مائدته من دون انقطاع، ويطاف بها على الآكلين بدلًا من البيرة المعتادة. أما الكاتب العجوز ذو الشعر المستعار، الذي يُدعى السيد تيفي، فقد ذهب إلى هذا المنزل عدة مرات في أعمال مهنية، وكان في كل مناسبة يتسلل إلى قاعة الإفطار. ووصفها بأنها قاعة تحوي أفخم المظاهر، كما قال إنه احتسى شراب الشيري البني المصنوع في الهند الشرقية هناك، وإنه من نوعية ثمينة للغاية بحيث تجعل الرجل يغمز بعينيه. كانت لدينا قضية مؤجلة في المحكمة في ذلك اليوم. كانت القضية تتعلق بطرد خباز، بعدما اعترض على تسديد مبلغ للخزانة لرصف الكنيسة. كانت أوراق الأدلة للقضية تفوق أضعاف قصة روبنسون كروزو، وفقًا لما أجريته من حسابات، لذلك لم ننتهِ منها إلا في وقت متأخر من اليوم الذي سبق الحكم. ومع ذلك، طُرد الخباز من الكنيسة وحُرم من طقوسها لستة أسابيع، وحُكم بتقاضي أجورنا

كاملة، وبعد انتهاء الجلسة اجتمع وكيل الخباز والقاضي والمدافعون من كلا الجانبين - كانوا جميعًا على صلة قرابة - وخرجوا من المدينة معًا، وركبت أنا والسيد سبنلو العربة الفارهة.

كانت العربة فارهة مترفة. وقد تقوست أعناق الخيول ودبت بأرجلها زهوًا، كما لو أنها تعلم أنها تنتمي إلى حي المحامين. لاح قدر كبير من التنافس بين أعضاء مجلس العموم على جميع متطلبات الزهو، فظهرت بعد ذلك أصناف شتى من مظاهر الترف؛ على الرغم من أنني كنت أتصور دومًا، وهذا ما أحسبه دائمًا، أنه في أيامي كانت المنافسة العظيمة مصدرها النشاء، الذي اعتاد الوكلاء والمحامون استخدامه في كي القمصان، وقد أفرطوا في استخدامه إلى حد يفوق ما قد تتحمله طبيعة الإنسان.

ركبنا العربة وكنا في غاية السعادة. أشاد السيد سبنلو في بعض التلميحات بمستقبل مهنتي. قال إنها كانت أرق مهنة في العالم، ويجب ألا يتم الخلط بينها وبين مهنة المحامي بأي حال من الأحوال، لأنها نوع مغاير تمامًا يختلف عما يفعله المحامون، بل هي مهنة خاصة وذات حدود، وأقل آلية، وأكثر ربحًا. علّق قائلًا إننا أخذنا الأشياء في مجلس العموم بسهولة تفوق ما يمكن تحقيقه في أي مكان آخر، وهذا ما يجعلنا طبقة متميزة. قال إنه كان من المستحيل إخفاء الحقيقة البغيضة التي مفادها أننا موظفون وموكلون بشكل رئيسي من المحامين، إلا أنه جعلني أدرك أن المحامين في مرتبة أدنى، وأن الوكلاء ينظرون إلى المحامين بازدراء، وإن كانوا أقل منهم كفاءة.

سألت السيد سبنلو عن أفضل القضايا في هذه المهنة، فأجاب أن أفضلها على الإطلاق هو قضية وصية متنازع عليها، بتركة صغيرة أنيقة تُقدر بنحو ثلاثين أو أربعين ألفًا من الجنيهات. وأضاف أنه في مثل هذه الحالة، لا يقتصر الأمر على اتساع مجال العمل وتباين طرق الحجاج في كل مرحلة من مراحل الإجراءات، وتثبيت جبال فوق جبال من الأدلة، وبناء استجواب على استجواب آخر مضاد فقط - ناهيك عن أي استئناف وهمي من المحكمة أولا، ثم من مجلس اللوردات- ومن المؤكد أن الأتعاب لن تتأتى إلا بنهاية القضية، لأن الطرفين المتخاصمين يقبلان على هذه القضية بكل حيوية ونشاط، فلا تغدو ثمة اعتبارات للنفقات المطلوبة. أخذ بعد ذلك يمتدح حي المحامين بشكل عام. وقال إن ما يحظى بالإعجاب بشكل خاص في مجلس العموم يكمن في تماسكه. إنه المكان الأكثر تنظيمًا في العالم، والأوفر راحة. إنه باختصار الأكثر استقرارًا. قال إنه إن أحضر - على سبيل المثال - قضية طلاق أو قضية تعويض إلى محكمة التعويضات، أو إلى المحكمة المالية على أفضل تقدير، قد تحاول حينها إدارة لعبة صغيرة هادئة، وتداولها بين الأفراد المتخاصمين، وستنشغل بها كلعبة تديرها في أوقات فراغك. لنفترض أنك لم تكن راضيًا عن حكم المحكمة، فماذا تفعل بعد ذلك؟ تتجه بها إلى المحكمة العليا. ما هي المحكمة العليا؟ إنها المحكمة نفسها، والغرفة نفسها، والمحامون أنفسهم، والمتخاصمون أنفسهم، ولكن مع قاضٍ آخر، حيث يمكن لقاضي المحكمة أن يترافع في أي يوم من الأيام أمام المحكمة بصفته محاميًا. حسنًا، لقد خضت الجولة مرة أخرى، ولم

تزل غير راضٍ عن الحكم. جميل جدًّا. ماذا تفعل بعد ذلك؟ تحتج إلى النواب. من هم النواب؟ حسنًا، إن النواب الكنسيين ما هم إلا محامون لا تُسند إليهم الأعمال، كانوا قد ألقوا نظرة على جولات القضية عندما دارت لعبتها في كلا الملعبين، وشاهدوا الأوراق التي تم خلطها وتقطيعها واللعب بها بين الأطراف، وتحدثوا عنها مع جميع أطراف اللعبة، أما الآن فقد جد جديد، وقد صاروا قضاة لتسوية الأمر بما يرضي الجميع. قال السيد سبنلو بصيغة رسمية في الختام: إن الأشخاص الساخطين قد يتحدثون عن الفساد في مجلس العموم، واقتصار دائرته على الأقارب، وضرورة إصلاح ما فيه، ولكن عندما ارتفع سعر إردب القمح لأعلى سعر، كان مجلس العموم أكثر ازدحامًا، وقد يضع الرجل يده على قلبه بكامل الثقة، ويقول للعالم بأسره: «المسوا مجلس العموم بسوء، وستسقط البلاد».

استمعت إلى كامل حديثه باهتمام. إلا أنني لا أستطيع أن أخفي ما راودتني من شكوك حيال ما إذا كانت البلاد مدينة لمجلس العموم بهذا القدر كما قال السيد سبنلو أم لا، لكنني أصغيت إلى رأيه بكل احترام. أما حديثه عن سعر إردب القمح، فقد شعرت بتواضع قدرتي على فهم الأمر وأنه يفوق استيعابي، وحسمت القضية تمامًا، بل لم أستطع قَطُّ حتى هذه الساعة، أن أدرك المغزى من ذكر إردب القمح في حديثه. لقد ظهر هذا الجدال مرة أخرى لينهكني، ويثبطني طوال حياتي، عند ذكره في جميع القضايا. لا أعرف إلى الآن، ما علاقة ذلك بي بالضبط، أو ما هو الحق الذي يجب أن يوفيه لي إردب من القمح،

خاصة في مجموعة متنوعة لا حصر لها من المناسبات والقضايا، حتى صرت كلما رأيت صديقي القديم -الإردب- يحضر أمامي من رأسه وكتفيه -كما هي الحال دائمًا- فإني أتخلى عن الجدال ويغدو أمري بلا حيلة.

كان ما سبق استطرادًا. أحسب أنني لست بالرجل الذي يمس حي المحامين بسوء أو يسقط البلاد، لذا فقد عبرت عن خضوعي للحديث من خلال صمتي، وعن إذعاني لكل ما سمعته من رئيسي الذي يفوقني عمرًا ومعرفة. تحدثنا بعد ذلك عن رواية الغريب وعن الدراما المسرحية، وعن زوج الخيول الذي أمامنا، حتى وصلنا إلى بوابة منزل السيد سبنلو.

ترامت حديقة بديعة أمام منزل السيد سبنلو، على الرغم من أننا لم نكن في أفضل فصول السنة للاستمتاع بالحديقة، فإنها كانت قد نُسِّقت بشكل رائع للغاية، حتى إنني صرت مفتونًا بها. لاح أمامي عشب ساحر، وانبثق منه عدد من الأشجار، كما تجلت مناحي العروش المنظومة، التي يمكنني فقط تمييزها من ظلالها المترامية، فكانت مقوسة الأفرع حيث تنمو حولها الشجيرات والزهور في موسم انبثاقها. لاح لخاطري أنه «هنا تتمشى الآنسة سبنلو بمفردها. يا إلهي».

دخلنا إلى المنزل فإذا به قد أنير بضوء بهيج، ثم توجهنا إلى قاعة امتلأت بمختلف أنواع القبعات والمعاطف الكبيرة والسترات والقفازات والسياط وعصي المشي. قال السيد سبنلو للخادم: «أين الآنسة دورا؟». قلت في خاطري: «دورا! ما أجمل اسمكِ!».

عرجنا إلى غرفة قريبة منا - أظن أنها غرفة الإفطار المعهودة التي لا تُنسى، والتي شُرِب بها الشيري البني المصنوع في الهند الشرقية - ثم سمعت صوتًا يقول: «يا سيد كوبرفيلد، إن هذه ابنتي دورا، وهذه صديقة ابنتي وأمينة سرها». كان هذا الصوت بلا شك للسيد سبنلو، لكنني لم أكن لألتفت إليه، ولم أهتم بصاحب الصوت. لقد انتهى كل شيء في لحظة. لقد بات مصيري محققًا. صرت أسيرًا وعبدًا. لقد أغرمت بدورا سبنلو وفتنت بها!

لاحت أمامي في هيئة تفوق البشر. لاحت جنية، حورية، لا أعرف من هي - إنها أي شيء لم يرَه أحد من قبل، بل هي كل ما يتمناه البشر. ابتلعتني هاوية الحب في لحظة، من دون أن أتوقف على حافتها مترددًا. لم أتلفت إلى الوراء ولم أنظر تحت قدمي، بل أقدمت إليها بكلي في تهور، قبل أن أدركِ حقيقة شعوري فأبوح لها بكلمة واحدة.

لاحظت صوتًا أتذكر نبرته جيدًا، بعدما انحنيت للتحية، فإذا بها تتمتم بشيء ما قائلة: «أذكر أنني رأيت السيد كوبرفيلد من قبل».

لم تكن دورا من تتحدث. لا، بل كانت أمينة سرها الآنسة مردستون!

لا أظن أن اندهاشًا مبالغًا قد استولى عليَّ. لم تبقَ عندي أي مقدرة - وفقًا لتقديري - على الدهشة. لم يكن ثمة شيء جدير بالذكر في هذا العالم المادي، باستثناء دهشتي من دورا سبنلو. قلت: «كيف حالك يا آنسة مردستون؟ أتمنى أن تكوني بخير».

أجابت قائلة: «إنني في أفضل حال».

قلت: «وكيف حال السيد مردستون؟».

أجابت: «إن أخي في أتم صحة، أشكرك».

أحسب أن السيد سبنلو قد فوجئ بمعرفة كل منا بالآخر، وقد عقَّب على الأمر بقوله: «يسعدني يا كوبرفيلد أن أكتشف أنك على معرفة سابقة بالآنسة مردستون».

قالت الآنسة مردستون في لهجة بها حزم بالغ: «تربطني علاقة قديمة بكوبرفيلد. كنا على معرفة يسيرة ببعضنا منذ أيام طفولته. فرَّقتنا الظروف منذ ذلك الحين، ولولا هذه المصادفة لما عرفته».

أجبتها قائلًا إنني كنت سأعرفها في أي مكان. كان قولي صحيحًا وصادقًا إلى حد بعيد.

قال لي السيد سبنلو: «لقد تفضلت الآنسة مردستون بقبول هذه المهنة - إن جاز لي استخدام هذا التعبير - لتصير صديقة ابنتي دورا. فقدت ابنتي دورا أمها للأسف، فتعهدت الآنسة مردستون برفقتها وحماية سرها».

خطرت ببالي فكرة عابرة تكمن في كون الآنسة مردستون، تشبه أداة ما توضع في الجيب ثم تُسمى حافظة الحياة، إلا أنها لم تُصمَّم بغرض الحماية بل لغرض آخر مثل الاعتداء. لم أعبأ بهذه الفكرة كثيرًا، لأنني لم أكن لأشغل فكري بأفكار عابرة باستثناء تفكيري في دورا. نظرت إليها مباشرة، وقد رحت أفكر في أنها لا تميل إلى أن كون الآنسة مردستون حامية سرها أو رفيقتها بشكل خاص، بعد أن أبدت استياء

واستخفافًا بها. رن الجرس، فقال السيد سبنلو إنه أول تنبيه لإعدادات العشاء، وبذلك انطلقت لارتداء ملابس ملائمة.

كانت فكرة تبديل ملابسي، أو القيام بأي شيء من هذا القبيل، وأنا في هذه الحالة من الهيام، فكرة سخيفة إلى حد ما. لم أستطع سوى الجلوس أمام نار المدفأة، والعض على مفتاح حقيبتي، مفكرًا في دورا الجميلة الفاتنة الغضة، ذات العينين المشرقتين. يا لقوامها البديع، ويا لوجهها الصبوح، ويا لطريقتها الرشيقة الآخذة والساحرة!

دق الجرس مرة أخرى بعد وقت قصير للغاية، حتى إنني لم أستطع التأنق بالشكل الذي كنت أرتضيه وأتمناه في مثل هذه الظروف، بل هرولت لارتداء ملابسي من دون عناية، ثم نزلت إلى الطابق السفلي. وجدت بعض الضيوف في حجرة الطعام، وكانت دورا تتحدث إلى رجل عجوز ذي رأس أشيب. أحسست بغيرة قاتلة من الرجل على الرغم من أنه قال إنه في منزلة جدها.

يا لهذه الحالة المتأججة التي انتابتني! لقد شعرت بالغيرة من الجميع. لم أستطع تحمل فكرة أن أي شخص قد يعرف السيد سبنلو بشكل أفضل من معرفتي به. كم عذبني سماع حديثهم عن وقائع لم أشارك فيها! سألني إنسان ودود ذو رأس أصلع مصقول للغاية، ونحن جلوس إلى مائدة العشاء، عما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها هذا البيت أم لا، فإذا بي أتوحش وأرغب في إيذائه بصورة انتقامية متوحشة.

لا أتذكر أحدًا من ضيوف المائدة باستثناء دورا. ليست لديَّ أدنى فكرة عما تناولناه على طعام العشاء، إلى جانب دورا. أحسست أنني لم أتناول طعامًا بل أشبعتني دورا تمامًا، وأرجعت إلى الطاولة ستة أصناف من الطعام من دون أن أمسسها. جلست بجانب دورا وتكلمت معها. كانت ذات صوت رقيق هو الأكثر بهجة من بين الأصوات، وكانت ضحكتها الصغيرة هي الأكثر مرحًا، أدلت بألطف التعليقات الصغيرة وأكثرها روعة، ومن ثَم قادت شابًّا ضائعًا إلى عبد ذليل قد هجره الأمل. كانت بالأحرى صورة مصغرة تمامًا من كل شيء جميل، فلاحت لي مثل تحفة نادرة، بل لاحت في نظري أثمن التحف.

خرجت دورا من غرفة الطعام مع الآنسة مردستون -لم تحضر أي سيدة إلى الحفلة سواهما- فإذا بي أغرق في خيالي، ولم يزعجني فيه سوى التخوف القاسي من مغبة انتقادات الآنسة مردستون لي. أخبرني هذا المخلوق الودود صاحب الرأس الأصلع المصقول قصة طويلة، أظن أنها كانت تتعلق برعاية النباتات. أحسب أنني سمعته يقول كلمة «بستاني» ويكررها عدة مرات. بدا لي أنني أعيره اهتمامًا كبيرًا، إلا أنني كنت أتجول في خيالي في جنة عدن طوال الوقت مع دورا.

تجددت مخاوفي من الاستخفاف بي أمام معشوقتي الفاتنة عندما توجهنا إلى غرفة الجلوس، بعد أن التقيت بوجه الآنسة مردستون الكئيب والموحش. إلا أنني سرعان ما طمأنت نفسي بطريقة غير متوقعة.

قالت الآنسة مردستون: «يا ديفيد كوبرفيلد، أستأذنك في كلمة».

ثم وجهتني جانبًا نحو النافذة.

لقد واجهت الآنسة مردستون وحدها.

قالت الآنسة مردستون: «يا ديفيد كوبرفيلد. إنني لست في حاجة إلى التطرق إلى أمور الظروف العائلية. إنه ليس موضوعًا مغريًا للخوض فيه». قلت: «إنني بعيد عن هذه الأمور يا سيدتي».

أيدتني الآنسة مردستون قائلة: «حقًّا، بعيد عن ذلك. إنني لا أرغب في إحياء ذكرى الخلافات الماضية، أو الاعتداءات الماضية. لقد تلقيت اعتداءات من شخص - يؤسفني أن أقول إنها امرأة من بنات جنسي - فلا يجب أن أذكر سلوكها من دون ازدراء واشمئزاز، ولذلك من الأفضل عدم التطرق إليها».

شعرت بغيرة متقدة على سيرة عمتي، لكنني قلت إنه من الأفضل بالتأكيد ألا تتطرق الآنسة مردستون عن سيرتها ناهيك عن ذكرها. وأضفت قائلًا إنني لا أستطيع سماع سيرتها بغير احترام، من دون أن أُعبر عن رأيي هذا بأي نبرة صاخبة.

أغمضت الآنسة مردستون عينيها، وأمالت رأسها في ازدراء، ثم، فتحت عينيها ببطء، واستأنفت حديثها قائلة:

«يا ديفيد كوبرفيلد، لن أحاول إخفاء حقيقة أنني شكلت رأيًا سيئًا عنك في طفولتك. ربما كان هذا الرأي خاطئًا، أو لم يعد سلوكك يبرره. إنه ليس موضع تساؤل ونقاش بيننا الآن. كما أنني أنتمي إلى عائلة رائعة، اتصفت - على ما أظن - ببعض الحزم؛ ولست مخلوقة تتأثر أو تتغير بتغير الظروف. قد يكون عندي رأيي قاطع فيك، وقد يكون لديك رأي عني».

رحت بدوري أميل رأسي.

قالت السيدة مردستون: «إلا أنه ليس من الضروري أن تتعارض هذه الآراء وتحتد هنا، بل يجب في ظل الظروف الحالية ألا يحدث هذا التصادم، كما يجب ألا يقع في جميع المناسبات. ونظرًا لأن مصادفات الحياة قد جمعتنا معًا مرة أخرى، وقد تجمعنا في مناسبات أخرى، فإني أود أن أقول: دعنا نلتقي هنا مثل معارف بعيدين. إن الظروف العائلية قد تصير سببًا كافيًا لاجتماعنا الوحيد هنا على هذا الأساس، وليس من الضروري أن يجعل كل منا الآخر موضوعًا لملاحظة. فهل توافقني الرأي؟».

قلت: «يا آنسة مردستون، أعتقد أنكِ والسيد مردستون قد عاملتماني بقسوة شديدة، كما عاملتما والدتي بقسوة بالغة. سأحفظ دائمًا هذا الاعتقاد ما دمت على قيد الحياة. لكنني أوافق تمامًا على اقتراحكِ».

أغمضت الآنسة مردستون عينيها مرة أخرى، وأمالت رأسها. لمست ظهر يدي بأطراف أصابعها الباردة المتيبسة، ثم ابتعدت عني بينما تعيد ترتيب بعض الأساور الصغيرة حول معصمها وتنسق عقدًا حول رقبتها. بدت لي هذه الحلي كما لو أنها المجموعة نفسها، وبالحالة نفسها تمامًا، التي رأيتها عليها آخر مرة. ذكَّرني هذا المشهد، بطبيعة الآنسة مردستون، فلاحت لي سلاسل الحلي كما لو أنها قيود على باب السجن، تشي للناظرين من الخارج، بأمور متوقعة في داخلها.

كل ما أعرفه عن بقية الأمسية هو أنني سمعت إمبراطورة قلبي تغني قصائد ساحرة باللغة الفرنسية، كان مفادها بشكل عام أنه مهما كان الأمر فيجب علينا الرقص دومًا، تا را لا، تا را لا! رافقتها آلة موسيقية تشبه الجيتار وقد شرفتها دورا بملامسة أناملها. أحسست أنني رحت في غيبوبة ساحرة، حتى إنني امتنعت عن الشراب، وأبعدت نفسي عن احتساء البانش على وجه الخصوص. وضعتها الآنسة مردستون تحت حراستها وكانت في طريقها إلى الحجز، فإذا بها تبتسم لي وقد ناولتني يدها الرائعة. ألقيت نظرة على نفسي في المرآة، فإذا بي أبدو معتوهًا وأبله تمامًا. أويت إلى فراشي في حالة ذهنية شديدة الكآبة، ثم استيقظت في حالة من افتتان وذهول.

كان صباحًا جميلًا، فحسبت أنه سيكون من الممتع لو أتنزه في هذا الوقت المبكر بين أحد الممرات المعروشة بأفرع النباتات، وأنغمس في شغفي بالتركيز على صورتها. كنت في طريقي أعبر البهو، فإذا بي ألقى كلبها الصغير. كان يُدعى جيب؛ اختصارًا لجبسي. اقتربت منه في حنان لأني أحببته، لكنه كشر عن أنيابه، وجلس تحت كرسي ليزمجر صراحة، ولم يسمح لي بأدنى قدر من الملاطفة.

كانت الحديقة باردة وفارغة، رحت أتجول متسائلًا عن مدى السعادة التي ستغمرني، لو أنني استطعت الانخراط في هذه الأعجوبة العزيزة. أما الزواج، والثروة، وكل هذه الأمور، فأظن أنني كنت ساذجًا وفارغ الذهن في ذلك الوقت، مثلما كانت حالتي حين أحببت إيميلي الصغيرة. لم أكن لأفكر إلا في أن يُسمح لي بمناداتها باسمها «دورا»،

والكتابة إليها، والتعبير عن مشاعري لها، والتعلق بها، وامتلاك سبب للاعتقاد بأنها عندما تصير مع أشخاص آخرين، فإنها لا تزال على دراية بوجودي ومكانتي. بدا هذا لي قمة الطموح الإنساني، بل أنا متأكد من أنه كان قمة طموحي الشخصي. لا شك في أنني كنت شابًّا ساذجًا يفتقر إلى الإدراك، ولكني كنت مع كل هذا نقي القلب، وهذا ما يمنعني من أن أتذكر مشاعري بازدراء، لكني أضحك قدر ما أستطيع.

لم أسِر لمسافة طويلة، حتى التفت نحو الزاوية والتقيت بها. تتملكني قشعريرة فتسري مرة أخرى في جسدي من رأسي إلى أخمصي قدمي حين تستدعي ذاكرتي هذه الزاوية، ويرتجف قلمي في يدي.

قلت: «لقد... خرجتِ... مبكرًا يا آنسة سبنلو».

قالت: «إن البقاء في المنزل أمر مروع، كما أن الآنسة مردستون سخيفة جدًّا! تتحدث عن ترهات مثل ضرورة أن يتجدد هواء النهار قبل أن أخرج. هراء». ضحكتْ هنا أعذب الضحكات وأطربها، ثم أكملت: «في صباح أيام الآحاد، وحين لا أتدرب، أحاول أن أفعل شيئًا. لذلك فإنني قد أخبرت أبي الليلة الماضية أنني أفضل الخروج نهارًا، علاوة على أن هذا الوقت، هو ألمع الأوقات في اليوم كله. ألا توافقني الرأي؟».

جازفت بوثبة جريئة، وقلت متلعثمًا إنه نهار مشرق جدًّا بالنسبة لي خاصة الآن، على الرغم من أنه كان شديد الظلمة قبل دقيقة واحدة.

قالت دورا: «هل تقصد المجاملة؟ أم أن الطقس تغير بالفعل؟».

ازدادت نبرتي تلعثمًا بينما أجبت بأنني لا أقصد أي نوع من المجاملة، بل هي الحقيقة الواضحة لي؛ على الرغم من أنني لم أكن على علم بأي تغير في حالة الطقس. ثم أضفت في خجل جم قائلًا إن هذا التغير قد انطبع على مشاعري، وبذلك فسرت مغزى كلامي.

لم أرَ في حياتي قَطُّ ما يشبه جمال ضفائرها، فكيف يمكنني وصفها، وأنا لا أجد ما يشبه هذه الجدائل! راحت جدائلها تهتز في محاولاتها لإخفاء خجلها. أما قبعتها المصنوعة من الخوص والشرائط الزرقاء التي تعلو ضفائرها، فلو كان بإمكاني تعليقها في غرفتي القابعة في شارع باكنغهام، لصارت من الكنوز التي لا تُقدر بثمن!

قلت: «هل عدتِ للتوِّ من باريس؟».

قالت: «نعم. هل ذهبت إلى باريس من قبل؟».

«لا».

«آهٍ، أتمنى أن تذهب إليها قريبًا، كم ستحب المقام بها!».

ظهرت على وجهي آثار آلام عميقة. كان أملها في أن أذهب إلى باريس، وظنها أنني أستطيع السفر إليها؛ أمرًا لا يمكن تحمله. لقد كرهت باريس، بل استخففت بقيمة فرنسا بأسرها. قلت إنني لن أترك إنجلترا في ظل الظروف الحالية، لأي اعتبار دنيوي. لا شيء يمكنه التأثير على قراري. باختصار، راحت تهز ضفائرها مرة أخرى، فإذا بكلبها الصغير يركض مقبلًا على طول الممشي لتسليتنا.

كان يغار مني بشدة، فاستمر في النباح. حملته بين ذراعيها -يا إلهي!- وراحت تداعبه، لكنه استمر في النباح. لم يسمح لي بلمسه على الرغم من محاولاتي، فإذا بها تضربه. ازداد حزني بشكل كبير حين رأيت هذه الضربات التي عاقبته بها على جسر أنفه الحاد، بينما راح يغمز بعينيه ويلعق يدها، ولم يزل يزمجر في أنين داخلي كما لو أنه يحدث صوتًا مزدوجًا. عاد إلى هدوئه من جديد -حسنًا؛ كيف لا يهدأ بعد أن أسندت ذقنها المطبوع بالحسن إلى رأسه!- مشينا بعيدًا لنتفقد صوبة زجاجية في الحديقة.

قالت دورا: «إنك لست على ألفة وود مع الآنسة مردستون، أليس كذلك؟ يا حيواني الأليف».

كانت الكلمات الأخيرة موجهة للكلب. آهٍ، لو أنها تتحدث لي فقط!

أجبتها قائلًا: «لا. لا على الإطلاق».

قالت دورا عابسة: «يا لها من مخلوقة متعبة. لا أستطيع أن أستسيغ ما الذي دفع بابا إلى اختيار هذا الشيء المزعج لتصير رفيقتي. من تريد مثل هذه الحامية لها؟ إنني متأكدة من أنني لا أريدها. يستطيع جيب أن يحميني بصورة أفضل بكثير من الآنسة مردستون. ألا يمكنك حراستي يا عزيزي جيب؟».

غمز بعينه في كسل، بعدما قبَّلت رأسه.

قالت: «إن بابا يدعوها صديقتي وأمينة سري، لكنني متأكدة من

أنها ليست كذلك، أليس كذلك يا جيب؟ لن نثق في أي شخص من هذه النوعية، أنا وجيب. سنمنح ثقتنا لمن نريد وفي المكان الذي نرغب فيه، وسنكتشف أصدقاءنا بأنفسنا، بدلًا ممن يصطفيهم غيرنا لنا، أليس كذلك يا جيب؟».

أصدر جيب صوتًا مريحًا، كما لو أنه يجيبها في نبرة تشبه إلى حد ما صوت غلاية الشاي حين تصدر أزيزها. أما كلماتها فلم تكن بالنسبة لي سوى حزمة جديدة من القيود، راحت تُحكَم واحدة تلو الأخرى حتى الكلمة الأخيرة.

استطردت قائلة: «إنه أمر صعب للغاية، بعد أن صرنا بلا ماما لطيفة؛ أن نقبل ببديل لها، فتكون هذه الشيء العجوز الكئيب المدعو الآنسة مردستون، التي تتبعنا دائمًا، أليس كذلك يا جيب؟ لا تشغل بالك يا جيب. لن نبوح بأسرارنا لأحد، وسنجعل أنفسنا سعداء قدر الإمكان على الرغم من وجودها، وسنضايقها، ولن نرضخ لها، أليس كذلك يا جيب؟».

لو استمرت الأمور على هذا النحو لفترة أطول، فأتصور أنني كنت لأجثو على ركبتي فوق الحصى، مع احتمال أن أجرحهما بأظافري بينما أجثو، ومن ثَم سأُطرد من هذا المنزل في الحال. إلا أنه من حسن الحظ أن الصوبة المزروعة لم تكن بعيدة، وقد وصلنا إليها بعد انتهاء هذه الكلمات.

احتوت الصوبة مجموعة رائعة من أزهار إبرة الراعي. رحنا نتسكع أمامها، وقد راحت دورا تتوقف كثيرًا لتبدي إعجابها بهذا أو ذاك، فأتوقف

بدوري لأبدي إعجابي بالشيء نفسه. تضحك دورا وهي ممسكة بكلبها ترفعه في حركة طفولية ليشم رائحة الزهور. إذا لم يكن ثلاثتنا في أرض الجنيات، فإنني بلا شك كنت هناك. كانت رائحة أوراق إبرة الراعي، قد أذهلتني في هذا اليوم، فصرت بين الهزل والعجب الممزوج بالجد. ما الذي تغير داخلي، وماذا اعتراني في لحظة؟ أفكر وإذا بي أبصر قبعة من الخوص وشرائط زرقاء، وعددًا من الضفائر، وكلبًا أسود صغيرًا محمولًا بذراعين نحيفتين، أمام حوض من الأزهار وأوراق النباتات الزاهية.

كانت الآنسة مردستون تبحث عنا، فإذا بها تعثر علينا. قدمت خدها إلى دورا لتقبله، كان جلدها رخوًا ذا تجاعيد صغيرة، قد امتلأت ثناياه ببودرة التجميل. تناولت ذراع دورا وأحكمتها بين يديها، ثم اصطحبتها لتناول الإفطار كما لو أنها تسير في جنازة عسكرية.

لا أدري كم شربت من الشاي لأن دورا كانت مَن أعدته. لكنني أتذكر تمامًا أنني جلست أشرب الشاي حتى أتلفت جهازي العصبي كله، إن كنت قد احتفظت بأي من أعصابي في تلك الأيام. ذهبنا إلى الكنيسة بعد انتهاء الإفطار. كانت الآنسة مردستون تجلس بيني ودورا، فتحجبها عني. إلا أنني سمعت صوتها تُرنم، فانزاح الجميع من ناظري. سمعت العظة - كانت عن دورا بالطبع - وأخشى أن هذا كل ما أدركته من الصلاة.

حظينا بيوم هادئ، من دون ضيوف، كما أننا تنزهنا وتناولنا عشاء عائليًّا لأربعة أفراد، ثم قضينا أمسيتنا في مطالعة الكتب ومشاهدة

الصور. أما الآنسة مردستون فقد جلست تراقبنا متيقظة وقد وضعت أمامها موعظة تقرأها. آه، هل دار بخلد السيد سبنلو شيء؟ جلس أمامي بعد العشاء في ذلك اليوم، وقد وضع منديله فوق رأسه، بينما خيل إليَّ أنني أعانقه بشدة، كما لو أنني صهره! ألم يظن في تلك الليلة، أنني لم أغادره إلا بعد أن أبدى للتوِّ موافقته الكاملة على خطبتي لدورا، وأنني رحت أدعو أن تغمره مزيد من البركات!

غادرنا في الصباح الباكر، حيث كنا سنعمل في قضية إنقاذ سفينة أمم المحكمة البحرية، وكانت هذه القضية تتطلب معرفة دقيقة وشاملة بعلوم الملاحة، كما لم يكن من المتوقع أن نعرف الكثير عن تلك الأمور في حي المحامين. ناشد القاضي رجلين من سادة الخبراء القدامى، وطلب منهما الحضور للمساعدة في القضية، تصدقًا منهما بعلمهما.

جلست دورا إلى مائدة الإفطار؛ تُحضِّر الشاي مرة أخرى، وكان من دواعي سروري الذي لا يخلو من الحزن، أن أحييها فأرفع قبعتي لها قبل أن ترحل بنا العربة، حيث كانت تقف على عتبة الباب حاملة جيب بين ذراعيها.

ما أعجب المحكمة البحرية أمامي في ذلك اليوم، وما هذا الهراء الذي لاح لذهني حول قضيتنا حين استمعت إليها! وكيف تجلى أمامي اسم «دورا»! لاح اسمها منقوشًا على لوح المجداف الفضي الذي وضعوه على الطاولة، رمزًا لهذه الولاية القضائية العالية. كيف كانت مشاعري بعد أن عاد السيد سبنلو إلى منزله من دوني! لقد انتابني أمل جامح في أن يصطحبني معه مرة أخرى، كما لو كنت بحارًا، قد أبحرت

سفينتي بعيدًا عني وتركتني في جزيرة مقفرة. لن أبذل جهدًا ضائعًا في وصف مشاعري تلك، لكن لو كان بمقدور هذه المحكمة العتيقة النائمة أن تستيقظ، وتستعرض صورًا لأحلام اليقظة التي راودتني حول دورا، لكان لها أن تكشف حقيقتي وهيامي.

لا أقصد أن أحلامي زارتني في ذلك اليوم وحده، بل زارتني يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد الآخر، وفترة تلو الأخرى. كنت أذهب إلى المحكمة من دون أن أنتبه لما يجري حولي، بل لأفكر في دورا. كنت أفكر في بعض الحالات في القضايا، حين يطول استعراضها أمامي ببطء، وإذا بي أتساءل حول القضايا الزوجية - التي تذكرني بدورا أيضًا - وأعجب كيف يصير الأزواج غير سعداء! ويحيد تفكيري في حالات الميراث، فأتخيل ما إذا كانت الأموال المتنازع عليها قد آلت إليَّ، فما أهم الخطوات التي ينبغي اتخاذها على الفور لأفوز بدورا. قادني الأسبوع الأول من شغفي، إلى شراء أربع سترات فاخرة - لم أشترِها لنفسي، فأنا لم أكن لأزهو بها، بل كانت لأجل دورا - ورحت أرتدي قفازات طوال ذهبية بلون القش كلما خرجت إلى الشارع، ورحت أعالج كل الحبوب والقرح التي أصابت جلدي طوال حياتي. لو أن لي إحضار الأحذية الضيقة التي ارتديتها في تلك الفترة ومقارنتها بالحجم الطبيعي لقدمي، فإنها ستظهر هيام قلبي، وستدعو لرثاء حالي.

لفني إحساس بعجز بائس على الرغم من كل ما صنعته من عناية بمظهري، إرضاء لدورا. كنت أسير كل يوم أميالًا تلو أخرى آملًا أن أراها. صرت معروفًا جدًّا بعد وقت قصير على طريق نورwood كأحد

سعاة البريد، ليس في هذه البقعة فقط، بل في لندن بعد أن تجولت بين أرجائها أيضًا. تجولت في الشوارع ومررت بأفضل المتاجر التي تترد عليها السيدات، ورحت أطارد الحوانيت كما لو أنني روح هائمة، ثم أتردد على الحدائق مرة بعد الأخرى بعد أن ينهكني تجوالي الطويل. كنت أراها أحيانًا، على فترات طويلة وفي مناسبات نادرة. صادفت قفازها يلوح لي من نافذة عربة ذات مرة، والتقيتها وسرت معها ومع الآنسة مردستون قليلًا وتحدثت معها مرة أخرى. تنتهي جولتي معهما فأصاب بعدها بحزن بالغ، خاصة بعد أن أدرك أنني لم أُلمح بشيء عن مشاعري، أو لأنني لم أبُح لها بافتتاني بها، أو لأنها لا تهتم بأمري. كنت أتوق دائمًا، إلى دعوة أخرى إلى منزل السيد سبنلو. إلا أنني مكثت مع خيبة أملي، لأنني لم أحقق أيًا من أحلامي.

يبدو أن السيدة كروب امرأة فطنة. لقد مر على تعلقي بدورا بضعة أسابيع، ولم تواتني الشجاعة الكافية للكتابة إلى أجنيس، ولم أستطع أن أصرح إليها بأمري، فاكتفيت بقول إنني ذهبت في زيارة إلى منزل السيد سبنلو، كما أضفت أنني تعرفت إلى «عائلته» التي تتكون من ابنة واحدة. وأقول إن السيدة كروب امرأة فطنة، لأنها اكتشفت أمري في تلك المرحلة المبكرة. جاءتني في إحدى الأمسيات، التي أحسست فيها شجنًا ووهنًا. كانت مصابة بأعراض ذلك الاضطراب الذي ذكرته من قبل، فطلبت مني منحها القليل من صبغة الحبهان الممزوجة بالراوند، والمنكهة بسبع قطرات من روح القرنفل، وكان هذا أفضل علاج لشكواها، أما إذا لم يتوفر هذا المزيج، فيكفي القليل من البراندي -على الرغم من أنه لم

يكن مستساغًا لها، فإنه كان بمثابة ثاني أفضل علاج. نظرًا لأنني لم أسمع قَطُّ بالعلاج الأول، في حين تحتوي خزانتي دائمًا على الوصفة الثانية، فإنني قد أعطيت السيدة كروب كأسًا من البراندي، ولا أشك في أنها لم تستخدمه بشكل غير لائق، لذا بدأت في شرابه أمامي.

قالت السيدة كروب: «ابتهج يا سيدي. لا أستطيع رؤيتك بائسًا يا سيدي. إنني أحمل مشاعر الأم».

لم أدرك تمامًا كيف يمكنها تطبيق هذه النصيحة بنفسها، لكنني ابتسمت للسيدة كروب في لطف، بكل ما أوتيت من قوة.

قالت السيدة كروب: «تعالَ يا سيدي. اعذرني إن قلت إنني أفهم الأمر يا سيدي. إن المسألة تتعلق بفتاة».

احمر وجهي خجلًا وقلت: «يا سيدة كروب».

تكلمت السيدة كروب بينما تومئ برأسها مشجعة لي وقائلة: «آهٍ، بارك الله فيك. حافظ على قلبك الطيب يا سيدي، لا تحزن يا سيدي. إذا هي لم تبتسم لك، فإنك ستقابل كثيرات غيرها. إنك رجل نبيل يا سيد كوبرفول، وستبتسم لك غيرها. عليك أن تثقك بنفسك يا سيدي».

تناديني السيدة كروب دائمًا بالسيد كوبرفول. أعرف أولًا وبلا شك، أنه لم يكن اسمي، وثانيًا، أميل إلى الظن، بأنها تربط هذا الاسم بشيء غير واضح يتعلق بيوم الغسيل.

قلت: «ما الذي يجعلكِ تفترضين يا سيدة كروب أن الأمر يتعلق بفتاة؟».

قالت في تأثر بالغ: «يا سيد كوبرفول، إنني أُم».

أبقت السيدة كروب يدها فوق صدرها لبعض الوقت، بينما مكثت صامتة تحصن نفسها ضد الألم المتكرر برشفات من دوائها، وفي النهاية استأنفت حديثها مرة أخرى.

قالت السيدة كروب: «استأجرت عمتك العزيزة هذه الغرف لك يا سيد كوبرفول، وقد أحسست منذ ذلك الوقت أن الله قد منحني إنسانًا يمكنني العناية به. الحمد لله». استوقفتني عبارتها: «وجدت منذ ذلك الوقت إنسانًا أعتني به»، ثم أكملت قائلة: «إنك لم تعد تأكل أو تشرب ما يكفيك يا سيدي».

قلت: «هل هذا ما أسندتِ إليه ظنكِ يا سيدة كروب؟».

قالت السيدة كروب في نبرة تقترب من التعنيف: «يا سيدي، لقد غسلت ثياب شباب غيرك. قد يكون الشاب النبيل حريصًا جدًّا على الاهتمام بنفسه، أو قد يكون أقل عناية بها. قد يمشط شعره بانتظام أو يهمله. قد يرتدي حذاءً كبيرًا جدًّا بالنسبة إليه أو ضيقًا للغاية. ويعود الأمر إلى ما اعتاد عليه كل شاب وفقًا لما تشكلت عليه شخصيته الأصلية. إلا أنه ما إن يميل إلى المبالغة في الاهتمام أو الإهمال يا سيدي، فلا أشك ساعتها في وجود فتاة في كلتا الحالين».

هزت السيدة كروب رأسها في حزم مما لا يدع لي شبرًا واحدًا من مساحة أقيم عليها جدالًا.

قالت السيدة كروب: «إن الرجل الذي مات هنا وكان يسكن قبلك كان قد وقع في الحب. أحب إحدى النادلات، وقام بتضييق صدرياته مباشرة، على الرغم من تورم جسده بسبب كثرة الشرب».

قلت: «أتوسل إليكِ يا سيدة كروب لا تقارني الفتاة في حالتي بالنادلة، أو أي شيء من هذا القبيل، إذا سمحتِ».

عادت السيدة كروب تقول: «يا سيد كوبرفول، إنني أم ولا أفتعل الأمر بلا شك. أستميحك عذرًا يا سيدي، إن كنت قد تطفلت عليك، فأنا لا أحب التطفل ولا أرغب في إقحام نفسي فيما لا أجد فيه ترحيبًا. إنك رجل نبيل يا سيد كوبرفول، ونصيحتي لك هي أن تبتهج يا سيدي، وأن تحافظ على قلبك الطيب، وأن تعرف قدرك. كما أنك تستطيع إن أردت أن تمارس نوعًا من الرياضة يا سيدي في هذه الأوقات مثل لعبة البولنج. إن ممارسة الرياضة أمر صحي، وقد تجد فيها ما يشغلك، ويفيدك».

أنهت السيدة كروب حديثها بهذه الكلمات، بعد أن شكرتني قائلة إنها تتوخى الحذر الشديد حتى لا تستنفد البراندي -الذي اختفى تمامًا- ثم حيتني بأدب مهيب، وانصرفت. راح شبحها ينقشع في ظلام الردهة، فإذا بنصيحتها تتمثل إلى ذهني في ضوء نوع طفيف من التطفل من جانب السيدة كروب بلا شك، لكنني ارتضيت نصيحتها في الوقت نفسه وكنت سعيدًا لسماع وجهة نظر أخرى، كما ينصح الحكماء، ليكون بمثابة تحذير لي في المستقبل للحفاظ على سري.

الفصل السابع والعشرون

تومي ترادلز

حفزتني نصيحة السيدة كروب، أو ربما حفزني التشابه الصوتي المميز بين كلمة لعبة البولنج وترادلز[1]، فخطر ببالي أن أذهب للبحث عنه في اليوم التالي. كان الوقت الذي حدد فيه وجوده خارج البيت قد ولى، وعاد ليسكن في شارع صغير بالقرب من الكلية البيطرية في كامدن تاون. عرفت من أحد الكتبة أن كثيرًا من المستأجرين في هذه الضاحية بالذات، من الطلاب الذين يدرسون الطب البيطري، وأنهم يشترون حميرًا حية لإجراء تجارب عليها في مساكنهم الخاصة. ما إن حصلت من هذا الموظف على بعض المعلومات، وعن الطريق إلى هذا المجمع الأكاديمي الخاص، إذا بي أنطلق بعد ظهر اليوم نفسه، في زيارة إلى زميل مدرستي القديم.

---

(١) يقصد هنا التناغم الصوتي بين كلمة *skittles* ومعناها لعبة البولينج، واسم صديقه *Traddles*.

لقد وجدت مستوى الشارع الذي يسكن فيه ترادلز أقل مما أرجوه له. بدا أن السكان يميلون إلى إلقاء أي أشياء صغيرة لا يحتاجون إليها على قارعة الطريق، مما جعلها متعرجة وقذرة، بل وتسبب إلقاء أوراق الكرنب إلى جعلها غير واضحة الملامح أيضًا. لم تكن القمامة نباتية بالكامل، بل رأيت من محتوياتها حذاءً، ووعاءً مطويًا، وقبعة سوداء، ومظلة، كلها في مراحل مختلفة من الانحلال، بينما رحت أبحث في طريقي عن رقم المنزل الذي أقصده.

ذكَّرني الطابع العام للمكان بالأيام الخوالي التي كنت أعيش فيها مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته، بل ذكَّرني بقوة بما ظهر أمامي من آثار التأنق الباهتة التي ارتسمت على المنزل الذي توجهت إليه، فجعلته مختلفًا عن جميع المنازل المجاورة في الشارع - على الرغم من أنها بنيت جميعًا على طراز واحد رتيب، فبدت كما لو أنها نسخ بدائية لصبي متخبط كان يتعلم كيفية بناء المنازل، أو لم تكن قد تجاوزت مهارة رسم تلميذ لبيوت على الورق قد شوهتها قذائف الهاون، مما زاد من تذكري للسيد ميكوبر والسيدة زوجته. ما إن وصلت بعد الظهيرة إلى الباب، حتى تصادف فتحه لبائع الحليب، مما زاد من تذكري للسيد ميكوبر والسيدة زوجته بقوة أكبر في هذه اللحظة.

قالها بائع الحليب لخادمة في ريعان الشباب: «والآن، هل من جديد بشأن المبلغ اليسير الذي لي عندكم؟».

كان ردها: «آهٍ، إن سيدي يقول إنه سيسدده على الفور».

راح بائع الحليب يتكلم كما لو أنه لم يتلقَّ جوابًا، أو كما فهمت من نبرة حديثه أنه يرغب في الاستماع إلى شخص ما داخل المنزل لا الخادمة الشابة التي أمامه، وقد عززت عندي هذا الانطباع الطريقة التي راح يحملق فيها نحو الممر في نظرات فاضحة، فاستطرد قائلًا: «نظرًا لأن هذا المبلغ القليل لم يسدد لفترة طويلة، ظننت أنه لن يسدد أبدًا، ولكني لن أتجاهل الأمر أبدًا».

ظل بائع الحليب يلقي بصوته ونظراته داخل المنزل، وأخذ يحدق في الممر، مستطردًا: «أما الآن فكما تعلمين، لن أنتظر أكثر مما انتظرت».

لم أشهد قَطُّ شذوذًا أكبر من الفارق بين طريقة هذا البائع، وطبيعة تعامله مع مادة لطيفة ناعمة مثل الحليب، فكانت طريقته الشرسة أقرب إلى الجزار أو تاجر البراندي.

ضعف صوت الخادمة الشابة أمامه، إلا أنها بدت لي كما لو أنها تحرك شفتيها، فتتذمر مرة أخرى قائلة إن سيدها سيسدد المبلغ على الفور.

تحدث بائع الحليب، بينما ينظر إليها بجدية للمرة الأولى، وقد أمسك ذقنها، قائلًا: «أقول لكِ، هل تحبين الحليب؟».

أجابت: «نعم، لقد أحببته». قال بائع الحليب: «جميل. لن أعطيكم إذن شيئًا منه غدًا. هل تسمعين؟ لن تحصلوا على قطرة واحدة من الحليب غدًا».

أحسب أنها بدت مرتاحة ما دامت ستحصل على قدر من الحليب اليوم. هز بائع الحليب رأسه في عنف ثم أطلق ذقنها، وفتح الصفيحة على مضض، وسكب الكمية المعتادة في إبريق العائلة. انطلق بعيدًا بعد أن تمتم بشيء ما، ثم أطلق صرخة مناديًا على سلعته في الجوار، كما لو أنها صرخة حاقدة مدوية.

توجهت إلى الباب وسألت: «هل يسكن السيد ترادلز هنا؟».

أجاب صوت غامض تسرب من أقصى الممر قائلًا: «نعم». ثم أجابت الخادمة الشابة مؤكدة: «نعم».

قلت: «هل هو في المنزل؟».

مرة أخرى أجاب الصوت الغامض بالإيجاب، وكررت الخادمة الشابة قوله مرة أخرى. دخلت وتبعت توجيهات الخادمة بالصعود إلى الطابق العلوي. مررت من باب الصالون الخلفي، وقد أحسست أن عينًا غامضة تراقبني، وربما هي عين الصوت الغامض نفسه.

وصلت إلى نهاية السلم - كان المنزل يتكون من طابق واحد يعلو فوق الطابق الأرضي - فإذا بترادلز يقف عند نهاية السلم لاستقبالي. فرح برؤيتي، ورحب بي ترحيبًا حارًّا، وأدخلني إلى غرفته الصغيرة. كانت حجرته في واجهة المنزل، أنيقة للغاية، على الرغم من قلة الأثاث بها. وبدا لي أنها غرفته الوحيدة، حيث رأيت بها أريكة تستخدم سريرًا، كما أبصرت فرش تنظيف أحذيته السوداء ودهاناتها بين كتبه، على الرف العلوي خلف القاموس. أما مائدة طعامه، فكانت مغطاة بأوراق عمله،

ويبدو أنه كان مستغرقًا حينها في عمله، مرتديًا معطفًا قديمًا. لم أوجه نظري إلى شيء بعينه، لكنني رأيت كل محتوياتها، إلى الحد الذي جعلني ألاحظ في أثناء جلوسي رسمًا لكنيسة على محبرته المصنوعة من الخزف، وكانت هذه العادة أيضًا قد اكتسبتها وتأصلت عندي منذ أيام ميكوبر الخوالي. يبدو أنه قام بالعديد من الترتيبات البارعة لإخفاء خزانة أدراجه، وصندوق حذائه، وكوب الحلاقة، وما إلى ذلك، مما أثار إعجابي على نحو خاص، ومكثتْ دليلًا على عدم تغير ترادلز الذي اعتاد على صنع نماذج من أوكار الفيلة من أوراقه لإخفاء الذباب داخلها، ولتهدئة نفسه بعد أي إساءات، ولم تزل بعض هذه الأعمال الفنية راسخة لا تُنسى في ذاكرتي أبدًا.

أبصرت شيئًا في إحدى زوايا الغرفة، مغطى بعناية بقطعة قماش بيضاء كبيرة. لم أستطع أن أفهم طبيعته.

قلت وأنا أصافحه مرة أخرى، بعد جلوسي: «يا ترادلز، إنني سعيد برؤيتك».

قال: «وأنا سعيد برؤيتك يا كوبرفيلد. إنني مسرور جدًّا برؤيتك حقًّا. وقد كنت فرحًا كذلك برؤيتك حين التقينا في ميدان إيلي، وكنت متأكدًا من أنك سعيد تمامًا برؤيتي، لذلك أعطيتك هذا العنوان بدلًا من عنواني في غرفة أخرى». قلت: «آهٍ، وهل لديك غرف أخرى؟».

أجابني ترادلز قائلًا: «نعم، لديَّ ربع غرفة وممر، وربع كاتب. أقصد أنني وثلاثة آخرين نملك مجموعة من الغرف - تبدو وكأنها

شراكة تجارية - كما نقسِّم عمل الموظف أيضًا. يكلفني الأمر نصف كروان في الأسبوع».

ها هي شخصيته القديمة البسيطة ونيته الصافية تتجلى، كما يظهر شيء من حظه القديم العاثر أيضًا، كما أحسست أنه يبتسم لي ابتسامة قديمة بينما يعرض لي هذا التفسير.

أردف ترادلز: «إنني لست خجلًا من هذا المكان يا كوبرفيلد، كما تعرف، فلا أعطي عنواني هنا عادةً. بل لأنني أراعي من يأتون إليَّ، وأتفهم أنهم قد لا يرغبون في المجيء إلى هنا. أما أنا، فأكافح المصاعب في سبيل الحياة، وسيكون من السخف أن أتظاهر بأي شيء آخر».

قلت: «هل تدرس القانون؟ لقد أخبرني السيد ووتربروك بذلك».

أجابني ترادلز بينما يفرك يديه في رفق، محركًا إحداهما فوق الأخرى: «حقًّا، نعم. إنني أدرس القانون. والحقيقة أنني بدأت للتوِّ في الحفاظ على دراستي بانتظام، بعد تأخير طويل. لقد مر وقت منذ أن اجتزت امتحان قبول دراسة القانون». أكمل ترادلز حديثه جفلًا، كما لو قد خلع أحد ضروسه، قائلًا: «أما دفع الجنيهات المائة تلك، فأمر شاق إلى حد كبير».

سألته «هل تعرف ما لا يمكنني منع نفسي من التفكير فيه يا ترادلز، بينما أجلس هنا ناظرًا إليك؟».

قال: «لا أعرف».

قلت: «إنها تلك البدلة الزرقاء السماوية التي اعتدتَ أن ترتديها».

صاح ترادلز ضاحكًا: «يا إلهي، بالتأكيد. لقد كانت مشدودة ضيقة من الذراعين والساقين، أتعلم هذا؟ يا ربي! حسنًا. كم كانت أوقاتًا سعيدة، أليس كذلك؟».

أجبته قائلًا: «حقًّا، وأعترف أن مدير مدرستنا كان ليجعلنا أكثر سعادة، لو لم يُلحق الأذى بأي منا».

قال ترادلز: «ربما، نعم من الجائز، لكننا يا عزيزي، قد نعمنا بقدر كبير من المرح واللهو. هل تتذكر ليالينا في قاعة النوم؟ هل تذكر متى اعتدنا تناول العشاء؟ ومتى كنت تحكي القصص؟ هاهاهاها! وهل تتذكر ما تعرضت له من الضرب بالعصا بسبب بكائي على السيد ميل؟ أتذكر السيد كريكل! أتمنى لو أراه مرة أخرى».

قلت في غضب: «لقد كان يقسو عليك يا ترادلز». كانت روحه الساذجة قد جعلتني أشعر أنني رأيته يتعرض للضرب بالأمس فقط.

راح ترادلز يقول: «هل تظن ذلك؟ حقًّا؟ ربما وقع ذلك. إلا أن كل شيء قد انتهى منذ فترة طويلة. كيف حوَّله الزمن يا ترى؟».

قلت: «كنت مكفولًا من عمك وقتها إذن، أليس كذلك؟».

قال ترادلز: «بالطبع، إنه الشخص الذي كنت أقول إنني أكتب إليه دومًا من دون أن أفعل. آه، هاهاهاها! نعم، كان لي عم آنذاك، وقد مات بعد أن تركت المدرسة بفترة وجيزة».

قلت: «حقًّا!».

قال: «نعم. لقد كان تاجرًا... ماذا نسميه؟ كِسوَة؛ أقصد تاجر أقمشة، وقد جعلني وريثه في مهنته، إلا أن هذا العمل لم يعجبني بعدما كبرت».

سرد لي حكايته كما لو أنه يؤلفها، حتى إنني تخيلت أنه ربما يقصد معنى آخر. سألته قائلًا: «هل تقصد ما قلته حقًّا؟».

أجاب ترادلز: «آهٍ يا عزيزي، نعم يا كوبرفيلد. إنني أعني ما قلته. كان الأمر مؤسفًا، لأنه لم يكن يحبني على الإطلاق. قال إنني خيبت آماله أشد خيبة، لذلك تزوج من مدبرة منزله».

سألته: «وماذا فعلتَ؟».

قال ترادلز: «لم أفعل أي شيء على وجه التحديد. لقد عشت معهما، في انتظار أن يقذفاني إلى معترك الحياة. وللأسف تسرب النقرس إلى بطنه، ثم مات متأثرًا بمرضه، فتزوجت الخادمة من شاب، وبالتالي لم أحظ بنصيب من التركة».

سألته: «ألم تحصل على شيء يا ترادلز، بعد هذه السنين؟».

قال ترادلز: «آه يا عزيزي، حسنًا، لقد حصلت على خمسين جنيهًا. ولم أكن أعمل في أي مهنة، ولم أكتسب أي مهارة تؤهلني للعمل. صرت في البداية في حيرة، ولم أدرِ ماذا أفعل. ولكنني مع ذلك، شرعت في عمل بمساعدة ابن أحد رجال المهنة، كان في مدرسة سالم هاوس. إنه ياولر، الصبي ذو الأنف المائل. هل تتذكره؟».

لا. لم يلازمني هذا الصبي، فقد كانت كل أنوف الصبية مستقيمة في عهدي.

قال ترادلز: «لا يهم أن تتذكره. المهم أنني بدأت في نسخ المذكرات القانونية بمساعدته. لم يكفلني هذا العمل بالكامل. لذلك بدأت في صياغة عرض للقضايا، أو إعداد الملخصات للمحامين، والعمل في مثل هذه الأنواع من الأعمال. إنني رجل مثابر يا كوبرفيلد، ولذلك فإنني تعلمت كيفية القيام بهذه الأعمال ببراعة. حسنًا. وهنا ألحت في رأسي فكرة أن أدخل نفسي في زمرة دارسي القانون، وقد قضت هذه الفكرة على كل ما تبقى من الخمسين جنيهًا. نصحني ياولر بزيارة مكتب أو مكتبين آخرين؛ كان منهما مكتب السيد ووتربروك، فحصلت بواسطته على الكثير من المهام. حالفني الحظ كذلك بالتعرف إلى رجل يعمل في مجال النشر، وكان يعد موسوعة، ومن ثَم طلب مني العمل معه...». ألقى هنا نظرة خاطفة إلى طاولته، وأكمل قائلًا: «وبالفعل، ها أنا أعمل معه في الوقت الراهن». راح ترادلز هنا يتحدث محتفظًا بثقة مرحة اعتدتها في كل ما يقول: «إنني لست باحثًا سيئًا يا كوبرفيلد، إلا أنني لا أتمتع بمهارات الإبداع أو الأصالة على الإطلاق، بل أحسب أنه لم يُولد شاب أقل إبداعًا مني قَطُّ».

بدا أن ترادلز كان يتوقع مني أن أوافقه على هذا الرأي، فلم أستطع سوى الاستجابة بأن أومأت برأسي، ومن ثَم استمر في حديثه بالصبر نفسه المليء بالحيوية الذي كان عليه، ولا أجد تعبيرًا أفضل مما قلت لأعبر عن حالته.

قال ترادلز: «هكذا استطعت شيئًا فشيئًا، أن أجمع مائة جنيه في النهاية مع الاقتصاد في العيش. والحمد لله أنني استطعت دفعها، على الرغم من أن دفعها... على الرغم من أن دفعها كان مضنيًا بالتأكيد. إنني أعيش بحسب نوع العمل الذي ذكرته لك، وما زلت آمل أنه في يوم من الأيام سأستطيع أن أتواصل مع بعض الصحف لأظفر بما يحقق لي الثراء. أما الآن يا كوبرفيلد، فإنك تبدو كما عهدتك بالضبط؛ بهذا الوجه الجميل، وهذه الطلة المريحة المحببة للغاية، حتى إنني لم أُخفِ عنك شيئًا. ولذلك يجب أن أخبرك أنني خاطب».

خاطب! آهٍ يا دورا!

قال ترادلز: «إنها ابنة قسيس. واحدة من عشرة أبناء يقيمون في جنوب ديفونشاير». لاحظ ترادلز أنني أنظر - لا إراديًّا - نحو الصورة المرتسمة على المحبر، فإذا به يؤكد ظني قائلًا: «نعم، إنها الكنيسة المعنية»، ثم راح يتتبع بأنامله مسارًا مرسومًا على المحبرة، وهو يقول: «انظر هنا نحو اليسار، مرورًا بهذه البوابة. يقبع المنزل هنا، حيث أشير بهذا القلم بالضبط، في مواجهة الكنيسة، كما ترى».

لم أدرك تمامًا حجم البهجة التي راح يقص بها عليَّ هذه التفاصيل، إلا فيما بعد، حينما رحت أفكر في نوع من الأنانية برسم مخطط لمنزل السيد سبنلو والحديقة في الوقت نفسه.

قال ترادلز: «يا لها من فتاة معززة مكرمة! إنها تكبرني قليلًا، إلا أنها أعز الفتيات! ألم أخبرك أنني مفارق المدينة؟ لقد توجهت إلى خارج المدينة. رحت أمشي هناك، ثم عدت، ويا لمتعتي بالوقت الذي قضيته!

لا أخفيك سرًّا، فمن المحتمل أن تكون مخططاتنا طويلة الأمد إلى حد ما، لكن شعارنا هو «انتظر على أمل». إننا نردد هذه المقولة دائمًا. نقول دائمًا «انتظر على أمل». وإنها تنتظرني يا كوبرفيلد، وإن بلغت الستين، أو أي سن يمكنك تخيلها.

نهض ترادلز من مقعده، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة منتصر، ثم وضع يده على القماش الأبيض الذي كنت قد لاحظته من قبل.

قال: «ومع ذلك، فإننا لم نغفل الشروع في تجهيز منزلنا. لا، كلا، لقد بدأنا في إعداده، إذ يجب أن نخطو درجات وإن كانت يسيرة». سحب ترادلز القماش في فخر وعناية فائقين، وأكمل ترادلز حديثه قائلًا: «إنهما قطعتان من الأثاث بدأنا بهما. وقد اشترت هذه الزهرية وهذا الرف بنفسها. لقد وضعت هذه الزهرية عند نافذة صالة الاستقبال». تراجع قليلًا عنها ولمسها بإعجاب أكبر، ثم أردف قائلًا: «مع نبتة ثبتها بداخلها. انظر أمامك أيضًا، لقد اشتريت هذه المائدة المستديرة الصغيرة ذات السطح الرخامي، ومحيطها قدمان وعشر بوصات. ربما أردت أن تضع كتابًا عليها، كما تفهم، أو ربما يأتي شخص ما لزيارتك أو لزيارة زوجتك، فيرغب في إسناد فنجان من الشاي إلى مكان ما. وانظر هنا مرة أخرى، إنها قطعة تجميلية رائعة متقنة الصنع، حتى إنها تبدو صلبة كصخرة». امتدحتهما بشدة، فأعد ترادلز الغطاء بعناية فائقة كما أزاله تمامًا.

قال ترادلز: «إن خطوة الأثاث ليست مضنية إلى حد كبير. إلا أن أكثر ما يثبط عزيمتي يا كوبرفيلد هو تفاصيل أغطية المائدة وأكياس الوسائد وغيرها من الأشياء من هذا القبيل. أضف إلى ذلك المصنوعات

الحديدية، وصناديق الشموع، والمشابك، وهذه الأصناف الضرورية ونحوها، لأن هذه الأشياء تكلف الكثير، كما أنها تزداد غلوًّا. ومع ذلك فإنني «انتظر على أمل» وإنني أؤكد لك أنها أعز فتاة».

قلت: «إنني متأكد من ذلك تمامًا».

قال ترادلز وهو عائد إلى مقعده: «أما وإن وصلنا إلى هذه اللحظة، فهذه هي نهاية أخباري، وها أنا أخطو بكل ما أوتيت من همة. إن دخلي ليس وفيرًا، إلا أنني أقتصد فيما أنفق. وجملة القول إنني أتناول طعامي مع سكان الطابق السفلي، وهم أناس طيبون حقًّا. لقد شهد كل من السيد ميكوبر والسيدة زوجته قدرًا كبيرًا من متاعب الحياة، وهما رفقة ممتازة حقًّا».

صرخت بسرعة: «يا عزيزي ترادلز، عن أي شيء تتحدث؟».

نظر إليَّ ترادلز، كما لو كان يتساءل مندهشًا عن مقصدي.

قلت: «أتقول السيد ميكوبر والسيدة زوجته؟! يا للعجب، إنني على معرفة وثيقة بهما».

سمعت طرقة مزدوجة على الباب، وكنت أعرفها جيدًا من خبرتي القديمة ومقامي في وندسور تراس، فهذه الطرقات لا يمكن أن تكون لأحد سوى السيد ميكوبر. انقشع الشك عن ذهني، بعد أن تأكدت من أنهما صديقاي القديمان. طلبت من ترادلز أن يستأذن مالك العقار بالصعود إلينا. استجاب ترادلز لطلبي، وبناءً على ذلك نادى صاحب البيت من فوق سور السلم، وإذا بالسيد ميكوبر يدخل إلى الغرفة في لطف بالغ ومظهر

شبابي من دون أن يتغير فيه شيء يذكر، إذ احتفظ ببنطاله الضيق، وعصاه، وياقة قميصه العريضة، ونظارته؛ إنه هو بكل ما عهدته به دومًا.

تحدث السيد ميكوبر بنبرة قديمة مميزة في صوته، قائلًا: «أستميحك عذرًا يا سيد ترادلز»، وكان يحاول أن ينهي دندناته الناعمة، حين راح يقول: «لم أكن أعلم أن لديك إنسانًا غريبًا في هذا المسكن وفي حرمك».

انحنى السيد ميكوبر لي قليلًا بعد أن رفع ياقة قميصه.

قلت: «كيف حالك يا سيد ميكوبر؟».

قال السيد ميكوبر: «شكرًا لك يا سيدي. إنني في أفضل حال».

تابعت: «وكيف حال السيدة ميكوبر؟».

قال السيد ميكوبر: «يا سيدي، إنها أيضًا، والحمد لله، في أفضل حال».

«والأطفال يا سيد ميكوبر، كيف حالهم؟».

قال السيد ميكوبر: «يسعدني أن أقول يا سيدي إنهم بالمثل، ينعمون بأفضل حال».

لم يستطع السيد ميكوبر أن يتعرف عليَّ طوال هذا الوقت، على الرغم من أنه وقف أمامي وجهًا لوجه. إلا أنه ما إن رآني أبتسم، حتى أخذ يتفحص ملامحي باهتمام أكبر، ثم تراجع خطوة وراح يصرخ قائلًا: «هل هذا ممكن؟! هل يسعدني الحظ بأن أرى كوبرفيلد مرة أخرى!»، ثم صافحني بكلتا يديه بقدر بالغ من الحماس.

قال السيد ميكوبر: «يا لجنات النعيم! يا سيد ترادلز! لم أحسب أنني سأجدك على معرفة بصديق فترة الشباب، ورفيق الأيام الخوالي! آه يا عزيزي». ثم راح ينادي على السيدة ميكوبر عبر السلم، بينما بدا ترادلز مندهشًا بل مشدوهًا، ولا شيء يستطيع أن يصف دهشته حين سمعناه يقول: «ثمة رجل نبيل في شقة السيد ترادلز، وهو يرجو أن يُقدَّم إليكِ يا حبي».

عاد السيد ميكوبر على الفور وصافحني مرة أخرى.

قال السيد ميكوبر: «وكيف حال صديقنا الدكتور العزيز يا كوبرفيلد؟ وكيف حال المعارف كلها في كانتربري؟».

قلت: «لا أسمع عنهم سوى أخبار جيدة».

قال السيد ميكوبر: «إنني سعيد للغاية لسماع أنهم بخير. كانت آخر مرة التقينا فيها في كانتربري، في ظل هذا الصرح الديني الذي خلده تشوسر[1]، والذي كان مقصدًا قديمًا للحجاج يأتونه من أقصى بقاع الأرض، وباختصار، كان لقاؤنا قريبًا من الكاتدرائية».

أجبته مؤكدًا قصته. ثم واصل السيد ميكوبر حديثه في نبرة مزهوة وصوت مرتفع بعض الشيء. إلا أنه لم يخلُ من بعض علامات القلق البادية على وجهه. انتبهت إلى أن بعض الأصوات كانت تسري من الغرفة المجاورة، ولكني لم أبين ما أدركته، ربما كانت السيدة ميكوبر

---

(١) شاعر معروف، لُقِّب بأبي الشعر الإنجليزي، كتب قصصًا تُسمَّى «حكايات كانتربري»، انتقد فيها الكنيسة.

تغسل يديها، وتفتح ثم تغلق بسرعة صنبورًا صدئًا يحدث ضوضاء عند حركته.

قال السيد ميكوبر وهو ينظر نحو ترادلز بعين واحدة: «ستجد أننا يا كوبرفيلد نعيش حاليًّا، على ما يمكن تسميته، مقياسًا صغيرًا ومتواضعًا للرسم، لكنك تدرك أنني خلال مسيرتي المهنية تغلبت على صعوبات شتى واجتزت الكثير من العقبات. ولستَ غريبًا لتجهل أنني عانيت في بعض فترات حياتي، وكان من الضروري أن أتحلى فيها بمزيد من الصبر، حتى ظهرت بعض الأحداث المتوقعة. صار من الضروري أن أتراجع وأتريث، قبل أن أُقدم على فعل ما أثق به، والذي أسميه بلا شك ربيع العمر. أما الآن فإنني في إحدى هذه المراحل بالغة الأهمية في حياة أي إنسان. وإنك تجدني الآن متحفزًا للربيع، ولديَّ كل الأسباب لأن أتصور أن قفزة قوية ستثمر عن النتيجة قريبًا».

كنت أُعبِّر عن قبولي لما سمعته، فإذا بالسيدة ميكوبر مُقبلة علينا. لاحت أضعف مما كانت عليه في السابق، أو هكذا بدت لعيني حين أقبلت في هذه اللحظة، إلا أنها كانت ترتدي ملابس رسمية كاملة وزوجًا من القفازات البنية.

قال السيد ميكوبر بينما يصطحبها نحوي: «هنا يا عزيزتي رجل نبيل يُدعى كوبرفيلد، يرغب في تجديد معرفته بكِ».

اتضح أنه كان من الأفضل، لو مهد السيد ميكوبر برفق قبل هذا الإعلان، لأن السيدة ميكوبر كانت في حالة صحية حرجة، ولم تستطعِ التغلب على هول المفاجأة، مما جعل السيد ميكوبر يسرع في خوف

وفزع إلى صنبور الماء في الفناء الخلفي، ليملأ وعاءً من الماء يُلطِّف به جبينها. استردت وعيها من جديد، وقد أبدت فرحًا بالغًا وصادقًا لرؤيتي. دارت بيننا جميعًا أحاديث استمرت لنصف ساعة. سألت السيدة ميكوبر عن التوأم، فقالت إنهما كبرا وصارا «مخلوقين عظيمين»، وبعد ذلك سألتها عن السيد ميكوبر والآنسة شقيقته، فوصفتهما بقولها إنهما صارا «عملاقين ماردين»، لكنها لم تحضرهما في هذه المناسبة.

ألح السيد ميكوبر على بقائي حتى تناول العشاء، ولم أكن كارهًا لهذه الدعوة، لكنني خشيت أن أجلب المتاعب للسيدة ميكوبر، كما أنني أحسست قلقًا في عينها حول مقدار اللحم البارد الذي لن يكفي بعد هذه الدعوة. لذلك طلبت تأجيل هذه الدعوة إلى وقت آخر. لاحظت بعدها أن السيدة ميكوبر قد اطمأنت على الفور، وقاومت كل الإقناع بالتخلي عن رفضي بعد تأكدي من حالتها.

أخبرت ترادلز والسيد ميكوبر وزوجته، قبل أن أفكر في المغادرة، أنني أريد منهم تحديد موعد للمجيء إلى منزلي وتناول الطعام معي. كان انشغال ترادلز بأعماله قد حتَّم علينا تعيين موعد بعيد إلى حد ما، لكن في النهاية حددنا موعدًا يناسبنا جميعًا، ثم استأذنت في الانصراف.

رافقني السيد ميكوبر، بحجة أنه سيرشدني إلى طريق أقرب مما سلكته في مجيئي، فرافقني حتى ناصية الشارع، وانفرد بي وقد أخذ يشرح لي دافعه، وهو أنه يريد أن يبوح ببضع كلمات إلى صديقه القديم، وأن يُسر إليه بحديث.

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزي كوبرفيلد، لست بحاجة إلى أن أخبرك أنني أحظى براحة لا توصف بعد أن صار لدينا تحت سقف بيتنا وفي ظل الظروف الحالية، عقل مثل ذاك الذي يلمع - إذا سُمح لي باستعارة هذا التعبير - والمتمثل في صديقك ترادلز. خاصة أن جيراننا في المسكن المجاور، من أمثال عاملة غسيل تعرض بعض المخبوزات للبيع من نافذة في ردهة المنزل، وضابط من «باو ستريت» يسكن في منزل في نهاية الطريق، إلا أن ترادلز صار مصدرًا للتعزية سواء لي أم للسيدة ميكوبر. إنني في الوقت الحاضر، يا عزيزي كوبرفيلد، منخرط في أعمال تجارة الحبوب والبقول مقابل العمولة. إنها مهنة لا أستسيغ أن أصفها بالمجزية - أو بعبارة أخرى، إنها لا تغني من جوع - وقد نتج عن ذلك إحراجي في بعض المواقف بعد مروري بضائقة مالية. ومع ذلك، يسعدني أن أضيف أنه تلوح أمامي الآن فرصة عاجلة تشي بظهور شيء ما - لا أستطيع أن أصرح بشيء عن مصدرها - إنني أثق في أن هذه الفرصة ستكفل لي بشكل دائم، ما يكفيني ويكفي صديقك ترادلز، الذي أهتم بأمره وأعتني به بمحبة خالصة. وربما تكون مهيأ لسماع أن السيدة ميكوبر في حالة صحية سينجم عنها في نهاية المطاف ما يزيد من روابط المحبة بيننا. إننا سنحصل - باختصار، على طفل جديد. لقد أبدت عائلة السيدة ميكوبر مدى أصالتهم بعد تعبيرهم عن عدم رضاهم عن حالنا. إلا أنني لا أستطيع إلا أن أُعقب بقولي إن هذا الشأن لا يخصهم، وإنني أقابل شعورهم المسيء بالازدراء والتحدي».

ثم صافحني السيد ميكوبر مرة أخرى وانصرف عني.

الفصل الثامن والعشرون

تحديات السيد ميكوبر

انقضى اليوم الذي اجتمعت فيه من جديد بأصدقائي القدامى، وإذا بي أحيا بعده على ذكرى دورا وشرب القهوة. صرت واهنًا، بعد أن ضعفت شهيتي من جراء وقوعي في الحب، إلا أنني كنت سعيدًا بحالتي، لأنني شعرت أنني أخون حبي لدورا لو أقبلت على طعامي كالمعتاد. لم يعد التريض يؤتي نتيجته المرجوة معي، بعد أن صارت خيبة أملي تطغى على ما قد أناله من هواء نقي. ظلت الشكوك تراودني، وكانت ترجع إلى الخبرة السيئة والتجارب الأليمة التي مررت بها في هذه الفترة من حياتي. رحت أتساءل ما إذا كان الاستمتاع بأكل لحوم الحيوانات يمكن أن يستسيغه إنسان يعاني آلام الأحذية الضيقة باستمرار. أحسب أن الأطراف تحتاج إلى نوع من الراحة قبل أن تنصرف المعدة إلى أداء مهامها بإتقان.

دعوتهم إلى حفل عشاء صغير، ولكني لم أكرر هذه المرة تحضيراتي المكثفة السابقة. اكتفيت بأن أقدم زوجًا من السمك، وفخذة صغيرة من لحم الضأن، وفطيرة محشوة بلحم الحمام. أعلنت السيدة كروب تمردها بعد أن ألمحت إليها في خجل إلى أن تطهو السمك وتسوي الفخذة، وأجابتني كما لو أنني قد أصبت كرامتها بسوء، فقالت: «لا، لا يا سيدي. لا تطلب مني أي شيء، لأنك تعرفني أكثر من غيرك، ولأنني غير قادرة على فعل ما لا ترضاه مشاعري»، ولكننا في النهاية، وصلنا إلى حل وسط، فوافقت السيدة كروب على تلبية هذا العمل الفذ، بشرط أن أتناول العشاء في المنزل لمدة أسبوعين كاملين.

أود أن أشير هنا إلى ما تعرضت له من استبداد فرضته السيدة كروب عليَّ، وكم كان أثره مروعًا ومخيفًا. لم يراودني مثل هذا الفزع قَطُّ إزاء أي إنسان آخر. كنا نطرح حلولًا وسطية في كل شيء. أما إذا ترددت في شيء، فسرعان ما تقع فريسة لمرضها العجيب، ذاك المرض الذي يرقد دائمًا في كمين داخل جوفها، وهو على أهبة الاستعداد للاعتداء على أجهزة جسدها الحيوية في أقرب وقت ممكن. كنت إذا ما قرعت الجرس لأكثر من ست مرات، وقد نفد صبري من كثرة محاولاتي الطائلة بلا جدوى، إذا هي تظهر أخيرًا - وهو أمر لا يمكن الاعتماد عليه بأي شكل من الأشكال، فتُقبل إليَّ مستاءة، وتندس في كرسي بالقرب من الباب لاهثة الأنفاس، فتضع يدها على صدرها المتعب، وقد أصابها الإعياء التام. تدفعني حالتها في رضا وفرح مني إلى عرض أي تضحيات من البراندي أو أي شيء آخر للتخلص من مرضها. وإذا

اعترضت على ترتيب سريري في الساعة الخامسة بعد الظهر - ما زلت أتصور أنه ترتيب غير مريح، فإن حركة واحدة بيدها تجاه المنطقة نفسها حيث صدرها المرهف المتألم، كانت كافية لتجعلني لا أتردد في تقديم الاعتذار. باختصار، كنت سأفعل أي شيء في كرم ونبل بدلًا من أن أسيء إليها؛ وبهذا صارت السيدة كروب فزعًا يغزو حياتي.

اشتريت حاملًا للأطباق مُستعملًا لاستخدامه في تقديم العشاء، بدلًا من إعادة استئجار النادل الذي كنت قد جربته قبل ذلك ثم راودتني بعض الشكوك حوله، خاصة بعد أن التقيت به في شارع ستراند، صباح أحد أيام الأحد، مرتديًا قميصًا يشبه قميصي تمامًا، وكنت قد فقدته منذ حفل العشاء السابق الذي عمل به. إلا أنني استأجرت «الفتاة الشابة»، ولكنني اشترطت عليها أن تحضر الأطباق فقط، ثم تنسحب إلى مكان ما خلف الباب الخارجي للانتظار، حتى لا ينزعج الضيوف من نوبة العطس التي تنتابها، وتصير فرصة تعثرها بالأطباق وكسرها أمرًا مستحيلًا.

جهزت المواد اللازمة لإعداد شراب البانش، الذي سيتولى تحضيره السيد ميكوبر. قدمت إليه زجاجة من ماء اللافندر، وشمعدانًا يحمل شمعتين، وورقة تحوي عددًا من الدبابيس المختلفة، ووسادة مدببة للدبابيس ستستعين بها السيدة ميكوبر لإصلاح زينتها وقد وضعتها على المنضدة. أشعلت نيران المدفأة في غرفة نومي حتى تتمتع السيدة ميكوبر بنوع من الدفء والراحة. بسطت المفروشات بيدي، ثم انتظرت ضيوفي في هدوء.

وصل الزوار الثلاثة معًا في الوقت الموعود. كان السيد ميكوبر يرتدي قميصًا ذا ياقة أكبر من المعتاد، وقد استعان بشريط جديد يحفظ نظارته. ظهرت السيدة ميكوبر مصطحبة قبعتها في حقيبة ورقية بيضاء اللون، وقد حملها ترادلز عنها، كما تأبطت السيدة ميكوبر ذراعه. فرح الجميع لرؤية مكان إقامتي. اصطحبت السيدة ميكوبر إلى منضدة الزينة، فرأت ما أعددته لها، ومن ثَم استولت عليها النشوة، حتى إنها نادت على السيد ميكوبر وطلبت منه الحضور لمشاهدة ما أسعدها.

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزي كوبرفيلد، يا له من استقبال فاخر! إن هذه الطريقة في العيش تذكرني بفترة الشباب حين كنت أعزب، ولم يتقدم أحد بعد للزواج من السيدة ميكوبر عند مذبح العهد».

قالت السيدة ميكوبر في مرح: «إنه يقصد أنه لم يكن قد طلبني بعد، يا سيد كوبرفيلد. إنه لا يستطيع أن يتحدث عن الآخرين».

تحدث السيد ميكوبر بنوع من الجدية المفاجئة قائلًا: «يا عزيزتي، إنني لا أرغب في الحديث عن الآخرين. أدرك جيدًا أن الأقدار الخفية قد حفظتكِ لتكوني نصيبًا لي. لقد صرتِ من نصيب إنسان يكافح صراعًا طويل الأمد، ولم يسعه في النهاية سوى الوقوع ضحية للتورط في أزمات مالية معقدة. إنني أفهم ما ترمين إليه يا حبيبتي، وإني آسف عليكِ، ولكني أستطيع التحمل».

صاحت السيدة ميكوبر في بكاء مرير: «آه يا ميكوبر، هل أستحق هذا منك؟! أنا التي لم أتركك قَطُّ، أنا من لن يهجرك أبدًا يا ميكوبر»، قال السيد ميكوبر بعد أن ظهر عليه تأثر بالغ: «آه يا حبيبتي، ستسامحينني،

كما أن صديقنا القديم كوبرفيلد سيسامحني، إنه بوح لحظي من روح رجل جريح، صار حساسًا بسبب الاصطدام الأخير مع ممثل السلطة -أو بعبارة أخرى، مع عامل بغيض يعمل في شركة المياه- وأنكما سوف تشفقان عليه فتتجاوزان عن سيئاته من دون إدانته».

عانق السيد ميكوبر السيدة زوجته ثم شد على يدي، مما جعلني أستنتج من هذا التلميح المنكسر أن المياه قد انقطعت بعد ظهر ذلك اليوم عن بيته، بسبب تخلفه عن سداد ديونه للشركة.

حاولت صرف انتباه السيد ميكوبر عن هذا الموضوع الكئيب، فأبلغته أنني أعتمد عليه في إعداد شراب البانش، ومن ثَم اصطحبته إلى الطاولة وناولته الليمون. انقشع حزنه الأخير، ناهيك عن يأسه الذي لم يستطع أن يستولي عليه سوى لحظة واحدة. لم أرَ في حياتي قَطُّ رجلًا يستمتع برائحة قشر الليمون، والسكر، ورائحة احتراق الروم، وبخار الماء المغلي، كما فعل السيد ميكوبر بعد ظهر ذلك اليوم. كم كان رائعًا أن نرى وجهه يطل علينا لامعًا من بين سحابة من هذه الأدخنة الرقيقة، بينما يحرك المزيج ويخلطه ويتذوقه، فبدا كأنه لا يجهز شراب البانش، بل يعد ثروة طائلة لعائلته ستصل وتورث إلى الأجيال القادمة! أما السيدة ميكوبر، فلا أعرف ما إذا كان تأثير القبعة، أو ماء اللافندر، أو الدبابيس، أو الدفء، أو الشمع، قد كان سببًا في خروجها من غرفتي في مثل هذه الهيئة الجميلة المحببة التي أطلت بها علينا. حتى إنني لا أحسب أنني رأيت قُبَّرة أجمل وأزهى من هذه المرأة البديعة.

لم أجرؤ على الاستفسار حول هذا الأمر قَطُّ، لكنني أظن أن السيدة كروب قد أصابها إعياء بعد قلي السمك لأننا لم نقوَ على أكله، ومن ثَم انتظرنا الطبق التالي. ظهرت فخذة لحم الضأن وقد لاحت شديدة الحمرة من الداخل، وشاحبة اللون من الخارج، إلى جانب وجود مادة غريبة ذات طبيعة رملية متناثرة عليها، كما لو أنها سقطت في رماد موقد المطبخ في أثناء طهوها. إلا أننا لم نستطع الحكم على هذا الأمر، لأننا لم نتذوق المرق بعد أن أوقعته «الفتاة الشابة» على الدرج، وقد ظل منسدلًا فوقه كما القطار الطويل حتى انزاح إلى الخارج. لم تكن فطيرة الحمام سيئة، لكنها كانت فطيرة مضللة، إذ كانت القشرة تشبه رأسًا مخيبًا للآمال، لا تعريف لها من منظور علماء الآثار، بل مليئة بالكتل والنتوءات، من دون أي شيء محدد تحتها. باختصار، كانت المأدبة فاشلة، وكان حري بي أن أتألم وأحزن لفشلها التام، لولا أنني كنت دائم الحزن واليأس بشأن أمر دورا. لم أستطع أن أتجاوز هذه الحالة إلا بعد فكاهة رائعة أطلقها ضيفي السيد ميكوبر.

قال السيد ميكوبر: «يا صديقي العزيز كوبرفيلد، إن الكثير من الحوادث تقع في منازل العائلات الأكثر تنظيمًا، كما تقع في منازل العائلات التي لا يدفعها تنظيمها إلى أن تصبح محرابًا، أو في منزلة الصفوة. أقول باختصار إن تأثير المرأة، في أعظم أدوارها السامية بكونها زوجة، قد لا يخلو من وقوع ما وقع، ويجب علينا أن نتحمل الأمور. إذا سمحت لي بأخذ حريتي في أن أقول إن عددًا قليلًا من الأصدقاء هم أفضل من الشيطان في طهو الأطعمة، وأحسب أنه مع نوع من تقسيم

العمل، يمكننا إنجاز شيء جيد. اطلب من الشابة تجهيز شبكة للطهو هنا لأني أود أن أصلح لك هذا الحادث الصغير بسهولة».

وجدت شبكة حديدية في المخزن، كانت تستخدم في طهو اللحم المقدد الذي يقدم في الصباح. جئنا بها في غمضة عين، وقسمنا أنفسنا على الفور لتنفيذ فكرة السيد ميكوبر. كان تقسيم العمل الذي أشار إليه كالتالي: قام ترادلز بتقطيع لحم الضأن إلى شرائح، أما السيد ميكوبر -الذي كان بإمكانه فعل كل شيء بإتقان ومهارة- فقد قام بتغطيتهم بالفلفل والخردل والملح والتوابل، ثم وضعتهم أنا على شبكة الحديد، ورحت أقلبهم بشوكة، ورفعتهم عنها تحت إشراف السيد ميكوبر. راحت السيدة ميكوبر تعد طبقًا من فطر عيش الغراب في قدر صغير، واستمرت في تقليبه فوق النار. ما إن تحصلنا على بعض الشرائح المطهوة، حتى أجهزنا عليها، ولم تزل أكمامنا مطوية، مشمرين عن أذرعتنا، ناثرين المزيد من الشرائح لتنضج وتتقد فوق النار، وقد قسمنا انتباهنا بين لحم الضأن المطهو في أطباقنا، وشرائحه الجاهزة للشواء.

وما أطرف هذه الطريقة في الطهو، وما أميزها! رحنا نتحرك بشكل دوري للعناية بالطعام، فنجلس ثم نقفز من مقاعدنا مرات لمتابعة الشرائح الهشَّة التي تخرج من الشبكة الحديدية ناضجة وساخنة. لفتنا متعة بالغة، وفي خضم مثل هذا الضجيج المغري والمذاق الآخذ، التهمنا لحم الضأن عن كامله ولم نُبقِ سوى العظم. عادت شهيتي إلى الطعام بأعجوبة. أشعر بالخجل من تسجيل هذا، لكنني أعتقد حقًّا

أنني نسيت دورا لبعض الوقت. وإني على يقين من أن السيد ميكوبر والسيدة زوجته لم يكن ليسعدا بمحفل كما سعدا، ولو أنهما باعا سريرًا من أثاثهما لتوفير هذه المتعة. كما راح ترادلز يضحك بحرارة، طوال الوقت تقريبًا، وهو يأكل ويعمل. لقد كنا جميعًا يدًا واحدة، وأجرؤ على القول إننا لم نكن لنحقق نجاحًا أكبر مما حققناه.

كنا في أوج متعتنا، وقد شغل كل واحد منا بعمله، وقد عملنا جاهدين على إعداد آخر دفعة من شرائح اللحم لإنضاجها على أكمل وجه حتى تُتوج محفلنا بالنجاح. تنبهت ساعتها إلى وجود شخص غريب في الغرفة، وما إن التفت حتى وقعت عيناي على ليتيمر المحترم، واقفًا أمامي ممسكًا بقبعته في يده.

سألت: «ما الأمر؟».

قال: «أستميحك عذرًا يا سيدي، لقد طلب مني الحضور إليك. هل جاء سيدي إلى هنا؟».

«لا».

«ألم تَرَه يا سيدي؟».

«لا، ألم تأتِ قبله؟».

«كلا، لم أسبقه على الفور يا سيدي».

«هل أخبرك أنك ستجده هنا؟».

«ليس الأمر كذلك بالضبط يا سيدي. لكن أظن أنه سيكون هنا غدًا، ما دام أنه لم يصل اليوم».

«هل سيأتي من أكسفورد؟».

عاد باحترام: «أتوسل إليك يا سيدي، أن تتفضل بالجلوس وتسمح لي بفعل هذا عنك». تناول الشوكة من يدي من دون أن أمنعه، وانحنى على الموقد، كما لو أن كل انتباهه منصب عليه.

لا أشك في أننا لم نكن لنشعر بأي إزعاج، لو أقبل ستيرفورث بنفسه علينا، إلا أننا صرنا في لحظة أكثر وداعة وانزواء أمام خادمه المحترم. حاول السيد ميكوبر أن يدندن بعض الألحان ليُظهر أنه مرتاح تمامًا، إلا أنه استقر على كرسيه، بعد أن أخفى شوكته في معطفه على عجل، فإذا بمقبضها يخرج من حضنه، كما لو أنه قد طعن نفسه. ارتدت السيدة ميكوبر قفازها البني، وانسابت في كسل وخدر لطيف. مضى ترادلز يُمرِّر يديه الملطختين بالدهن عبر خصلات شعره، بعد أن وقف في وضع مستقيم، وأخذ يحدق في ارتباك نحو مفرش المائدة. أما أنا فقد بدوت مثل طفل رضيع على رأس طاولتي. أغامر بالكاد بإلقاء نظرة على تلك الظاهرة المحترمة، التي هبطت علينا من سماء الله الواسعة، فأعادت إلى مسكني سكونه المعهود.

رفع ليتيمر المحترم لحم الضأن من الشبكة الحديدة، وراح يقدمه إلينا في هدوء. تناولنا بعضًا منه، إلا أن استمتاعنا به كان قد ولَّى، فتظاهرنا فقط بتناوله. نحَّى كل منا طبقه بعيدًا، فأزالها ليتيمر بلا ضوضاء، ثم وضع الجبن أمامنا، وأزاحه كذلك بعدما انتهينا منه. نظف المائدة بعد أن كوم كل شيء فوق حامل الأطباق. ناول كل منا كأسًا من النبيذ، ثم نقل حامل الأطباق من تلقاء نفسه، وجره إلى المخزن. أدى

كل هذا بطريقة مثالية، من دون أن يرفع عينيه عن عمله. ومع ذلك، فقد بدت حركة مرفقيه كلما اتجه نحوي، كأنها تعج بالتعبير عن رأيه الثابت بأنني لم أزل صغيرًا للغاية.

«هل يمكنني فعل أي شيء آخر يا سيدي؟».

شكرته وقلت: «لا. ألا تتناول شيئًا من الطعام؟».

«كلا، إنني تحت أمرك يا سيدي».

«هل السيد ستيرفورث قادم من أكسفورد؟».

«أستميحك عذرًا يا سيدي».

كررت: «هل السيد ستيرفورث قادم من أكسفورد؟».

قال: «أتصور أنه يصل إلى هنا غدًا يا سيدي. وقد كنت أظن أنه ربما يكون هنا اليوم يا سيدي. وإنني من أخطأ الظن بلا شك يا سيدي».

قلت: «إذا قدر لك رؤيته أولًا ...».

«إذا سمحت لي يا سيدي، لا أظن أنني سأراه أولًا».

قلت: «في حال حدث ذلك، أرجو أن تبلغه أنني حزين لعدم وجوده اليوم هنا، لأن زميله القديم كان موجودًا».

راح ينحني لي مرة ولترادلز مرة أخرى، بينما يلقي بنظراته إليه قائلًا: «سأفعل يا سيدي».

راح يخطو في هدوء نحو الباب، تحدثت إليه على أمل يائس في أن أقول شيئًا طبيعيًّا – لكني لم أستطع قَطُّ التحدث إلى هذا الرجل بهذه اللهجة – فقلت: «آهٍ، يا ليتيمر».

«نعم يا سيدي المحترم».

«هل بقيت في يارموث لفترة طويلة، منذ أن ذهبت إليها؟».

«لا يا سيدي».

«هل رأيت القارب مكتملًا؟».

«نعم سيدي. لقد بقيت فيها وتأخرت عن قصد حتى أرى القارب مكتملًا».

«أعلم».

رفع عينيه إلى عيني في احترامه المعهود.

قلت: «أحسب أن السيد ستيرفورث لم يرَ القارب بعد، أليس كذلك؟».

«إنني حقًّا لا أستطيع الجزم بهذا يا سيدي. أظن أنه لم يرَه، لكنني في الحقيقة لا أستطيع أن أجزم يا سيدي. أرجو لك ليلة سعيدة يا سيدي».

أبدى احترامه إلى كل الحاضرين بعد أن أتبع كلماته تلك بانحناءة ثم انصرف. يبدو أن ضيوفي راحوا يتنفسون الصعداء بعد رحيله، كما كان ارتياحي عظيمًا للغاية، فإلى جانب ذاك القيد الناشئ عن إحساسي الاستثنائي والدائم بكوني في وضع غير مُواتٍ في وجود هذا الرجل، فقد كان ضميري يزعجني بزجرات متشككة في أمر سيده، ولم أستطع قمع الرهبة الغامضة المزعجة التي تراودني خوفًا من أن يكتشف أمري. لا أستطيع أن أدرك كيف جرت الأمور، وليس عندي في الواقع ما أخفيه، إلا أنني شعرت دائمًا أن هذا الرجل على وشك أن يكتشف أمري.

نبهني السيد ميكوبر، فأبعد عن خاطري هذا التفكير، الذي امتزج ببعض التخوف والقلق من رؤية ستيرفورث نفسه. أطرى السيد ميكوبر على ليتيمر ومنحه العديد من المدائح بعد انصرافه، باعتباره رجلًا محترمًا وخادمًا رائعًا. أود أن أشير إلى أن السيد ميكوبر قد حصل على نصيب وافر من الانحناءة العامة الأخيرة من ليتيمر، وقد تلقاها بتواضع لا حدود له.

قال السيد ميكوبر: «إن البانش يا عزيزي كوبرفيلد مثل هذا الزمان له مد وجزر، لا ينتظر أي إنسان. آه، إنه في الوقت الحاضر بنكهة عالية المذاق. يا حبيبتي، هل تعطيني رأيك فيه؟».

قالت السيدة ميكوبر إن مذاقه ممتاز.

قال السيد ميكوبر: «سأشرب، إذا سمح لي صديقي كوبرفيلد بأخذ تلك الحرية الاجتماعية، في نخب تلك الأيام التي كنت فيها أنا وصديقي كوبرفيلد أصغر سنًّا، ثم شققنا طريقنا في العالم جنبًا إلى جنب. قد أقول، عن نفسي وكوبرفيلد، مستدعيًا الكلمات التي غنيناها معًا من قبل:

إننا نركض حول الحقول

ونقطف جميل الأزهار [١]

نعم، لقد قطفناها في عدة مناسبات على سبيل المجاز».

---

(١) نشيد الوداع من تأليف الشاعر الاسكتلندي روبرت برنز. يرجع تاريخه إلى أواخر القرن الثامن عشر، يؤدى النشيد في مناسبات الفراق ويُعبِّر عن الصداقة والوفاء. ترجم النشيد إلى معظم اللغات، ويمتاز بلحن موحد في جميع أنحاء العالم.

راح السيد ميكوبر يتحدث بنبرة قديمة معهودة في صوته، وبلهجة عصية على الوصف، في جو لطيف وممتع، فقال: «لا أعرف نوع هذه الأزهار، لكن لا يراودني أدنى شك في أنني وكوبرفيلد قد قطفنا كثيرًا منها، ما دام كان ذلك ممكنًا».

احتسى السيد ميكوبر في هذا الوقت كمية من البانش، وكذلك شربنا جميعًا. كان من الواضح أن ترادلز تائه، يتساءل أي وقت مضى جمعني مع السيد ميكوبر لنصير رفاقًا نخوض معارك هذا العالم.

قال السيد ميكوبر بعد أن تنحنح لينقي حلقه، ويدفئه بالبانش ولهيب النيران: «إحِم، هل تريدين كأسًا أخرى يا عزيزتي؟».

قالت السيدة ميكوبر إنها تريد القليل من الشراب، لكننا لم نلتفت لقولها، فصارت الكأس ممتلئة.

قالت السيدة ميكوبر وهي تحتسي البانش: «إننا على انفراد تمام هنا يا سيد كوبرفيلد. وقد صار ترادلز جزءًا من عائلتنا، لهذا فإنني أود أن أطلعكم على مخططات السيد ميكوبر لحياتنا المستقبلية». أخذ صوتها نبرة جادة حين أكملت قائلة: «لقد قلت للسيد ميكوبر أكثر من مرة، إن عمله الحالي قد يكون مناسبًا، لكنه ليس مجزيًا. لا يمكن اعتبار العمولة التي لا تتجاوز شلنين وتسعين سنتًا كافية أو مجزية على مدار أسبوعين، مهما كانت تدابيرنا محدودة».

وافقنا جميعًا على رأيها.

أما السيدة ميكوبر فبدت متفاخرة بنظرتها الثاقبة للأشياء، وإرشادها للسيد ميكوبر إلى خطة مستقيمة، فلولا ما أوتيت من حكمة النساء لانحرف عن الطريق. راحت تقول: «ثم إنني رحت أطرح هذا السؤال على نفسي. إذا كان من الصعب الاعتماد على تجارة الحبوب، فما البديل؟ هل يجب الاعتماد على تجارة الفحم؟ لا على الإطلاق. لقد انتبهنا إلى هذه التجربة، بناءً على اقتراح عائلتي، ثم وجدناها لا تلائم حاجتنا».

كان السيد ميكوبر متكئًا على كرسيه وقد وضع يديه في جيوبه، فنظر إلينا مطرقًا، ثم أومأ برأسه، كما لو أنه يقول إن الأمر قد عرض عليكم بوضوح تام.

قالت السيدة ميكوبر: «إن الحديث عن أعمال التجارة بالحبوب والفحم جدال لا طائل من ورائه يا سيد كوبرفيلد، وإنني بطبيعة الحال أنظر إلى العالم حولي وأتساءل: أي عمل يا سيد كوبرفيلد قد يناسب إنسانًا في موهبة وإمكانات ميكوبر؟ وإني أستبعد عمله في أي مجال يعتمد على العمولة، لأن العمولة ليست ثابتة. إن أفضل عمل يناسب شخصًا يتمتع بمزاج غريب مثل السيد ميكوبر هو العمل الثابت المنتظم، على ما أظن».

عبرت ببعض الغمغمات عن موافقتي على كلامها، وكذلك فعل ترادلز، وأيدنا هذا الاكتشاف العظيم، وكان صحيحًا بلا شك، ينطبق على السيد ميكوبر بأدلة كثيرة واضحة وجلية.

استطردت السيدة ميكوبر قولها: «لن أخفي عنك يا عزيزي السيد كوبرفيلد أنني صرت أشعر منذ فترة طويلة أن أعمال تعتيق الخمر تتلاءم

بشكل خاص مع السيد ميكوبر. انظروا إلى مصانع باركلي وبيركنز، انظر إلى ترومان وهانبري وبوكستون، وعلى هذا الأساس والخبرة الواسعة، فإنه حري بالسيد ميكوبر أن يتألق ويتفوق بما علمته عنه، وقد قيل لي إن أرباح هذا المجال طائلة، أما إذا لم يستطع السيد ميكوبر الالتحاق بهذه المصانع -التي رفضت الرد على رسائله، بعدما قدم إليها خدماته ولو في عمل هين صغير- فما فائدة التركيز على هذه الفكرة؟ لا فائدة. قد أكون على قناعة بأن أخلاق السيد ميكوبر...».

قاطعها السيد ميكوبر قائلًا: «إمم، حقًّا يا عزيزتي إن...».

تحدثت السيدة ميكوبر بينما تضع قفازها البني فوق يده، قائلة: «يا حبيبي، فلتسكت. قد أكون على قناعة، يا سيد كوبرفيلد، بأن سلوك السيد ميكوبر يؤهله بشكل خاص للعمل المصرفي. قد أقول في نفسي إنني لو أمتلك وديعة في أي مصرف، فإن سلوك السيد ميكوبر، باعتباره يمثل ذلك المصرف، من شأنه أن يدعم ثقتي بالمكان، ومن ثَم يوسع من مجال التعاملات المالية له. ولكن إذا رفضت المصارف المختلفة الاستفادة من قدرات السيد ميكوبر، أو تلقت طلبه للعمل بها بالرفض المستمر، فما فائدة التركيز على هذه الفكرة؟ لا فائدة. أما فكرة إنشاء مصرف، فإني أعلم أن ثمة أفرادًا من عائلتي يستطيعون إنشاء مؤسسة من هذا النوع، إن هم أرادوا إيداع أموالهم بين يدي السيد ميكوبر. ولكن إذا لم يختاروا إيداع أموالهم بين يدي السيد ميكوبر -وهو ما لن يفعلوه- فما الفائدة من التفكير في ذلك؟ مرة أخرى، أؤكد أننا لم نتقدم أي خطوة أبعد مما كنا عليه من قبل».

أومأت برأسي موافقًا، وقلت: «ولا خطوة». هز ترادلز رأسه أيضًا، وقال: «ولا خطوة».

أردفت السيدة ميكوبر تتحدث بالطريقة نفسها والمنطق نفسه في الحجاج، فقالت: «ما الذي أستنتجه من هذا؟ وما النتيجة الحتمية التي توصلت إليها يا عزيزي السيد كوبرفيلد؟ هل تراني مخطئة لو قلت إنه من الواضح أننا يجب أن نعيش؟».

أجبت: «لا، على الإطلاق»، وأجاب ترادلز: «لا، على الإطلاق». ووجدت نفسي بعد ذلك أضيف، وحدي، في لهجة من الحكمة قائلًا إن الإنسان يجب أن يعيش أو يموت.

أجابت السيدة ميكوبر: «بالضبط. والحقيقة يا عزيزي السيد كوبرفيلد، أننا لا نستطيع أن نعيش من دون أن يظهر قريبًا شيء ما، يختلف كلية عن ظروفنا الحالية. إنني الآن على قناعة أنه لا يمكن توقع حدوث أشياء من تلقاء نفسها، وقد أوضحت ذلك إلى السيد ميكوبر عدة مرات في الفترة الأخيرة، يجب علينا المساعدة إلى حد ما وتحريضها على الظهور. قد أكون مخطئة، لكنني توصلت إلى هذا الرأي».

أبديت أنا وترادلز تأييدنا لهذا الكلام بشدة.

قالت السيدة ميكوبر: «جميل جدًا. بماذا أوصي إذن؟ ها هو السيد ميكوبر رجل متعدد المؤهلات، وصاحب مواهب رائعة».

قال السيد ميكوبر: «حقًا يا حبيبتي».

«رحماك يا ربي، اسمح لي يا عزيزي أن أختم حديثي، ها هو السيد

ميكوبر رجل متعدد المؤهلات، وصاحب مواهب رائعة، بل يجدر بي أن أقول إنه عبقري. قد يكون رأيي هذا رأيًا متحيزًا لكوني زوجة».

تذمرتُ وكذلك فعل ترادلز وقلنا: «لا».

راحت السيدة ميكوبر تقول: «وها هو السيد ميكوبر يجلس من دون عمل أو وظيفة مناسبة. على من تقع هذه المسؤولية؟ إنها تقع بوضوح على المجتمع. ومن ثَم سأعلن حقيقة مشينة للغاية، وأتحدى أن ينكرها المجتمع. يبدو لي يا عزيزي السيد كوبرفيلد أن ما يجب على السيد ميكوبر فعله هو أن يتحدى المجتمع بأسره، فيصيح فيه قائلًا: «أرني من سيحمل هذه الصعاب عني. دع من يجرؤ يتقدم على الفور»».

تجرأت هنا لأسأل السيدة ميكوبر عن كيفية القيام بذلك.

قالت السيدة ميكوبر: «من خلال الإعلان في جميع الصحف. يبدو لي أن ما يتعين على السيد ميكوبر القيام به، حتى ينصف نفسه، وينصف عائلته، وسأذهب إلى القول بل لينصف المجتمع، والذي تغاضى عنه حتى الآن؛ هو أن ينشر إعلانًا في جميع الصحف، فيُعرف الناس بنفسه بوضوح، ويُعدد مؤهلاته التي هي كذا وكذا، ويقول فيه: «وظفني الآن، بأجر مجزٍ، ويذكر عنوانه إلى واو. إم، بمكتب بريد كامدن تاون»».

قال السيد ميكوبر، بعد أن جعل ياقة قميصه مسددة أمام ذقنه، وقد أخذ يرمقني بنظراته: «إن فكرة السيدة ميكوبر يا عزيزي كوبرفيلد، هي القفزة نفسها التي أشرت لك إليها، عندما أتيح لي أن أراك آخر مرة، في لقاء أسعدني».

أشرت متشككًا إلى أن «الإعلانات باهظة التكلفة إلى حد ما».

أجابتني السيدة ميكوبر، مع حفاظها على حالتها المنطقية، قائلة: «بالضبط، هذا صحيح تمامًا يا عزيزي السيد كوبرفيلد، لقد قلت الملاحظة نفسها للسيد ميكوبر. ولهذا السبب على وجه الخصوص، أظن أنه يجب على السيد ميكوبر -كما سبق أن قلت، إحقاقًا للحق، وإنصافًا لأسرته، وإنصافًا للمجتمع- أن يجمع مبلغًا معينًا من المال، عن طريق التمويل المالي».

كان السيد ميكوبر متكئًا على كرسيه، عابثًا بنظارته، وقد رفع عينيه محملقًا إلى السقف، لكنني أظن أنه كان يراقب ترادلز أيضًا، الذي كان ينظر بدوره نحو نيران المدفأة.

قالت السيدة ميكوبر: «إذا لم يُبدِ أي فرد من عائلتي شعورًا طبيعيًّا للتفاوض على هذا التمويل، فإني أتصور أن ثمة طريقة أفضل. أقصد للتعبير عما أعنيه...».

قال السيد ميكوبر، بينما لم تزل عيناه مرفوعتين إلى السقف: «الاقتراض بفائدة».

قالت السيدة ميكوبر: «وللحصول على اقتراض كهذا، فإن رأيي هو أن يتوجه السيد ميكوبر إلى المدينة، وأن يأخذ الأوراق المطلوبة لهذا القرض إلى سوق المالية، ويقدمها ضمانًا مقابل ما يمكنه الحصول عليه من مال. وهذا ما سيفعله أعضاء السوق المالي للسيد ميكوبر بعد أن يتفهموا تضحيته الكبيرة، وهذا أمر متروك لضمائرهم. إنني

أرى الأمر مثل الاستثمار، وإني أوصي السيد ميكوبر أن يرى الأمر من الزاوية نفسها يا عزيزي السيد كوبرفيلد، ليعتبره استثمارًا مؤكد العائد، وليحسم أمره بقبول أي تضحية».

شعرت، من دون أن أدري سببًا لهذا الشعور، أن الأمر كان إنكارًا للذات وخدمة غالية من السيدة ميكوبر، وقد أطلقت همهمة تؤدي هذا المعنى. أما ترادلز، فقد قلَّد همهمتي، وفعل الشيء نفسه، من دون أن يبعد عينيه عن نيران المدفأة.

أنهت السيدة ميكوبر شراب البانش، ولملمت وشاحها حول كتفيها، استعدادًا لانسحابها إلى غرفة نومي، وراحت تقول: «لا أريد أن أطيل الحديث بهذه الملاحظات عن الموقف المالي للسيد ميكوبر. ها أنا بجانب المدفأة يا عزيزي السيد كوبرفيلد، وفي حضور السيد ترادلز، الذي صار واحدًا منا تمامًا، على الرغم من أنه ليس صديقًا قديمًا، فإني لم أستطع أن أخفي عنك الدرب الذي أنصح السيد ميكوبر باتخاذه. أشعر أن الوقت قد حان لكي يبذل السيد ميكوبر نفسه، بل أضيف قائلة إن عليه أن يثبت نفسه، ويبدو لي أن هذه هي الوسيلة الممكنة له. أدرك أنني مجرد أنثى وأن حكم الرجال يعتبر عادة الأكفأ لمناقشة مثل هذه الإشكاليات، لكني لم أنسَ أنني عندما عشت في المنزل مع أبي وأمي، كان والدي معتادًا على أن يقول: «إن هيئة «إيما» هشة، لكن إدراكها للأمور يفوق كثيرين». أعلم جيدًا أن أبي كان منحازًا لي للغاية، ولكن من واجبي وإنصافي ألا أشك في قدرته على استنباط طباع البشر إلى حد ما».

أنهت السيدة ميكوبر حديثها، وقد رفضت كل توسلاتنا لها بالبقاء لمشاركتنا ما تبقى من شراب البانش في حضورها، ومن ثَم توجهت إلى غرفة نومي. شعرت أنها امرأة نبيلة حقًّا. إنها نوع من النساء يشبه أن تكون سيدة رومانية، قد أوتيت كل دروب البطولة في زمن المعارك والخطوب الجليلة.

تشبعت بهذا الانطباع، فرحت أهنئ السيد ميكوبر على حيازته لهذا الكنز الثمين، وكذلك فعل ترادلز. مد السيد ميكوبر يده إلى كل واحد منا على التوالي، ثم غطى وجهه بمنديل جيبه، الذي أحسب أنه حاز سعوطًا يفوق ما يتوقعه ويحتاج إليه. ثم عاد إلى احتساء البانش، في حالة فائقة من الابتهاج.

كان حديثه مفعمًا بالبلاغة. راح يشرح لنا كيف أن الآباء يعيشون في أطفالهم مرة أخرى، وأنه على الرغم من ضغط الصعوبات المالية، فإنه يرحب بانضمام أي مولود جديد إلى أبنائه. قال إن السيدة ميكوبر كانت تساورها الشكوك بشأن هذه النقطة في الآونة الأخيرة، لكنه بدَّد مخاوفها وطمأنها. أما عائلتها، فلم يكونوا جديرين بها تمامًا، وقال إن مشاعرهم لا تشغل باله على الإطلاق، ولهم أن يذهبوا - وأقتبس هنا تعبيره - إلى الشيطان.

راح السيد ميكوبر يمدح ترادلز مدحًا صادقًا مخلصًا. قال إن ترادلز ذا شخصية مميزة، وأنه لا يستطيع أن يعدد فضائله الراسخة، لكنه يكن إعجابًا وتقديرًا له. ثم ألمح في حديثه إلى الآنسة الشابة المجهولة، التي يغمرها ترادلز بعاطفته ومحبته، فبادلت ترادلز بالمثل من مودة وتكريم،

وشملته بعاطفتها المحبة. شرب السيد ميكوبر نخبها، وكذلك فعلت، فشكرنا ترادلز، وراح يقول في بساطة وصدق، قد أثَّرا على الشعور، فصرت مفتونًا تمامًا بحديثه: «إنني شاكر وممتن للغاية لكما حقًّا. وإني أؤكد لكما أنها أعز فتاة».

انتهز السيد ميكوبر الفرصة في أولها، وأخذ يلمح بعد ذلك، إلى حالتي العاطفية بأقصى درجات الكياسة والاحتفاء. وقال إنه ما من شيء يمحو عنه فكرة أن صديقه كوبرفيلد محب ومحبوب الآن سوى النفي الجاد والمباشر من صديقه نفسه. انتابتني موجة من الحر الشديد وشعرت بالاضطراب لبعض الوقت، وقدر كبير من التلعثم والحرج وقد احمر وجهي خجلًا، إلا أنني قلت بينما أحمل كأسي بين يدي: «حسنًا، فلنشرب نخب «د.»»، صار السيد ميكوبر متحمسًا وممتنًّا للغاية، إلى الحد الذي جعله يركض إلى غرفة نومي، حاملًا كأسًا من البانش حتى تشرب السيدة ميكوبر نخب «د.» وقد شربته هي الأخرى بحماس، بينما صاحت من داخل الغرفة، بصوت حاد قائلة: «مرحى، مرحى، كم أسعدتني يا عزيزي السيد كوبرفيلد، مرحى»، ثم ربتت على الحائط بكفها بنوع من التصفيق.

أخذ حديثنا بعد ذلك منحى أكثر دنيوية. إذ أخبرنا السيد ميكوبر أنه وجد أن العيش في كامدن تاون أمر شاق، وأن أول شيء فكر في القيام به، هو الانتقال منها حتى يستطيع تحقيق أي شيء يرضيه. وذكر لنا مكانًا في الطرف الغربي من شارع أكسفورد، مقابل حديقة هايد بارك، وقال إنه كان يراقب هذا المكان دائمًا، لكنه لا يتوقع أن يحصل

على هذا المكان على الفور، حيث يحتاج إلى أثاث كثير. وأوضح أنه من المحتمل أن تمر فترة طويلة فاصلة، عليه فيها أن يتأقلم فيها مع جزء علوي يسكنه في أي منزل، ويكون مطلًّا على مكان عمل محترم؛ ولنقل في بيكاديللي، وسيكون موقعًا مرضيًا للسيدة ميكوبر. يستطيعان معًا تصميم نافذة بيضاوية، أو تشييد دور آخر فوق سطحه، أو إجراء بعض التعديلات البسيطة من هذا القبيل، وقد يعيشان فيه منعمين براحة وسمعة طيبة لبضع سنوات. قال في نبرة متأثرة إنه أينما كان مقامه أو مخبأه، فلنثق أنه سيحوي دائمًا غرفة لترادلز، وسكينًا وشوكة لي. شكرناه على لطفه. وتوسل إلينا أن نسامحه على خوضه في هذه التفاصيل العملية الشبيهة بالأشغال، وأن نعذره لأنها طبيعية، ناجمة عن إنسان يقوم بترتيبات جديدة تمامًا ستشمل حياته.

نقرت السيدة ميكوبر على الحائط مرة أخرى لمعرفة ما إذا كان الشاي جاهزًا أم لا، فكسر هذا المرحلة الحميمة من محادثتنا الودية. أعدت لنا الشاي وقد افتخرت بإعداده أيما افتخار. كنت اقتربت منها لمساعدتها في تسليم أكواب الشاي أو الخبز والزبدة، فإذا بها تهمس إليَّ مستفسرة عما إذا كانت «د.» شقراء أم خمرية، أو ما إذا كانت قصيرة أم طويلة، أو أي شيء من هذه النوعية من الأسئلة، وأحسب أنني أحببتها. شربنا الشاي، ثم خضنا أحاديث متنوعة حول بعض الموضوعات بينما نحن جلوس أمام المدفأة، وتكرمت علينا السيدة ميكوبر فراحت تغني لنا بصوت خافت ورقيق وناعم، وقد تذكرت أنني سمعته عندما عرفت لأول مرة، عن علاقتها بالغناء. شرعت في أغانيها المفضلة، فغنت

«العسكري الأبيض الشجاع»[1] وأغنية «تافلين الصغيرة». اشتهرت السيدة ميكوبر بكلتا الأغنيتين عندما كانت تعيش في منزل والديها. أخبرنا السيد ميكوبر أنه عندما سمعها تغني في المرة الأولى، في أول مناسبة رآها تحت سقف بيت الأبوين، لفتت انتباهه إلى أبعد الحدود. ما إن سمعها تغني «تافلين الصغيرة»، حتى عقد العزم على الفوز بتلك المرأة أو الهلاك دونها.

كانت الساعة بين العاشرة والحادية عشرة عندما نهضت السيدة ميكوبر لتضع قبعتها في لفة الورق البني المائل إلى البياض، وتلبس قبعة أخرى. انتهز السيد ميكوبر فرصة انشغال ترادلز بلبس معطفه الكبير ليضع رسالة في يدي، وقد طلب مني هامسًا أن أقرأها في وقت فراغي. انتهزت الفرصة بدوري وتمكنت من حمل شمعة لأنير لهم درجات السلم، وكان السيد ميكوبر قد نزل أولًا، ليقود السيدة ميكوبر إلى درجات السلم، وتبعهما ترادلز حاملًا قبعتها، فاحتجزت ترادلز للحظة على قمة السلم.

قلت: «يا ترادلز، إن السيد ميكوبر لا يقصد أي ضرر، إنه مسكين، ولكني لو كنت مكانك، فلن أقرضه شيئًا».

أجاب ترادلز مبتسمًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، لا أملك شيئًا لأقرضه».

قلت: «إنك تحظى باسم معروف، كما تعلم».

---

(١) أغنية ورقصة اسكتلندية، اشتهر لحنها في القرن الثامن عشر وأشيعت في أوروبا، وهي من ألحان هنري رولي. يؤدي رقصتها ثلاثة رجال وفي مقابلهم ثلاث نساء، ويتبادلون الحركة.

رد ترادلز بنظرة مفكرة فقال: «آهٍ، هل تسمي هذا شيئًا أستطيع إقراضه؟».

«بالتأكيد».

قال ترادلز: «آهٍ، حقًّا، إنني ممتن لك للغاية يا كوبرفيلد، لكني أخشى أن أكون قد أعرته اسمي بالفعل».

سألت: «هل تقصد المستند الذي سيصير قرضًا واستثمارًا؟».

قال ترادلز: «لا، لا أقصد ذلك، إنها المرة الأولى التي أسمع فيها أمرًا كهذا. لقد كنت أفكر أنه على الأرجح سيطلب مني هذا الاقتراض في الطريق إلى المنزل، وإن لي موقفًا آخر معه».

قلت: «أرجو أن تكون العواقب سليمة».

قال ترادلز: «أرجو ألا يشغلني الأمر لأنه أخبرني في اليوم السابق فقط أنه سوَّى حسابه. كان هذا تعبير السيد ميكوبر «سوَّى حسابه»».

نظر السيد ميكوبر نحونا حين وصلنا إلى هذا المنعطف في الحديث، ولم يتح لي الوقت إلا لتكرار تحذيري لترادلز، فشكرني ثم نزل. انتابني خوف، بعدما لاحظت طريقته الطيبة التي نزل بها السلم حاملًا قبعة السيدة ميكوبر في يده، بعد أن تأبطت هي ذراعه، وأفزعتني فكرة أن تُساق قدماه إلى سوق المال.

عدت إلى المدفأة، ورحت أتأمل شخصية السيد ميكوبر والعلاقات القديمة التي جمعتنا وأنا في حالة بين الجد والضحك، حتى سمعت خطوة سريعة تصعد السلم. ظننت في البداية أن ترادلز رجع من أجل

استعادة شيء نسيته السيدة ميكوبر وراءها، ولكن مع اقتراب الخطوات، عرفت من هو القادم، وشعرت بنبضات قلبي تتصاعد بشدة، وقد تدفق الدم إلى وجهي، لأن القادم كان ستيرفورث.

لم أكن قَطُّ غافلًا عن أجنيس، ولم تترك الملاذ المقدس من أفكاري مطلقًا - إذا جاز لي أن أطلق عليه هذا الوصف - حيث أسكنتها فيه منذ البداية. ما إن دخل ستيرفورث ووقف أمامي وبسط يده إليَّ حتى انقشع الظلام الذي حاوطه واستحال نورًا، فشعرت بحيرة وخجل مما يعتريني من شك في شخص أحببته مخلصًا. إنني أكن لأجنيس أكثر من الحب، فأتصور أن روحها طيفًا ملائكيًّا تحنو بطيبتها على حياتي، لذا عاتبتُ نفسي على ما أصابني، من دون أن ألقي باللوم على أجنيس. وددت لو أكفر عما بدر مني أو أتبين كيف أمحوه.

ضحك ستيرفورث وهو يصافح يدي بحرارها ويطوحها بعيدًا، قائلًا في مرح: «آه يا أقحوانتي، يا صديقي القديم، المدهش، هل ضبطتك في وليمة أخرى، أيها الطائش؟! إن زملاء كلية المدنيين هم أكثر الرجال مرحًا في المدينة، على ما أظن، إلا أنهم جميعًا يحتقرون شباب أكسفورد الرصين بلا سبب». جال بنظراته البراقة في أرجاء الغرفة، ثم جلس على الأريكة المقابلة لي التي غادرها السيد ميكوبر منذ قليل، ثم راح يستنفر اشتعال النيران في المدفأة.

رحبت به بكل الود الذي شعرت به ناحيته، ثم قلت له: «لقد فوجئت بمجيئك في البداية، لذلك تعثرت أنفاسي كثيرًا ولم أستطع أن أحييك يا ستيرفورث».

أجاب ستيرفورث: «حسنًا، إنك راحة للأعين القريحة، كما يقول الاسكتلنديين، وهذا ينطبق على رؤياك يا أقحوانتي، ما دمت في ازدهار كامل. كيف حالك يا عربيد؟».

قلت «إنني بخير، ولم أكن الليلة عربيدًا على الإطلاق، على الرغم من أنني أعترف أنني دعوت ثلاثة أفراد إلى الشراب».

قال ستيرفورث: «لقد التقيت بهم جميعًا في الشارع، وإذا هم يتحدثون بصوت عالٍ مادحين لك. من صديقنا الذي يرتدي الجوارب الطويلة؟».

أعطيته أفضل فكرة في بضع كلمات عن السيد ميكوبر. ضحك بحرارة على انطباعي الضعيف عن هذا الرجل، وقال إنه نوع من الرجال يجب عليه أن يعرفه، بل لا بد أن يعرفه. قلت بدوري: «ولكن من تظنه الصديق الآخر؟».

قال ستيرفورث: «الله أعلم. آمل ألا يكون مملًا، أهو كذلك؟ أحسب أنه يبدو مملًّا بعض الشيء».

أجبته منتصرًا: «إنه ترادلز».

سأل ستيرفورث بطريقته المتهورة: «من يكون؟».

«ألا تتذكر ترادلز؟ ألا تعرف ترادلز رفيق غرفتنا في مدرسة سالم هاوس؟».

قال ستيرفورث وهو يضرب بالعصا قطعة من الفحم فوق النيران: «آهٍ، ألم يزل رقيقًا كعادته؟ وأين التقيت بهذا اللعين؟».

أجبته ممتدحًا ترادلز بكل ما أوتيت من كلام، لأنني أحسست باحتقار ستيرفورث له إلى حد ما. أبدى ستيرفورث تجاهلًا لأمر ترادلز بعد إيماءة خفيفة وابتسامة واهنة، وقال إنه سيسعد برؤية الرجل العجوز أيضًا، لأنه بدا شخصًا غريب الأطوار. سألني عما إذا كان بإمكاني تقديم أي شيء ليأكله أم لا. لاحظت أنه لم يكن يتحدث بطريقة مفعمة بالحيوية، خلال معظم هذا الحوار القصير الذي دار بيننا، بل جلس في فتور يضرب قطعة فحم فوق النار بالعصا. لاحظت أنه استمر في فعل الشيء نفسه بينما كنت أخرج بقايا فطيرة الحمام، وهكذا دواليك.

صاح مقتلعًا صمته بانفجار وصخب بعد أن اتخذ مقعده إلى الطاولة، فقال: «آه يا أقحوانتي، هذا عشاء ملوك، سأوفيك حقك عادلًا، لأنني أتيت من يارموث للتوِّ».

سألته: «ألم تأتِ من أكسفورد؟ كنت أحسب ذلك».

قال ستيرفورث: «ليس أنا. لقد كنت أبحر مسافرًا، هذا هو الأفضل».

قلت له: «لقد جاء ليتيمر إلى هنا اليوم ليسأل عنك، ففهمت منه أنك كنت في أكسفورد، على الرغم من أنني أفكر في الأمر الآن، لأنه لم يقل ذلك مطلقًا».

قال ستيرفورث، وهو يسكب كأسًا من النبيذ بمرح، ويشرب نخبًا لي: «إن ليتيمر أغبى مما كنت أحسبه، لأنه لا يسألني على الإطلاق. أما

القدرة على فهمه، فإنك ستكون أكثر ذكاءً من معظمنا يا أقحوانتي، إذا استطعت ذلك».

تحدثتُ وأنا أحرك مقعدي نحو الطاولة، قائلًا: «هذا صحيح بالفعل. إذن لقد كنت في يارموث يا ستيرفورث»، كنت مهتمًّا بمعرفة كل شيء عنها، فسألته: «هل مكثت هناك لفترة طويلة؟».

أجابني: «لا، كنت في جولة لمدة أسبوع أو نحو ذلك».

«وكيف حالهم جميعًا؟ بالطبع، لم تتزوج إيميلي الصغيرة حتى الآن، أليس كذلك؟».

«لم تتزوج بعد، إلا أنني أظن أن زواجها سيكون في غضون عدة أسابيع، أو قرابة أشهر، أو شيء من هذا القبيل. بالمناسبة لم أرَ الكثير منهم...»، وهنا وضع سكينه وشوكته جانبًا وقد كان يستخدمهما بسرعة بالغة، وأخذ يتحسس جيوبه، وأكمل: «عندي رسالة لك».

«مِمَّن؟».

أخرج بعض الأوراق من جيب صدريته، ثم قال: «من مربيتك العجوز». راح يقرأ العناوين: «إلى ج. ستيرفورث، المحترم، المدين لفندق العقل الراغب؛ ليس هذا. اصبر وسنجده الآن. ما اسم هذا الرجل العجوز؟ لقد نسيته، إنه في حالة سيئة، والأمر يتعلق به على ما أظن».

«أتقصد باركس؟».

أجابني ولم يزل يتحسس جيوبه، وينظر في محتوياتها: «نعم، أخشى أن المرض قد تملك باركس المسكين. رأيت صيدلانيًّا صغيرًا

هناك، ربما جراحًا، أو أيًا كان عمله الطبي، وإن كان قد أوحى بهذا العلم إلى العالم. لقد أفهمني الكثير حول حالته، لكن في النهاية فإن خبرته تقول إن الحوذي يلفظ أنفاسه الأخيرة بسرعة إلى حد ما. ضع يدك في جيب معطفي الكبير الملقى فوق المقعد هناك، وأظن أنك ستجد الرسالة. هل وجدتها هناك؟».

قلت: «ها هي».

«حسنًا».

كانت الرسالة من بيجوتي، وبدت أقل سوءًا من المعتاد، كما كانت مختصرة. لقد أبلغتني عن حالة زوجها الميؤوس منها، وألمحت إلى أنه صار الآن «أسوأ كثيرًا» مما كان عليه، وبالتالي فإنها تجد صعوبة بالغة في خدمته وتمريضه. لم تقل شيئًا عن تعبها ومشقتها، لكنها أثنت عليه بشدة. لقد كتبت الرسالة بروح بسيطة، غير متكلفة، ودودة، صادقة كما عهدتها على الحقيقة، وانتهت بقولها «تحياتي لحبيبي دائمًا» وكانت تقصدني أنا.

كنت أفك شفرات كلماتها، بينما استمر ستيرفورث في تناول الطعام والشراب.

تحدث بعدما انتهيت من القراءة قائلًا: «يا له من أمر مؤلم! إلا أن الشمس تغرب كل يوم، ويموت الناس كل دقيقة، فلا يجب أن نخاف من المصير المحتوم المشترك. إذا فشلنا في تثبيت أقدامنا، فلأن هذه القدم المتسللة إلى جميع الأبواب، وقد سمعنا وقع خطاها في مكان

ما، سوف تنزلق كما هي الحال مع كل شيء في هذا العالم. كلا، القافلة تسير، تجلَّد إذا لزم الأمر، أو لتلِن إذا كان ذلك سيفي بالغرض، المهم استمر، تجاوز جميع العقبات، وفز بالسباق».

قلت: «أي سباق أفوز به؟».

قال: «السباق الذي بدأ فيه الإنسان، سباق القافلة».

أذكر أنني لاحظته في أثناء سكوته، وقد راح ينظر إليَّ مطرقًا رأسه الوسيم قليلًا إلى الخلف، وكأسه مرفوعة في يده. لم أشعر أنه فتنني على الرغم من نضارة وجهه التي تبدو مثل نسيم البحر، والحمرة التي اعتلته من تأثير الشراب. لاحت عليه سمات جديدة لم أشهدها منذ أن رأيته آخر مرة، كما لو كان قد بذل نفسه مسرفًا أمام بعض الملذات التي استيقظت بداخله وتملكته تمامًا. رحت أفكر في أن أبدي اعتراضي على طريقته اليائسة بالسعي وراء أي هاجس يجتاحه، كما لو أنه يخوض عواصف البحار الهائجة، ويتحدى الطقس القاسي، على سبيل المثال لا الحصر. إلا أن ذهني كان منشغلًا بموضوع محادثتنا، فعدت إليه مرة أخرى، وتابعته بدلًا من الاعتراض.

قلت: «اسمع يا ستيرفورث، إذا كانت روحك ومعنوياتك المرتفعة ستصغي إليَّ...».

أجاب منتقلًا من الطاولة إلى المدفأة مرة أخرى: «إنهم أرواح قوية، وسيفعلون ما يحلو لهم».

قلت: «اسمعني يا ستيرفورث، أظن أنني سأذهب لأزور مربيتي

العجوز. لا أقصد أنني أستطيع أن أقدم لها معروفًا، أو أنني سأسدي خدمة حقيقية لها، لكنني زيارتي سيكون لها تأثيرًا بالغًا عليها، بل ستصير زيارتي كما لو أنني فعلت الأمرين. ستتلقى زيارتي بلطف فتجد الراحة والدعم. إنني متأكد من أن زيارتي هي أقل ما يمكن بذله من أجل صديقة مثلها. لو أنك مكاني؛ ألن تذهب في رحلة ليوم واحد إليها؟».

بدت على وجهه سمات تفكير عميق، وقد جلس متأملًا قليلًا قبل أن يجيب بصوت منخفض قائلًا: «حسنًا، اذهب. ليس في ذهابك ضرر».

قلت: «لقد عدت للتوِّ من هناك، وسيكون من العبث أن أطلب منك أن تأتي معي».

أجاب: «بالضبط. سأذهب إلى هاي جيت الليلة. لم أرَ أمي منذ وقت طويل، وقد وخزني ضميري، لأنها تستحق أن يبادلها ابنها الضال هذا الحب. آه، هراء».

أمسك بي على بُعد ذراع منه، وقد وضع يديه على كتفي، ثم سألني: «هل تنوي الذهاب غدًا، على ما أظن؟».

«نعم، أتصور ذلك».

«حسنًا، إذن لا تذهب إلا بعد غد. أردتك أن تأتي وتبقى معنا لبضعة أيام. إنني جئت إلى هنا لأجل هذا، فإذا بك تريد أن تطير إلى يارموث».

«يا لك من إنسان عجيب حين تتحدث عن الطيران يا ستيرفورث! إنك دائم الركض في رحلات استكشافية غير معروفة أو مجهولة».

نظر إليَّ لحظة من دون أن يتكلم، ثم استأنف حديثه إليَّ مرة أخرى، بينما لم يزل ممسكًا بي كما كان من قبل، وقد راح يهزني قائلًا:

«هيا، قل لي إنك ستذهب بعد غد، واقضِ أطول قدر ممكن من الغد معنا، من يعرف متى سنلتقي مرة أخرى؟! هيا، قل لي إنه بعد غد، أريدك أن تقف بيني وبين روزا دارتل، وأن تباعد بيننا».

«هل سيحب أحدكما الآخر، من دوني؟».

ضحك ستيرفورث قائلًا: «نعم، أو ربما سنكره بعضنا، بغض النظر عن أيهما، هيا، قل لي إنه بعد الغد».

قلت بعد الغد، فلبس معطفه الكبير وأشعل سيجاره وهم بالانصراف إلى المنزل. ما إن وجدته قد عقد النية على المغادرة، حتى ارتديت معطفي الكبير - لكنني لم أشعل سيجارتي، بعد أن سئمت من التدخين لفترة طويلة - وسرت معه حتى الطريق العام. كان الطريق موحشًا في تلك الليلة، وكان ستيرفورث في حالة معنوية عظيمة طوال الطريق. افترقنا، فتتبعته بعيني أراقبه ذاهبًا بشجاعة وانتعاش إلى المنزل، فكرت في قوله: «تجاوز جميع العقبات، وفز بالسباق». وتمنيت، لأول مرة، أن يحظى بسباق طيب يهرع فيه إلى النهاية.

كنت أخلع ملابسي في غرفتي، حين سقطت رسالة السيد ميكوبر على الأرض. تذكرتها، فكسرت الختم وقرأت ما يلي. كان مؤرخًا بساعة ونصف قبل العشاء. لست متأكدًا مما إذا كنت قد ذكرت أن السيد ميكوبر يستخدم بعضًا من المصطلحات القانونية حين يمر بأزمة عارمة بشكل خاص، لأنه يظن أنها وافية لإيضاح شؤونه.

«سيدي... لأنني لا أجرؤ على قول عزيزي كوبرفيلد،

حري بي أن أبلغكم أن الموقع أدناه رجل منسحق. قد تلاحظ هذا اليوم بعض محاولاته الخافتة لتجنب معرفتك المبكرة لوضعه المأساوي، إلا أن أمله قد غام في الأفق، فصار الموقع أدناه منسحقًا.

هذه المعلومات الواردة قد صيغت ضمن نطاق شخصي (لا يمكنني تسميته بالمجتمعي) في حالة أقرب إلى السكر، من عامل يخدم سمسارًا. وهذا السمسار لديه حيازة قانونية لبنايات مؤجرة. تتضمن هذه الحيازة كل ما حجز عليه، ليس فقط المنقولات الخاصة بالموقع أدناه، بصفته المستأجر السنوي لهذا السكن، ولكن تشمل المحجوزات أيضًا الممتلكات المتعلقة بالسيد توماس ترادلز، المستأجر من الباطن، وعضو الجمعية الموقرة لرجال القانون.

إن لم تزل ثمة قطرة من كآبة، فستنسكب في كوب فاض بالهموم، وقد صار الآن وصفها «بلاغة» - بلغة كاتب خالد - على شفتي صاحب هذه الكلمات الموقع أدناه، فإنها دين مستحق من الموقع أدناه إلى السيد توماس ترادلز سالف الذكر، بمبلغ قيمته ثلاثة وعشرون جنيهًا وأربعة شلنات وتسعة بنسات ونصف، وقد تجاوز موعد استحقاقه، ولم يتوفر المال ليسدد. بالإضافة إلى حقيقة ازدياد المسؤوليات المعيشية المتراكمة المتعلقة بعائلة الموقع أدناه، بحكم الطبيعة، مما يدفع بوجود ضحية أخرى عاجزة، ينتظر ظهورها البائس بعد انتهاء فترة لا تتجاوز مدتها ستة أشهر قمرية من التاريخ الحالي.

بعد سرد هذه الحيثيات المتعددة على هذا النحو، فإن خلاصة القول أن نضيف أن الغبار والرماد متناثران إلى الأبد

فوق

رأس

وليم ميكوبر».

يا لترادلز المسكين! لقد عرفت ما يكفي عن السيد ميكوبر حتى الآن، لأتوقع أنه سيتعافى من هذه الصدمة. لكن أرَّقني التفكير في حالة ترادلز المسكين، وابنة القسيس التي كانت واحدة من بين عشرة أبناء في ديفونشاير، وهي الفتاة العزيزة التي كانت ستنتظر ترادلز -يا للمديح المشؤوم!- حتى عمر الستين، أو أي عمر يذكر.



الفصل التاسع والعشرون

أزور ستيرفورث مرة أخرى في منزله

قلت للسيد سبنلو في الصباح أنني أرغب في الحصول على إجازة قصيرة. لم أكن أتحصل على راتب، وبالتالي لم أكن مكروهًا عند جوركنز العنيد، ولم أجد صعوبة في الحصول عليها. انتهزت هذه الفرصة، ورحت أقول بصوت متحشرج في حلقي، وقد زاغ بصري حين حاولت أن أتلفظ بهذه الكلمات، فسألته عما إذا كانت الآنسة سبنلو بخير. أجابني السيد سبنلو، من دون أي اكتراث كما لو أنه يتحدث عن إنسان عادي، وشكرني على سؤالي، وقال إنها على ما يرام.

كان الكتبة أمثالي يعاملون كما لو أنهم براعم في حيز النمو للالتحاق بالطبقة الأرستقراطية، فيُسدى إليهم قدر كبير من الاحترام، حتى إنني كنت تقريبًا سيد نفسي في جميع الأوقات. لم أهتم في جميع الأحوال بالوصول إلى هايجيت قبل الساعة الواحدة أو الثانية من ظهر اليوم، كما كنا ننتظر في المحكمة في ذلك الصباح قضية حرمان كنسي صغيرة، وكانت تسمى «قضية تيبكنز ضد بولوك لتصحيح مساره الروحي».

قضيت ساعة أو ساعتين حاضرًا مع السيد سبنلو من دون أي تذمر مني. كانت القضية بسبب شجار نشأ بين اثنين من خُدَّام الكنيسة، زُعم أن أحدهما دفع الآخر نحو مضخة مما جعله يصطدم بمقبض المضخة المتصل بمبنى مدرسة، وكان مبنى المدرسة يقع تحت سقف الكنيسة، فاعتبر هذا الدفع إهانة للكنيسة. كانت قضية مسلية، دفعتني إلى الذهاب إلى هايجيت مستقلًّا المركبة العامة، مفكرًا في مجلس العموم، وما قاله السيد سبنلو عن المساس بأعضائه وإسقاط البلاد.

كانت السيدة ستيرفورث سعيدة برؤيتي وكذلك سعدت روزا دارتل. أدهشتني المفاجأة حين علمت بعدم وجود ليتيمر هناك، وأن خادمة صالون صغيرة متواضعة صارت في خدمتنا بدلًا منه. كانت قبعتها ذات شرائط زرقاء، كما كانت عينها ألطف من عين ذلك الرجل المحترم، وأقل إزعاجًا حين تقع النظرات عليها بالصدفة. أما الشيء الذي لاحظته بشكل خاص، قبل أن تنقضي نصف ساعة على وجودي في المنزل، هو التركيز البالغ واليقظة التي راقبتني بها الآنسة دارتل، والطريقة المتربصة التي بدت عليها، حتى بدت لي كما لو أنها تقارن بين وجهي ووجه ستيرفورث. راحت تنتظر ظهور شيء ما مشترك بين الوجهين. كنت أنظر إليها، بينما تبدي هي يقينًا في مراقبتها، فإذا بي أبصر ذلك المحيا الشغوف، ذا الأعين السوداء الهزيلة والجبين المتعجب، عازمًا على التفرس في وجهي، أو الانتقال فجأة مني إلى ستيرفورث، أو التمحيص في كلينا في وقت واحد. ظلت على هذه الحال الأشبه بترقب النمس، إلى أن أدركت أنني ألاحظها، فإذا بها تثبت

نظرتها الثاقبة نحوي في تعبير أكثر إلحاحًا. لم يكن لي ذنب في شيء، بل إنني على يقين من أمري، ولم أشارك في ارتكاب أي خطأ يمكن أن تشك في اقترافه، لكنني تقلصت أمام عينيها الغريبتين، وقد صرت عاجزًا تمامًا على تحمل بريق عينيها الجائع.

ظلت طوال اليوم، تتجول في أرجاء المنزل بأكمله. سمعت حفيف لباسها في المعرض الصغير بالخارج حين كنت أتحدث إلى ستيرفورث في غرفته، وعندما أدينا بعض تمريناتنا القديمة فوق العشب خلف المنزل، إذا بي ألمح وجهها يعبر أمامي من نافذة إلى أخرى، مثل ضوء متجول، يحاول أن يثبت نفسه في أحد المنافذ ليراقبنا. خرجنا جميعًا بعد ذلك للسير بعد الظهيرة، فإذا بها تحكم يديها الرقيقتين على ذراعي مثل الزنبرك، فتبقيني بعيدًا، إلى أن يبتعد ستيرفورث وأمه عن دائرة السمع، ومن ثَم تعاود حديثها معي.

قالت: «لقد مر وقت طويل من دون أن تأتي إلى هنا. هل مهنتك جذابة ومثيرة للاهتمام حقًّا بحيث تستحوذ على انتباهك بالكامل؟ أسأل لأنني أريد دائمًا أن أكون على علم بالأمور، بدلًا من أن أكون جاهلة. هل الأمر كذلك حقًّا؟».

أجبتها بأنني أحببت عملي بما فيه الكفاية، لكنني بالتأكيد لا أستطيع منحه نفسي بالكامل.

قالت روزا دارتل: «آهٍ، يسعدني معرفة ذلك، لأنني أحب دائمًا أن أكون على علم بالصواب عندما أكون مخطئة. هل تقصد أن مهنتك جافة قليلًا، ربما؟».

أجبتها: «حسنًا. ربما كانت جافة إلى حد ما».

قالت: «آهٍ، وهل هذا هو سبب رغبتك في الراحة والتغيير، والبحث عن الإثارة وما إلى ذلك؟ آه، صحيح جدًّا، لكن أليس قليلًا... إيه؟ بالنسبة إليه؛ أنا لا أقصدك».

لاحظت نظرة خاطفة من عينيها نحو المكان الذي يسير فيه ستيرفورث مع والدته مستندة إلى ذراعه، فاتضح لي مقصدها، ولكني بعد ذلك، عدت جاهلًا تمامًا ولم أفهمها. وتجلت حيرتي بلا شك على تعبيرات وجهي.

راحت تقول: «أليس كذلك...؟ أنا لا أقول إنه كذلك، بل أريد أن أعرف... أليس بالأحرى أن تستحوذ عليه هو؟ ألا يجعله ذلك، ربما، أكثر إهمالًا من المعتاد في زياراته إلى شغفه الأعمى... إيه؟». راحت تلقي نظرة سريعة أخرى نحوهم، ثم نظرة خاطفة نحوي حتى بدت كما لو أنها تريد أن تنظر في أعماق أفكاري.

قلت: «أرجوكِ يا آنسة دارتل لا تظني أن...».

قالت: «إنني لا أظن ذلك، يا إلهي، لا تفترض أنني أظن أي شيء، إنني لا أشك في شيء. إنني أطرح سؤالًا فقط، ولا أصرح بأي رأي. أريد أن أُكوِّن رأيًا حول ما تخبرني به. إذن، ليس الأمر كذلك؟ حسنًا، إنني سعيدة جدًّا بمعرفة ذلك».

قلت في حيرة من أمري: «بالتأكيد ليست هذه الحقيقة. إنني لست مسؤولًا عن بقاء ستيرفورث بعيدًا عن المنزل لفترة أطول من المعتاد،

كما أنني لم أعرف أنه غاب لفترة طويلة إلا في هذه اللحظة حقًّا، ولم أكن لأعرف ذلك إلا منكِ. لم أرَه منذ زمن طويل إلى أن التقيته في الليلة الماضية».

«حقًّا؟».

«حقًّا يا آنسة دارتل».

نظرت إليَّ بعد أن أدارت وجهها بالكامل نحوي، فإذا بي ألحظه أكثر حدة وشحوبًا، وقد امتدت علامات الجرح القديم حتى كادت أن تشق شفتها المشوهة، وتتعمق حتى شفتها السفلية، بل تنحدر أسفل وجهها. كم أرعبني هذا المشهد وأثَّر فيَّ إلى حد بعيد! أخافني أيضًا بريق عينيها، حين قالت، وهي تطيل إليَّ النظر في ثبات:

«ماذا يفعل؟».

كررت كلماتها، أكثر من مرة لنفسي، بينما لفتني دهشتي البالغة.

قالت بلهفة متحرقة بدت كافية لتلتهمها كالنار: «ماذا يفعل؟ كيف يساعده ذلك الرجل الذي لا ينظر إليَّ أبدًا من دون أن ألمح كذبًا غامضًا في عينيه؟ إذا كنت شريفًا ومخلصًا، فإنني لا أطلب منك أن تخون صديقك. أطلب منك فقط أن تخبرني، هل حل به غضب، أم كراهية؟ هل هو كبرياء، أم قلق؟ هل حل به نوع من الخيال الجامح، أم الحب؟ ماذا حل به؟».

قلت: «يا آنسة دارتل، كيف أؤكد لكِ حتى تصدقي أنني لا أعرف شيئًا عن ستيرفورث يختلف عما كان عليه عندما جئت إلى هنا لأول

مرة، ولا أستطيع التفكير في أي شيء يفسر مقصدك؟ إنني أجزم أنه لا يوجد شيء، وبالكاد أفهم ما تعنيه».

كانت لا تزال واقفة تنظر إليَّ بثبات، فإذا بي ألمح ارتعاشة أو نوعًا من الخفقان يتمثل في تلك الندبة القاسية، التي لم أستطع فصل فكرة الألم عنها. وإذا بها ترفع زاوية شفتها بنوع من الازدراء أو بنوع من الرأفة بدلًا من السخرية. وضعت يدها الرقيقة الحساسة للغاية فوق ندبتها على عجل. كانت يدها تبدو لمخيلتي أمام النار كما الخزف الدقيق حيت تظلل بها وجهها. راحت تقول مسرعة بلهجة حادة ومنفعلة: «أقسم لك أن أحافظ على سرية حوارنا»، ولم تتفوه بأي كلمة أخرى.

كانت السيدة ستيرفورث سعيدة للغاية بصحبة ابنها، وكان ستيرفورث محترمًا لها ومصغيًا إليها في هذه المرة بشكل خاص. كم أسعدني رؤيتهما معًا على هذا النحو! ليس بسبب المودة المتبادلة بينهما وحسب، بل بسبب التشابه القوي بينهما، كما لو أن سلوكه المتغطرس أو المتهور قد استحال في صورتها لطفًا ووقارًا بما يقتضيه العمر والجنس. فكرت أكثر من مرة أنه من اللطيف أنه لم يقع أي سبب جدي يوجب الانقسام بينهما، وإلا فإن طبيعتين من هذا القبيل -بل يجب أن أقول عنهما، إنهما ظلان من الطبيعة ذاتها- من الصعب التوفيق بينهما لكونهما أكثر الأطراف تناقضًا في هذا الكون. لا بد لي من الاعتراف بأن هذا الفكرة لم تنشأ من تفكيري الشخصي، ولكنها وردت في حديث روزا دارتل، حين قالت في أثناء تناول العشاء: «آهٍ، ليخبرني أي شخص منكم، لأنني كنت أفكر في الأمر طوال اليوم، وأريد أن أعرف».

قالت السيدة ستيرفورث: «ما الذي تريدين معرفته يا روزا؟ أرجوكِ، أرجوكِ يا روزا، لا تكوني غامضة».

صرخت: «غامضة، آهٍ، أحقًّا؟ هل تعتبرينني غامضة؟».

قالت السيدة ستيرفورث: «هل يجب أن أتوسل إليكِ باستمرار للتحدث بصراحة وبطريقة طبيعية؟».

قالت: «آهٍ، أهذه ليست طريقتي الطبيعية؟ الآن يجب أن تتحمليني حقًّا، لأنني أطلب أن أعرف، إننا لا نعرف طبيعة أنفسنا أبدًا».

قالت السيدة ستيرفورث من دون أن تتحدث باستياء: «لقد صرتِ تتصرفين بطبيعة ثانية، لكنني أتذكر - وأحسب أنكِ تتذكرين ذلك أيضًا - أن أسلوبكِ كان مختلفًا يا روزا، فلم يكن لديكِ كل هذا التحفظ، وكنتِ أكثر ثقة في الآخرين مما أنتِ عليه الآن».

قالت: «إنني متأكدة من أنكِ على حق. وهكذا فإن العادات السيئة تنمو مع المرء. أحقًّا كنت أقل تحفظًا وأكثر ثقة؟ إنني لأعجب كيف استطعت، بشكل غير محسوس، أن أتغير كل هذا التغير! حسنًا، إنه لشيء غريب جدًّا، يجب أن أتمعن لأستعيد ذاتي».

قالت السيدة ستيرفورث بابتسامة: «أتمنى أن تفعلي ذلك».

أجابت: «آهٍ، سوف أتعلم الصراحة من - دعيني أتذكره - من جيمس».

قالت السيدة ستيرفورث بسرعة: «لن تجدي مدرسة أفضل يمكنك تعلم الصراحة منها يا روزا». كان حديث روزا دارتل ينطوي دائمًا على

بعض السخرية، على الرغم من أنه قيل بأكثر الطرق عفوية في هذا العالم.

أجابت بحماس غير مألوف: «إنني متأكدة من ذلك. إذا كان عليَّ أن أتأكد من أي شيء، فبالطبع، يجب أن أكون متأكدة من ذلك».

وبدا لي أن السيدة ستيرفورث تأسف لما أبدته من انفعال بسيط لأنها قالت في هذه اللحظة بنبرة لطيفة: «حسنًا يا عزيزتي روزا، لم نسمع ما الذي تريدين معرفته».

أجابت: «ما الذي أريد معرفته؟ آهٍ، كنت أتساءل فقط عن أناس يتشابهون في دستورهم الأخلاقي... هل هذا هو التعبير الصحيح؟».

قال ستيرفورث: «إنه تعبير جيد مثل تعبيراتكِ».

قالت: «شكرًا لك. كنت أتساءل فقط عن أناس يتشابهون في دستورهم الأخلاقي؛ هل هم معرضون لخطر أكبر من الأشخاص الذين ليسوا في مثل هذه الظروف، بافتراض وجود أي سبب جدي يدفع إلى نشأة الخلاف بينهم، أو حدوث انفصال عميق وغاضب؟».

قال ستيرفورث: «أظن أنني سأجيب بنعم».

أجابت: «هل يظن ذلك حقًّا؟ يا ربي! لنفترض إذن، على سبيل المثال -أن أي شيء غير مأمول ولكن سيفي بالغرض- أنك ستخوض شجارًا خطيرًا مع أمك».

قاطعتها السيدة ستيرفورث، ضاحكة وقالت بلطف: «يا عزيزتي

روزا، هلا اقترحتِ أشياء أخرى؟! إنني أنا وجيمس نعرف واجب كل منا تجاه الآخر على أفضل وجه، والحمد لله».

قالت الآنسة دارتل، بعد أن أومأت برأسها مفكرة: «آهٍ، بالتأكيد. وهذا من شأنه أن يمنع حدوث خلاف بالطبع، لا شك في ذلك تمامًا. أما الآن، فكم أنا سعيدة لأنني كنت من الحماقة حتى أعرض هذه المسألة عليكم، لأنه من الجيد جدًّا أن أعرف أن واجب كل منكما تجاه الآخر سيمنع الخلاف، شكرًا جزيلًا».

يجب ألَّا أغفل هنا أن أذكر حدثًا صغيرًا آخر مرتبطًا بالسيدة دارتل، حيث راودني سبب لتذكره بعد ذلك، عندما تجلى لي الماضي بأسره شيئًا لا يمكن إصلاحه. كان ستيرفورث طوال هذا اليوم، بل طوال فترة قريبة منه، يبذل قصارى جهده ويطوع مهاراته الفائقة حتى يحول هذه المخلوقة الفريدة بسهولة الساحر لتصير رفيقة عذبة ومبتهجة، ولم أندهش من نجاحه في الأمر. لم تكن لتستطيع أن تقاوم تأثيره الرائع بما يضفيه من فنه المبهج، إنها طبيعته المبهجة التي تصورتها عنه آنذاك. لم يفاجئني نجاحه أيضًا لأنني كنت أدرك طبيعتها الباهتة وذبولها الغريب. لقد رأيت ملامحها قد تغيرت، وكذلك تبدل أسلوبها ببطء؛ رأيتها تنظر إليه في إعجاب متزايد. لاحظت أنها - بشكل خافت ثم متزايد أكثر فأكثر ولكن بغضب دائم، كما لو أنها تضمر ضعفًا في نفسها - تحاول أن تقاوم القوة الآسرة التي يمتلكها، وأخيرًا رأيت نظرتها الحادة تزداد نعومة، إلى أن صارت ابتسامتها بديعة للغاية. توقف شعوري بالخوف منها، وهو الشعور الذي طالما كان يراودني طوال اليوم، فجلسنا جميعًا

حول المدفأة نتحدث ونضحك معًا، من دون أي تحفظ كما لو أننا أطفال.

لم نبقَ في غرفة الطعام أكثر من خمس دقائق بعد أن غادرتها، ولا أعرف سببًا لذلك، ربما كان بسبب جلوسنا فيها لفترة طويلة، أو لأن ستيرفورث كان عازمًا على ألَّا يفقد الميزة التي اكتسبها. توقف ستيرفورث في هدوء عند باب غرفة المعيشة، وقال هامسًا: «إنها تعزف على القيثارة، ولم يسمعها أحد سوى أمي خلال هذه السنوات الثلاث». كان يحدثنا بابتسامة غريبة سرعان ما انقشعت. دخلنا بعد ذلك إلى الغرفة فإذا بها تجلس فيها وحيدة. كانت على وشك الرحيل حين قال ستيرفورث لها: «لا تنهضي يا عزيزتي روزا، لا تفعلي، كوني لطيفة لمرة واحدة، وغني لنا أغنية أيرلندية».

قالت: «ماذا يهمك في أغنية أيرلندية؟».

قال ستيرفورث: «الكثير، بل أكثر من أي شيء آخر. كما أن أقحوانتي هنا، ويحب الموسيقى أيضًا من كل روحه. غني لنا أغنية أيرلندية يا روزا، واسمحي لي أن أجلس وأستمع إليكِ كما كنت أفعل».

لم يلمسها ولم يلمس الكرسي الذي نهضت منه، بل جلس بالقرب من القيثارة. وقفت بجانبها لبعض الوقت، في وضع غريب، تمرر يدها اليمنى بحركة تشبه العزف، من دون أن تصدر صوتًا. استعدت بهذا الوضع الغريب، ثم بدأت بحركة مفاجئة من جديد فعزفت ألحانها وغنت.

لا أدري هل كان عزفها أم صوتها العذب قد جعل هذه الأغنية تلوح على مسامعي أكثر الأغنيات جمالًا في حياتي، بل أعذب مما قد أتخيله؟ كان الأمر مخيفًا في حقيقة الأمر، كما لو أنه لم يُكتب أو يُلحن، بل نبع من عاطفة بداخلها لم تسعفها الكلمات على البوح بها بنبرات صوتها الخافت. سكن كل شيء مرة أخرى بعد أن سكتت، وإذا بي أصم في خشوع. راحت تميل بجانب القيثارة مرة أخرى، فتعزف بيدها اليمنى، من دون أن تطلق منها ألحانًا.

أفقت من غيبوبتي بعد دقيقة أخرى، وقد ترك ستيرفورث مقعده وتوجه إليها، ثم وضع ذراعه حولها ضاحكًا، وقال: «تعالي يا روزا، في المستقبل سيحب كل منا الآخر، إلى أقصى حد». رأيتها تضربه، وقد أزاحته عنها بغضب قطة برية، ثم اندفعت خارجة من الغرفة.

قالت السيدة ستيرفورث وهي قادمة نحونا: «ماذا حدث لروزا؟».

قال ستيرفورث: «لقد كانت ملاكًا لفترة قصيرة يا أمي ثم انقلبت إلى النقيض بعد لحظات على سبيل التعويض».

قالت: «يجب أن تكون حريصًا على عدم إغضابها يا جيمس. لقد توترت أعصابها، فتذكر أنه لا ينبغي على أحد أن يثيرها».

لم تعد روزا. ولم يذكرها أي منا في حديثه، حتى ذهبت مع ستيرفورث إلى غرفته لتتمنى له ليلة سعيدة. سخر منها بعدها، وراح يسألني عما إذا كنت قد رأيت مثل هذه الكتلة الصغيرة الشرسة الساذجة.

أعربت عن دهشتي بكل ما أوتيت من قدرة على التعبير حينها، وسألته عما إذا كان بإمكانه تخمين السبب الذي دفعها إلى الغضب بهذا الشكل المفاجئ.

قال ستيرفورث: «آهٍ، لا يعلم ذلك إلا الله. فلترجع السبب لأي شيء تحبه - أو لا ترجعه إلى شيء! لقد أخبرتك أنها أخذت كل شيء، بما في ذلك نفسها، إلى حجر شحذ، وشحذته. إنها أداة حادة، تتطلب عناية فائقة وحذر في التعامل معها. إنها خطيرة على الدوام. ليلة سعيدة».

قلت: «ليلة سعيدة يا عزيزي ستيرفورث، سأغادر قبل أن تستيقظ في الصباح. طابت ليلتك».

لم يرغب في السماح لي بالانصراف، فوقف ممسكًا بي، وقد أسند يده إلى كتفي، كما فعل في غرفتي من قبل.

قال بابتسامة: «اسمع يا أقحوانتي، على الرغم من أن هذا الاسم الذي أطلقه عليك ليس اسمك الحقيقي أو اسم معموديتك، فإنه الاسم الذي أحب أن أطلقه عليك، وإني لأرجو، أرجو، أرجو، أن تمنحه لي».

قلت: «هو لك، ما دمت اخترت ذلك».

قال: «يا أقحوانتي، إذا فرق بيننا أي شيء في وقت من الأوقات، فعليك أن تتذكرني في أفضل حالاتي، أيها الشاب الكبير. هيا، دعنا نتفق على هذا الأمر. فلتتذكرني في أفضل حالاتي، إذا ما فرقتنا الظروف».

قلت: «لا أكن لك الأفضل يا ستيرفورث، كما لا أتذكرك بسوء. إنك محبوب دومًا وعزيز بنفس القدر على قلبي».

لقد شعرت بتأنيب الضمير لأنني ظلمته من قبل، ولو بفكرة لم تتجسد، حتى إنني أحسست أن الاعتراف بذنبي هذا كاد أن يرتفع إلى شفتي. ولكنني ترددت، وتراجعت عن خيانة ثقة أجنيس. كان ترددي وتفكيري في كيفية التعامل مع الموضوع من دون المخاطرة بالخيانة قد منعاني من البوح بعد أن كاد اعترافي يرتفع إلى شفتي قبل أن يقول: «بارك الله فيك يا أقحوانتي، وطابت ليلتك»، هكذا لم يصل اعترافي إليه، ثم تصافحنا وافترقنا.

استيقظت مع ضوء الفجر الباهت، وارتديت ملابسي في هدوء بقدر ما استطعت، ثم ألقيت نظرة إلى غرفته. كان يغط في نومه. يرقد مستسلمًا للنوم وقد أسند رأسه إلى ذراعه، كما كنت أراه مرارًا في المدرسة.

انقضى الوقت سريعًا، رحت أنظر إليه وأتساءل كيف لا ينغص راحته شيء! إنه يغط في نومه - دعني أفكر فيه لأتذكره مرة أخرى - لأنني كنت أراه نائمًا في كثير من الأحيان في المدرسة. وهكذا، تركته في هذه الساعة من السكون. فليغفر الله لك يا ستيرفورث، لن ألمس تلك اليد البليدة بحب أو صداقة بعد اليوم. أبدًا أبدًا أبدًا.

الفصل الثلاثون

خسارة

وصلت إلى يارموث في المساء متجهًا إلى الفندق. كنت أعرف أنه من المحتمل أن تكون غرفة بيجوتي الاحتياطية -غرفتي- مشغولة، تعج بالزائرين في غضون فترة قصيرة، إن لم يكن هذا الزائر العظيم، الذي يجب أن يخصص كل الأحياء مكانًا لوجوده قبلهم، في المنزل، لذلك ذهبت إلى الفندق، وتناولت العشاء، وشغلت سريري.

خرجت في الساعة العاشرة بعد أن أغلقت العديد من المحلات التجارية، فصارت المدينة ساكنة مملة. وصلت إلى متجر عمر وجورام، فوجدت نوافذه مغلقة، بينما ظل باب المتجر مفتوحًا مما مكنني من رؤية شبح السيد عمر بالداخل. كان يدخن غليونه عند باب الغرفة، فدخلت وسألته عن أحواله.

قال السيد عمر: «جميل، رحماك يا الله، كيف حالك أنت؟ اجلس. آمل ألا يضايقك الدخان».

قلت: «لا يضايقني بأي حال من الأحوال، إنني أحب الدخان - حين يكون من غليون شخص سواي».

فرد السيد عمر ضاحكًا: «ماذا، ليس من غليونك؟ آه، إنه أفضل شيء فعلته يا سيدي. إنه عادة سيئة للشاب. اجلس. إنني عن نفسي أدخن بسبب الربو».

كان السيد عمر قد أفسح لي مكانًا ووضع كرسيًّا، ثم عاد إلى مجلسه مرة أخرى نافثًا في غليونه كما لو كان يحتوي على أسباب الحياة، ومن دونه وجب عليه الموت.

قلت: «إنني حزين لسماع أخبار سيئة عن السيد باركس».

نظر إليَّ السيد عمر بنظرة ثابتة وهز رأسه.

سألته: «هل تعرف كيف صارت حالته الليلة؟».

أجابني السيد عمر قائلًا: «إنه السؤال ذاته الذي كان يجب أن أطرحه عليك يا سيدي، لولا حساسية موقفي. إنها أحد عيوب عملنا. يكون أحد المعارف مريضًا، فلا نتمكن من السؤال عن حالته وصحته».

لم تخطر ببالي مسألة الحساسية، على الرغم من أنني أوجست خيفة حين دخولي من سماع هذه النغمة القديمة. وما إن ذكرها، حتى أدركت ذلك، وقلته له.

قال السيد عمر بعد أن أومأ برأسه: «نعم، نعم، إنك تفهم أننا لا نطرح هذا السؤال. بارك الله فيك، سيصاب الناس بالصدمة إن سمع أحدهم يقول: خالص التحيات من عمر وجورام، وكيف حالك هذا

الصباح؟ أو حالك بعد ظهر هذا اليوم أو أي وقت كان».

أومأ كل منا للآخر بالموافقة، ثم قام السيد عمر بتجديد دخانه المنثور من غليونه.

قال السيد عمر: «إن عملي أحد الأشياء الذي يقطع أفضليتي ويشتت الانتباه عما أرغب في إظهاره في كثير من الأحيان. خذني مثالًا، إنني لم أعرف باركس منذ سنة، حتى أستطيع أن أذهب إليه كما في السابق، بل أعرفه منذ أربعين سنة، ومن ثَم لا يمكنني أن أذهب فأقول له كيف حالك؟».

شعرت أن الموقف شديد الصعوبة على السيد عمر، وقد قلت له ذلك.

قال السيد عمر: «إنني لا أكترث لحالي أكثر من سواي، هكذا أرجو أن أكون. فلتنظر إليَّ، قد تخذلني أنفاسي في أي لحظة، وليس من المحتمل، على حد علمي، أن أكون مهتمًّا بنفسي في ظل هذه الظروف. وأقول إن ذلك غير محتمل لأنني رجل يعرف أن أنفاسه ستنقطع، عندما يحين أوانها، كما تقطع الثقوب المنفاخ، فكيف بهذا الرجل الجد الهَرِم؟!».

قلت: «لن يحتمل على الإطلاق».

قال السيد عمر: «إنني لا أشكو من مهنتي، ليس هذا ما قصدت، فلجميع المهن بعض المميزات والمساوئ بلا شك. إلا أنني لا أتمنى سوى أن يتمتع الناس بقدر أكبر من الحكمة والفهم».

استنشق السيد عمر، بوجهه اللطيف المفعم بالرضا عن النفس، عدة نفخات في صمت، ثم قال مستأنفًا حديثه عن مسألته السالفة:

«ونتيجة لذلك فإننا مطالبون بألا نلتمس حالة باركس إلا عن طريق إيميلي وحدها. إنها تعرف حقيقة مقصدنا، ولم يعد يساورها أي مخاوف أو شكوك حول أمرنا، فلا يعتريها ما يفوق مخاوف قطيع من الحملان. لقد استأذن ميني وجورام للتوِّ، وتوجها إلى المنزل. إن ميني تتوجه إلى هناك بعد ساعات من العمل، لتساعد عمتها قليلًا، كما أنها تطمئن على حالها كل ليلة. إن استطعت الانتظار حتى يعودا، فإنهما سيعطيانك التفاصيل كاملة. هل تشرب شيئًا؟ هلا شربت كوبًا من العصير والماء، الآن؟»، أكمل السيد عمر حديثه وهو يحتسي كأسه، فقال: «إنني أدخن وأشرب العصير والماء معًا، لأنهما بمثابة تليين لممرات حلقي، حيث تمر أنفاسي المزعجة». وهنا تحدث السيد عمر بصوت مرتعش فقال: «حفظك الله، إن المشكلة ليست في الممرات التي تخرج عن مهمتها، لقد قلت لابنتي ميني: أعطيني أنفاسًا كافية، وسوف أجد لها الممرات، يا عزيزتي».

حقًّا؛ لم تكن أنفاسًا كاملة، بل كان من المقلق رؤيته يضحك. استرد حالة من السكينة مرة أخرى، مما أمكنني من التحدث إليه، فشكرته على المشروبات التي قدمها، على الرغم من أنني رفضتها، لأنني كنت قد تناولت عشائي للتوِّ، وقلت إني سأنتظر حتى تعود ابنته وصهره، ما دام أنه أسدى إليَّ هذه الدعوة الطيبة، ثم سألته عن حال إيميلي الصغيرة.

قال السيد عمر، بعد أن أبعد غليونه وأخذ يفرك ذقنه: «حسنًا يا سيدي، سأبوح لك بأمر، كم سأسعد حين يتم زواجها».

سألته: «لماذا؟».

قال السيد عمر: «حسنًا، إنها غير مستقرة في الوقت الحالي. لا لأنها ليست جميلة، فهي بديعة بل صارت أجمل. أؤكد لك أنها أجمل الفتيات. ليس الأمر بسبب أنها لا تعمل كما كانت من قبل، لأنها الآن تعمل. إنها تعمل ستة أعمال، بل تساوي ست عاملات، لكنها بطريقة ما بحاجة إلى أن تكتسب شجاعة القلب». استطرد السيد عمر كلامه بعد أن فرك ذقنه مرة أخرى واستعاد تدخينه بشكل يسير: «إذا فهمت ما أعنيه بشكل عام «شدة طويلة، وشدة قوية، وسحب بالكلية، يا أحباب قلبي ويا مرحى!»، فإنني يجب أن أقول لك، إن هذا الأمر بشكل عام هو ما أفتقده في إيميلي».

انبسطت قسمات وجه السيد عمر وارتاح إلى حد كبير، بعد أن أومأت إليه برأسي موافقًا على حديثه، في إشارة إلى فهم مقصده. وبدا أن سرعة إدراكي كانت تسعده، فتابع حديثه قائلًا: «إنني أعتبر أن السبب يرجع بالأساس إلى كونها في حالة غير مستقرة، كما تعلم الآن. لقد تناقشت طويلًا حول أمرها أنا وعمها، كما تحدثت مع حبيبها بعد أوقات العمل، وإنني أعتبر أن السبب يعود بالأساس إلى عدم استقرارها». هز السيد عمر رأسه بلطف، ثم استأنف قائلًا: «يجب ألا تنسى أبدًا أن إيميلي مخلوقة صغيرة محببة وغير عادية. يقول المثل: «لا يمكنك صنع محفظة حريرية من أذن خنزير». حسنًا، إنه أمر لا أعرف شيئًا عنه، لكني أحسبك ستعرفه بعد أن تشق طريقك في الحياة في وقت

مبكر. لقد صنعت منزلًا من ذلك القارب القديم يا سيدي، فصار متينًا لا يُغلب، مصنوعًا من الحجر والرخام».

قلت: «إنني متأكد من أنك فعلت ذلك».

قال السيد عمر: «يا له من مشهد بديع، حين ترى هذه المخلوقة الصغيرة تتمسك بعمها! إن الطريقة التي تتعلق بها، تزداد كل يوم إحكامًا بعد إحكام، وقربًا بعد قرب. وكما تعلم، فإن صراعًا ينشب حين تكون الحال كما هي عليه الآن. فلماذا يجب أن يطول صراعها أكثر مما ينبغي؟».

لقد استمعت باهتمام إلى حديث هذا الرجل العجوز الصالح ورضخت لما قاله من كل قلبي.

قال السيد عمر بنبرة مريحة وهادئة: «لذلك، فإنني قد أوضحت هذا الأمر لهما. وقلت حسنًا، لا تفكر أن إيميلي تتعاقد معي إلى أجل مسمى. لا، على الإطلاق. فلتختارا ما تشاءان من وقتكما. إن عملها أثمن قيمة مما نفترض، فقد كان تعلمها أسرع مما توقعت، بحيث من الممكن أن يتجاوز متجر عمر وجورام عما تبقى لها من تدريب، فلها حرية الذهاب وقتما ترغب. وإن رغبت في إجراء أي تعديلات صغيرة بعد ذلك، فإنها تستطيع القيام بأي أعمال صغيرة لنا في منزلها، وسيكون الأمر مُرضيًا جدًّا. وإن لم تفعل ذلك، فلا يزال الأمر مُرضيًا جدًّا، لأننا لسنا بخاسرين على أي حال». لمسني السيد عمر بغليونه، ثم استأنف قائلًا: «ألا ترى أنه من غير المحتمل أن يذهب رجل قصير الأنفاس مثلي وقد صار جَدًّا أيضًا، فيتجادل حول بضع نقاط مع زهرة زرقاء العينين، مثلها؟».

قلت: «لا يجوز على الإطلاق، ولا شك في ذلك».

قال السيد عمر: «لا يجوز على الإطلاق. حسنًا يا سيدي، إن ابن عمها... هل تعلم أن ابن عمها سيتزوجها؟».

أجبته: «آهٍ نعم. إنني أعرفه جيدًا».

قال السيد عمر: «بالطبع تعرفه. اسمع يا سيدي، إن ابن عمها، كما يبدو، يشغل عملًا جيدًا، ويحسن القيام به، لذا فقد شكرني بطريقة رجولية للغاية على ما قمتُ به. أقر بأن طريقته منحتني انطباعًا جيدًا عنه. لقد اتخذ منزلًا صغيرًا مريحًا؛ منزلًا أتمنى كما تتمنى لو أمتع عيني بالنظر إليه. صار هذا المنزل الصغير الآن يحوي أثاثًا أنيقًا وكاملًا يشبه بيت الدمى، ولولا مرض باركس خاصة بعد أن اتخذ هذا المنعطف السيئ لاستطعت أن أقول عنهما اليوم إنهما صارا زوجين، يا للمساكين! إن الظروف لا تسمح إلا بالتأجيل».

سألته: «وماذا عن إيميلي يا سيد عمر؟ هل صارت أكثر استقرارًا؟».

راح يفرك ذقنه المزدوج مرة أخرى وقال: «حسنًا، لا يمكن توقع الأمر بشكل طبيعي، كما تعلم. إن احتمال التغيير والانفصال عن أهلها، وكل ذلك من الأمور التي يعلمها أي إنسان قريب منها أو بعيد، تشغلها في آن واحد. أما موت باركس فلن يؤدي إلى تأجيل زواجها كثيرًا، لكن طول مرضه سيؤجله كثيرًا. إن الأمور غير مستقرة على أي حال، كما تعلم».

قلت: «أعلم ذلك».

تابع السيد عمر حديثه قائلًا: «نتيجة لذلك، لم تزل إيميلي حزينة قليلًا، ومرتعدة بعض الشيء؛ وربما صارت بشكل عام أكثر اكتئابًا مما كانت عليه. إنها تبدو في كل يوم أكثر ولعًا وتمسكًا بعمها، وتبدي مزيدًا من اللا مبالاة تجاهنا جميعًا. إن كلمة طيبة مني تجلب لعينيها الدموع. وإذا رأيتها تحمل ابنتي الصغيرة، فلن تنسى منظرها المؤثر أبدًا». ثم قال السيد عمر متأملًا: «كم تحب هذه الطفلة الصغيرة! بارك الله أحبائي وحفظهم على قيد الحياة».

أحسست أنني قد أتيحت لي الفرصة المناسبة، فخطر ببالي أن أسأل السيد عمر، قبل أن يقطع محادثتنا بعودة ابنته وزوجها، عما إذا كان يعرف شيئًا عن مارثا.

راح يهز رأسه وقد بدا حزينًا جدًّا وقال: «آه، إنها في حالة سيئة. إنها قصة حزينة يا سيدي، لكنك ستعرفها. لم أتصور قَطُّ أن ثمة أي ضرر في أمر هذه الفتاة. ولا أرغب في ذكر ذلك أمام ابنتي ميني. ستثور ميني في الحال، لذلك لا أذكرها أمامها أبدًا، ولم يتجرأ أي منا على ذكرها أمامها من قبل».

سمع السيد عمر خطى ابنته قبل أن أسمعها، فنكزني بغليونه، وغمز بإحدى عينيه كنوع من التحذير، فدخلت هي وزوجها بعدها مباشرة.

أبلغانا أن السيد باركس كان «في أسوأ حالاته»، وأنه فاقد للوعي تمامًا، وأن السيد تشيليب قال بحزن في المطبخ، قبل انصرافه للتوِّ، إن هيئة الطب وهيئة الجراحين والصيادلة لن يسع أفرادها جميعًا أن يسعفوه لو أنهم دعوا جميعًا إليه. وأضاف السيد تشيليب أن حالة باركس قد

تجاوزت مهارة الكليتين، ولم يعد بإمكان الصيادلة سوى تسميمه.

ما إن سمعت هذه الأخبار، وعلمت أن السيد بيجوتي هناك حتى اعتزمت الذهاب إلى المنزل في الحال. تمنيت ليلة سعيدة للسيد عمر، وللسيد جورام والسيدة زوجته، ثم وجهت خطواتي إلى هناك، بعد أن لفني شعور مهيب، مما جعل السيد باركس يلوح لي مخلوقًا جديدًا ومختلفًا.

استجاب السيد بيجوتي لطرقاتي الخفيفة على الباب. ولم يفاجأ برؤيتي كما توقعت، ولاحظت أن بيجوتي لم تدهش أيضًا، بعدما جاءت لاستقبالي. أدركت منذ ذلك الحين أن الانتظار أو هول المفاجأة من أي شيء يغدو أمرًا ضئيلًا أمام مهابة انتظار الموت.

صافحت السيد بيجوتي ودخلت المطبخ وأغلق هو الباب بهدوء. كانت إيميلي الصغيرة جالسة بجانب الموقد وقد وضعت يدها أمام وجهها، بينما وقف هام بالقرب منها.

رحنا نتكلم هامسين، ثم ننصت بين حين وآخر، لأي صوت قد يصدر من الغرفة العليا. لم يخطر ببالي هذا المشهد في زيارتي الأخيرة لهم، وكم صار غريبًا الآن أن أفتقد وجود السيد باركس في المطبخ!

قال السيد بيجوتي: «إنه لطف كبير منك يا سيد ديفي».

قال هام: «إنه كرم معهود منك».

صاح السيد بيجوتي: «يا إيميلي، يا عزيزتي، انظري هنا، إنه السيد ديفي، هيا، ابتهجي يا جميلة، ألن تقولي شيئًا للسيد ديفي؟».

انتابتها ارتعاشة لم أزل أذكر مشهدها حتى الآن. شعرت ببرودة يدها بعدما لمستها لأسلم عليها. كانت العلامة الوحيدة على أنها يد حية هي انكماشها عني، ثم انزلقت على الكرسي، تسللت إلى الجانب الآخر من عمها، وانحنت على صدره في صمت وارتجاف.

قال السيد بيجوتي وهو يمشط شعرها الكثيف بيده الخشنة الكبيرة: «إن روحها رقيقة، بحيث لا تستطيع التخلص من هذا الحزن. إنه طبع هؤلاء الشباب يا سيد ديفي، حيث وقع هذه التجارب يكون جديدًا عليهم، فيصيرون منزويين، مثل عصفورتي الصغيرة، إنه طبع الشباب».

زادت من تشبثها به، من دون أن ترفع وجهها أو تنبس ببنت شفة.

قال السيد بيجوتي: «لقد تأخرتِ يا عزيزتي، وها هو هام قد جاء ليصطحبكِ إلى المنزل. هيا، اذهبي مع هذا القلب الآخر المحب، ماذا يا إيميلي؟ ماذا يا جميلتي؟».

لم يصلني صوتها، لكنه أحنى رأسه كأنه يستمع إليها، ثم قال:

«هل أدعكِ لتبقي مع عمكِ؟ يا للعجب، أتطلبين مني هذا! كيف تبقين مع عمكِ يا فتاة؟ ماذا عن هذا الرجل الذي سيكون زوجكِ قريبًا جدًّا، بعد أن جاء إلى هنا ليصطحبكِ إلى المنزل؟»، قال السيد بيجوتي، وهو ينظر إلى كلينا، بفخر لا متناهٍ: «إن ملح البحر ليس أكثر ملوحة مما تضمره من ولع لعمها. يا لإيميلي الصغيرة الساذجة!».

قال هام: «إن إيميلي على حق يا سيد ديفي، أصغِ إليَّ، إن حالة

إيميلي مضطربة وخائفة، فليكن لها ما أرادت، سأتركها هنا حتى الصباح، ولتسمحوا لي أن أبقى أيضًا».

قال السيد بيجوتي: «لا، لا. إن رجلًا مثلك متزوج، أو في مقام المتزوج، ليس مضطرًّا إلى أن يتأخر يومًا عن العمل. ولا يجب أن تشرف على إيميلي وتعمل في آن واحد. إن هذا الأمر لن يجدي نفعًا. فلتذهب إلى المنزل ثم تعود. إنك تخاف ألا نعتني بإيميلي الاعتناء اللازم، أعرف ذلك».

استسلم هام أمام هذا الإقناع، وأخذ قبعته لينصرف، ثم أقبل إليها ليقبلها - لم أرَه يقترب منها قَطُّ، لكنني شعرت أن الطبيعة أعطته روح رجل نبيل - فبدت كما لو أنها تتشبث بعمها أكثر، حتى تتجنب زوجها المختار. أغلقتُ الباب من بعده لئلا يزعج ضجيجه الهدوء السائد في المكان. عدت إليهم، فوجدت السيد بيجوتي لا يزال يتحدث إليها.

قال: «سأصعد الآن إلى الطابق العلوي لأخبر عمتكِ أن سيد ديفي هنا، وسوف يفرحها هذا النبأ قليلًا. اجلسي جوار النار، وانعمي بدفئها يا عزيزتي، ودفئي هاتين اليدين الباردتين المميتتين. لست بحاجة إلى أن تكوني مخيفة إلى هذا الحد وأن تتحملي ما يفوق طاقتك. ماذا؟ هل ستأتين معي؟ حسنًا، تعالي معي... هيا تعالي». قال السيد بيجوتي بفخر لا يقل عن ذي قبل: «لولا خروج عمها من المنزل مطرودًا، وقد اضطر إلى النوم فوق الجسر، لتصورت أنها ستذهب إليه الآن، ولكن سيكون هناك شخص آخر قريبًا... شخص آخر قريبًا يا إيميلي».

صعدتُ بدوري بعد ذلك إلى الطابق العلوي، ورحت أجتاز باب غرفتي الصغيرة، التي لفها الظلام، فإذا بهواجس غير واضحة الأسباب تبوح لي بوجودها فيها، مطروحة على الأرض. إلا أنني لا أعرف حتى هذه اللحظة، ما إذا كانت هي حقًّا، أم أن الأمر لم يكن سوى ارتباك وانعكاس للظلال في الغرفة.

وجدتني أفكر في وقت فراغ، بينما لم أزل بجوار موقد المطبخ، فتأملت خوف إيميلي من الموت، خاصة بعد أن استدعى تفكيري ما قاله السيد عمر لي، من أنها في حالة مختلفة تمامًا عن ذي قبل. كما توفر لي وقت فراغ آخر قبل نزول بيجوتي، فرحت أفكر في إشفاق ورثاء لضعفها، بينما جلست أحسب دقات الساعة، وأعمق حساسيتي للصمت المهيب من حولي. أخذتني بيجوتي بين ذراعيها وباركتني وشكرتني مرارًا وتكرارًا لأنني أقدم لها العزاء بمجيئي - هذا ما قالته - في محنتها. ثم طلبت مني وهي تبكي أن أصعد إلى الطابق العلوي، لأن السيد باركس لطالما أحبني وأعجب بي، وأنه تحدث عني كثيرًا قبل أن يفقد وعيه، وأنها موقنة من أنه لو استعاد نفسه مرة أخرى، فسوف يتهلل لرؤيته لي، إذا استطاع أن يتهلل لأي شيء على وجه الأرض.

بدا لي عندما رأيته، أن احتمال استرداد وعيه ضئيل للغاية. كان مستلقيًا وقد أسدل رأسه وكتفيه خارج السرير، في مشهد لا يسر الناظرين. أما نصفه الآخر فمستند إلى الصندوق الذي كلفه الكثير من الألم والمتاعب. علمت أنه عجز عن التسلل من السرير ليفتحه، ولم يعد مطمئنًّا إلى سلامته بعد تحسسه بالعصا التي رأيته يستخدمها، لذلك

فإنه طلب وضعه على الكرسي الموجود بجوار السرير، ثم احتضنه منذ ذلك الحين ليلًا ونهارًا. ها هي ذراعه ملقاة عليها الآن. كان الزمن والعالم ينزلقان من تحته، بينما لبث هذا الصندوق تحت ذراعه، وكانت الكلمات الأخيرة التي قالها (بنبرة توضيحية): «إنها ملابس قديمة».

قالت بيجوتي فيما يشبه المرح، وقد انحنت عليه بينما وقفت أنا وشقيقها عند نهاية السرير: «باركس، يا عزيزي، إنه ابني العزيز... ابني العزيز، إنه سيد ديفي، الذي جمعنا معًا يا باركس، لقد أرسلت الرسائل من قبل، كما تعلم، ألا تتحدث إلى سيد ديفي؟».

كان أخرس وجامدًا مثل الصندوق، الذي استمد من شكله آخر مظاهر ما يمتلكه في الحياة.

قال لي السيد بيجوتي من وراء كفه الذي يواري أذني: «إنه يحتضر مع المد».

صارت عيناي قاتمتين وكذلك عين السيد بيجوتي، لكنني كررت بصوت هامس: «مع المد؟».

قال السيد بيجوتي: «لا يمكن للناس أن يموتوا على طول الساحل، إلا عندما يكون المد قريبًا جدًّا. لا يمكن أن يولدوا، إلا إذا كانوا قريبين جدًّا من المد، بل لا يولدون أصحاء، حتى يصير المد طوفانًا. إنه يحتضر مع المد. إن الماء ينحسر عند الثالثة والنصف، بعد أن يهدأ الموج في نصف ساعة. إذا عاش حتى ينقضي هذا المد، فإنه سيتماسك بمفرده حتى يتجاوز الطوفان، ثم يحتضر مع المد التالي».

بقينا هناك، ورحنا نراقبه لساعات طويلة. لن أتظاهر بالقول إن وجودي كان له من التأثير الغامض على حواسه في تلك الحالة، ولكنه بدأ أخيرًا يتوهم شيئًا في ضعف، فراح يتمتم شيئًا عن حملي في عربته إلى المدرسة.

قالت بيجوتي: «إنه يستعيد وعيه».

نكزني السيد بيجوتي، وتهامس في رهبة واحترام جلل قائلًا: «إن كليهما يحتضران مع المد بسرعة».

قالت بيجوتي: «باركس يا عزيزي».

قال بصوت خافت: «ك. ب باركس. لا توجد امرأة في أي مكان أفضل منها».

قالت بيجوتي: «انظر، إن سيد ديفي هنا». وكان قد فتح عينيه في هذه اللحظة.

كنت على وشك سؤاله عما إذا كان يعرفني أم لا، فإذا به يحاول مد ذراعه نحوي، وقد قال لي بوضوح وبابتسامة لطيفة:

«باركس راغب».

ولما كانت المياه تنحسر، فقد احتضر مع المد.



الفصل الحادي والثلاثون

خسارة فادحة

لم يكن من الصعب عليَّ أن أقرر البقاء في المكان الذي كنت فيه -بناءً على طلب بيجوتي- حتى يُنقل جثمان الفقيد المسكين في رحلته الأخيرة إلى قبره في بلندرستون. كانت بيجوتي قد اشترت من مدخراتها الخاصة منذ فترة طويلة قطعة أرض صغيرة في فناء كنيستنا القديمة، بالقرب من قبر «ابنتها الجميلة»، كما كانت تسمي أمي دائمًا، حيث سينقل الجثمان إلى مثواه.

كنت ممتنًّا بالبقاء بجوار بيجوتي، وبذل كل ما بوسعي من أجلها - وإنه لقليل هين في أقصى تقدير، كما أسعدني سماحها لي بذلك، وكم أتذكر موقفها الآن في شكر وعرفان. كما شعرت بارتياح بالغ على المستوى الشخصي والمهني، في تولي مسؤولية تنفيذ وصية السيد باركس، وشرح محتوياتها.

وإنني أدعي الفخر بأنني من اقترح ضرورة البحث عن الوصية في الصندوق. وقد عثرنا عليها بعد إجراء بعض محاولات البحث في الصندوق، وكانت أسفل مخلاة الحصان، حيث اكتشفناها تحت طبقات من التبن، وكذلك وجدنا ساعة ذهبية قديمة بها سلسلة وأختام، كان السيد باركس يرتديها في يوم زفافه، ولم يسبق رؤيتها من قبل أو منذ ذلك الحين. وجدنا سدادة تبغ فضية على شكل ساق، وحافظة على شكل ليمونة مليئة بالفناجين الصغيرة والصحون، وقد تصورت أن السيد باركس قد اشتراها لي عندما كنت طفلًا، ثم وجد نفسه بعد ذلك غير قادر على التخلي عنها، وعثرنا على سبعة وثمانون جنيهًا ونصف، من فئة الجنيهات وأنصاف الجنيهات الذهبية، ومائتين وعشرة جنيهات من فئة الأوراق النقدية النظيفة تمامًا، وإيصالات لأسهم في بنك إنجلترا، كما وجدنا حدوة حصان قديم، وشلن رديء، وقطعة من الكافور، وصدفة محار. لاحظت شكل الصدفة التي كانت مصقولة للغاية، وقد حوى جوفها ألوانًا بديعة، فاستنتجت أن السيد باركس كانت لديه بعض الأفكار العامة حول اللآلئ، ولكن معرفته بها لم تتخذ مسارًا محددًا قَطُّ.

حمل السيد باركس هذا الصندوق في جميع رحلاته كل يوم ولسنوات كثيرة. حاول أن يخفيه، فنسج قصة من خياله، فقال: «إن الصندوق ينتمي إلى السيد بلاكبوي، وقد تركه مع باركس حتى يطلبه منه»، ثم كتب هذه الحكاية بإسهاب على غطاء الصندوق، بأحرف يصعب قراءتها الآن.

لقد اكتشفت أنه ادخر ماله طوال هذه السنوات، لهدف نبيل، وقد بلغت ممتلكاته المالية قرابة ثلاثة آلاف جنيه. أوصى السيد بيجوتي بفائدة عن ألف جنيه تخصص له طوال حياته، وعند وفاته يجب أن يُقسَّم المبلغ بالتساوي بين بيجوتي وإيميلي الصغيرة وأنا، أو من تبقى على قيد الحياة أو من تبقوا منا، والمشاركة بالتساوي على حد سواء. أما كل ما تركه من أملاك غير النقود فترثه بيجوتي، باعتبارها الوريثة المقيمة، والمنفذ الوحيد لوصيته الأخيرة.

شعرت أنني في موقف المراقب القضائي بعدما قرأت هذه الوصية بصوت عالٍ، بأقصى احتفاء ممكن، ثم عرضت أحكام التخصيص، وكررت ذكر نصيب كل فرد مرات عديدة لأولئك الذين يعنيهم الأمر. رحت أفكر منذ ذلك الحين أن أعمال مجلس العموم تفوق ما كنت أتصوره. فحصت الوصية باهتمام بالغ، ووضحت أنها رسمية وقانونية تمامًا من جميع النواحي، ثم وضعت عدة تعليقات بالقلم الرصاص أو ما شابه في الهامش، وأحسب أنه أمر غير عادي إلى حد ما ولم أكن أعرف ذلك من قبل.

رحت أسعى إلى تشييع الجثمان، وأحسب حصة بيجوتي، وأحصر جميع الممتلكات التي ورثتها، وأرتب جميع أمورها بطريقة منظمة، فصرت ناصحًا لها ومستشارًا أمينًا في كل نقطة تخصها، مما أسعد كل منا، وقد بقيت أسبوعًا كاملًا لإتمام هذه الأمور قبل الجنازة. لم أرَ إيميلي الصغيرة في تلك الفترة، لكنهم قالوا لي إنها ستتزوج في سكون في غضون أسبوعين.

لم أحضر الجنازة بهيئة رسمية، إن جاز لي التعبير. أعني أنني لم أرتدِ معطفًا أسود أو غطاءً للرأس لإخافة الطيور، لكنني مشيت إلى بلندرستون في الصباح الباكر، وانتظرت في ساحة الكنيسة حتى وصول الجثمان، في حضور بيجوتي وشقيقها لا غير. نظر الرجل المجنون من نافذتي الصغيرة، وهز صغير السيد تشيليب رأسه الثقيل، ثم أدار عينيه الصغيرتين من فوق كتف مربيته نحو القسيس، ومضى السيد عمر يتنفس بصعوبة في الخلفية. خلا المكان من أي إنسان آخر، ولفنا الهدوء. تجولنا في ساحة الكنيسة لمدة ساعة، بعد أن انتهى كل شيء. قطفوا بعض الأوراق الصغيرة من الشجرة المخضرة فوق قبر أمي.

وهنا لفني الرعب، إذ انخفضت سحابة في البلدة البعيدة التي عدت أخطو إليها وحيدًا بينما كنت أخشى الاقتراب منها. لا أستطيع أن أتحمل التفكير فيما حدث في تلك الليلة التي لا تُنسى، حين لم أقدر على التفكير في العواقب التالية إذا ما واصلت مسيرتي.

إن حالي لم تعد أسوأ مما كنته بينما أُدون ما وقع، ولن يصير الأمر أفضل إذا ما أوقفت يدي غير الراغبة في التدوين. قُضي الأمر، فلا يمكن التراجع عما وقع، وليس في الإمكان إلا ما كان.

كان من المقرر أن تصحبني مربيتي العجوز إلى لندن في اليوم التالي، للعمل على تخليص أعمال تتعلق بالوصية. كان من المفترض أن تمر إيميلي الصغيرة في ذلك اليوم بمنزل السيد عمر، وكنا سنلتقي جميعًا في المركب القديم في تلك الليلة. سيذهب هام لإحضار إيميلي

في موعده المعتاد، بينما سأعود أنا حين فراغي من الأمر، وسيعود الأخ وأخته كما جاءا، بعد أن يودعانا في نهاية اليوم عند المدفأة.

ودعتهم عند بوابة الحديقة، حيث استراح ستراب مع حقيبة رودريك راندوم أبطال القصة القديمة التي عرفتها في الأيام الخوالي، وبدلًا من أن أعود مباشرة إلى القارب رحت أتمشى لمسافة قصيرة على الطريق المؤدي إلى لوستوفت، ثم استدرت عائدًا إلى يارموث. مكثت لتناول العشاء في منزل لائق، على بُعد ميل أو ميلين من الجسر الذي ذكرته من قبل، وهكذا تلاشى النهار، وحل المساء عندما وصلت. كان المطر يتساقط بغزارة في ذلك الوقت، وكانت ليلة موحشة، حتى لاح القمر من خلف السحب فبدد بقعًا من الظلام.

سرعان ما لاح لي منزل السيد بيجوتي على مرمى البصر، وقد تلألأ الضوء بداخله منبعثًا من النافذة. رحت أتخبط قليلًا فوق الرمال، التي أثقلت خطواتي إلى أن وصلت نحو الباب، ثم دخلت.

بدا البيت مريحًا للغاية. كان السيد بيجوتي قد فرغ من تدخين غليونه المسائي بينما تتجلى بعض استعدادات تناول طعام العشاء. كانت النار تتوهج، وقد بعثرت رمادها في كل مكان، بينما تلوح الخزانة جاهزة لاستقبال إيميلي الصغيرة في مكانها القديم. جلست بيجوتي هي الأخرى في مكانها المعهود، كما لو أنها لم تتركه قَطُّ لولا ثوب حدادها الفارق. كانت قد عادت بالفعل إلى صندوق غزلها الذي تعلو غطاءه صورة لكنيسة القديس بولس، ويحوي مازورة القياس داخله مع قليل من الشمع، وبدوا جميعًا في حوزتها كما لو أنهم لم يتبدلوا قَطُّ.

بدت السيدة جامدج قلقة بعض الشيء؛ جالسة في ركنها القديم، ومن ثَم بدت على طبيعتها المعهودة هي الأخرى.

قال السيد بيجوتي بوجه بشوش: «إنك أول من جاء من المجموعة يا سيد ديفي، فلتخلع عنك ذلك المعطف إذا كان مبتلًّا يا سيدي».

قلت له: «شكرًا لك سيد بيجوتي»، ثم ناولته معطفي الخارجي ليعلقه وقلت: «إنه جاف تمامًا».

قال السيد بيجوتي وهو يتحسس كتفي: «حقًّا، جاف كشريحة جافة. اجلس يا سيدي. ليس من المجدي أن أقول مرحبًا بك، بل على الرحب والسعة والطيبة والود».

قلت: «شكرًا لك يا سيد بيجوتي، إنني متأكد من ذلك». ثم قبَّلت بيجوتي قائلًا: «حسنًا يا بيجوتي، كيف حالك أيتها العجوز؟».

ضحك السيد بيجوتي، ثم جلس إلى جانبنا، وأخذ يفرك يديه كمن يستشعر الراحة من المتاعب الأخيرة، وقد انقلب إلى طبيعته الحقيقية، وراح يقول: «ها، ها! لا توجد امرأة في العالم تحتاج إلى الشعور براحة البال أكثر منها، قلت لها هذا يا سيدي. لقد فعلت ما بوسعها لخدمة الفقيد، كما أن الفقيد موقن من ذلك، وقد فعل الفقيد عين الصواب لها، كما فعلت هي عين الصواب له، و... و... وكل شيء على ما يرام».

تأوهت السيدة جامدج.

قال السيد بيجوتي: «ابتهجي أيتها الأم العجوز»، لكنه أومأ برأسه في وجهنا، كما لو أنه يشير إلى أنه من المنطقي أن تستثير الأحداث

المتأخرة ذكرى فقيدها القديم. «لا تنزلقي إلى الهموم، ابتهجي قليلًا من أجل نفسكِ، واكتسبي مزيدًا من الصفقات الجيدة المبهجة وإلا لن تأتي تلقائيًّا إليكِ أبدًا».

قالت السيدة جامدج: «لا يأتيني شيء بصورة تلقائية أبدًا يا دانيال، ولكني سأمكث وحيدة ومضطربة».

قال السيد بيجوتي وهو يهدئ أحزانها: «لا، لا».

قالت السيدة جامدج: «نعم، نعم يا دانيال، إنني لست شخصًا ممن يعيش مع أناس لديهم أموال كافية. إن الظروف تعارضني. خير لكم أن تتخلصوا مني».

قال السيد بيجوتي، بنبرة من الاحتجاج الجاد: «كيف يمكنني أن أنفق مالًا على أحد سواكِ؟ ما الذي تتحدثين عنه؟ ألا أريدكِ الآن أكثر من أي وقت مضى؟».

صرخت السيدة جامدج، بصوت يرثى له: «أعلم أنني لم أكن مرغوبة من قبل، والآن قيل لي ذلك، كيف يمكن أن أتوقع أن أكون مرغوبة، وأنا وحيدة ومضطربة ولن أكون عكس ذلك؟».

بدا السيد بيجوتي مشدوهًا للغاية بعد أن قال هذه الكلمات التي تخلو من الإحساس بالغير، ولكنه لم يستطع الرد، فقد منعته بيجوتي بعد أن شدته من أكمامه، وهزت رأسها بالنفي. راح ينظر إلى السيدة جامدج لبعض اللحظات، شاعرًا بالضيق مؤنبًا نفسه، ثم رفع نظره إلى الساعة الهولندية المعلقة، ثم نهض، وأضاء الشمعة، ووضعها فوق النافذة.

قال السيد بيجوتي بمرح: «ها هي، هنا يا سيدة جامدج، شمعتنا مضاءة كعادتها». تنهدت هنا السيدة جامدج قليلًا. «لا بد أنك تتساءل يا سيدي عن الغرض من كل هذا، حسنًا، إنه لأجل إيميلي الصغيرة. إن الطريق كما ترى، ليس مضاءً كما أن النوافذ الملونة باتت مظلمة، ولذلك فإنني عندما أعود إلى هنا، فإنني أضع الضوء فوق النافذة حتى يرشد خطاها». انحنى السيد بيجوتي فوقي وراح يقول في ابتهاج بالغ: «إني أقوم بالأمر لشيئين: أولهما أن تقول إيميلي لنفسها: «ها هو ذا المنزل». وثانيهما أن تقول: «ها هو ذا عمي» لأنني لو لم أكن موجودًا لما ظهر أي ضوء».

قالت بيجوتي: «يا لك من طفل!». وإني أحسب أنها لمغرمة جدًّا به لهذا السبب.

ظل السيد بيجوتي واقفًا متباعد الساقين إلى حد كبير، وقد فرك يديه لأعلى ولأسفل في راحة ورضا، بينما أخذ ينظر إلينا وإلى النار بالتناوب، ثم قال: «حسنًا، أعرف أنني كذلك ولكني كما تعلمين، لا أبدو للناظرين طفلًا».

عقبت بيجوتي قائلة: «لست كذلك تمامًا من هذه الناحية».

ضحك السيد بيجوتي قائلًا: «لا، ليس شكلًا، ولكن موضوعًا كما تعلمين. لا يهمني الأمر، بارك الله فيكِ، فلتصغي الآن لما أقوله لكِ». أكمل السيد بيجوتي، بتركيز وجد مفاجئين قائلًا: «إنني كلما ذهبت لأتفقد هذا المنزل الأنيق الخاص بإيميلي غاليتنا، أعود مذهولًا وعقلي يكاد يفارقني، لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك. إنني أشعر أن الأشياء

الصغيرة هي إيميلي نفسها؛ أتناولها فأضعها بين كفَّي، وألمسها برفق كأنها هي إيميلي غاليتنا، حتى إنني أجد قبعتها الصغيرة وأوصالها. من ثَم لم أستطع رؤية أي إنسان يلمس أغراضها بخشونة أو من دون لين ورفق، وها هو ذا الطفل الذي تصفونه إذ به قد صار قنفذًا بحريًّا». هكذا أنهى السيد بيجوتي كلامه، مستريحًا من جديته بضحكة رنانة.

ضحكت أنا وبيجوتي، من دون أن نصدر صوتًا عاليًا.

قال السيد بيجوتي، بوجه مبتهج، بعد أن زاد حركته بفرك ساقيه: «كما تعلم، إنني أحسب أن هذا الرأي يرجع إلى لعبي معها كثيرًا، وتمثيلي لها بأنني من الأتراك، أو الفرنسيين، وأسماك القرش، وجميع الغرائب والعجائب. وتقليدي للأسود والحيتان، وما لا أعرف عنه شيئًا كذلك. كانت لم تزل في حيز أعلى قليلًا من ركبتي. لقد واصلت طريق الحياة، كما تعلمون حتى وصلنا إلى أن تكون هذه الشمعة مضاءة هنا الآن». راح السيد بيجوتي يشير إلى الشمعة بسعادة ثم استطرد قائلًا: «أعلم جيدًا أنني سأسهر أناجي الليالي حين ترحل عن هنا، أو أرحل أنا - فأي مكان سواه سأعيش فيه، مهما أوتيت من حظ وفير، حمدًا لله! - إلا أنني سأضع شمعة في مكانها المعتاد، وأجلس أمام نار الموقد، متظاهرًا أنني أتوقع مجيئها، كما أفعل الآن. هذه هي الحقيقة التي تثرثرون حولها، طفل على هيئة قنفذ بحري. صدقًا، إنني أرى الشمعة تنير في اللحظة الحالية، فأقول لنفسي: «إنها تنظر إليها، إيميلي قادمة»، ها هو الطفل في هيئة قنفذ بحري»، توقف عن قهقهته التي تشبه الزئير، وراح يقلب كفيه معًا قائلًا: «ها هو ما يؤيد مقولتي؛ ها هي قد وصلت».

لم يكن القادم سوى هام. ويبدو أن المطر قد ازداد كثافة بعد أن وصلت إلى البيت لأنه كان يرتدي قبعة كبيرة تقطر ماء على وجهه.

قال السيد بيجوتي: «أين إيميلي؟».

قام هام بحركة برأسه، كما لو أنه يشير إلى أنها في الخارج. أخذ السيد بيجوتي الشمعة من النافذة، وسوَّى ذبالتها، ووضعها فوق المنضدة، ثم انشغل بإثارة نيران المدفأة، بينما مكث هام مكانه من دون حراك وأخذ يقول:

«هلا أتيت يا سيد ديفي لدقيقة واحدة لترى ما سأعرضه عليك أنا وإيميلي؟».

خرجنا. ما إن مررت بالباب حتى رأيت ما أثار دهشتي وخوفي، فقد بدا هام شاحبًا إلى أبعد الحدود. دفعني على عجل إلى الهواء الطلق، ثم أغلق الباب من ورائنا، فلم يعد يرافقنا أحد.

قلت: «يا هام، ماذا جرى؟».

قال: «يا سيد ديفي...»، آه على قلبه المكسور، كم بكى بكاءً مروعًا!

لقد أصبت بشلل أمام هذا المشهد المفجع. لا أعرف ما فكرت به حينها، أو ما الشيء الذي روعني. لم أستطع سوى النظر إليه.

قلت: «يا هام، أيها المسكين، فلتخبرني ما الأمر بحق السماء».

«إن حبيبتي يا سيد ديفي... فخر حياتي وأمل قلبي التي مت من أجلها، وسأموت الآن من أجلها أيضًا... لقد ذهبت».

«ذهبت؟».

«لقد هربت إيميلي، آه يا سيد ديفي، فكِّر كيف هربت، كيف أتضرع إلى الله فأطلب منه أن أتمكن من قتلها، وهي التي كانت غالية عزيزة لا تضاهي شيئًا قبل أن تسمح لنفسها بأن تجلب الخراب والعار؟».

لم تزل ذاكرتي تحفظ إلى الآن مشهد وجهه الذي رفعه نحو السماء المضطربة، وارتعاشة يديه المشبوكتين، وآلامه البادية عليه، بل لم يزل هذا المشهد مقرونًا بالمكان الموحش المقفر الذي حاوطنا. يتراءى لي هذا المشهد دائمًا في ليله الحالك، مسيطرًا على جنباته الموحشة.

قال على عجل: «إنك إنسان مثقف، وتعرف ما خير الفعال وأصحها. ماذا أقول للناس في الداخل؟ كيف أبوح لهم بهذا الخبر يا سيد ديفي؟».

رأيت الباب يتحرك، وحاولت غريزيًّا إمساك المزلاج من الخارج، لأحصل على مزيد من الوقت. كان الوقت قد فات، فقد أطل السيد بيجوتي بوجهه، ولا يمكنني أن أنسى التغيير الذي طرأ على ملامح وجهه بعدما رآنا، لن أنسى ولو حييت خمسمائة عام تالية.

أتذكر النحيب والصراخ المهيب، حتى تعلقت المرأتان به، بينما كلنا نقف جميعًا في الغرفة، وكنت ممسكًا بورقة في يدي كان هام أعطاني إياها. راح السيد بيجوتي ينظر نحوي في جمود، بسترته المفتوحة، وشعره المنفوش، ووجهه وشفتيه شاحبتين كأن الدماء تسيل من صدره، وأحسب أنه راح يتنفس من فمه.

قال بصوت خفيض يرتجف: «اقرأها يا سيدي. اقرأها ببطء من فضلك، حتى أفهم ما لم أستطع أن أفهمه».

وفي خضم صمت الموت قرأت هذه الرسالة الملطخة وكانت كالآتي:

«عندما ترى هذه الرسالة يا من تحبني أكثر مما أستحق في أي وقت كان، حتى عندما كان ذهني بريئًا، سأكون قد ابتعدت».

كرر كلماتي ببطء: «سأكون قد ابتعدت. قف، إيميلي تذهب بعيدًا. حسنًا».

«عندما أغادر بيتي العزيز- وبلدي العزيز- آه يا بيتي العزيز- في الصباح...».

كانت الرسالة تحمل تاريخ الليلة السابقة:

«فلن أعود أبدًا، ما لم يعيدني إليه وأنا سيدة. ستعثرون على هذه الرسالة في الليل، بعد عدة ساعات، بدلًا مني. آه، لو تعرف كيف يتمزق قلبي! لو كنت أنت، من ظلمته أشد الظلم، فلا يمكنه أن يغفر لي؛ لما أمكنك إلا أن تعرف ما أعانيه! إنني في غاية الشر حتى إنني لا أستطيع إلا أن أكتب عن نفسي! آه، يمكنك أن تتأكد أني لست سوى إنسانة سيئة إلى أبعد الحدود. آه، إني أناشدك باسم الرحمة أن تخبر عمي أنني لم أحبه قَطُّ نصف قدر حبي له الآن. آه، عليك ألا تتذكر الآن كم كنتم جميعًا محبين وكرماء معي، لا تتذكر أننا كنا سنتزوج يومًا ما، ولكن حاول أن تتصور أنني مت حين كنت صغيرة، ودُفنت في مكان ما. صلِّ

وتضرع إلى الله بعد أن أذهب بعيدًا حتى يرحم عمي! أخبره أنني لم أحبه قَطُّ نصف ما أحببته الآن. كن معزيه. فلتحب فتاة طيبة لتكون لك مثلما كنت لعمي، فتصير صادقة معك، وجديرة بك، فلا تعرف من العار غيري. فليبارك الله الجميع. سأصلي من أجل الجميع، راكعة متضرعة دومًا من أجلكم. إذا لم أعد إليكم سيدة، فلن أصلي من أجل خلاص نفسي، سأصلي من أجل الجميع فقط. وداعًا عمي الحبيب. ها هي آخر دموعي، وشكري الأخير لعمي».

كان هذا هو كل شيء.

ظل واقفًا لفترة طويلة بعد توقفي عن القراءة، ولم يزل ينظر إليَّ. تجرأت أخيرًا فأمسكت بيده ورحت أرجوه قدر استطاعتي بأن يحاول أن يتمالك نفسه. أجاب قائلًا: «أشكرك يا سيدي، أنا شاكر لك»، من دون أن يتحرك.

تحدث هام إليه، إلا أن تفكير السيد بيجوتي ظل منصرفًا إلى محنته في هذه اللحظة، حتى إنه قام بالضغط على يده ثم تصلب في مكانه، فلم يجرؤ أحد على إزعاجه.

حرك عينيه ببطء في النهاية وحوَّلها عن وجهي، كما لو أنه يستيقظ من حلم، وأخذ يدير نظراته في أرجاء الغرفة. ثم قال بصوت خفيض:

«من هذا الرجل؟ أريد أن أعرف اسمه».

نظر هام إليَّ، وقد صفعني هول المفاجأة وصدمت مرة أخرى.

قال السيد بيجوتي: «ثمة رجل مُشتبَه به. فمن يكون هذا الرجل؟».

قال هام متوسلًا: «يا سيد ديفي، فلتخرج لبعض الوقت، ودعني أخبره بما يجب عليَّ أن أقوله له، وليس بوسعك أن تسمع ما سأقوله يا سيدي».

عاودني الشعور بالصدمة من جديد. هبطت جالسًا على كرسي وحاولت أن أجيب، ولكن عقدة لساني لم تفك وغام بصري.

سمعته يقول مرة أخرى: «أريد أن أعرف اسمه».

تلعثم هام قائلًا: «في وقت مضى، جاء خادم إلى هنا، وراح يتجول في أوقات غريبة. كان معه سيد أيضًا. كان كل منهما ينتمي إلى الآخر».

وقف السيد بيجوتي ثابتًا كما كان من قبل، لكنه راح الآن ينظر نحوه.

تابع هام كلامه قائلًا: «شوهد الخادم مع فتاتنا المسكينة الليلة الماضية. لقد كان مختبئًا هنا، هذا الأسبوع أو أكثر. كنا نظن أنه رحل، لكنه كان مختبئًا. لا تبقَ يا سيد ديفي، لا تبقَ».

شعرت بذراع بيجوتي تطوق رقبتي، لكن لم أستطع التحرك وأحسست كما لو أن المنزل على وشك السقوط على رأسي.

ثم استطرد هام قائلًا: «ظهرت عربة غريبة تجرها الخيل واقفة خارج المدينة، في هذا الصباح، على طريق نورويتش، قبل حلول النهار تقريبًا. فذهب إليها الخادم ثم عاد وذهب إليها مرة ثانية. كانت إيميلي تسير بالقرب منه في المرة الثانية. وكان الرجل الآخر في داخل العربة. إنه هو الرجل».

قال السيد بيجوتي بعد أن تراجع وبسط يده كما لو أنه يزيح عنه ما يخافه: «رجاء محبة في الله، لا تقل إن اسمه ستيرفورث».

هتف هام بصوت منكسر: «يا سيد ديفي، إنه ليس ذنبك -وإني لأبعد الأمر كل البعد عنك- لكن اسمه ستيرفورث، وهو لشرير ملعون».

لم يصرخ السيد بيجوتي، ولم يذرف دمعة، ولم يحرك ساكنًا، حتى بدا وكأنه يستيقظ فجأة مرة أخرى، ثم سحب معطفه الخشن من الشماعة القابعة في إحدى زوايا الغرفة.

قال بنفاد صبر: «ساعدوني على ارتداء هذا، لقد ضعفت، ولا أستطيع أن أفعل ذلك وحدي. ساعدوني». قام أحدنا بالأمر، فقال السيد بيجوتي: «حسنًا، الآن ناولني هذه القبعة».

سأله هام إلى أين هو ذاهب.

قال: «إني ذاهب للبحث عن ابنة أخي. إني ذاهب للبحث عن إيميلي عزيزتي. إني ذاهب، أولًا، للبحث عن ذلك القارب، وإغراقه حيث كان، لأنني روح حية. فإذا كانت لديَّ فكرة واحدة عما يدور بداخله! بينما كان جالسًا أمامي...». تحدث بعنف، قابضًا على يده اليمنى المشدودة: «بينما كان جالسًا أمامي، وجهًا لوجه، لضربني حتى الموت، أو كنت مغرقه، ففعلت به عين الصواب. إني ذاهب للبحث عن ابنة أخي».

صرخ هام، مندفعًا نحوه أمام الباب: «إلى أين؟».

«إلى أى مكان، إني ذاهب للبحث عن ابنة أخي في أرجاء العالم. سأجد ابنة أخي المسكينة فأعيدها عن عارها. لن يمنعني أحد، أقول لك إنني سأبحث عن ابنة أخي».

صرخت السيدة جامدج وانخرطت في نوبة بكاء، وقد وقفت حائلة بينهما: «لا، لا. لا، لا، يا دانيال، ليس وأنت في هذه الحالة الآن. ابحث عنها بعد قليل. يا دانيال أيها البائس الوحيد، سيكون هذا غير صحيح، ليس وأنت في هذه الحالة الآن. اجلس، وسامحني لأني كنت مصدر إزعاج لك يا دانيال - ما هذا الحظ الذي يعاندني دومًا؟! - دعنا نتحدث حديثًا واحدًا عنها عندما كانت يتيمة صغيرة، وكان هام يتيمًا أيضًا، وعندما كنت امرأة فقيرة وأرملة، ثم شملتني برعايتك. سوف يلين قلبك المسكين يا دانيال». أسندت رأسها على كتفه واستطردت قائلة: «وستقوى على تحمل حزنك، لأنك تحفظ الوعد يا دانيال «بِمَا فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلَاءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ»[1] وهذا ما لا يمكن أن يفشل تحت هذا السقف، لقد كان ملجأ للكثيرين، فآوانا لسنوات عديدة».

ظل ساكنًا تمامًا حتى هذه اللحظات، إلى أن سمعته يبكي، فما كان عليَّ إلا أن أركع متوسلًا العفو والغفران عن هذا الخراب الذي سببته، وأن ألعن ستيرفورث، وقد جعلني هذا الشعور في حال أفضل. فإذا بقلبي المحموم يجد السكينة، وانخرطت بدوري في البكاء.



(١) آية من الكتاب المقدس، إنجيل متى (٢٥: ٤٠).

الفصل الثاني والثلاثون

بداية رحلة طويلة

أدركت أن ما يدور بداخلي من أمور طبيعية، هي أمور طبيعية أيضًا عند كثير من الرجال، لذلك فإنني لن أخجل من أن أُدون أنني لم أحب ستيرفورث قَطُّ بصورة أفضل مما أحببته بعدما تكسرت الروابط التي كانت تربطني به. كنت في ضيق بالغ جعلني أكتشف دونيته، إلا أنني رحت أفكر في مختلف الصفات اللامعة فيه، ثم خففت من وهجي تجاه كل ما يحمله من صفات طيبة؛ رحت أنصف الصفات التي ربما تجعله رجلًا من النبلاء، ذا خلق عظيم واسم شهير، وكنت بذلك التصور في ذروة إخلاصي له من أي وقت مضى.

تعمق لديَّ شعور بأنني سبب في تلوث سمعة هذا المنزل الشريف من دون أن أدري، ولكني أظن أنني لم أكن لأوجه إليه لومًا لو تقابلت معه وجهًا لوجه. لم أزل أكن له حبًّا حتى الآن، على الرغم من أنه لم يعد يسحرني أو يأسرني. تمسكت أكثر بحنيني لذكرى محبتي له، وأحسب أنني ضعيف أمامها مثل طفل جريح الروح، لكني كنت لأستسلم أمام أي فكرة سوى أن نعود كما كنا في يوم من الأيام، فلم تدُر هذه الفكرة

في بالي يومًا ولم أكن لأفعل. شعرت - كما شعرت من قبل - أن كل شيء قد انتهى بيننا. انقشعت ذكرياته عندي، كما لو أنني لم أعرفها قَطُّ - أو ربما كانت خافتة بما يكفي لتجاهلها بسهولة - بل صارت ذكرياتي معه كذكرى صديق عزيز مات.

نعم يا ستيرفورث، لقد أُزِحت بعيدًا عن كواليس هذا التاريخ الأليم، قد يشهد حزني عليك أمام عرش الدينونة، أما أفكاري الغاضبة أو توبيخي لك فلن يجدي نفعًا أبدًا، أنا موقن من ذلك.

انتشرت أنباء ما حدث سريعًا بين أرجاء المدينة، حتى إنني ما إن مررت بالشوارع في صباح اليوم التالي حتى سمعت الناس يتحدثون عنها على أبواب منازلهم. كان الكثير من الناس قساة عليها، وقليل منهم كانوا قساة عليه، إلا أن شعورًا واحدًا طغى تجاه والدها الثاني وحبيبها، فقد ساد بين الجميع احترام لهما في محنتهما، وشعور مفعم بالوداعة والرقة لحالهما. مكث الملاحون بعيدًا، بعد أن شاهدوا الرجلين يسيران في وقت مبكر بخطوات بطيئة نحو الشاطئ، فوقفوا يتحدثون فيما بينهم رائفين بحالهما الأليمة.

التقيت بهما على الشاطئ. كان من السهل ملاحظة أنهم لم يناما طوال الليلة الماضية، حتى لو لم تخبرني بيجوتي أنهما ظلا جالسين كما تركتهما، حتى حل النهار. كانا يبدوان منهكين، بل أحسب أن رأس السيد بيجوتي قد انحنى في ليلة واحدة أكثر مما انحنى في كل السنوات الماضية التي عرفته فيها. لكنهما كانا على القدر ذاته من رباطة الجأش والثبات كما البحر ذاته، فقد كانا يرقدان تحت قبة السماء القاتمة، بلا

موجات، أما إذا اهتاج لنوة ثقيلة، كان كمن يتنفس الصعداء لراحته، بينما هو في أفق بعيد يكاد يلامسه بشريط فضي من ضوء الشمس غير المرئي.

قال لي السيد بيجوتي بعدما سار ثلاثتنا قليلًا في صمت: «لقد تحدثنا كثيرًا يا سيدي عما يجب علينا فعله وما لا يجب. وإننا لنرى مسارنا واضحًا الآن».

ألقيت نظرة على هام، فإذا به ينظر نحو البحر حيث ذاك الضوء البعيد، فأحسست أنه قد خطرت على باله فكرة مروعة، ليس لأن قسمات وجهه صارت غاضبة، لأنه لم يكن كذلك، بل إنني لا أذكر سوى تعبيره عن عزم صارم، مفاده أنه إذا قابل ستيرفورث يومًا فسوف يقتله.

قال السيد بيجوتي: «لقد انتهيت يا سيدي من مهمتي. إني ذاهب للبحث عن...»، أمسك عن الكلام ثم تابع بصوت أقوى: «إني ذاهب للبحث عنها. هذا هو واجبي وشأني إلى الأبد».

هز رأسه عندما سألته أين سيبحث عنها، وإذا به يسألني عما إذا كنت سأذهب إلى لندن غدًا. أخبرته أنني لم أسافر اليوم، خوفًا من أن أفقد فرصة أن أسدي أي خدمة إليه، لكنني على استعداد للذهاب وقتما يشاء.

قال: «سأذهب معك يا سيدي، إذا وافقت على السفر غدًا».

تمشينا مرة أخرى، في صمت ساد لبعض الوقت، إلى أن استأنف حديثه قائلًا: «أما هام، فسيبقى على عمله الحالي، وسيذهب ليعيش مع أختي. أما القارب القديم هناك...».

قاطعته برفق وقلت: «هل ستتخلى عن القارب القديم يا سيد بيجوتي؟».

أجابني قائلًا: «كان القارب محطتي ومقامي يا سيد ديفي، وقد يتعثر أو يتحطم بعد أن يغمر الظلام وجه هذا اليم، ولكن لا يا سيدي. لا أقصد أن يصير مهجورًا. لن نهجره أبدًا».

مشينا من جديد لفترة كما في السابق حتى أوضح كلامه قائلًا:

«إنني أتمنى يا سيدي أن يبقى ليلًا ونهارًا، ويصمد شتاء وصيفًا، كما كان يبدو دائمًا، منذ أن عرفته أول مرة. فإذا عادت إليه من التيه مرة أخرى، فلن أدع هذا المكان القديم يبدو وكأنه قد طردها يومًا. هل تفهمني؟ بل يجب أن يبدو لها مغريًا فتتوجه إليه إلى أقرب حد ممكن، وتتأمله، ربما مثل الشبح، أو عبر الرياح والأمطار، أو عبر الفراغ القديم للنافذة فتطل على المقعد القديم بجوار المدفأة. ثم، ربما يا سيد ديفي، لا ترى شيئًا سوى السيدة جامدج هناك، وقد تتشجع لتتسلل إليه وهي ترتجف، ثم تستلقي على سريرها القديم، وتريح رأسها المرهق حيث كانت ذات يوم تنعم عليه مستريحة».

لم أتمكن من الرد عليه على الرغم من محاولتي.

تابع السيد بيجوتي كلامه قائلًا: «وفي كل ليلة، سيحل الظلام، وستكون الشمعة منتصبة في مكانها القديم عند النافذة، وإذا كان عليها أن تراها، فقد يبدو أنها تقول «ارجعي يا طفلتي، تعالي»، إذا حدث في أي وقت يا هام أن صدر صوت طرق؛ طرق ناعم من نوع خاص، على باب عمتك، لا تقترب

منه. فلتكن هي - وليس أنت - التي ترى طفلتي الساقطة».

سار أمامنا فتقدمنا قليلًا، وظل على حالته لبضع دقائق. ألقيت نظرة خاطفة خلال هذه الفترة على هام مرة أخرى، فلاحظت التعبير ذاته يعود إلى وجهه، وقد مكثت عيناه متطلعتين نحو الضوء البعيد، فلمست ذراعه.

ناديته باسمه مرتين، بنبرة تشبه ما قد أحاول بها إيقاظ نائم، قبل أن يستجيب لندائي. سألت أخيرًا عما يدور في خاطره ويسيطر عليه، فأجاب: «أفكر فيما يدور أمامي يا سيد ديفي». وكان يشير إلى البحر في ارتباك.

فسألته: «هل تقصد أنك تفكر في الحياة التي أمامك؟».

راح ينظر إليَّ كما لو كان مستيقظًا لتوِّه، ولكن بالوجه الحازم نفسه، وقال: «يا سيد ديفي، لا أعرف حقًّا ما أنظر إليه، ولكن يبدو لي أن النهاية آتية من مكان مثل ذاك البعيد...».

سألته بعد أن عاودني الخوف: «أي نهاية؟».

قال بتمعن: «لا أعرف. كنت أفكر في أن بداية كل شيء قد حدثت هنا، ثم حلت النهاية. لقد انقضى كل شيء». استطرد حديثه بينما بدا كما لو أنه يجيب نظراتي إليه، فقال: «يا سيد ديفي، لا داعي لأن تكون خائفًا بعيدًا عني، لست إلا مشوشًا كدرًا، لا أستطيع أن أشعر بأي شيء». كانت حالته أقرب إلى ما يمكن وصفه بأنه لم يكن هو، بل كان مرتبكًا تمامًا.

توقف السيد بيجوتي لكي ننضم إليه، وهذا ما فعلناه من دون أن نتفوه بكلمة واحدة. ومع ذلك، فإن ذاكرتي ظلت محتفظة بما يتعلق بفكرتي السابقة، وراحت تطاردني على فترات، حتى جاءت النهاية الحتمية في الوقت المحتوم.

اقتربنا من القارب القديم من دون أن نشعر، فدخلناه. لم نجد السيدة جامدج جالسة في ركنها الخاص، بل كانت مشغولة بإعداد الإفطار. تناولتْ قبعة السيد بيجوتي، وجهزت له مقعده، وتحدثت إليه بسلاسة ونعومة، لدرجة أنني لم أكد أعرفها من فرط اختلافها.

قالت: «يا دانيال، يا رجلي الطيب، يجب أن تأكل وتشرب، وتحافظ على قوتك، لأنك من دونها لن تقوى على فعل شيء الآن. حاول، إن روحك عزيزة، إذا أزعجتك بنقرتي -لقد كانت تعني ثرثرتها- فلتخبرني بذلك يا دانيال حتى أكف».

كانت في خدمتنا جميعًا، وما إن انتهت حتى انسحبت إلى النافذة، وراحت تعمل بهدوء في إصلاح بعض القمصان والملابس الأخرى التي يملكها السيد بيجوتي، ثم طوتها بعناية ودستها في حقيبة قديمة من الجلد، تشبه الحقائب التي يحملها البحارة، في غضون ذلك راحت تواصل حديثها بنفس الطريقة الهادئة.

قالت السيدة جامدج: «تعلم يا دانيال أنني سأكون دومًا هنا في كل الأوقات والمواسم، سأكون هنا دومًا، وسأعمل كل شيء لأجعل البيت يوافق كل رغباتك. إنني لم أتعلم الكثير، لكني سأكتب إليك، في أوقات غربتك عندما تكون بعيدًا، وسأبعث برسائلي إلى سيد ديفي.

ربما ستكتب لي أيضًا يا دانيال في أوقات غربتك، لتخبرني عن مشاعرك وأحوالك في أيامك الموحشة».

قال السيد بيجوتي: «ستكونين امرأة منعزلة وحيدة وأنا في غربتي».

قالت: «لا، لا يا دانيال، لن أكون كذلك. لا تشغل بالك بأمري. سأحظى بما يكفي من الأعمال لأبقيه من أجلك» - كانت السيدة جامدج تعني المنزل - «ستعود مرة أخرى لتسترد وجودك هنا، فتقيم كما يقيم أي إنسان يا دانيال. سأخرج من باب البيت في الوقت المناسب، كما كنت أفعل. وإذا اقترب أي إنسان، فسوف يرى أن الأرملة العجوز لم تزل وفية على طول الأمد».

يا له من تغير مهيب أحاط بالسيدة جامدج في وقت قصير! لقد صارت امرأة أخرى. تجلى إخلاصها اللا متناهي، وصارت تتمتع بسرعة بديهة لما يجب أن يقال، وما الذي ينبغي السكوت عنه. نسيت نفسها وتفانت واحترمت حالة الحزن التي أحاطتنا، حتى إنني صرت أضعها في مكانة عالية من التبجيل. ويا لروعة ما قامت بفعله في ذلك اليوم! إذ كان من الضروري إحضار العديد من الأشياء لنقلها من الشاطئ وتخزينها في المبنى الخارجي، مثل المجاديف والشباك والأشرعة والحبال والساريات وأواني السلطعون والأوزان وما شابه، وعلى الرغم من وفرة المساعدة المقدمة حينها، حيث لم يبخل أي عامل موجود على هذا الشاطئ بالمساعدة، ولم يتخاذل أحد عن العمل بجد من أجل السيد بيجوتي، ولم يكن هو ليبخس أجر من يطلب منه القيام بأي عمل، إلا

أن السيدة جامدج كانت قد أصرت على العمل والكدح طوال اليوم في حمل الأشياء الثقيلة والتي كانت لا تتناسب مع قدراتها على الإطلاق، بل أخذت تعمل ذهابًا وإيابًا في جميع أنواع المهمات حتى لو كانت غير ضرورية. أما بالنسبة لشكواها من مصائبها، فقد بدت كما لو أنها فقدت ما تذكره تمامًا عن أي مصائب. لقد حافظت على نوع من البهجة المعتدلة في خضم تعاطفها، والتي لم تكن أقل دهشة من التغيير الذي طرأ عليها. كان الجدال غير وارد، ولم ألاحظ على صوتها أي تداعٍ، بل لم أبصر أي دمعة قد تفر من عينيها طوال اليوم حتى حل الشفق. صرت أنا وهي والسيد بيجوتي وحدنا، وقد نام في حالة من الإرهاق التام، فإذا بها أصيبت بنوبة نصف مكبوتة من البكاء والنحيب، ثم رافقتني إلى الباب، وقالت: «فليحفظك الله دومًا يا سيد ديفي، ولتكن صديقًا له، فيا له من مسكين!»، ثم هربت على الفور من المنزل لتغسل وجهها، حتى تجلس بجانبه في هدوء، فيجدها إذا استيقظ في أي وقت منهمكة في عملها حيث مكانها المعهود. باختصار، لقد تركتها واستسلمت للنوم، وقد كانت خير داعم ومعين في محنة السيد بيجوتي، ولم أستطع التأمل بدرجة كافية في هذا الدرس الذي تلقيته من السيدة جامدج لأكتشف خبايا هذه التجربة.

رحت أتجول حزينًا بين أرجاء المدينة، وكانت الساعة بين التاسعة والعاشرة صباحًا حين توقفت عند باب السيد عمر. أخبرتني ابنته أن السيد عمر متأثر بالأمر إلى أبعد حد، وأنه ظل في حال سيئة للغاية طوال اليوم، وقد أوى إلى الفراش من دون غليونه.

قالت السيدة جورام: «يا لها من فتاة مخادعة خبيثة القلب. لا خير يرجى منها على الإطلاق».

قلت: «لا تقولي هذا. إن هذا ليس رأيكِ».

صرخت السيدة جورام بغضب: «بل هو رأيي».

قلت: «لا، لا».

طوحت السيدة جورام رأسها جاهدة لتبدو شديدة الصرامة والحزم، لكنها لم تستطع السيطرة على نفسها، وبدأت في البكاء. كنت شابًّا صغيرًا، فأحسنت الظن بها وتعاطفت معها، وتخيلت أنها زوجة وأم فاضلة على أفضل نحو ممكن.

بكت ميني قائلة: «ماذا ستفعل في أيامها؟ إلى أين ستذهب؟ ماذا سيحدث لها؟ آه، كيف يمكن أن تكون بهذه القسوة على نفسها وعليه؟».

تذكرت الوقت الذي كانت فيه ميني فتاة صغيرة وجميلة. وكنت سعيدًا لأنها تذكرت ذلك أيضًا بشعور صادق.

قالت السيدة جورام: «إن صغيرتي ميني، لم تنَم إلا لحظات، وقد ظلت في نومها تبكي من أجل إيميلي. بكت ميني الصغيرة من أجلها طوال اليوم، وراحت تسألني مرة تلو أخرى؛ هل إيميلي سيئة؟ ماذا يمكنني أن أقول لها؟ لقد تناولت إيميلي شريطًا من عنقها وربطته حول ميني الصغيرة في الليلة السابقة لرحيلها من هنا، ثم أسندت رأسها على الوسادة جانبها حتى استولى عليها النوم سريعًا، لم يزل الشريط يحيط بعنق ميني الصغير

حتى الآن. ربما لا يجب أن يبقى معها، لكن ماذا أفعل؟ إن إيميلي سيئة للغاية، لكنهما كانا مغرمين ببعضهما، ولا تفقه الطفلة شيئًا».

كانت السيدة جورام حزينة للغاية إلى الحد الذي جعل زوجها يشرع في الاعتناء بها. تركتهما معًا، وذهبت إلى منزل بيجوتي بعد أن صرت أكثر حزنًا مما كنت عليه.

أما هذه المخلوقة الطيبة -أعني بيجوتي- فعلى الرغم من جميع همومها الأخيرة والليالي الطوال التي لم تنم فيها، فإنها ذهبت إلى منزل شقيقها، حيث قصدت البقاء فيه حتى الصباح. أحضرت معها امرأة عجوزًا كانت تعمل في المنزل منذ بضعة أسابيع، بعد أن عجزت بيجوتي عن الاعتناء به. صار المنزل خاليًا إلا منا. لم يكن لديَّ أي شيء يستدعي خدماتها، فصرفتها إلى الفراش، وذهبت رغمًا عنها، ثم جلستُ قليلًا أمام نار المطبخ، لأفكر في كل ما جرى.

رحت أربط كل شيء بمرض الراحل السيد باركس، بينما أشرد بذهني نحو المد حيث الأفق الذي نظر إليه هام نظرة فريدة في الصباح، ثم تنبهت من شرودي على صوت دقات مطرقة الباب. بدا لي أن شخصًا يقرع الباب بكفه، ولم يكن الصوت صادرًا عن المطرقة. كانت يده حانية وضعيفة على الباب، حتى بدت كما لو أنها طرقات طفل.

لقد وثبت إليه كما لو أن طرقاته توحي بقدوم إنسان ذي مكانة عالية. فتحت الباب، فإذا بي أنظر إلى الأسفل في أول الأمر، ويا لدهشتي حين لم أبصر سوى مظلة كبيرة بدت وكأنها تتجول من تلقاء نفسها، إلا أنني اكتشفت بعد لحظات أن تحتها الآنسة ماوتشر.

لم أكن على استعداد لاستقبال هذا المخلوق الصغير استقبالًا طيبًا، بعد أن كشفت لي عن نفسها حين أزالت المظلة التي لم تستطع إقفالها بعد أن بذلت قصارى جهدها. لاح لعيني هذا الوجه «المتقلب» الذي ترك انطباعًا مذهلًا في نفسي بعد أن رأيته في لقائنا الأول والأخير. إلا أنني قابلت وجهها فلم أرَ فيه غير سمات الجدية. أزلت عنها المظلة الثقيلة، التي يعجز عملاق أيرلندي عن حملها، فقامت بعصر يديها الصغيرتين بطريقة بائسة، فصرت بالأحرى أرثي حالها.

ألقيت نظرة خاطفة على الشارع الفارغ، من دون أن أدرك بوضوح ما إذا كان من المتوقع أن أرى شخصًا يرافقها أم لا، فقلت: «الآنسة ماوتشر! كيف أتيتِ إلى هنا؟ ما الخطب؟»، أشارت بذراعها اليمنى القصيرة إلى أن أغلق لها المظلة، ثم تجاوزتني مسرعة ودخلت إلى المطبخ. أغلقت الباب، ثم تبعتها وأنا أحمل المظلة في يدي، فوجدتها جالسة عند زاوية حاجز الموقد -كان مصنوعًا من الحديد القصير، مع قضيبين مسطَّحين في الأعلى لوضع الأواني عليهما- بجوار المرجل، تتمايل إلى الوراء ثم إلى الأمام، وتضرب يديها على ركبتيها في غضب مثل أي شخص يتألم.

شعرت بانزعاج شديد لأنني صرت المتلقي الوحيد لهذه الزيارة المفاجئة، والمتفرج الوحيد على هذا السلوك العجيب، فصرخت مرة أخرى قائلًا: «أرجوكِ يا آنسة ماوتشر، فلتخبريني ما الأمر! هل أنتِ مريضة؟».

أجابت الآنسة ماوتشر، بعد أن أسندت كلتا يديها على قلبها: «يا صغيري العزيز، إنني مريضة هنا، أنا مريضة للغاية. أظن أن الأمر كان

يجب أن يصل إلى هذا الحد، منذ أن عرفت بوقوعه وكان عليَّ منعه، ولكني لم أكن سوى حمقاء طائشة».

أعادت قبعتها الكبيرة إلى رأسها مرة أخرى - لم تكن تناسب حجمها - وراحت تهتز إلى الوراء وإلى الأمام، مع تأرجح جسدها الصغير ذهابًا وإيابًا، وقد راح ظل قبعتها العملاقة يهتز معها في انسجام على الحائط.

قلت: «إنني مندهش من رؤيتكِ حزينة وجادة جدًّا إلى حد أن...».

قاطعتني قائلة: «نعم، هذه هي الحال دائمًا، إنكم تُفاجأون جميعًا، يا معشر الشباب المتهور، لقد كبرتم وبلغتم الحلم، ولم تزالوا تعجبون لرؤية أي شعور طبيعي ينطلق من شيء صغير مثلي، إنكم تعبثون بي مثل اللعبة، وتستخدمونني للتسلية، ثم تلقون بي بعيدًا إذا مللتم. أتندهشون لأنني أشعر ولأنني أكثر من مجرد لعبة أو حصان أو جندي خشبي؟! نعم، نعم، هذه هي حالكم دومًا. إنه دأبكم القديم».

قلت: «قد ينطبق هذا الأمر مع الآخرين، لكني أؤكد لكِ أنني لست على هذه الحال، ربما لا يجب أن أتفاجأ على الإطلاق من رؤيتكِ على هذه الحال الآن، لكنني لا أعرف عنكِ سوى القليل. لقد قلت ما دار بخلدي من دون تفكير».

وقفت المرأة الصغيرة، وراحت تمد ذراعيها لتعبر عن مكنون نفسها، وراحت تقول: «ماذا أفعل؟ انظر، من أنا؟ ومن والدي؟ ومن أختي؟ ومن أخي؟ لقد عملت من أجل أختي وأخي طوال هذه السنوات،

لقد تكبدت العناء طوال الأيام يا سيد كوبرفيلد. يجب أن أعيش، وإنني لا أؤذي أي إنسان. إذا قسا عليَّ بعض الأشخاص أو لم يرقوا لحالي، أو أخذوا يسخرون مني، فما الذي يتبقى لي لأفعله سوى أن أجعل من نفسي مزحة، وأسخر منهم، ومن كل شيء؟ إذا فعلت ذلك، في الوقت الحالي، فمن المذنب؟ هل أنا الملومة؟».

أوجست في نفسي قولي لا. لا ملامة على الآنسة ماوتشر.

راحت المرأة الصغيرة تهز رأسها في وجهي، في جدية مؤلمة، واستطردت قائلة: «إذا كنت قد أظهرت نفسي قزمة حساسة أمام صديقك المزيف، فما مقدار معونته أو نيته الحسنة التي كنت سأتحصل عليها منه؟ إذا كانت ماوتشر الصغيرة -التي لم يكن لها يد في خلق هيئتها، أيها الشاب النبيل- قد لجأت إليه، أو ما شابه، في مصائبها، فهل تظن أن صوتها الصغير قد يُسمع؟ كانت ماوتشر الصغيرة في حاجة ماسة للعيش، حتى لو كانت أسخف الأقزام وأبلدهم، لكنها لم تستطع تدبر حالها. لا، وإن هي فعلت فإنها ستصفر من أجل قوت عيشها حتى تموت في العراء».

جلست الآنسة ماوتشر عند الحاجز مرة أخرى، وتناولت منديلها ومسحت عينيها.

قالت: «فلتكن ممتنًّا لي، إذا كنت صاحب قلب طيب، وإني لأحسب أنك تمتلكه، بينما أعي جيدًا ما أنا عليه، ويمكنني أن أظل مبتهجة متحملة كل شيء. إنني ممتنة شاكرة لنفسي على أي حال، لأنني

أستطيع أن أشق طريقي الصغير في هذا العالم، من دون أن أكون مدينة لأحد. وإنني مقابل ما يلقى إليَّ من فتات، سواء بحماقة أو بغرور، فإنني أتقدم لأرمي إليهم الفقاعات وفارغ الحديث مرة أخرى. إذا لم أفكر في كل ما أحتاج إليه للعيش، فستغدو الحياة أفضل لي، من دون أن أضر أي إنسان. إذا كنت لعبة بالنسبة لكم أيها العمالقة، فلتتحلوا باللطف معي».

دست الآنسة ماوتشر منديلها في جيبها، وراحت تنظر إليَّ بتفرس طوال الوقت، وتابعت حديثها قائلة:

«رأيتك في الشارع منذ لحظات. قد تفترض أنني لا أستطيع أن أمشي بالسرعة التي تسير بها، وأنا بهذه الساق القصيرة وأنفاسي المتقطعة، فلم أستطع اللحاق بك، ولكنني خمنت من أين أتيت فجئت بعدك. لقد كنت هنا أمس، لكن المرأة الطيبة لم تكن في المنزل».

سألته: «هل تعرفينها؟».

فأجابت: «أعرف عنها بعض الأشياء من عمر وجورام. كنت هناك في السابعة صباح ذاك اليوم، فهل تتذكر ما قاله لي ستيرفورث عن هذه الفتاة التعيسة، في ذلك الوقت عندما رأيتكما في الفندق؟».

بدأت القبعة الكبيرة التي تعلو رأس الآنسة ماوتشر، وظل القبعة الأكبر المنسدل على الحائط، في التأرجح إلى الخلف والأمام مرة أخرى بعدما طرحت هذا السؤال.

تذكرت ما أشارت إليه بالضبط، بعدما رحت أفكر فيما جرى في ذاك اليوم عدة مرات، فقلت لها إنني تذكرت.

قالت المرأة القصيرة، بعد أن رفعت سبابتها ووجهتها بيني وعينيها اللامعتين: «فلتحل عليه لعنة الشيطان، ولتحل عشر لعنات على ذاك الخادم الشرير، لكنني أظن أنك مَن تكن لها شغفًا صبيانيًّا جارفًا».

سألتها: «أنا؟».

صرخت الآنسة ماوتشر، وهي تفرك يديها بفارغ الصبر، بينما تمايل مرة أخرى عند الحاجز: «أيها الطفل، أيها الطفل، باسم القدر الأعمى؛ لماذا امتدحتها إلى هذا الحد، ثم انتابك الخجل، وبدا عليك الانزعاج؟».

لم أستطع أن أخفي عن نفسي أنني فعلت هذا، على الرغم من أن السبب كان مختلفًا تمامًا عما افترضته.

كانت الآنسة ماوتشر تخرج منديلها مرة أخرى، بينما تدب الأرض بضربة صغيرة كلما قربته من عينيها بكلتا يديها، على فترات قصيرة وفي وقت واحد، وراحت تقول: «أما كيف عرفت؟ فلأنني رأيته يجتازك ويجادلك بينما رأيتك لينًا ناعمًا كالشمع طيعًا بين يديه. ما إن غادرت الغرفة بدقيقة، حتى أخبرني خادمه أن «الشاب البريء» - هكذا دعاك، ويمكنك أن تسميه «الذنب القديم» حتى آخر يوم في حياتك - قد أخضع قلبه لها، وصار مفتونًا بها محبًّا لها، لكن سيده مصمم على عدم حدوث أي ضرر - من أجلك لا من أجل مصلحتها - وأن هذا الأمر هو شغلهم الشاغل هنا. كيف أثق به؟ ولكن لم يسعني سوى تصديقه. رأيت ستيرفورث يتودد إليك ويرضيك بمدحه لها، كنت أول من ذكر اسمها، وأقررت بإعجابك القديم بها. راحت حرارتك تزداد

ثم تنخفض، وراح وجهك يحمر ثم يبيض، وهكذا في آن واحد كلما تحدثت إليك عنها. ما الذي يمكن أن أفكر فيه -ما الذي أتصوره- إلا أنك كنت شابًّا متسامحًا في كل شيء، عديم الخبرة، وقد وقعت بين يدي إنسان ذي خبرة كافية، يمكنه إدارتك والسيطرة عليك؟! أكان يدعي أنه يوجهك إلى مصلحتك؟». ابتعدت الآنسة ماوتشر عن الحاجز، وقد راحت تتحرك ذهابًا وإيابًا في المطبخ، بعد أن رفعت ذراعيها القصيرتين تعبيرًا عن الألم، وراحت تصيح قائلة: «آه، آه، آه، لقد كانا خائفين من أن أكتشف الحقيقة، لأنني شيء صغير حاد النظر -أحتاج إلى التبصر، حتى أشق طريقي عبر هذا العالم!- لقد خدعاني تمامًا، فأعطيت الفتاة المسكينة التعيسة رسالة، وأكبر ظني أنها كانت بداية حديثها إلى ليتيمر، الذي تُرك هنا لهذا الغرض».

وقفت مشدوهًا بعد الكشف عن كل هذا الغدر، ورحت أنظر إلى الآنسة ماوتشر بينما تتجول في المطبخ جيئة وذهابًا حتى تقطعت أنفاسها. جلستْ عند الحاجز مرة أخرى تجفف وجهها بمنديلها، وراحت تهز رأسها لفترة طويلة، من دون أن تحرك باقي جسدها، ومن دون أن تكسر حاجز الصمت الذي ساد.

أخيرًا أضافت بإسهاب قائلة: «انتهى بي المطاف في الريف في بلدة نورويتش يا سيد كوبرفيلد، في الليلة قبل الماضية. إن ما أدركته فورًا هناك، بعد تفكيري في طريقتهما السرية للذهاب والعودة من دونك -وهو أمر غريب- أدى إلى إثارة شكوكي والتفكير في أن ثمة أمرًا خاطئًا يحدث. ركبت الحافلة من لندن الليلة الماضية، حيث عبرت من نورويتش،

فوصلت إلى هنا هذا الصباح. آه، آه، آه، وصلت بعد أن فات الأوان».

انتابت ماوتشر الصغيرة المسكينة ارتعاشة وبرودة بعد كل هذا البكاء والتململ، حتى إنها استدارت نحو الحاجز، ثم وضعت قدميها الصغيرتين الباردتين بين رماد النار لتدفئهما، وجلست تنظر إلى النار، مثل دمية كبيرة. جلستُ على مقعد على الجانب الآخر من الموقد، وانغمست في هواجسي البائسة، ناظرًا إلى النار أيضًا، ملتفتًا أحيانًا إليها.

قالت أخيرًا، وهي تنهض من مكانها: «يجب أن أذهب، لقد تأخر الوقت. لا أظن أنك لا تثق بي، أليس كذلك؟».

التقيت بنظرتها الحادة التي عرفتها بها دومًا، ووجهتها إليَّ حين طرحت عليَّ هذا السؤال من دون أن أستطيع الإجابة بالنفي عن هذا التحدي القصير، ومن دون أن أقر بالموافقة بصورة تامة.

تناولت يدي التي عرضتها عليها لمساعدتها في القيام، ثم نظرت إلى وجهي بحزن قائلة: «هيا، إنك تعلم أنك لم تكن لتسيء الظن بي، لو أنني امرأة كاملة الحجم».

شعرت بأن قولها يحمل كثيرًا من الحقيقة؛ وأحسست بالخجل من نفسي.

قالت وهي تومئ برأسها: «إنك شاب غض. فلتأخذ نصيحتي، حتى وإن كانت من شيء لا يتجاوز ثلاثة أقدام. حاول ألا تربط العيوب الجسدية بالعقلية يا صديقي العزيز، إلا لسبب وجيه».

كانت قد تجاوزَتِ الحاجز الآن، وتجاوزتُ بدوري شكوكي. أخبرتها أنني أظن أنها صدقتني القول في حديثها عن نفسها، وأننا كنا على حد سواء؛ أدوات تعيسة مسخرين بين أيدي غيرنا. شكرتني وقالت إنني رجل طيب.

كانت في طريقها نحو الباب، فإذا بها تنظر نحوي نظرة دهاء، وقد أشارت إليَّ بسبابتها مرة أخرى، ثم صاحت قائلة: «الآن، أنصِت وافهم، لديَّ أسباب بعد ما سمعته - لأن أذني دائمًا مفتوحتان؛ لا أستطيع أن أتجنب مواهبي وصلاحياتي - تجعلني أشك في أنهما سافرا إلى الخارج. أما إذا عادا، أو عاد أي منهما، وأنا على قيد الحياة، فإنني على الأرجح سأعرف بالأمر قبل غيري، لأنني أتصرف كما أفعل الآن، وإني لكاشفة ذلك قريبًا. يجب أن تصير على دراية بكل ما سأعرفه. وإذا كان بإمكاني فعل أي شيء لخدمة الفتاة المسكينة المخدوعة، فإني لن أتردد في خدمتها بأمانة، وليشهد الله على قولي، وإنه من الأفضل لليتيمر أن يلاحقه كلب في ظهره، من أن تلاحقه ماوتشر القصيرة».

لقد أعربت عن إيماني ضمنيًّا بعد هذا البيان الأخير عندما رأيت مظهرها وهي تقوله.

راحت هذه المخلوقة الصغيرة، تلمس معصمي في حنو وعطف قائلة: «لا تثق بي أكثر مما ينبغي ولا أقل من وثوقك في امرأة كاملة الحجم. إذا رأيتني مرة أخرى، على عكس ما أبدو عليه الآن، ومثلما كنت عليه عندما رأيتني لأول مرة، فلتراقب الصحبة التي أكون وسطها.

تذكر أنني شيء صغير عاجز جدًّا ولا حول لي ولا قوة. فكر في حالي في المنزل مع أخ وأخت على شاكلتي، بعدما أنتهي من يوم عملي الشاق. ربما لن تصير قاسيًا عليَّ وترق لحالي، ولن تتفاجأ حين تراني حزينة أو جادة. طابت ليلتك».

بسطت يدي للآنسة ماوتشر، وقد اختلف رأيي فيها تمامًا، ثم فتحت الباب لها حتى تستطيع الخروج. لم يكن من السهل عليها أن تمسك بالمظلة الكبيرة وتجعلها مستقيمة متوازنة بشكل صحيح في قبضتها، ولكنها أخيرًا أنجزت مهمتها بنجاح، ورأيت الشمسية تتمايل في الشارع تحت المطر، من دون أن يبدو أن ثمة شخصًا موجودًا تحتها، إلا حين تسقط زخات أثقل من المعتاد كما لو أنها صنبور مياه مشحونة، فتدفعها جانبًا، ومن ثَم تكشف عن الآنسة ماوتشر وهي تكافح في مشقة حتى تصلح هيئتها من جديد. أسرعت إليها مرة أو اثنتين لمساعدتها بعد زختين قويتين، لكنهما كانتا بلا جدوى بعد اعتدال المظلة مرة أخرى، كما لو أنها طائر ضخم يستعيد هيئته، قبل أن أتمكن من الوصول إليها. دخلت البيت، وأويت إلى الفراش، ثم نمت حتى مطلع الصباح.

في الصباح انضم إليَّ السيد بيجوتي ومربيتي العجوز، وذهبنا في ساعة مبكرة إلى مكتب الحافلات، حيث كانت السيدة جامدج وهام في انتظارنا لتوديعنا.

جذبني هام ونحاني جانبًا، بينما كان السيد بيجوتي يرتب حقيبته بين الأمتعة، فهمس إليَّ قائلًا: «يا سيد ديفي، لقد انهارت حياته تمامًا.

إنه لا يعرف إلى أين سيذهب. لا يعرف ما الذي سيقابله. إنه مقدم على رحلة ستستغرق، بشكل متقطع، بقية أيامه. تذكر كلامي جيدًا، حتى يجد ما يسعى إليه، إنني متأكد من أنك ستكون نعم الصديق، أليس كذلك يا سيد ديفي؟».

قلت: «صدقني، سأفعل ذلك بكل طاقتي». ثم صافحت هام بقوة.

قال: «شكرًا، شكرًا جزيلًا يا سيدي الكريم. يتبقى شيء واحد أريد أن أقوله لك، فأنت تعلم أنني أعمل في وظيفة جيدة يا سيد ديفي، ولا سبيل أمامي الآن لإنفاق الراتب الذي أتحصل عليه. لا فائدة من المال بالنسبة لي، إلا بقدر ما أحيا، فإذا استطعت أن تنفقه لأجله، فسأقوم بعملي مرتاح البال». وهنا تحدث بثبات وبنبرات واثقة، فقال: «وعلى أي حال يا سيدي، يجب أن تتأكد أنني سأعمل بجد في جميع الأوقات، كما يعمل الرجال، وأؤدي عملي بأفضل ما أوتيت من قوة».

قلت له إنني مقتنع بقوله تمامًا. وألمحت إلى أنني آمل أن يأتي الوقت الذي يهجر فيه هذه الحياة المنعزلة التي يفكر في العيش على دربها الآن.

قال وهو يهز رأسه: «لا يا سيدي، لقد مضى كل هذا يا سيدي. لا أحد يستطيع أن يملأ ذاك المكان الفارغ، ولكن عليك أن تضع في اعتبارك المال، فهناك من يكابدون من أجله في جميع الأوقات؟».

ذكَّرته بأن السيد بيجوتي قد حصل على دخل ثابت، وإن كان بلا شك متوسطًا للغاية من تركة صهره، ولكني وعدته بفعل ما أراد. ودَّع

كل منا الآخر. ولم أكن لأستطيع أن أتركه في هذه اللحظة، من دون أن أتذكر بألم، ثباته الرائع وحزنه الشديد.

أما السيدة جامدج، فكيف أصف حالها، بعد أن ركضت في الشارع بجانب العربة، من دون أن تعبأ بشيء سوى رؤية السيد بيجوتي على متنها، وقد رافقتها الدموع التي حاولت قمعها، وقد اندفعت تتخبط في وجه السائرين المقبلين من الاتجاه المعاكس، بعد إقدامها على هذه المهمة الصعبة. أبصرتها في النهاية وهي جالسة على عتبة باب الخباز، لاهثة الأنفاس، بعد أن صارت قبعتها بلا ملامح على الإطلاق، وقد انخلع أحد نعليها، فأُلقي فوق الرصيف على مسافة بعيدة منها.

وصلنا إلى نهاية رحلتنا، وكان سعينا الأول هو البحث عن مكان صغير يصلح لإقامة بيجوتي، بحيث يستطيع أخوها الحصول على سرير بجوارها. كنا محظوظين جدًّا فعثرنا على مسكن نظيف للغاية ورخيص، يعلو متجر لبيع الملابس، لا يفصله عن مسكني سوى شارعين. استلمنا هذا المسكن، واشتريت بعض اللحوم الباردة من أحد المطاعم، ثم اصطحبت رفاقي المسافرين إلى المنزل لتناول الشاي؛ وهو إجراء يؤسفني أن أقول إنه لم يلقَ قبول السيدة كروب، بل على العكس تمامًا. يجب هنا أن أبوح بشيء لتوضيح الحالة الذهنية لتلك السيدة؛ لقد شعرت باستياء شديد بعد أن قامت بيجوتي بتشمير ثوب الحداد قبل أن تقضي عشر دقائق من وجودها في المكان، وشرعت في العمل بنفض الغبار عن غرفة نومي. اعتبرت السيدة كروب هذا العمل نوعًا من الجرأة - على حد قولها - وشيئًا لا تسمح به أبدًا.

أفضى إليَّ السيد بيجوتي بشيء في طريقنا إلى لندن، ولم أستطع التخلص من التفكير في الأمر. لقد كان ينتوي رؤية السيدة ستيرفورث أولًا، فشعرت بأنني ملزم بمساعدته لإتمام هذه المقابلة، وكذلك للتوسط بينهما من أجل تجنب انفعالات الأم قدر الإمكان. كتبت إليها رسالة في تلك الليلة، وأخبرتها فيها بلطف ولين كيف تعرض هذا الرجل للظلم، وأنني شريكه في هذا المصاب. قلت إنه رجل من عامة الناس، لكنه أكثرهم لينًا وخلقًا واستقامة. وإنني لأجرؤ على التعبير عن أملي في عدم رفضها لرؤيته وهو في هذه الورطة القاسية. حددت الساعة الثانية بعد الظهر لتكون موعد زيارتنا، وأرسلت الرسالة بنفسي مع أول مركبة بريد في الصباح.

وقفنا عند الباب في الوقت المحدد - باب ذلك المنزل الذي كنت سعيدًا فيه منذ بضعة أيام قليلة، حين أقبلت عليه بسذاجة الشباب ودفء قلبي المفضي بأسراره، وها قد بات مغلقًا في وجهي من الآن فصاعدًا، بعد أن أفضى بي إلى الخراب.

لم يظهر ليتيمر، بل أقبل هذا الوجه اللطيف الذي حل مكانه، وقد رأيته في زيارتي الأخيرة للمنزل. تقدمنا وأرشدنا إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت السيدة ستيرفورث جالسة، ثم انسلت روزا دارتل من مكان ما في القاعة بعد دخولنا، ووقفت خلف كرسيها مباشرة.

أبصرت في وجه والدته بعد أن نظرت نحوي مباشرة، ملامح تفضي إلى أنها تعرف من ابنها ما فعله. كان وجهها شاحبًا للغاية، يحمل آثار

انفعالات أعمق من أن تكون من تأثير رسالتي وحدها، التي قد تؤثر في شكوكها وولعها بابنها. أتصور أنها لاحت في ذاك اليوم أكثر شبهًا به من أي وقت مضى، وأن هذا الشبه لم يغفله رفيقي الذي جاء معي إليها.

جلست على كرسيها منتصبة القامة ناشرة ذراعيها، ساكنة في جلال فخم، ومشهد مهيب حتى بدت جامدة، لا شيء يزحزحها. نظرت إلى السيد بيجوتي بثبات شديد بينما ظل واقفًا أمامها يبادلها النظرات في ثبات. أما نظرات روزا دارتل الحادة فقد أحاطت بنا لبعض اللحظات من دون أن نكسر الصمت بكلمة واحدة.

أشارت إلى السيد بيجوتي بالجلوس. فقال بصوت منخفض: «لا أشعر أنه من الطبيعي يا سيدتي أن أجلس في هذا المنزل. بينما سأقف مرة ثانية على عجل». وتلا ذلك صمت آخر إلى أن كسرتْه على هذا النحو:

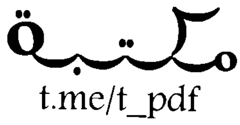
«أعلم، بأسف عميق بالغ، ما الذي أتى بك إلى هنا. فماذا تريد مني؟ وما الذي تطلب مني فعله؟».

وضع قبعته تحت ذراعه، وتحسس صدره ليخرج رسالة إيميلي، فأظهرها وفتحها، وناولها إياها، وقال: «تفضلي بقراءة هذه الرسالة يا سيدتي. إنها بخط ابنة أخي».

قرأتها بالطريقة الفخمة والجليلة ذاتها، ولاحظت أنها لم تتأثر بمحتوياتها، ثم أعادتها إليه.

قال السيد بيجوتي متتبعًا هذا الجزء في الرسالة بإصبعه: ««ما لم

تُعِدني إليكم سيدة». لقد جئت لأعرف يا سيدتي، ما إذا كان سيفي بوعده رعايتها».



أجابت: «لا».

قال السيد بيجوتي: «ولم لا؟».

قالت: «إن الأمر مستحيل. سيحط من نفسه. إنك لا تجهل أنها أقل منزلة منه بكثير».

قال السيد بيجوتي: «ارفعوا أنتم مكانتها».

«إنها جاهلة وغير متعلمة».

قال السيد بيجوتي: «ربما لا تكون جاهلة، أو تكون كذلك، بل لا أظن ذلك يا سيدتي. إنني لست قاضيًا لأحكم على هذه الأشياء، ولكن لم لا تعلمونها؟!».

«بما أنك تجبرني على التحدث بوضوح وصراحة، ولم أكن لأرغب في فعل هذا قَطُّ، فإني سأصارحك بأن ضعة مكانتها سيجعل الأمر مستحيلًا، إذا لم يجد شيئًا آخر يصرفه عنها».

قال ببطء وهدوء: «أصغي إليَّ يا سيدتي. إنكِ تعلمين مقدار محبتكِ لابنكِ، وأنا أدرك محبتي لها كذلك، وإن كانت ابنتي لما زاد حبي لها مائة مرة، فأنا أكن لها حبًّا لا يضاهى. إنكِ لا تعرفين معنى أن يفقد إنسان ابنه، أما أنا فأتألم بهذا الحرمان. إن أكوام الثروات لتهون أمام ناظري وتغدو بلا قيمة أمام عينيَّ الآن، بل لو أنني أحوزها لأنفقتها على عودتها مرة أخرى لأنقذها من هذا العار، من دون أن تُذل أبدًا أو

تُهان. لن يرى أي منا وجهها، نحن الذين أويناها بيننا، ولن يبصرها أحد منا ممن عاش معها ولها وكانت له كل شيء، سنظل بعيدين طوال سنوات عديدة، ولن ننظر إلى وجهها مرة أخرى. سنرضى ونسمح لها بالغياب. سنكون سعداء بالتفكير في أنها بعيدة، كما لو أنها تحيا تحت شمس أخرى وسماء جديدة؛ سنكون سعداء بأنها في عصمة زوجها، لها أطفال صغار وذرية، ونتحمل الوقت حتى يومنا المحتوم حين نصير جميعًا سواسية أمام الله».

لم تخلُ هذه البلاغة القاسية التي تحدث بها من تأثير عميق. بينما ظلت والدة ستيرفورث محافظة على كبريائها، ولكني لمست نبرات من الرقة في صوتها، حين أجابت قائلة:

«إنني لا أبرر أي شيء، ولا أقدم اتهامات مضادة، لكن يؤسفني أن أكرر أن الأمر مستحيل. إن هذا الزواج من شأنه أن يفسد مستقبل ابني بصورة لا رجعة فيها، ويدمر آفاقه. لا شك في أنه لن يحدث أبدًا. إذا كان ثمة أي تعويض آخر...».

قاطعها السيد بيجوتي بعين ثابتة ولكنها متقدة، فقال: «إنني أنظر إلى الشبه الذي يخامر هذا الوجه الذي ينظر إليَّ، في منزلي، بجانب المدفأة، في قاربي -أليس كذلك؟- كم لاح بشوشًا ودودًا، بينما كان خداعًا وغدرًا، حتى إنني كدت أتوحش وتثور ثائرتي كلما فكرت في الأمر. فإذا لم يتحول هذا الشبه في الوجه إلى حمرة مشتعلة من الخجل، عند التفكير في تقديم المال إليَّ تعويضًا عما أصاب طفلتي من خراب، فهو فعل شرير، بل لا أعرف، فربما يبدو وهو على وجه سيدة أسوأ وأشر».

تغيرت ملامحها في لحظة بعد أن أنهى كلامه. واكتسى وجهها احمرارًا وغضبًا. وقالت، بلهجة متحدية، وهي تقبض على الكرسي بإحكام:

«ما التعويض الذي يمكنك أن تقدمه لي مقابل إحداث هذه الفجوة بيني وابني؟ وأين حبك لابنة أخيك من حبي لولدي؟ ما مقدار ألم فراقك أمام ألمي؟».

لمستها الآنسة دارتل بلطف، ثم أحنت رأسها لتهمس لها بشيء، لكنها لم تصغِ لأي كلمة قالتها.

قالت: «لا يا روزا، ولا كلمة واحدة. دعي الرجل يصغي إلى ما أقول، إن ابني، الذي كان هدف حياتي، وكرست له كل تفكيري لإرضاء كل رغبة من رغباته، ولم أنفصل عنه منذ ولادته، ينأى عني في لحظة مع فتاة بائسة، ويهجرني! يقابل ثقتي له بخداع منظم، ويلقي بي من أجلها ليرضي هذه النزوة البائسة، ويتخلى في المقابل عن واجباته تجاه والدته؛ يتخلى عن حبه، واحترامه، وامتنانه لها، تلك الشعارات التي كان من الأولى أن يقوي روابطها بيننا في كل يوم، بل في كل ساعة من حياته فلا يمكن لشيء أن يفصل بيننا! أليس هذا مصابًا فادحًا؟».

حاولت روزا دارتل تهدئتها مرة أخرى، لكن من دون جدوى.

«قلت لكِ يا روزا، ولا كلمة واحدة! إذا كان بإمكانه التضحية بكل ما لديه مقابل شيء رخيص، فيمكنني أن أقامر بكل ما أملك في سبيل هدف أكبر. فليذهب حيث يشاء، مستعينًا بكل الوسائل التي منحتها

له، هل يفكر في اختزالي وإبعادي بغيابه الطويل؟ إنه لا يعرف أمه حق المعرفة. دعوه يبتعد منصرفًا إلى ملذاته الآن، حتى يعود فيجد أنه مُرحَّبًا به مرة أخرى. دعه حتى يفرغ منها الآن، ولن يقترب مني أبدًا، حية كنت أو محتضرة، ما دمت أستطيع أن أرفع يدي في وجهه لإبعاده، إلا إذا تخلص من تلك الفتاة إلى الأبد وأتى ذليلًا يطلب صفحي. هذا هو حقي، وهذا هو العرفان الذي أستحق أن أناله. هذا مربط الفراق بيننا. أليس هذا...؟». راحت تنظر إلى زائرها بالكبرياء ذاتها التي بدأت بها، مستطردة قولها: «أليس هذا مصابًا جللًا؟».

كنت أستمع إلى الأم وأراها بينما تقول هذه الكلمات، وقد بدا لي أنني أسمع وأرى الابن متحديًا كل هذا. كان كل ما رأيته منه، من روح عنيدة لا هوادة فيها، متجليًا فيها كذلك، وكل ما فهمته الآن من سلوكه الخاطئ ومثابرته عليه، صار فهمًا لشخصيتها أيضًا، وإدراكًا لاتسامهما بطبع واحد ودوافع مشركة.

راحت توضح لي بصوت عالٍ، بعد أن استأنفت ضبط نفسها وعادت إلى مهابتها السابقة، أنه لا جدوى من سماع المزيد، أو قول أي شيء آخر، وأنها ترجو وضع حد لهذه المقابلة. نهضت وقد أبدت نوعًا من الكرامة لتغادر الغرفة، فأمسكها السيد بيجوتي مشيرًا إلى أنه لا داعي لانصرافها، وراح يتقدم نحو الباب قائلًا: «لا تخافي يا سيدتي؛ لن أكون عائقًا في طريقكِ، وليس لديَّ المزيد لأقوله. لقد أتيت إلى هنا بلا أمل، وها أنا أنصرف من دونه. لقد فعلت ما كان يجب أن أفعله، لكنني لم آمل قَطُّ في أي فائدة من سعيي هذا. لقد كان هذا منزلًا شريرًا، مقارنة

بعائلتي ومنزلتي، وقد أخطأت إذ توقعت الخير بمجيئي إليه».

رحلنا بعد هذا القول، وتركناها واقفة بجانب كرسيها، بهيئتها المبجلة وقسمات وجهها الجميل.

في طريقنا للخروج كان علينا أن نعبر رواقًا ممهدًا، ذا حواف وسقف زجاجي تتدلى عليه أفرع كرمة، كانت أوراقها وبراعمها خضراء في ذلك الوقت، وكان اليوم مشمسًا، وقد انفتح زوج من الأبواب الزجاجية المؤدية إلى الحديقة. أقبلت إلينا روزا دارتل بخطوة هادئة، حتى اقتربت منا، وخاطبتني قائلة:

«هلا تظن أنك أحسنت صنعًا بإحضار هذا الرجل إلى هنا؟».

لم يخطر ببالي أن هذا الغضب المكبوت والازدراء قد يجعل وجهها محتقنًا داكنًا إلى هذا الحد، حتى يلوح ذاك الوميض في عينيها السوداوين. لم أفكر أن غضبها قابل للانضغاط في قسمات هذا الوجه حتى بدت تلك الندبة التي أحدثتها المطرقة، بارزة ملحوظة، كعادتها في مثل هذه الحالة المثيرة. عندما بدت ندبتها ترتعش كما حدث من قبل حينما نظرت إليها، إذ بها ترفع يدها إليها وتضربها بها.

قالت مرة أخرى: «أيصح أن تحضر هذا الرجل إلى هنا؟ يا لك من رجل شهم!».

قلت: «يا آنسة دارتل، إنكِ تظلمينني بلا شك إذا حكمتِ عليَّ بقولكِ هذا».

قالت: «لماذا تحدث انقسامًا بين هذين المخلوقين المجنونين؟ ألا تعلم أن كلًّا منهما مفتون بقوته وكبريائه؟».

قلت: «هل هذا ذنبي؟».

عادت تسألني: «لماذا أحضرت هذا الرجل إلى هنا؟».

أجبتها قائلًا: «إنه رجل مصاب بجروح عميقة يا آنسة دارتل. وقد لا تدركين هذه الأمور».

وضعت يدها على صدرها، كما لو أنها تريد أن تمنع العاصفة المستعرة بين جوانحها، فلا يصدر منها صخب، وقالت: «أعلم أن جيمس ستيرفورث يملك قلبًا زائفًا فاسدًا، إنه خائن خادع. ولكن ما الذي تهمني معرفته في هذا الرجل أو يجعلني أهتم بشأنه أو بشأن ابنة أخيه؟».

قلت: «يا آنسة دارتل، إنكِ تعمقين الجروح. يكفي ما قلته، سأقول لكِ شيئًا واحدًا قبل أن ننصرف؛ إنكِ تظلمينه ظلمًا مبينًا».

راحت تقول: «إنني لم أظلمه. إنهم قوم فاسدون لا قيمة لهم. لو أن الأمر بيدي لجلدتها».

مر السيد بيجوتي من دون أن ينبس ببنت شفة وخرج من الباب.

قلت غاضبًا: «آه، يا للعار يا آنسة دارتل! يا له من عار! كيف تُسوِّل لكِ نفسكِ أن تسحقي بقدمكِ هذا الجريح غير المستحق لمصيبته؟!».

أجابت: «لو أن الأمر بيدي لسحقتهم جميعًا بقدمي، ولهدمت منزله. كنت سأصم وجهها بالعار، وأحب أن أراها في أسمال بالية، وألقي بها في الشوارع لتموت جوعًا. ولو أنني سأحكم عليها فما كنت إلا لأحكم عليها بذلك الحكم. هل تفهم ذلك؟ والله إني لفاعلة! إنني

أكرهها. إذا كان بإمكاني إدانتها على موقفها المخزي، فإني سأذهب إلى أي مكان لإدانتها بعارها. لو أن بإمكاني اصطيادها لدفنها في قبرها، فسأفعل ذلك من دون تردد. لو أنني أحوز كلمة تعزية من شأنها أن تواسيها في ساعة احتضارها الأخيرة، وكنت الوحيدة التي تمتلك هذه الكلمة؛ لما تفوهت بها ولو فارقت الحياة نفسها».

أدركت أن حدة كلماتها لا يمكن إلا أن تنقل انطباعًا ضعيفًا عن انفعال فج قد استولى عليها، ما كان منه إلا أن تجلى واضحًا في هيئتها بالكامل، على الرغم من أن صوتها لم يكن مرتفعًا بل أكثر خفوتًا من المعتاد. لا أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أصف ما أذكره عن حالتها، أو خضوعها الكامل لغضبها. لقد رأيت الغضب يتجلى بأشكال شتى، لكنني لم أرَه قَطُّ على هذه الهيئة التي كانت عليها.

لحقت بالسيد بيجوتي، فوجدته يسير ببطء ساهمًا متجهًا نحو التل. ما إن وصلت إليه حتى أخبرني بما كان يدور في ذهنه في هذه اللحظة، وما كان يعتزم القيام به في لندن، وكان يقصد «الانطلاق في رحلاته البحثية» تلك الليلة. فسألته إلى أين يعتزم الذهاب؟ فلم يكن منه إلا أن قال: «إنني ذاهب يا سيدي للبحث عن ابنة أخي».

عدنا إلى المسكن الصغير فوق المتجر، وسنحت فرصة لأخبر بيجوتي بما قاله لي. أبلغتني أنه قال لها الشيء نفسه في هذا الصباح. لم تعرف أكثر مما عرفت، فلا تعلم إلى أين يتجه، لكنها ظنت أن لديه خطة ما في ذهنه.

لم أرغب في أن أتركه في ظل هذه الظروف. تناولنا طعامنا معًا، فقدمت لنا بيجوتي فطيرة من لحم الأبقار، وكانت واحدة من الكثير من الأطعمة الجيدة التي اشتهرت بها، وإني أتذكر جيدًا أنني أحسست في هذه المناسبة، بأن طعمها قد اختلط بمذاق متنوع من الشاي والقهوة والزبدة ولحم الخنزير المقدد والجبن والعيش الطازج والحطب والشموع وحليب الجوز، وغيرها من الروائح التي تصعد باستمرار من المتجر. جلسنا بعد العشاء بالقرب من النافذة لمدة ساعة تقريبًا من دون أن نتحدث كثيرًا. ثم قام السيد بيجوتي وأحضر حقيبته الجلدية وتناول عصاه القوية ووضعهما فوق الطاولة.

قَبِل أن يحصل على مبلغ صغير من مخزون أخته من المال على حساب إرثه، وقد ظن أنه سيغطي نفقاته لشهر كامل. وعدني أن يتصل بي إذا توصل إلى شيء، ثم علَّق حقيبته فوق كتفه، وأخذ قبعته وعصاه، وقال لنا: «وداعًا».

قال وهو يحتضن بيجوتي: «ليكتب لكِ الله كل الخير، أيتها المرأة العجوز الغالية، وأنت كذلك يا سيد ديفي»، ثم تصافحنا واستطرد قائلًا: «إنني ذاهب للبحث عنها بين جنبات الأفق الواسع. إذا عادت إلى المنزل في أثناء غيابي - ولكني آسفًا لا أتصور أن يحدث هذا - أو إذا أعدتها، فإني سأحرص على أن نعيش معًا؛ أنا وهي، ثم نموت في مكان لا تصل إلينا فيه لومة لائم. أما إذا أصابني أي مكروه، فاذكر أن آخر كلماتي التي تركتها لها كانت: «إن حبي لابنتي الحبيبة لم يتغير قَطُّ، وإنني أسامحها»».

قال هذه الكلمات بجدية، وهو حاسر الرأس، ثم لبس قبعته ونزل الدرج مبتعدًا، وقد تبعناه حتى الباب. كانت أمسية دافئة ومغبرة، ساد فيها الصمت على طول الطريق الرئيسي الكبير الذي يتفرع منه الشارع الذي يسكن فيه، ساد هدوء مؤقت فيما عدا خطوات قدميه على الرصيف، وقد لاحت في الأفق أشعة الشمس مكتسية بحمرة الغروب المتوهجة. انعطف وحيدًا عند زاوية الشارع الظليل، حتى توارى خلف وهج ضوء الغروب.

لم تحل عليَّ ساعة مثل هذا المساء، أو استيقظت في جوف الليل، أو رحت أنظر إلى القمر أو النجوم، أو أبصرت المطر المتساقط، أو سمعت عواء الريح، إلا وتذكرت هذا الرجل الوحيد الكادح، ذاك الفقير والحاج إلى وجهة محبته وهو يقول:

«إنني ذاهب للبحث عنها بين جنبات الأفق الواسع. أما إذا أصابني أي مكروه، فاذكر أن آخر كلماتي التي تركتها لها كانت: «إن حبي لابنتي الحبيبة لم يتغير قَطُّ، وإنني أسامحها»».



الفصل الثالث والثلاثون

سعادة

مكثت طوال هذا الوقت منغمسًا أكثر مما مضى في حب دورا. صار تفكيري بها ملاذي وملجئي من خيبة الأمل والضيق، وعوضًا لي وعزاءً عن فقدان صديقي. كنت كلما شعرت بالشفقة على نفسي أو على الآخرين، استجديت مزيدًا من العزاء في طيف دورا، وكلما زاد تراكم الخداع وانكبت عليَّ متاعب هذا العالم، تلمست نجم دورا عاليًا، فإذا به أنقى وألمع النجوم المضاءة فوق العالم بأسره. لا أظن أنني أدركت من أين جاءت دورا بالتحديد، أو إلى أي درجة ترتبط بالمخلوقات وأي مكانة تعتليها فوقهم، إلا أنني على يقين تام من أنني أستبعد كونها مجرد بشر، فلبثت فكرة كونها تشبه أي فتاة أخرى محل سخطي واحتقاري.

لو أنني استطعت التعبير عن حالي، لقلت إنني صرت غارقًا في حب دورا تمامًا، لم أكن منغمسًا في حبها برأسي وأذني فقط، بل كنت مشبعًا بالكامل به. يكفي أن أقول مجازًا إنه لو انتُزع مني بعض من حبها، لكان كافيًا لإغراق أي إنسان فيه، ولتبقى ما يكفي من حبها داخلي، وفي كل مكان حولي، ليفيض حبها على وجودي بالكامل.

كان أول شيء فعلته من تلقاء نفسي بعدما عدت، هو التنزه ليلًا، حتى وصلت إلى نوروود، وقد بدا لي كما لو أن بداخله لغزًا مثل ألغاز طفولتي، فرحت أطوف حول المنزل، مرة تلو أخرى من دون أن ألمسه، مفكرًا وساهمًا في دورا. أحسب أن القمر كان محل هذا اللغز غير المفهوم، وبعيدًا عن هذا اللغز، فقد صرت مفتونًا بدورة أتبعها دائرًا في فلكها القمري، ورحت أتجول حول المنزل والحديقة لساعتين؛ أنظر عبر شقوق السياج، وأتطلع بذقني إلى أعلى باذلًا مجهودًا عنيفًا ومستندًا إلى القضبان الصدئة. رحت أرسل قبلاتي إلى الأضواء المشعة من النوافذ، داعيًا الله في مشاعر حالمة بين الحين والآخر أن يحمي حبيبتي دورا. لا أعرف من أي شيء كنت أطلب حمايتها، ربما قصدت حمايتها من الحريق، أو من الفئران التي تخيفها وترعبها.

تملكني حبي لدورا واستولى على عقلي، وكان من الطبيعي أن أسر بأمري إلى بيجوتي، بعدما وجدتها مرة أخرى بجانبي في إحدى الأمسيات مع أدوات الحياكة القديمة. كانت منشغلة بتفقدها لخزانة ملابسي، فرحت أقص عليها سري العظيم، بطريقة ملتوية وملتفة. كانت بيجوتي تنصت إليَّ باهتمام، لكنني لم أتمكن من شرح وجهة نظري لها عن الأمر على الإطلاق. لقد كانت شديدة الانحياز لي، وواثقة في علو شأني، ولم تكن قادرة على فهم أسباب مخاوفي، أو دوافع شعوري بالتشاؤم. قالت: «لا بد لهذه الفتاة أن تشعر بالرضا للفوز بمثلك عاشق لها. أما والدها فبعزة الله؛ أي شيء أكثر من الظفر بك لابنته قد يرتضيه؟!».

لاحظت بعدها أن ثوب السيد سبنلو الرسمي وربطة عنقه المحكمة قد هزا بيجوتي قليلًا، فألهماها مزيدًا من التبجيل للرجل الذي راح يزداد رفعة في عيني كل يوم، ويتلألأ إشراقه حتى بدا لي مشعًّا حين جلس منتصب القامة في قاعة المحكمة بين أوراقه، كأنة منارة صغيرة في بحر من الكتب. أتذكر أنني مع مرور الوقت، صرت أتعجب وأنا جالس في المحكمة أيضًا؛ كيف لهؤلاء القضاة والمحامين القدامى ألا يلتفتوا لدورا -لو أنهم يعرفونها- كيف لا يخرجون عن رشدهم محلقين مسرورين إذا ما عرضت عليهم فكرة الزواج من دورا؟ كيف غنت دورا وعزفت على هذا الجيتار المجيد، حتى قادتني إلى حافة الجنون، ومع ذلك لم تُغرِ أحدًا من هؤلاء الرواد السائرين على مهل فلم تحرفهم عن مسارهم ولو شبرًا واحدًا؟!

لقد احتقرتهم كافة. شعرت أنهم متجمدون قساة لا يفقهون سر القلوب، بل إنني أدنتهم جميعًا. لم أعد أنظر إلى مقعد القضاة إلا على أنه وصمة لا يدركها أصحابها، كما لو أنه ليس أكثر من مجرد مكان في حانة عامة.

صرت أتولى إدارة شؤون بيجوتي، فدونت الوصية بيدي بعز وافتخار، وتوصلت إلى تسوية مع مكتب المواريث، وأخذتها إلى البنك، وسرعان ما أتممت كل شيء في المسار الصحيح. كسرنا هذا الروتين القانوني، فذهبنا للتنزه ومشاهدة بعض التماثيل الشمعية في شارع فليت -وآمل أن تكون هذه التماثيل قد ذابت خلال هذه السنوات العشرين- وزرنا معرض الآنسة لينوود. أتذكر أن معرضها كان لمشغولات

التطريز، وأحسب أن أعمالها كانت بمثابة هياكل ميتة تجسيدًا لآثامها الماضية ودعوة إلى التوبة. كما زرنا برج لندن، وذهبنا إلى قمة كنيسة سانت بول. منحت كل هذه العجائب لبيجوتي قدرًا من المتعة، وكانت كفيلة بإمتاعها في ظل الظروف الحالية، باستثناء رؤيتها لكنيسة سانت بول، فقد ارتبطت بها لوقت طويل عبر الرسمة التي تعلو غطاء صندوق أدوات الحياكة، وكانت على حقيقتها مختلفة في كثير من التفاصيل، فاعتبرتها بيجوتي أقل جمالًا من هذا العمل الفني المرسوم.

انتهينا من أعمال بيجوتي، والتي اعتدنا أن نطلق عليها «القضية العادية» في مجلس العموم - كانت مثل هذه الأعمال الشائعة بسيطة ومربحة للغاية. اصطحبت بيجوتي بعدها إلى المكتب ذات صباح لتسدد ما عليها. قال العجوز تيفي إن السيد سبنلو قد خرج ليوثق إدلاء رجل باليمين لإتمام رخصة زواج. كما علمت أنه سيعود مباشرة، لأن المكان الذي ذهب إليه يقع بالقرب من مكتبنا، وكذلك بالقرب من مكتب النائب العام، فأخبرت بيجوتي أن تنتظر.

كان بيننا اتفاق ضمني، نحن أعضاء مجلس العموم، في قضايا تحقيق صحة الوصايا بشكل عام، فكانت تبدو علينا مراسم الحزن في أثناء تعاملنا مع العملاء القادمين إلينا في زي الحداد، بينما نبدو في نوع مغاير من البهجة والخفة مع عملاء الترخيص. لذلك ألمحت لبيجوتي إلى أنها ستجد السيد سبنلو قد تعافى كثيرًا من صدمة وفاة السيد باركس، وقد أهل علينا بالفعل كما لو أنه العريس.

إلا أننا لم نُطِل النظر إليه، بعدما رأيناه مقبلًا علينا في صحبة السيد

مردستون. لم يعتريه سوى القليل من التغيير. بدا شعره كثيفًا، على سواده المعهود به دائمًا، إلا أن نظراته لم تكن حازمة بالقدر الذي كانت عليه قبل ذلك.

قال السيد سبنلو: «آه، مَن؟ كوبرفيلد؟ أحسب أنك تعرف هذا الرجل، أليس كذلك؟».

انحنيت له انحناءة مصطنعة، وسلمت عليه بيجوتي في فتور. كان مرتبكًا إلى حد ما في البداية، لمقابلتنا معًا، ولكن سرعان ما تمالك نفسه وأقبل إليَّ قائلًا: «أرجو أن تكون بخير».

قلت: «لا أظن أن الأمر مهمًّا لك، ولكن نعم، إذا كنت ترغب في معرفة أمري».

نظر كل منا إلى الآخر، ثم وجه خطابه لبيجوتي قائلًا: «وأنتِ؟ يؤسفني أن ألاحظ أنكِ فقدتِ زوجكِ».

أجابته بيجوتي، وهي مرتعشة من رأسها حتى أخمصي قدميها: «إنها ليست الخسارة الأولى التي أتعرض لها في حياتي يا سيد مردستون، ويسعدني أن أقول إن فقدانه لا ألوم عليه أحدًا، ليس لإنسان يد فيما حدث».

قال: «ها! هذه فكرة تريح خاطركِ. هل قمتِ بواجبكِ تجاهه؟».

قالت بيجوتي: «لم أرهق حياة أي إنسان، وكم أنا ممتنة لهذه الفكرة! لا يا سيد مردستون، لم أقلق أو أخيف إنسانًا جميلًا رائعًا مثله حتى أودي به إلى القبر مبكرًا».

نظر إليها في وجوم للحظات -ولا أحسب أنها نظرة تنم عن ندم- ثم أدار رأسه نحوي، لكنه راح ينظر إلى قدمي بدلًا من وجهي قائلًا:

«ليس من المحتمل أن نلتقي قريبًا مرة أخرى، وأحسب أن الأمر مرضيًا لكل منا بلا شك، فمثل هذه اللقاءات لا يمكن أن تكون مقبولة أبدًا. لا أتوقع أن تكن لي الآن أي نيات حسنة، يا من تمردت دائمًا على سلطتي الشرعية التي بذلتها لمصلحتك. إن ثمة كراهية بيننا...».

قلت: «إنه شيء قديم على ما أظن، أليس كذلك؟».

ابتسم ثم أطلت عليَّ نظرة شريرة من عينيه الداكنتين.

قال: «لقد شعرت بهذا النفور القابع بين جوانحك منذ طفولتك. لقد مرَّرت حياة أمك المسكينة. إنك على حق، وأرجو أن تتصرف على نحو أفضل، بعد أن تصلح من نفسك».

أنهى الحوار الذي دار بيننا بصوت منخفض، بهذه الكلمات، في إحدى زوايا المكتب الخارجي، باتجاه غرفة السيد سبنلو. تحدث سيد مردستون بصوت عالٍ، وقد تحول كلامه بسلاسة، قائلًا:

«إن السادة ممن يعملون في مهنة السيد سبنلو معتادون على الاختلافات الأسرية، ويعرفون مدى تعقيدها وصعوبتها دائمًا». تقدم بعد قوله هذا إليه فدفع مالًا مقابل حصوله على رخصة بالزواج، ثم استلمها من السيد سبنلو فطواها بعناية، وصافح السيد سبنلو الذي تمنى له ولزوجته المقبلة السعادة، ثم خرج من المكتب.

واجهت صعوبة كبيرة في إجبار نفسي على الصمت أمام استفزاز كلماته، لكني واجهت صعوبة أقل في إقناع بيجوتي بضبط النفس -هذه المخلوقة الطيبة التي لم تغضب إلا من أجلي- لأننا لم نكن في مكان مناسب لتبادل الاتهامات، فرجوتها أن تكظم غيظها. كانت متحفزة لدرجة غير مألوفة، إلى الحد الذي أسعدني كما لو أنها لم تزل حضنًا حانيًا يحتويني، وقد أثار هذا الموقف في ذهنها ذكرى النوائب القديمة، هكذا رحت أبذل قصارى جهدي لإخفاء الموقف أمام السيد سبنلو والموظفين.

أحسب أن السيد سبنلو لم يكن يعرف طبيعة الصلة التي تربطني بالسيد مردستون، وقد أراحني هذا الأمر للغاية، لأنني لم أستطع تحمل الاعتراف بمعرفته، حتى في أعماق صدري كلما تذكرت ما فعله في حياة والدتي المسكينة. يبدو أن السيد سبنلو قد تصور -إذا كان يفكر في أي شيء- أن عمتي زعيمة لحزب متمكن في عائلتنا، وأن ثمة حزبًا متمردًا بقيادة شخص آخر، وهذا ما استنتجته مما قاله، بينما كنا ننتظر السيد تيفي لتقديم فاتورة بالأتعاب إلى بيجوتي.

قال السيد سبنلو: «إن الآنسة تروتوود حازمة أشد الحزم بلا شك، ومن غير الوارد أن تفسح مجالًا للمعارضة. إنني معجب بشخصيتها، وأود أن أهنئك يا كوبرفيلد، لأنك في الجانب المنضبط. وإنه من المؤسف أن تفرق الاختلافات بين الأقارب -لكنه أمر شائع بين البشر- لكن أهم شيء هو أن تكون في الجانب الصحيح؛ أقصد أنني أظنك في الجانب الصحيح».

قال السيد سبنلو: «أحسب أنه مقبل على زواج موفق، أليس كذلك؟».

أوضحت له أنني لا أعرف شيئًا عن أمره.

قال: «حقًّا! لقد أصغيت إلى الكلمات القلائل التي قالها السيد مردستون -كما يفعل الرجال عادة في مثل هذه المناسبات- ومما قالته أيضًا الآنسة مردستون؛ يجدر بي القول إنه سيكون زواجًا موفقًا».

سألته: «هل تقصد أن الأمر يتعلق بالمال يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو: «نعم، فهمت أن في الأمر فوزًا بالمال. وقيل إنها جميلة أيضًا».

قلت: «حقًّا! وهل زوجته الجديدة شابة؟».

قال السيد سبنلو: «بلغت لتوِّها السن القانونية. وإني أظن أنهم كانوا يترقبون ذلك في الآونة الأخيرة».

قالت بيجوتي: «يا رب أنقذها». كان قولها شديد الوقع وغير متوقع، حتى لفنا جميعًا الوجوم، إلى أن جاء تيفي بالفاتورة.

أتى تيفي مسرعًا وسلم الفاتورة إلى السيد سبنلو ليراجعها، فأقبل على مراجعتها بعد أن ثبت ذقنه محازيًا ربطة عنقه وأخذ يفركه بهدوء، وراح ينظر إلى تفاصيل الأتعاب مبديًا الانزعاج - كما لو أنه يأسف لما يفعله جوركنز - ثم أعادها إلى تيفي بتنهيدة لطيفة.

قال: «نعم، هذا صحيح، صحيح تمامًا. كان من المفترض أن أكون سعيدًا يا كوبرفيلد، لأنني كنت قد حددت النفقات الفعلية، على

أن تكون الأتعاب على حسابي، إلا أن ما يزعجني من حوادث حياتي المهنية، هو أنني لست حرًّا في تحقيق رغباتي. إنني أعمل مع شريك؛ إنه السيد جوركنز».

قال قوله هذا بحزن ولين، والذي قد يظن منه أن الشيء التالي هو ألا أدفع شيئًا على الإطلاق. أعربت عن تقديري له نيابة عن بيجوتي، ودفعت لتيفي الأتعاب بالأوراق النقدية. عادت بيجوتي بعد ذلك إلى مسكنها، وذهبت مع السيد سبنلو إلى المحكمة، حيث كانت لدينا دعوى طلاق قيد النظر، بموجب قانون بارع، وأظن أنه ألغي الآن، لأنني رأيت بسببه العديد من الزيجات ملغاة، وكانت هذه ميزة هذا القانون. دارت القضية حول زوج اسمه توماس بنيامين، كان قد حصل على رخصة زواجه باسم توماس فقط، من دون أن يدون اسم بنيامين، في حال لم يجد نفسه مرتاحًا في زيجته. وحدث ما كان متوقعًا فلم يرتَح لزواجه، أو جزع بعض الشيء من زوجته، رفيقته المسكينة، فإذا به يتقدم إلى المحكمة الآن بعد أن تزوج عامًا أو عامين، ليشهد له صديق أن اسمه هو توماس بنيامين، وبالتالي فإنه يثبت أن هذا الزوج لم يبرم مطلقًا، وهذا ما أيدته المحكمة، ونال رضاه.

حري بي أن أقول إن شكوكًا راودتني حول عدالة هذا الحكم، ولكني لم أتخفف منها بسبب مكاييل القمح التي توفق بين الأمور الشاذة جميعها. إلا أن السيد سبنلو جادلني في الأمر، قائلًا: «فلتنظر إلى العالم، بما فيه من خير وشر. انظر إلى القانون الكنسي، بما فيه من الخير والشر. وكل شيء مقدر بنظام مضبوط للغاية، هذه هي الحقيقة».

لم تكن لديَّ الجرأة لأقترح على والد دورا أننا ربما نحسن العالم قليلًا، إذا استيقظنا في الصباح الباكر، ثم خلعنا معاطف عملي هذا، لكنني لم أقل سوى أنني أظن أن بمقدورنا تحسين مجلس العموم. أجاب السيد سبنلو بأنه ينصحني بشكل خاص أن أُنحي هذه الفكرة من ذهني، لأنها لا تستحق إهدارًا من رجل لطيف مثلي، لكنه سيسعد إن قلت له ما نوع التحسين الذي ظننت أن مجلس العموم بحاجة إليه.

طرحت عليه هذا الحكم من مجلس العموم -الذي صادف أنه الأقرب إلينا- وقد صار رجلنا أعذب بعده. كنا قد خرجنا من المحكمة، ورحنا نتجول عبر أروقة محكمة الامتياز، فأقررت بأنني أحسب أن محكمة الامتياز تُدار بطريقة غريبة. سألني السيد سبنلو عن أي غرابة أتحدث، أجبته، مع كل الاحترام الواجب لخبرته - ولكن أخشى أن يكون احترامي بدافع كونه والد دورا - فقلت إنه ربما كان من غير المعقول أن يحتوي قلم المحكمة على نسخ الوصايا الأصلية لجميع من ماتوا فتركوا ميراثًا داخل مقاطعة كانتربري الهائلة، لمدة ثلاثة قرون كاملة، فتشغل وصاياهم مبنى عرضيًّا لم يُصَّمم قَطُّ لهذا الغرض، ثم يستأجره أمناء السجل مقابل أجور خاصة، بل إنه غير آمن، ولم يتم التأكد من أنه مقاوم للحريق، كما أنه مكتظ بالوثائق المهمة التي كُدِّست داخله من أرضيته إلى سقفه، وإن هذا الأمر برمته مغنم لأمناء السجل، الذين يتقاضون رسومًا باهظة من الجمهور، فيحشرون وصايا ووثائق الجمهور في أي مكان وعلى أي وضع، فلا هدف عندهم سوى التخلص منها من دون عناء. من غير المعقول عدم إلزام أمناء السجلات

الذين يتلقون أرباحًا تصل إلى ثمانية أو تسعة آلاف جنيه سنويًا -ناهيك عن أرباح نواب السجل وكتبة المقاعد- بإنفاق القليل من هذا المال لتهيئة مكان آمن ومعقول للوثائق المهمة التي اضطرت فئات كثيرة من الناس إلى تسليمها لهم، سواء قبلوا الأمر أم لا. قد يكون من الظلم أن يتقاضى جميع موظفي المكاتب الكبيرة في هذا المكتب العظيم مبالغ باهظة عن أعمالهم المشينة، بينما يقبع الموظفون التعساء في غرفة مظلمة باردة في الطابق العلوي ويتقاضون الفتات، وما لا يقتات عليه الرجال، على الرغم من أنهم يقومون بخدمات جليلة في لندن. أحسب أنه من غير اللائق كلية أن يكون كبير المسجلين، الذي كان من واجبه أن يكون بين الجمهور باستمرار في هذا المكان، وأن يوفر للجميع أماكن ملائمة لحفظ وثائقهم، ومن ثَم يجب أن يتقاضى ما يؤمِّن حياته المعيشية بسبب المنصب الذي يشغله -وقد يجمع هذا الرجل بين مهنته ووظيفته فيكون قسيسًا، أو عاملًا، أو خادمًا في كاتدرائية، أو ما شابه- بينما نلحظ ما يتعرض له الجمهور من إزعاج، كالذي نرى عينة منه كل ظهيرة حين يكتظ المكتب بالناس، وهي أمور نعلم مدى همجيتها. كان هذا باختصار ما قلته قبل أن أضيف أن محكمة الامتياز الخاصة بأبرشية كانتربري هي مؤسسة مزعجة، تحمل كل ملامح هذا العبث الخبيث، ولكنها محصورة بعيدًا في ركن من أركان كنيسة القديس بولس، ولم يعرفها سوى قلة من الناس، وكان من الأجدر بها أن تقلب بالكامل من الداخل إلى الخارج ورأسًا على عقب منذ فترة طويلة.

ابتسم السيد سبنلو بعد ما أبديته من حماسة وتوهج متواضع حول هذا الموضوع، ثم جادلني في الأمر كما جادلني في سواه. قال ماذا سيحدث بعد كل شيء؟ إنها مسألة حساسة. إذا شعر الجمهور أن وصاياهم في أمان، واعتبروا أنه من المسلم به أن المكتب لن يكون أفضل، فمن سيتضرر الآن؟ لن يتضرر أحد. ومن سيفوز بالنتائج؟ كل من لديهم مسمى وظيفي بأجور واهية. ممتاز. ثم يغلب الخير ويعم. حسنًا، قد لا يكون هذا النظام مثاليًّا، لا شيء مثالي، ولكن ما اعترض عليه هو الدق بمطرقة التغيير. عاشت البلاد مزدهرة في ظل محكمة الامتياز. أما الدق بمطرقة التغيير، فمن شأنه أن يعرقل ازدهار الدولة. لقد اعتبر أن مبدأ الرجال يتمثل في قبول الأشياء كما وجدها، ولم تراوده الشكوك في أن محكمة الامتياز سوف تستمر في عملها حتى آخر الأزمان. لقد وافقته الرأي، على الرغم من شكي في هذه الأمور في قرارة نفسي. إلا أنني وجدت أنه كان على حق في تصوره، لأن هذا التصور لم يستمر حتى اللحظة الحالية فحسب، بل استوطن على الرغم من تقديم تقرير برلماني عظيم -لم يُقدَّم عن طيب خاطر- منذ ثمانية عشر عامًا، وقد عرض التقرير كل اعتراضاتي السابقة بالتفصيل، ووصف فيه مكتب الوصايا بأنه لن يتسع إلا لتراكم وثائق عامين ونصف فقط. وإنني لا أعرف ما فعلوه بالوثائق منذ ذلك الحين، فهل فقدوا الكثير منها، أم راحوا يبيعون منها لمحلات الزبد بين الحين والآخر. إنني سعيد لأن وصيتي ليست فيه، وآمل ألا تذهب إلى هناك إلا بعد وقت طويل.

لقد وثقت كل هذا في فصل من قصتي الحالية المبهجة لأن هنا هو موضعه الطبيعي. دار هذا الحديث بيني والسيد سبنلو، وطال بنا الكلام ونحن نسير جيئة وذهابًا، حتى تطرقنا بالحديث إلى العديد من الموضوعات العامة، وهكذا حتى أخبرني السيد سبنلو في نهاية الحديث أن آخر يوم من هذا الأسبوع هو عيد ميلاد دورا، وسيكون سعيدًا إذا تفضلت بقبول الانضمام إلى نزهة صغيرة احتفالًا بهذه المناسبة. طار عقلي مني، بل صار مجرد سائق لجسدي في اليوم التالي، عندما استلمت ورقة صغيرة ذات حواف من الدانتيل، تقول: «إن بابا يحبها. ذكرى إلى الأبد»، فاجتزت لحظات فاصلة في حالة من التوهان.

أظن أنني ارتكبت كل سخافة ممكنة خلال استعدادي لهذا الحدث المبارك. لم أزل أشعر بالحر عندما أتذكر ربطة العنق التي اشتريتها لهذه المناسبة، وقد يصنف حذائي في هذا اليوم ضمن مجموعة من أدوات التعذيب. أرسلت في العربة المتجهة إلى نورwood في الليلة السابقة، علبة صغيرة ورقيقة من الحلوى، بعدما حسبت أنها تعد بمثابة إعلان عن مكنون مشاعري. كانت تحتوي على حلوى مصحوبة بأرق من جمل الحظ الرقيقة التي يحب الناس شراءها. توجهت في السادسة صباحًا إلى سوق كوفنت جاردن لأشتري باقة من الزهور لأقدمها لدورا، وفي تمام الساعة العاشرة كنت على ظهر حصان رمادي جسور -استأجرته لهذه المناسبة- مصطحبًا باقة الورود تحت ظل قبعتي لإبقائها ندية، مهرولًا إلى نورwood.

أزعم أنني حين رأيت دورا في الحديقة وتظاهرت بعدم رؤيتها، ثم تجاوزت المنزل متظاهرًا بأنني أبحث عنها بقلق، فقد ارتكبت خدعتين صغيرتين حمقاوين، ربما ارتكبهما أمثالي من الشباب الغض في الظروف نفسها، لأنهما نبعتا من فطرتي. لكن آه مما رأيت! وجدت المنزل، فنزلت عن حصاني عند بوابة الحديقة، وخطوت بهذا الحذاء ذي القلب الحجري عبر العشب، حيث أبصرت دورا الجالسة على مقعد تحت شجرة أرجوانية اللون، ويا لمنظرها الرائع البهي، في ذلك الصباح الجميل، وهي تلوح بين الفراشات مرتدية قبعة ذات شرائط بيضاء وفستان سماوي! كانت برفقتها سيدة شابة تتقدمها في العمر؛ وإن كانت لا تتجاوز العشرين عامًا. كان اسمها الآنسة ميلز. أما دورا فتدعوها جوليا. كانت صديقة حميمة لدورا، وكم سعدت هي بصداقتها!

كان جيب معها وقد بدا عليه أنه سيبدأ نباحه في وجهي مرة أخرى، بعد أن قدمت باقة الورود، وقد راح يصر على أسنانه مغتاظًا. أظن أنه لو فهم أنني أعشق حبيبته، لنبح أشد النباح!

قالت دورا: «آه، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد».

كانت لديَّ نية أن أقول - بعد أن درست أفضل الكلمات طوال ثلاثة أميال - إنني ظننت أنها باقة جميلة قبل أن أراها بالقرب منها، لكنني لم أتمكن من اختيار مفردات تحوي هذا المعنى. صرت مرتبكًا عاجزًا عن الرد. إن رؤيتها وهي تقرب الورود إلى ذقنها الصغير المكتسي بطابع الحُسن، قد أفقدتني حضور عقلي وبيان لساني بعد أن اعترتني

نشوة خفيفة. وإنني لأعجب كيف استطعت أن أتدارك نفسي فلم أقل: «اقتلني، إذا كان لك قلب. فلتتركيني يا آنسة ميلز أموت هنا».

قربت دورا الورود إلى جيب ليشمها، فدمدم من دون أن يشمها. ضحكت دورا، ثم تناولت باقة الورود فقربتها بنفسها من جيب، لتحمله على شمها عنوة. التقط جيب جزءًا من زهرة إبرة الراعي بين أسنانه، كما لو أنه يخوف قططًا في خياله. ضربته دورا، وعبست في وجهه قائلة: «يا لأزهاري الجميلة المسكينة!»، أحسب أنها كانت ترثي لها في حنو إلى الحد الذي جعلني أتمنى لو أن جيب قد أمسك بي بين أسنانه بدلًا من الورود!

قالت دورا: «ستسعد جدًّا حين تعرف يا سيد كوبرفيلد أن هذه الآنسة مردستون المشاكسة ليست هنا. لقد ذهبت لحضور زواج شقيقها، وستتغيب لثلاثة أسابيع على الأقل. أليس هذا أمرًا ممتعًا؟».

قلت إنني متأكد من أن الأمر ممتع لها، وكل ما يبهجها سيبهجني بالتأكيد. ابتسمت الآنسة ميلز ابتسامة يملأها الحنان والحكمة الفائقة.

قالت دورا: «إنها أبغض شيء رأيته في حياتي. لا يمكنكِ تصور مدى اضطراب مزاجها وسوئها يا جوليا».

قالت جوليا: «بل أستطيع أن أتخيل ذلك يا عزيزتي».

وضعت دورا يدها حول جوليا وقالت: «ربما يمكنكِ تخيل الأمر يا حبيبتي. سامحيني لأنني لم أستثنِكِ يا عزيزتي في بداية الأمر».

فهمت من سلوك دورا هذا أن الآنسة ميلز مرت بتجارب مضطربة في الماضي. وقد استنبطتُ أن أثر هذه التجارب انعكس في طريقتها الحكيمة العطوف. عرفت بعد ذلك أن الآنسة ميلز لم تهنأ ولم تُوفَّق في علاقة عاطفية سابقة، وفهمت أنها هجرت العالم بسبب ما حصلته من خزي في محنتها، ولكنها لم تزل مهتمة بآمال الشباب، دائبة على استيعاب محبتهم وآفاقهم.

خرج السيد سبنلو من المنزل في هذه اللحظة، فذهبت دورا إليه وقالت: «انظر يا أبي، يا لها من ورود جميلة»، وابتسمت الآنسة ميلز ابتسامة متمعنة، كما لو أنها تقول: «آه يا فراشتيَّ، فلتستمتعا بوجودكما القصير في صباح العمر المشرق»، ثم مشينا جميعًا تاركين الحديقة باتجاه العربة التي كانت تستعد لنقلنا.

لن أحظى بمثل هذه الرحلة مرة أخرى في حياتي، ولم أَنَل حظًّا يماثلها إلى اليوم. لم يكن في العربة سوى هؤلاء الثلاثة؛ سلتهم، وسلتي، والجيتار. وبالطبع كانت المركبة مكشوفة، فركبت خلفها، وجلست دورا مولية ظهرها شطر الخيول، وناظرة نحوي. احتفظتْ بباقة الورود بقربها وقد ثبتتها إلى الوسادة، ولم تسمح لجيب بالجلوس على هذا الجانب منها على الإطلاق، خوفًا من سحق ورودها. كانت غالبًا ما تحملها في يدها، فتنعش نفسها برائحتها بين حين وآخر. تلاقت أعيننا في هذه الأوقات كثيرًا، وكم أعجب كل العجب من أنني لم أتجاوز رأس الحصان الرمادي ولم أزج به إلى داخل العربة!

أظن أن الطريق كان محاطًا بالغبار، وأتذكر ذكرى مشوشة عن أن السيد سبنلو كان قد اعترض على ركوبي الحصان في هذا الجو المغبر، لكني لم أكن على دراية بأي شيء حولي. كنت أتحسس ضباب الحب وسحاب الجمال في دورا، لا شيء سواهما. كان السيد سبنلو يقف أحيانًا ويسألني عن رأيي في المستقبل. فكنت أقول إنه لمستقبل مشرق، وإني لأجرؤ على القول إنه كان كذلك لأنني لم أكن أرى فيه سوى دورا. فكانت دورا قد أشرقت شمسًا غنت لأجلها العصافير. هبت نسائم الجنوب عليها، فكانت دورا كما الأزهار البرية المحاطة بالسياج وقد تفتحت منها البراعم. ولم يريحني سوى فكرة أن الآنسة ميلز تفهمني، بل إنها دون غيرها تستطيع أن تغوص في أعماق مشاعري تمامًا وتتفهمها.

لا أعرف كم طال بنا الطريق، وحتى هذه الساعة لا أعرف إلى أين ذهبنا. ربما كنا بالقرب من جيلفورد، أو أقبل ساحر من ليالي ألف ليلة وليلة، ففتح المكان لنقضي فيه هذا النهار، ثم أغلقه إلى الأبد بعدما غادرنا. كانت بقعة خضراء فوق التل، مغطاة بسجاد من العشب النضر الناعم، تظلله الأشجار ونباتات الخلنج، فتكتسي الأرض بالمناظر الطبيعية على مرمى البصر.

كم كانت فكرة وجود أناس في انتظارنا أمرًا شاقًّا! أثيرت غيرتي من دون أن تستثني السيدات، بل صارت غيرتي عارمة بلا حدود. أما بنو جنسي من الرجال - وخاصة محتالًا يكبرني بثلاث أو أربع سنوات، يعلو وجهه شارب أحمر، أفتخر به افتخارًا لا يمكن تحمل وقعه - فقد صار ألد أعدائي.

فككنا سلالنا جميعها، وانشغلنا بتحضير الغداء. تظاهر صاحب الشارب الأحمر بأنه يستطيع إعداد سَلطة - لم أصدقه - وراح يتطفل ويفرض نفسه أمام الضيوف. غسلت بعض الفتيات الخس، وقطعته إلى شرائح تحت إشرافه، وكانت دورا من بينهن. شعرت أن القدر قد وضعني في مواجهة مع هذا الرجل، ويجب أن يسقط أحدنا منهزمًا.

أعدَّ صاحب الشارب الأحمر السَّلطة - تساءلت كيف استطاعوا أكلها، بينما لم أشتهِ لمسها - وعين نفسه مسؤولًا عن تقديم النبيذ، الذي أعد له تجويفًا من جزع شجرة لصبه، وقد استطاع إتمام مهمته لأنه حيوان وحشي بارع. رأيته مرة أخرى قد أعد طبقًا من السلطعون البحري، وراح يأكله عند قدمي دورا.

ولا أذكر ما حدث بعد ذلك، فلم تحتفظ ذاكرتي بشيء بعد هذا المشهد البغيض الذي ثبت أمام عيني. أقر أنني كنت سعيدًا للغاية، لكن فرحتي كانت جوفاء. تعلقت بفتاة ترتدي لونًا ورديًا، ذات عينين صغيرتين، ورحت أغازلها في يأس، فإذا بي أحظى باهتمامها، ولكني لا أعرف هل كان اهتمامها لشخصي فقط، أم أنها أرادت أن تثير صاحب الشارب الأحمر. شربنا نخبًا في صحة دورا. كنت أشرب، فإذا بي تأثرت لمقاطعة محادثتي لهذا الغرض، ثم استأنفت حديثي بعد ذلك مباشرة. لفتُّ انتباه دورا وأنا أنحني لها، وكم فكرت في جاذبيتها، لكنني لاحظت أنها نظرت نحوي من فوق رأس صاحب الشارب الأحمر، فإذا بي جامد ساهم.

كانت للفتاة ذات الفستان الوردي أُم ترتدي فستانًا أخضر، وأظن أن والدتها هذه قد فصلت بيننا بنوع من الحكمة واللباقة. تفرق الجمع، بينما تم إزاحة بقايا الطعام، فرحت أتمشى بمفردي بين الأشجار في حالة من الغضب والندم. كنت أفكر إذا ما كان من الأفضل أن أتظاهر بأنني لست بخير، فأهرب - لا أدري إلى أين - فوق حصاني الرمادي، وإذا بي أقابل دورا والآنسة ميلز أمامي.

قالت الآنسة ميلز: «هل أصابك الضجر يا سيد كوبرفيلد؟».

طلبت منها المعذرة إن بدوت كذلك وقلت إنه لا شيء بي على الإطلاق.

قالت الآنسة ميلز: «وهل أنتِ ضجرة يا دورا؟».

«آهٍ. لا يا عزيزتي، مطلقًا».

قالت الآنسة ميلز، في نبرة أقرب إلى المهابة: «يا سيد كوبرفيلد وأنتِ يا دورا، لا تسمحا لسوء فهم تافه أن يُذبل أزهار الربيع، التي لن تتفتح مجددًا إن أهملت وذبلت. إنني أنقل إليكما خلاصة تجربة الماضي؛ ذاك الماضي البعيد الذي لا رجعة فيه. إن النافورات المتدفقة التي تتلألأ تحت أشعة الشمس يجب ألا تتوقف لمجرد نزوة عابرة، ولا يصح أن تقتلع الواحة المزهرة من قلب الصحراء الكبرى».

لم أدرك ما فعلته بالضبط، فقد كنت متوهجًا من رأسي إلى أخمصي قدمي إلى حد غير عادي، فإذا بي أمسك بيد دورا الصغيرة وأقبلها - وقد سمحت لي بتقبيلها - كما قبلت يد الآنسة ميلز. أحسب أنه قد بدا لنا

جميعًا أننا نحلق مباشرة وصولًا إلى السماء السابعة، وأننا لم نكن لنحط على الأرض مرة أخرى، بل بقينا هناك طوال المساء. تمشينا في البداية ذهابًا وإيابًا بين الأشجار، وقد تشابكت ذراعي بذراع دورا الخجولة. يعلم الله، كما يعلم كل شيء دائما، أنني تمنيت لو أن هذا هو مطاف مصيرنا السعيد، وأننا سنخلد بهذه المشاعر البريئة، فنبقى بين الأشجار إلى الأبد.

إلا أننا انتبهنا بعد وقت قصير إلى أصوات الآخرين؛ يضحكون ويتحدثون وينادون قائلين: «أين دورا؟»، لذا عدنا، فإذا بهم يطلبون من دورا أن تغني لهم. كان صاحب الشارب الأحمر قد عرض أن يذهب إلى العربة فيحضر الجيتار، إلا أن دورا أخبرته أن أحدًا لا يعرف مكانه سواي. انتصرت عليه، فأحضرت الجيتار وجلست بجانبها، وأمسكت منديلها وقفازها، وشربت كل نغمة من صوتها العذب، كما لو أنها تغني لي وحدي، أما الجميع فيصفقون بقدر ما يحلو لهم، من دون أن تربطني بهم أي صلة.

أسكرتني نشوة الفرح. وكم كنت أخشى أن أكون في سعادة بالغة ناتجة عن وهم لا حقيقة، أو أنني سأستيقظ في شارع باكنجهام فأفيق على صوت السيدة كروب وهي تقرقع فناجين الشاي لإعداد الفطور! لكن دورا غنت وغنى آخرون، وغنت الآنسة ميلز أيضًا، وكانت أغنيتها عن أصداء النوم في كهوف الذاكرة، كأنها تبلغ من العمر مائة سنة أو يزيد. حل المساء، وشربنا الشاي من الغلاية مصنوعًا على الطريقة الغجرية، وكنت لا أزال سعيدًا كما كنت دائمًا معها.

ازدادت سعادتي وفاقت أي وقت مضى، حتى انفض الجميع، ومن بينهم المهزوم صاحب الشارب الأحمر، وذهب كل منهم في طريقه، وذهبنا في طريقنا كذلك تحت وطأة المساء الساكن والضوء المحتضر، تحفنا الروائح العطرة التي تتصاعد من حولنا. كان السيد سبنلو يشعر بالنعاس قليلًا بعد شربه للشمبانيا -مباركة التربة التي أنبتت عنبها، ومبارك العنب الذي صنع منه النبيذ، والشمس التي أنضجته، والتاجر الذي غشها- فلم يسعه سوى أن يغط في النوم سريعًا في ركن من أركان العربة، ومن ثَم امتطيت جوادي واقتربت من دورا لأحادثها. لقد أعجبت بحصاني وربت عليه - آهٍ، يا لها من يدٍ صغيرة غالية، كم كانت تبدو حانية على حصان! - ولم يكف شالها عن الحركة، فرحت ألفه بين الحين والآخر حول ذراعي، حتى إنني تخيلت أن جيب بدأ يدرك كيف تسير الأمور، وأنه فهم أن عليه أن يتخذني صديقًا.

أما الآنسة ميلز الحكيمة، فيا لها من ناسكة عطوف، على الرغم من أن الحياة أنهكتها تمامًا، كانت لدورا كما لو أنها بطريرك صغير؛ يبارك فتاة لم تتجاوز العشرين من عمرها، بعد أن عفت عن العالم، فلا يجب بأي حال من الأحوال أن تستيقظ أصداء النوم في كهوف الذاكرة[1]، ويا لكرم أفعالها تلك!

قالت الآنسة ميلز: «تعالَ يا سيد كوبرفيلد إلى هذا الجانب من العربة لحظة. إني أستميحك للحظة واحدة إن استطعت. أريد أن أتحدث إليك».

(١) يشير إلى أغنية غنتها الآنسة ميلز من قبل.

ها أنا أعتلي حصاني الرمادي، منحنيًا إلى جانب الآنسة ميلز، وقد أمسكت يدي بباب العربة.

قالت: «إن دورا ستبقى معي. ستعود معي إلى المنزل بعد غد، فإن رغبت في زيارتنا، فإنني متأكدة من أن أبي سيسعد برؤيتك». ما الذي يمكنني فعله سوى أن أطلب من الله في صمت أن يحل ببركته على الآنسة ميلز. ثم إنني احتفظت بعنوان الآنسة ميلز في ركن آمن في ذاكرتي، ولم يسعني غير أن أظهر للآنسة ميلز امتناني، وأن أعبر لها بكلمات حماسية عن تقديري لمساعيها الحميدة، ويا لصداقتها من كنز لا يقدر بثمن!

ثم صرفتني الآنسة ميلز بلطف، قائلة: «عد إلى دورا»، فعدت إليها. وأطلت دورا من العربة لتتحدث معي، ودار بيننا حديث طويل استمر طوال الطريق. رحت أقرب جوادي الرمادي من العربة حتى إنني جعلت ساقه الأمامية تحتك بعجلاتها، فـ«خلعت عنه جلده»، كما قال لي مالكه، مطالبًا بتعويض قدره ثلاثة جنيهات وسبعة شلنات، فدفعتها، وأحسب أنه كان مبلغًا زهيدًا للغاية مقابل ما حصلت عليه من فرح وسرور. ظلت الآنسة ميلز تنظر إلى القمر لوقت لا أعلمه، تتمتم بأبيات من الشعر، وتتذكر -على ما أظن- تلك الأيام الخوالي عندما كانت مقبلة على هذه الحياة.

كانت نوروود قريبة جدًّا من وجهتنا، فوصلنا إليها في وقت قصير للغاية قبل موعدنا بساعات. أما السيد سبنلو فقد استيقظ من نومه قبل وصولنا بقليل، وقال: «يجب أن تأتي معنا لترتاح يا كوبرفيلد»، فوافقت

ونزلت. تناولنا بعض الفطائر وشربنا النبيذ والماء، وبدت دورا في الغرفة المضيئة حمراء الوجنتين، فاتنة الجمال، حتى إنني لم أستطع أن أنتزع نفسي من بينهم لأرحل، بل جلست أحدق فيها كما لو أنني في حلم، حتى نبهني صوت شخير السيد سبنلو إلى ضرورة الاستئذان للانصراف، ولذلك افترقنا. امتطيت جوادي متجهًا إلى لندن بعد لمسة وداع من يد دورا؛ ظلت مضاءة فوق يدي، ورحت أتذكر كل ما حدث وكل ما قيل عشرات الآلاف من المرات، حتى استلقيت أخيرًا على سريري، مبتهجًا كما لو أنني فتى أغر سيطر عليه الحب فأخرجه عن طوره.

استيقظت في صباح اليوم التالي، وقد اعتزمت إفشاء حبي لدورا، ومعرفة مصيري، فإما إجابتها يقينًا بالسعادة أو البؤس. ولم أنتظر من العالم سوى إجابة دورا عن سؤالي. قضيت ثلاثة أيام في غمرة من البؤس، أعذب نفسي بتصور مجموعة متنوعة من السيناريوهات المحبطة، تشمل كل ما قد حدث بيني ودورا. ارتديت في النهاية أفضل الثياب التي اشتريتها خصوصًا لهذا الغرض وقد كلفتني مبلغًا ضخمًا، ثم ذهبت إلى منزل الآنسة ميلز معتزم النية على إعلان حبي.

كم مرة مشيت في الشارع جيئة ورواحًا، ودرت حول الميدان متألمًا خائفًا من أن تصير الإجابة أسوأ بكثير من السؤال نفسه، قبل أن أقنع نفسي بالصعود وقرع الباب، من دون أن أعبأ بالنتيجة في هذه اللحظة. طرقت الباب أخيرًا، ولكن راودتني في لحظات انتظاري بعض الأفكار السريعة التي قد تجعلني أسأل إذا كان هذا منزل السيد بلاكبوي أم لا

-تقليدًا لما كان يفعله باركس المسكين- ثم أستجدي العفو وأتراجع عن الدخول، لكنني لم أفعل واحتفظت بثبات قدميَّ على الأرض.

لم يكن السيد ميلز في المنزل، ولم أكن أتوقع وجوده، فلا أحد يحتاج إليه في شيء. أما الآنسة ميلز فكانت في المنزل، وكان وجودها كافيًا.

دخلت غرفة في الطابق العلوي، حيث كانت الآنسة ميلز ودورا في استقبالي مع جيب. كانت الآنسة ميلز تنسخ مقطوعة موسيقية -أتذكر أنها كانت لأغنية جديدة تسمى «ترنيمة حب»- أما دورا فكانت ترسم أزهارًا. ولا أدري أي إحساس لفني حين عرفت أنها أزهاري؛ تلك الباقة نفسها التي اشتريتها من سوق كوفنت جاردن. لا أستطيع القول إنهما كانتا متشابهتين تمامًا، أو أن رسمها يشبه أي أزهار وقعت تحت عيني يومًا، لكنني فهمت من الورقة التي تنسخها بدقة، أن رسمتها ستكون أزهارًا.

كانت الآنسة ميلز سعيدة جدًّا برؤيتي، وآسفة للغاية لأن والدها لم يكن في المنزل، على الرغم من أنني أحسب أننا جميعًا تحملنا الأمر بثبات. تحدثت الآنسة ميلز لبضع دقائق، ثم وضعت قلمها منصرفة عن نسخ «ترنيمة حب»، ثم نهضت وغادرت الغرفة.

بدأت أفكر أنني سأؤجل إعلاني لحب دورا إلى الغد.

قالت دورا وهي ترفع عينيها الجميلتين نحوي: «أرجو ألا يكون حصانك المسكين متعبًا، بعدما عاد إلى المنزل ليلًا. لقد كان طريقًا طويلًا شاقًّا عليه».

بدأت أفكر أنني سأعلن عن حبي في ذلك اليوم.

قلت: «لقد كان طريقًا طويلًا شاقًّا عليه، لأنه لم يكن يجد ما يدعمه في الرحلة».

سألت دورا: «ألم يأكل؟ يا له من مسكين!».

بدأت أفكر أنني سأؤجل إعلاني لحب دورا إلى الغد.

قلت: «بلى، لقد اعتنيت به للغاية. أعني أنه لم يحظَ بالسعادة التي لا توصف مثلما حظيت بها لكوني بالقرب منكِ».

أحنت دورا رأسها فوق رسمتها، وقالت بعد فترة قصيرة من صمت، جلست خلالها محمومًا تلتهمني حرقة، وقد تصلبت ساقاي.

«لا يبدو أنكِ شعرتِ بهذه السعادة بنفسكِ، في وقت ما من اليوم».

لقد أدركت في هذه اللحظة أنني مُقدم على هدفي، ويجب أن أتمه على الفور.

قالت دورا وهي ترفع حاجبيها قليلًا وتهز رأسها: «لم تهتم لهذه السعادة، على الأقل عندما كنت جالسًا بجانب الآنسة كيت».

يجب أن أذكر أن كيت كان اسم الفتاة التي ارتدت فستانًا ورديًّا، وكانت ذات عينين ضيقتين.

قالت دورا: «على الرغم من أنني بلا شك لا أعرف لماذا تقول إنك وجدت سعادتك، أو لماذا يجب أن تسميها سعادة بوجه عام، لكنك بالطبع لا تعني ما تقوله. وإنني على يقين من أن أحدًا لا يشك في كونك حرًّا لفعل ما تريد. يا جيب، أيها الولد الشقي، تعالَ إلى هنا».

لا أعرف كيف فعلت ذلك. لقد نفذت الأمر في لحظة، فاعترضت طريق جيب، وجذبت دورا بين أحضاني. صرت مفعمًا بالبلاغة، ولم أتوقف قَطُّ لاستدعاء كلمة واحدة. أخبرتها كيف أحببتها، وقلت لها إنني سأموت من دونها. أخبرتها أنني أعبدها عبادة، بينما راح جيب ينبح بجنون طوال الوقت.

أشاحت دورا برأسها وصرخت وارتجفت، فإذا ببلاغتي تنساب أكوامًا. قلت لها إنها إذا أرادت مني أن أموت من أجلها، عليها أن تأمرني بكلمة واحدة، وستجدني على أهبة الاستعداد. إن الحياة من دون حب دورا لا تساوي شيئًا، فأنا لم أستطع أن أحياها، ولن أحياها من دونها. كان حبها لا يفارقني لحظة، ليلًا ونهارًا، منذ أن رأيتها لأول مرة. أحببتها في تلك اللحظة إلى حد الجنون. سوف أحبها إلى الأبد، في كل دقيقة قادمة، حد الجنون. أَحب العشاق من قبلي، وسيحيا العشاق بالحب من بعدي مرة أخرى، ولكن لم يكن عاشق ليحب، أو سيحب، أو يستطيع أن يحب، أو أَحب، أو ينبغي أن يحب، كما أحببت دورا. كنت كلما استرسلت أكثر، ازداد جيب نباحًا. وإذا بكل واحد منا، يزداد جنونًا بطريقته الخاصة في كل لحظة.

حسنًا، جلست أنا ودورا على الأريكة متجاورين، بعد أن هدأت. كان جيب مستلقيًا في حجرها، بينما تطرف بعينها في وجهي بسلام. وكم هدأ روعي وصرت في حالة نشوة رائعة. بعد أن وافقت دورا على خطبتنا.

أفترض أننا أدركنا أن هذا الارتباط سينتهي بالزواج. أجزم أننا أدركنا ذلك، لأن دورا اشترطت ألا نتزوج أبدًا من دون موافقة والدها. لكنني لا أتصور أننا في ظل نشوة الشباب كنا لنلتفت لمن حولنا حقًّا، أو أننا كنا لنستطيع أن نتجاوز بطموحنا لحظتنا الحالية. اتفقنا أن نحفظ سرنا فلا نبوح إلى السيد سبنلو. لكنني متأكد من أن فكرة إخفاء حبنا عنه، لم تخطر ببالي قَطُّ، إذ إنني لم أرَ فيه شيئًا مخزيًا.

بدت الآنسة ميلز أكثر استغراقًا في التفكير بعدما عثرت دورا عليها وأعادتها معها. وإني لأتفهم الأمر، لأن ما حدث كان كفيلًا بأن يوقظ أصداء النوم في كهوف الذاكرة. إلا أنها باركت لنا هذا الارتباط، وأكدت صداقتها الدائمة لنا، وكان حديثها إلينا بشكل عام، أقرب ما يكون إلى صوت يعلو من الدير.

يا له من وقت خمول! يا له من وقت هزيل وسعيد وساذج!

أخذت قياس إصبع دورا حتى أعد لها خاتمًا. كان من المفترض أن يصنع على هيئة لا تنسني[1]، وقد فهم الصائغ مطلبي ودوَّن المقياس الذي أخذته في دفتره، إلا أنه أخذ يضحك وكلفني بدفع أي شيء مقابل علبة صغيرة جميلة ذات أحجار زرقاء. أما كل هذه الأحداث فمرتبطة في أعماقي بذكرى يد دورا، حتى إنني ما إن صادفت بالأمس خاتمًا مثله حول إصبع ابنتي، حتى تحرك قلبي مستعيدًا ذكراه فيما يشبه الألم.

---

(١) نوع من الأزهار لا تنمو إلا في المقابر، وقد اتُّخذت رمزًا للتعبير عن الوفاء.

رحت أتجول هائمًا، حاملًا هذا السر، ممتلئًا بالاعتزاز بنفسي، مستشعرًا جلال محبة دورا، وقداسة كوني محبوبًا، حتى إنني لو مشيت فوق الهواء، لما زادت حالتي زهوًا عما أحسسته وأنا بين الناس، الأموات منهم والأحياء الذين يزحفون سعيًا فوق الأرض.

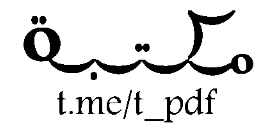
كنا نلتقي في حديقة الميدان، فنجلس داخل المظلة الصيفية السوداء، فإذا بي أحظى بسعادة بالغة تجعلني أحب عصافير لندن في هذه الساعة، لا شيء آخر سوى هذه اللقاءات، فأرى ريشها المدخن كأنه ريش طيور المناطق الاستوائية، أما عندما حدث أول شجار كبير بيننا - كان في غضون أسبوع واحد من خطبتنا - أعادت دورا الخاتم إليَّ مدرجًا مع ورقة يائسة، دونت عليها تعبيرها المذهل القائل «إن حبنا قد بدأ بحماقة، وانتهى أمره بجنون»، ويا لها من كلمات مرعبة دفعتني إلى تمزيق شعري، والبكاء حزنًا على أن يكون كل شيء قد انتهى بيننا.

ذهبت تحت جنح الليل إلى الآنسة ميلز، فرأيتها خلسة في مطبخ خلفي بجوار مصقلة للملابس، فناشدت الآنسة ميلز أن تتدخل لتصلح بيننا وتجنبنا هذا الجنون. قبلت الآنسة ميلز تولي الأمر وعادت إليَّ مع دورا. راحت تعظنا من واقع منبر شبابها المرير، فتحثنا على الاحترام المتبادل، وتجنب الخوض في صحراء فارغة.

بكينا، وتصالحنا، وعدنا إلى بهجتنا مرة أخرى. تغير المطبخ الخلفي، ومصقلة الملابس، وكل شيء، فصاروا معبدًا للحب، حيث

رتبنا خطة لتبادل المراسلات من خلال الآنسة ميلز، فنتبادل على الأقل رسالة واحدة من جانب كل منا يوميًّا.

يا له من زمن رائق خمول! يا له من زمن بريء وسعيد وساذج! ليس من بين جميع الأوقات التي قضيتها، ومراحل حياتي، ما يمكنني أن أبتسم له مثلما أبتسم حين أعيد إلى ذاكرتي لحظة واحدة من هذا الزمان، فأفكر فيما جرى في حنايا الفؤاد.





الفصل الرابع والثلاثون

عمتي تدهشني

أرسلت إلى أجنيس بمجرد خطبتي من دورا. كتبت إليها رسالة طويلة، حاولت فيها أن أفهمها مدى سعادتي، ومن تكون حبيبتي دورا. لقد ناشدت أجنيس ألا تعتبر خطبتي شغفًا طائشًا يمكن أن تنتهي وتؤول إلى أي فتاة أخرى، أو أنها تتشابه ولو بأدنى وجه شبه مع الأوهام الصبيانية التي اعتدنا المزاح والتندر عليها. أكدت لها أنه حب خالص من أعماقي لا يستطيع أحد أن يصل إلى قراره مطلقًا، وأعربت عن ظني بأنه لا يضاهي شيئًا على الإطلاق.

رحت أكتب إلى أجنيس في أمسية رائعة بجوار نافذتي المفتوحة، وتذكرت عينيها الهادئتين الصافيتين ووجهها اللطيف الذي يأسرني، وقد أكسبني هذا التأثر نوعًا من السكينة، فخففت عني عجلتي وانفعالاتي التي عشت بها مؤخرًا، حتى اختلطت بسعادتي إلى حد ما، إلى أن هدأت ذارفًا الدموع. أتذكر أنني جلست أريح رأسي على يدي، بعد أن انتهيت من كتابة نصف الرسالة، ورحت أفكر ساهمًا في أجنيس، التي

أعتبرها أحد عناصر حياتي الطبيعية، كما لو أنها مأواي المقدس في هذا الوجود، الذي ستسعد دورا كذلك باللجوء إليه دون سواه. كما لو أن وجهة قلبي قد صارت إليها في الحب، أو الفرح، أو الحزن، أو الأمل، أو الإحباط، فوجد ملجأه وأفضل صديق له.

لم أقل في رسالتي شيئًا عن ستيرفورث. أخبرتها فقط بحدوث أمر محزن في يارموث، بسبب رحيل إيميلي عن منزلها، مما جعل جرحي مزدوجًا بسبب ما شاب رحيلها من ظروف وملابسات. كنت أعرف مدى سرعة بديهتها الدائمة وقدرتها على التكهن بالحقيقة، وأنها لن تكون أبدًا أول من يتفوه باسمه بعد اليوم.

تلقيت الإجابة عن هذه الرسالة، عن طريق البريد. ورحت أقرأ الرسالة بعد أن خُيِّل إليَّ أنني أستمع إلى أجنيس بينما تتحدث معي. كان صوتها الودي يتردد في أذني. فماذا عساي أن أقول أكثر مما قلته!

زارني ترادلز مرة أو مرتين في الفترة الأخيرة حين كنت بعيدًا عن المنزل. فوجد بيجوتي وقابلها، وعلم منها أنها مربيتي القديمة -كانت تتطوع دائمًا بالإدلاء بهذه المعلومات لكل من يقابلها- فتعارفا ونشأت بينهما علاقة. أخبرتني بيجوتي أنهما جلسا، فتبادل معها بعض الأحاديث القصيرة عني. لكني أخشى أن يكون هذا الحديث بأكمله لم يكن إلا من طرفها، بعد أن أفرطت في حديثها المطول، حيث كان من الصعب جدًّا إيقافها عن الكلام - بارك الله فيها - حين أكون موضوع حديثها.

يذكرني هذا الأمر بأنني كنت أنتظر ذات ظهيرة زيارة ترادلز التي حدد موعدها، فما إن حان وقتها حتى أعفت السيدة كروب نفسها من جميع مهامها -باستثناء حصولها على راتبها- إلى أن توقفت بيجوتي عن تقديم نفسها بصفتها مربيتي والقائمة على أموري. سعت السيدة كروب إلى التحدث عن بيجوتي عند السلم بصوت عالٍ للغاية - مع شخص ما غير مرئي، لأنها كانت وحيدة تمامًا في تلك الأوقات - ثم بعثت لي خطابًا، تسرد فيه رأيها حول الأمر، وقد بدأت بيانها المعهود، الذي يناسب كل حدث في حياتها، من حيث كونها أمًّا. راحت تخبرني أنها شهدت أيامًا مختلفة تمامًا، لكنها على مدار حياتها لم تقبل قَطُّ بوجود جواسيس أو متسللين أو مخبرين في منزلها. قالت إنها لن تحدد أسماءً، وأنها ستدعهم يتخفون تحت قبعة ارتدوها، لكنها اعتادت النظر باحتقار ودونية إلى الجواسيس أو المتسللين أو المخبرين، وخاصة من يختبئ منهم بين الأعشاب الضارة، وقد تم تأكيد ذلك. أما إذا وقع رجل ضحية للجواسيس أو المتسللين أو المخبرين - ولم تذكر أسماء أيضًا - فإن ذلك لن يخزيها أبدًا، ما دام له الحق في إرضاء نفسه بالخديعة، فإنها ستتركه وشأنه. أما كل ما تصر عليه السيدة كروب هو أَلَّا يُجبر على التواصل مع هؤلاء الأشخاص. لذلك فإنها ترجو أن تُعفى من أي حضور مع هذه الرفقة، إلى أن تعود الأمور كما كانت من قبل في أفضل حال. ثم ذكرت كذلك أن دفتر حسابها الصغير سيوضع على مائدة الإفطار صباح كل سبت، مع رجاء الدفع الفوري للأسباب ذاتها، كما أضافت وجهة النظر الخيرة المتمثلة في تفادي المتاعب «وانقطاع المودة» بين جميع الأطراف.

اقتصر دور السيدة كروب بعد ذلك على التزحلق على السلم، خاصة عندما تحمل جرة مياه، محاولة أن توهم بيجوتي بكسر ساقيها. ومن ثَم وجدت أن العيش في هذه الحالة من الحصار أمر لا يطاق، لكنني كنت خائفًا من السيدة كروب حتى إنني لم أستطع التطلع إلى أي طريقة للتخلص منها.

جاء ترادلز في الموعد المحدد ودق باب منزلي، على الرغم من كل هذه العقبات، وقد صاح قائلًا: «كيف حالك يا عزيزي كوبرفيلد؟».

قلت: «يا عزيزي ترادلز، إنني سعيد برؤيتك أخيرًا، وآسف جدًّا لأنني لم أكن في المنزل قبل ذلك. لكنني كنت مشغولًا إلى حد كبير بـ...».

قال ترادلز: «نعم، نعم، أعلم، بالطبع. إن خطيبتك تعيش في لندن، على ما أظن».

سألته: «ماذا قلت؟».

قال ترادلز بخجل في رقته المعهودة: «أقصد - عفوًا - الآنسة د. فكما تعلم أنها تقيم في لندن، على ما أظن، أليس كذلك؟».

قلت: «نعم بالتأكيد. إنها تعيش بالقرب من لندن».

قال ترادلز بنظرة جادة: «إن خطيبتي، ربما تتذكر أمرها، تقيم في ديفونشاير - وهي واحدة من وسط تسعة إخوة. وبالتالي، فإنني لست منشغلًا للغاية مثلك... وفقًا لهذا المعنى».

قلت: «إني أتساءل كيف تتحمل عدم رؤيتها إلا في أوقات نادرة للغاية».

قال ترادلز، بعد تأمل: «آه، يبدو أن أمرنا عجيب حقًّا. أظن أنه كذلك يا كوبرفيلد، لأنه لا حيلة لي في هذا الأمر، أليس كذلك؟».

أجبته بابتسامة لا تخلو من الخجل: «أظن ذلك، كما أنك تتحلى بكثير من الثبات والصبر يا ترادلز».

قال ترادلز، وهو يفكر في الأمر: «آه يا للعجب! هل أبدو لك على هذه الصورة يا كوبرفيلد؟ لم أكن أتصور أنني أضفي هذا الانطباع حقًّا. إنها فتاة عزيزة إلى أبعد حد، ربما بثت إليَّ شيئًا من هذه الفضائل. أما وقد ذكرت هذه الفضائل الآن يا كوبرفيلد، فلا ينبغي أن أعجب على الإطلاق، بل أؤكد لك أنها تنسى نفسها دائمًا وتعتني بإخوتها التسعة».

فسألت: «هل هي الأكبر؟».

قال ترادلز: «آه يا ربي، لا، بل إن أكبرهم أكثر جمالًا».

أظن أنه لاحظ أنني لم أستطع منع نفسي من الابتسام أمام عفوية هذا الرد، فأضفى بدوره ابتسامة على وجهه الساذج، ثم استطرد قائلًا:

«لا لشيء بالطبع، سوى أن صوفي... يا له من اسم جميل يا كوبرفيلد! طالما حسبته كذلك، فما رأيك؟».

قلت: «جميل جدًّا».

قال بحماسة: «لا لشيء بالطبع، سوى أن صوفي جميلة أيضًا في عيني، وأنها واحدة من أعز الفتيات على الإطلاق، بل أحسب أنها

كذلك في عين أي إنسان غيري. لكني عندما أقول إن الكبرى أكثرهم جمالًا، فإنني أعني أنها حقًّا...»، راح يحرك كلتا يديه كما لو أنه يصف غيومًا في سماء، قائلًا في حيوية: «كما تعلم؛ أقصد أنها رائعة». قلت: «حقًّا!».

قال ترادلز: «آه، أؤكد لك أنها شيء غير عادي على الإطلاق، حقًّا، ثم إنها، كما تعلم، ممن خلقن ليصرن محلًّا للإعجاب من المجتمع، إلا أنها لا تستطيع الاستمتاع بكثير من المزايا نتيجة لمحدودية إمكانياتها. إنها سريعة الغضب بالطبع في كثير من الأمور وكثيرة التدقيق في بعض الأحيان. إلا أن صوفي تضفي على تعليقها روح الدعابة».

قلت مجازفًا بسؤال: «هل صوفي الأصغر بينهم؟».

قال ترادلز وهو يضرب ذقنه: «آه، كلا يا عزيزي. إن أصغر اثنتين تبلغان من العمر تسعة وعشرة أعوام فحسب، أما صوفي فتتولى تعليمهما».

رحت أخمن قائلًا: «هل هي الابنة الثانية إذن؟».

قال ترادلز: «لا. إن سارة هي الثانية. ويا لسارة المسكينة؛ إنها مصابة بشيء ما في عمودها الفقري. يقول الأطباء إن مرضها سوف يتلاشى بمرور الوقت، ولكن في غضون ذلك عليها أن تستلقي لمدة اثني عشر شهرًا من دون حراك، فتُمرِّضها صوفي. إن صوفي هي الرابعة بين إخوتها».

فسألت: «هل الأم لم تزل على قيد الحياة؟».

قال ترادلز: «آه، نعم، إنها على قيد الحياة. إنها امرأة راقية للغاية حقًّا، لكن طبيعة البلد الرطبة لا تتوافق مع جسدها، لذلك فإنها فقدت القدرة على استخدام أطرافها».

قلت: «رحماك يا ربي».

استأنف ترادلز يقول: «إنه لأمر مؤسف للغاية، أليس كذلك؟ إلا أنه من وجهة النظر المحلية فقط، ليس بهذا القدر من السوء الذي قد يبدو عيه، لأن صوفي تحل محل الأم فتقوم بواجباتها. إنها أم لأمها بمعنى الكلمة، كما أنها في نفس المنزلة بالنسبة إلى الإخوة التسع الآخرين».

شعرت بإعجاب بالغ بفضائل هذه الشابة. كونت وجهة نظر إلا أنني بذلت قصارى جهدي لمنع تحطيم روح ترادلز المعنوية المرتفعة، أو تكدير آفاقهما المستقبلية المشتركة في الحياة، فرحت أسأل بدلًا من ذلك عن حال السيد ميكوبر.

قال ترادلز: «إنه بخير يا كوبرفيلد. شكرًا لك على سؤالك، ولكنني لا أعيش معه في الوقت الحاضر».

«ألا تعيش معه؟».

قال ترادلز هامسًا: «نعم. أتعرف! لقد غير اسمه إلى مورتيمر، بسبب موقفه المحرج في الآونة الأخيرة، كما أنه لا يخرج إلا بعد حلول الظلام، متخفيًا، مرتديًا نظارته. صودرت محتويات منزلنا المستأجر، وقد صارت حالة السيدة ميكوبر مروعة، حتى إنني لم أستطع التراجع

عن إدراج اسمي ضمن مشروع القانون الثاني الذي تحدثنا عنه هنا من قبل. قد تتخيل مدى سروري يا كوبرفيلد حين رأيت أنني سويت الأمر، وقد استعادت السيدة ميكوبر معنوياتها».

قلت: «أممم».

تابع ترادلز حديثه قائلًا: «لا يعني ذلك أن سعادتها دامت طويلًا، فلسوء الحظ لم يمضِ أسبوع واحد حتى جاء إعلام آخر بالمُصادرة، مما أدى إلى تفريق شملنا. وها أنا أعيش في شقة مفروشة منذ ذلك الحين، أما آل مورتيمر فصاروا يتمتعون بخصوصية كبيرة بالفعل. آمل ألا تظن أنني أناني يا كوبرفيلد، إذا ذكرت لك أن المراهن قد استولى على طاولتي المستديرة الصغيرة ذات السطح الرخامي، وزهرية صوفي وحامل الزهرية كذلك».

صرخت في نبرة ساخطة: «يا له من أمر قاسٍ!».

قال ترادلز، مع غمزه المعتاد بعد سماعه لكلامي: «لقد كان الأمر مثل قرصة موجعة. إلا أنني لا أذكره على سبيل التوبيخ والأسى، بل لدافع آخر. والحقيقة يا كوبرفيلد أنني لم أتمكن من إعادة شرائها بعد وقت من الاستيلاء عليها، والسبب الأول: لأن السمسار كان يعرف أنني أريدها ومتمسك باستردادها، فرفع سعرها إلى حد كبير، والسبب الثاني: لأنني... لم أكن أحوز مالًا لأشتريها. ظلت عيني حتى هذه اللحظة تحوم حول متجر السمسار». استطرد ترادلز خطته في نبرة السرور قائلًا: «ذاك المتجر الذي يقع في نهاية طريق توتنهام كورت، فإذا بي أجدها

في يوم معروضة للبيع بسعر يسير. لاحظتها على مسافة من الطريق، لأن السمسار إذا ما رآني، فسوف يطلب ثمنًا باهظًا لها، أما ما فكرت به، بعد أن حصلت على قدر من مال الآن، هو أنك ربما لن تعترض على أن تطلب من مربيتك الطيبة أن تأتي معي إلى المتجر -يمكنني أن أريها المتجر من زاوية في الشارع المجاور- فتتفق على عرض مناسب للشراء، كما لو أنها تبتاعها لنفسها، فهلا تستطيع فعل ذلك؟!».

إن البهجة التي قدم بها ترادلز لي هذه الخطة، والبراعة غير المألوفة التي كانت لديه في التخطيط، لم تزالا من بين الأحداث التي تحتفظ بها ذاكرتي إلى الآن.

أخبرته أن مربيتي العجوز ستسعد بمساعدته، وأننا سنخوض الأمر معًا، ولكن بشرط واحد. كان هذا الشرط هو أن يتخذ قرارًا لا رجعة فيه بعدم منح اسمه لضمان المزيد من القروض للسيد ميكوبر أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

قال ترادلز: «يا عزيزي كوبرفيلد، لقد فعلت ذلك لأنني بدأت أشعر أنني لم أكن متهورًا بفعلي هذا فحسب، بل لم أكن منصفًا أيضًا لحق صوفي. لقد أبرمت اتفاقًا بيني وبين نفسي، فلم تعد ثمة مخاوف، لكنني أتعهد لك بذلك أيضًا بأكبر قدر من الاستعداد للوفاء بعهدي. لقد سددت أول التزاماتي سيئة الحظ، وليس لديَّ أدنى شك في أن السيد ميكوبر كان سيدفعها لو استطاع، لكنه لم يملك ما يدفع به الدين. يجب أن أذكر أمرًا أحبه وأوقره في السيد ميكوبر يا كوبرفيلد، وإنه لمتعلق بأمر الالتزام الثاني، الذي لم يحن وقت استحقاق تسديده بعد. إذ لم

يخبرني بتوافر ما سدده به، لكنه قال إنه سيتدبر أمره. وأحسب الآن أنه منصف وصادق في قوله ونياته».

لم أرغب في إضعاف ثقة صديقي العزيز، وبالتالي صدَّقت على كلامه. توجهنا بعد إنهاء محادثة صغيرة أخرى إلى المتجر لتسجيل اسم بيجوتي ضمن المشترين، بينما رفض ترادلز قضاء بقية الليل معي، لأنه كان في حالة خوف شديد من أن يحصل شخص ما على ممتلكاته قبل أن يتمكن من شرائها واستعادتها، كما أنه كان قد كرَّس المساء للكتابة إلى أعز فتاة في العالم.

لن أنسى أبدًا منظره وهو يلقي نظرة خاطفة على زاوية الشارع في طريق توتنهام كورت، بينما راحت بيجوتي تفاوض على ثمن أشيائه الثمينة. ولن أنسى ارتباكه عندما أقبلت بيجوتي نحونا ببطء بعد أن عرضت سعرًا زهيدًا لم يوافق عليه التاجر في البداية، وما إن همت منصرفة حتى تأسَّف، فعادت إليه مرة أخرى. كانت نهاية المفاوضات هي أنها اشترت الصفقة بسعر يسير، فأضفى الأمر على ترادلز بالغ السرور.

علم ترادلز بأمر إرسال أغراضه إلى المكان الذي يعيش فيه، في تلك الليلة، فإذا به يقول: «إنني ممتن لك، شاكرًا حقًّا، وآمل ألا تظن أنني سخيف يا كوبرفيلد لو أنني طلبت خدمة أخرى».

قلت سابقًا: «لست سخيفًا بالتأكيد، لا».

قال ترادلز لبيجوتي: «إنه لطف بالغ منكِ لو أنكِ استطعتِ إحضار الزهرية الآن، لأنني أريد أن أحملها إلى المنزل بنفسي، إنها زهرية صوفي يا كوبرفيلد».

كانت بيجوتي سعيدة لإحضارها له، وقد غمرها بالشكر والعرفان، وشق طريقه إلى توتنهام كورت، حاملًا إناء الزهور بين ذراعيه في مودة، مع تعبيرات فائقة من البهجة والسرور مرتسمة على وجهه لم أرَ مثلها على الإطلاق.

عدنا إلى مسكني، بعد أن اكتشفت أن المتاجر تتمتع بسحر بالغ أمام عيني بيجوتي، ولم أكن أعلم قَطُّ أنها مسحورة بها إلى هذا الحد بما يفوق أي إنسان سواها. رحت أتجول متبسطًا طوال الطريق، مستمتعًا بتحديق بيجوتي في نوافذ المحال، ومنظرها كلما أرادت إطالة النظر. وهكذا أمضينا وقتًا طويلًا حتى وصلنا إلى حي أديلفي.

كنا في طريقنا صاعدين إلى الطابق العلوي، فنبهت بيجوتي إلى الاختفاء المفاجئ للعثرات التي كانت تضعها السيدة كروب، وكذلك اقتفاء آثار خطواتها. وازدادت دهشتنا حين صعدنا إلى أعلى، فوجدنا بابي الخارجي مفتوحًا - كنت قد أغلقته قبل رحيلي - وسمعنا أصواتًا داخل الحجرة.

نظر كل منا إلى الآخر، من دون أن نعرف ما الذي علينا فعله، ومن ثَم توجهنا إلى غرفة الجلوس. وكم كانت دهشتي حين وجدت عمتي والسيد دك هنا أمامي من بين جميع الناس على وجه البسيطة! كانت عمتي جالسة على عدد من الأمتعة، وأمامها عصفوران، كما كانت

تحمل قطتها فوق ركبتيها، كما لو أنها امرأة روبنسون كروزو، بينما تشرب شايًا. أسند السيد دك جسده بعناية متأملًا طائرة ورقية كبيرة أمامه، تشبه إلى حد كبير الطائرة التي اعتدنا تطييرها معًا، مع تراكم مزيد من الأمتعة حوله.

صرخت قائلًا: «عمتي العزيزة، يا للهول، يا له من سرور لم أتوقعه!».

تعانقنا بحرارة. وصافحت السيد دك مصافحة حارة. أما السيدة كروب، فكانت مشغولة بإعداد الشاي، ولم تكن تستطيع الانتباه إلينا، ولكنها قالت بلطف إنها كانت تعلم جيدًا أن السيد كوبرفول[1] سيطير قلبه من الفرحة، حين يرى أهله الأعزاء.

قالت عمتي لبيجوتي، التي توارت أمام حضورها المبجل: «يا إلهي! كيف حالكم؟».

قلت: «هل تتذكرين عمتي يا بيجوتي؟».

صاحت عمتي: «رحماك يا ربي، لا تنادِ المرأة بهذا الاسم يا بني، إنه لا يسمع إلا في جزيرة البحر الجنوبي. لقد تزوجت وتخلصت منه، وهو أفضل شيء يمكن أن تفعله، فلماذا لا تمنحها فائدة التغيير؟ ما اسمكِ الآن يا ب؟». اختصرت اسمها بحرف ليكون حلًّا وسطًا بدلًا عن تلك التسمية البغيضة أمامها.

قالت بيجوتي في أدب: «باركس يا سيدتي».

---

(١) تدليلاً لاسم كوبرفيلد.

قالت عمتي: «حسنًا، يبدو هذا الاسم مبشرًا. كيف حالكِ يا باركس؟ أتمنى أن تكوني بخير».

وبتشجيع من هذه الكلمات اللطيفة ومد يد عمتي ليدها، تقدمت باركس فصافحتها وشكرتها.

قالت عمتي: «أرى أننا صرنا أكبر سنًّا مما كنا في الماضي. لقد التقينا مرة واحدة فقط من قبل، كما تعلمين. قمنا بعمل جليل وقتها، أريد فنجانًا آخر لأحتسيه يا عزيزي تروت».

سلمت الكوب إلى عمتي في تبجيل، وقد كانت تبدو في حالتها الشامخة المعتادة، ومن ثَم غامرت بالاعتراض على جلوسها فوق صندوق بهذه الطريقة.

قلت: «دعيني أهيئ لكِ الأريكة أو الكرسي المريح هنا يا عمتي. لماذا يجب أن تجلسي غير مرتاحة بهذا الشكل؟».

أجابت عمتي قائلة: «شكرًا لك يا تروت. إنني أفضل الجلوس على ممتلكاتي».

قالت السيدة كروب: «هل أصب المزيد من الشاي في القدر قبل أن أنصرف يا سيدتي؟».

ردت عمتي: «لا، أشكركِ يا سيدتي».

قالت السيدة كروب: «هل تسمحين لي بإحضار قطعة أخرى من الزبد يا سيدتي؟ أو هل تقبلين تناول بيضة طازجة؟ أم تفضلين أن أقوم

بتقديم قطعة من اللحم؟ ألا يوجد شيء يمكنني أن أقدمه لعمتك العزيزة يا سيد كوبرفول؟».

أجابت عمتي: «لا شيء يا سيدتي. إنني لا أحتاج إلى شيء، أشكركِ».

ظلت السيدة كروب تبتسم باستمرار للتعبير عن مزاجها اللطيف، وتمسك رأسها باستمرار على جانب واحد، للتعبير عن ضعف عام في بنيتها، وفركت يديها باستمرار لتعبر عن رغبتها في تقديم جميع الخدمات التي يجب أداؤها. انفرج فمها تدريجيًّا لتبتسم برأسها المائل إلى جانب واحد، وانتهت من فرك يدها، ثم خرجت من الغرفة. قالت عمتي: «يا دك، هل تعلم ما قلته لك عن منتهزي الفرص وعباد المال؟».

رد السيد دك - بنظرة خائفة، كما لو أنه نسي الأمر - مسرعًا للإجابة بالإيجاب.

قالت عمتي: «إن السيدة كروب واحدة من هؤلاء. يا باركس، سأولي إليك مهمة إعداد الشاي، وإني أريد الحصول على فنجان آخر، لأنني لا أستطيع تخيل تلك المرأة تصبه أمامي».

كنت أعرف عمتي جيدًا، مما جعلني أفهم أنها تفكر في شيء مهم، وأن هناك الكثير من الأمور التي لا يتصورها إنسان دفعتها إلى المجيء. لاحظت كيف لمعت عيناها، بينما ظنت أنني لم أنتبه إليها. ويا له من ارتباك غريب بدا أنه يدور بداخلها، بينما تحاول المحافظة على شموخها الخارجي ورباطة جأشها. بدأت أفكر فيما إذا كنت قد

فعلت أي شيء يسيء إليها، وهمس لي ضميري أنني لم أخبرها عن أمر دورا بعد، فتساءلت هل يمكن أن يكون هذا هو السبب بأي حال من الأحوال!

كنت أعلم أنها ستتحدث في الوقت الذي تراه مناسبًا لها، ومن ثَم جلست بالقرب منها، ورحت أتحدث مع العصفورين، ولعبت مع القطة، لأبدو هادئًا قدر المستطاع. إلا أنني كنت أبعد ما يكون عن السكينة، وكنت سأبقى على حالي لولا أن انتهز السيد دك الفرصة لتنبيهي. كان دك مستندًا إلى الطائرة الورقية الكبيرة جالسًا خلف عمتي، فراح يهز رأسه في وجهي بقوة مشيرًا إليها.

انتهت عمتي من احتساء الشاي، ورتبت ثوبها بعناية، ومسحت شفتيها لتقول أخيرًا: «يا تروت - لا داعي للانصراف يا باركس! آن الأوان لأن تعتمد على نفسك؟».

قلت: «أرجو ذلك، عمتي».

استفسرت الآنسة بيتسي قائلة: «ما رأيك؟».

«أظن ذلك يا عمة».

قالت عمتي وهي تنظر إليَّ بجدية: «لماذا إذن يا حبيبي تحسبني أُفضِّل الجلوس على أمتعتي هذه الليلة؟».

هزرت رأسي، غير قادر على تخمين الإجابة.

قالت عمتي: «لأن هذا كل ما أملك، بعدما أصابني الخراب يا عزيزي».

إذا كان منزلي قد انطرح في النهر ونحن جميعًا به معًا، لما كانت الصدمة أكبر مما تلقيتها.

قالت عمتي وهي تضع يدها بهدوء على كتفي: «إن دك يعرف الأمر. لقد حل عليَّ الخراب، يا عزيزي تروت. إن كل ما أملك في العالم، صارت تحويه هذه الغرفة، باستثناء الكوخ، وقد تركته لجانيت حتى تؤجره. أريد يا باركس أن أحصل الليلة على سرير لهذا الرجل النبيل. وتوفيرًا للنفقات، ربما يمكنك أن تهيئ مكانًا هنا لي، أي شيء سيؤدي الغرض. إنني أحتاج إلى سرير الليلة فقط. سنتحدث عن الأمر باستفاضة غدًا».

انتبهت من ذهولي وقلقي عليها - وأنا متأكد من وجودها - إثر سقوطها على عنقي في لحظة واحدة وبكائها لأنها حزنت لحالي من دون اعتبار أي شيء آخر. وفي اللحظة التالية كانت قد قمعت هذه المشاعر. وقالت بوجه انتصر على اكتئابه:

«يجب أن نواجه مشكلاتنا بشجاعة، ولا نشكو منها، فلا تخيفنا يا عزيزي. يجب أن نتعلم كيف نتصرف. يجب أن نعيش لنتجاوز العقبات يا تروت».



الفصل الخامس والثلاثون

كآبة

ما إن استعدت حضوري الذهني، بعد شرودي التام أمام أول صدمة أتلقاها من حديث عمتي، حتى اقترحت على السيد دك أن يأتي معي إلى المتجر، ويأخذ السرير الذي كان السيد بيجوتي قد أخلاه مؤخرًا. كان متجر تشاندلر يقبع في سوق هانجرفورد، وكانت الأسواق مكانًا مختلفًا تمامًا في تلك الأيام، حيث تعلو أبوابها أعمدة خشبية منخفضة - لا تختلف كثيرًا عن ذاك المنزل الذي يسكنه الرجل والمرأة القصيران[1]، في ذاك المقياس الزجاجي القديم للطقس - مما أسعد السيد دك أيما سعادة. وإني لأجرؤ على القول بأن متعة السكن فوق هذه البناية كانت ستعوضه عن عديد من المضايقات، إلا أن المضايقات كانت هينة جدًّا يمكن تحملها، بخلاف الروائح المتداخلة التي ذكرتها من قبل، وربما بالإضافة إلى حاجته إلى مساحة أكبر قليلًا للجلوس، وبخلاف ذلك

(١) مقياس قديم، كان يستخدم لمعرفة حالة الطقس. انتشر بين الصيادين والفلاحين وقام البعض بتزيينه برجل وامرأة بحيث يشير ارتفاع الماء داخله إلى أي منهما، فيرمز مؤشر المرأة إلى أن الجو لطيف بينما يرمز مؤشر الرجل إلى سوء الأحوال الجوية.

فإنه صار مسحورًا تمامًا بمكان إقامته. أكدت له السيدة كروب بنوع من السخط أنه لا توجد مساحة لأرجحة قطة هناك. قال لي السيد دك وهو جالس عند حافة السرير بينما يهز ساقه، وقد كان محقًّا في كلامه: «أتعلم يا تروتوود، إنني لا أريد أن أؤرجح قطة. إنني لم أؤرجح قطة قَطُّ. لذلك ماذا يعني قولها بالنسبة لي؟!».

حاولت أن أفهم من السيد دك أسباب هذا التغيير المفاجئ والرائع الذي طرأ على حال عمتي. وكما توقعت؛ لم تكن لديه أي إجابة على الإطلاق. كانت الإجابة الوحيدة التي استطاع أن يقدمها عن الأمر؛ هي أن عمتي قالت له في اليوم السابق: «الآن يا دك، هل أنت حقًّا الفيلسوف الذي أتصوره حقًّا؟»، وبعد ذلك قال: «نعم»، هو يرجو أن يكون كذلك. ثم قالت له عمتي: «يا دك، لقد حلَّ عليَّ الخراب». ومن ثَم قال: «آهٍ، حقًّا»، ثم أثنت عمتي عليه أفضل الثناء، مما أسعده وأرضاه. وفي نهاية المطاف جاءا إليَّ، وقد تناولا بعض الأرغفة مع البيرة طوال الطريق.

كان السيد دك شديد الرضا، جالسًا عند قدم السرير، يهز ساقه، ويخبرني بتلك الأمور، وعيناه مفتوحتان على مصراعيهما، مبتسمًا ابتسامة مدهشة، ويؤسفني القول إنني انفعلت ورحت أشرح له أن كلمة الخراب تعني الضيق والعوز والمجاعة. لكن سرعان ما أنبني ضميري بمرارة على هذه القسوة بعد أن رأيت وجهه قد صار شاحبًا، وانهمرت الدموع على وجنتيه الطويلتين، بينما كان يلقي نظرة معبأة بحزن لا يوصف، حتى إنها قد تؤثر في قلوب أقسى بكثير من قلبي. لقد تحملت آلامًا لا متناهية لكي أبتهج أمامه مرة أخرى، فتكبدت عناء يفوق ما عانيته

لتحمل إحباطه، وسرعان ما فهمت - كان يجب أن أفهم من البداية - أنه كان مطمئنًّا للغاية، لمجرد إيمانه بأحكم النساء وأروعهن، واعتماده اللا متناهي على مواردي الفكرية. وأحسب أنه ظن أن هذه الميزة، قادرة على مواجهة كل الكوارث ما دامت لم تؤدِّ إلى الموت.

قال السيد دك: «ماذا يمكننا أن نفعل يا تروتوود؟ إن ثمة ذكرى ...».

قلت: «حقًّا، إن كل ما يمكننا فعله الآن يا سيد دك هو الحفاظ على مظهرنا المرح، فلا نسمح لعمتي بملاحظة أننا نفكر في الأمر».

وافق على قولي بكل جد وإخلاص. وناشدني، إذا رأيته ينحرف شبرًا واحدًا عن المسار الصحيح، أن أذكره ببعض الأساليب البارعة التي أستعملها دائمًا. لكن يؤسفني أن أقول إن الخوف الذي سببته له كان يفوق المحاولات التي بذلها في إخفائه. باتت عيناه طوال المساء تجولان وتتفحصان وجه عمتي، مع تعبير عن الاستياء والذعر، كما لو أنه قد رآها تشيخ للتوِّ. ظل يفكر في الأمر، فكان كما لو أنه وضع قيدًا على رأسه، ولكن حرصه على هذا الثبات، وسكونه مع حركة عينيه الدائبتين مثل الآلة، لم يصلح الأمر على الإطلاق. رأيته ينظر إلى رغيف ونحن جلوس على العشاء -صادف أن يكون الرغيف صغيرًا- كما لو لم يكن ثمة شيء آخر يقف بيننا وبين المجاعة، وعندما أصرت عمتي على أن يتناول طبقه المعتاد كاملًا، اكتشفت أنه يقوم بتقطيع خبزه قطعًا ثم يدسها مع قطع من الجبن في جيبه، وليس لديَّ شك في أن غرضه لم يكن سوى إنعاشنا بهذه المدخرات حين نصل إلى مرحلة متقدمة من المجاعة.

كانت عمتي على صعيد آخر، في حالة من ضبط النفس، فكانت درسًا لنا جميعًا، ولي بصفة خاصة بلا شك. بدت لطيفة للغاية مع بيجوتي، إلا عندما ناديت عليها بهذا الاسم عن غير قصد. كانت عمتي تشعر بنوع من الغربة في لندن، إلا أنها كانت تسلك كما لو أنها في منزلها تمامًا. وكان من المفترض أن يُخصص سريري لها، بينما أرقد في غرفة الجلوس لأحرسها. وقد حرصت على أن تكون قريبة جدًّا من النهر، تحسبًا لاندلاع حريق، وأحسب أنها شعرت بالارتياح حقًّا لتهيئة الظروف لها.

رأتني عمتي وأنا أحضر لها المزيج الذي اعتادت احتساءه في المساء، فإذا بها تقول: «يا تروت، لا تُعده يا عزيزي».

قلت: «ألا تشربين شيئًا يا عمتي؟».

«لن أشرب النبيذ يا عزيزي، سأكتفي بشرب البيرة».

«لكن ثمة نبيذًا هنا يا عمة. إنكِ معتادة دائمًا على شرب النبيذ مع الدواء».

قالت عمتي: «احتفظ به في حالة المرض. يجب ألا نستخدمه من دون حساب يا تروت. سأكتفي بنصف لتر من البيرة».

ظننت أن السيد دك على وشك أن يقع فاقدًا الوعي، لكون عمتي مصرة على موقفها، فخرجت واشتريت البيرة بنفسي. كان الوقت قد تأخر، فانتهزت بيجوتي والسيد دك هذه الفرصة للذهاب معًا إلى متجر شاندلر. وفارقتهما عند ناصية الطريق، مبصرًا الرجل المسكين حاملًا

طائرته الورقية الكبيرة فوق ظهره، ويا له من نصب تذكاري مجسدًا للبؤس الإنساني!

مكثت عمتي تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا إلى أن جئت، بينما تعتصر أطراف طاقية نومها بأصابعها. قمت بتسخين البيرة وأعددت الخبز المحمص وفقًا للطريقة التي اعتادت عليها. ما إن جهزت لها كل شيء، حتى كانت قد استعدت، وقد ارتدت قبعة النوم، وبسطت تنورتها وغطت ركبتيها.

قالت عمتي بعد أن شربت مقدار ملعقة منها: «يا عزيزي، إنها أفضل بكثير من النبيذ، وأقل مرارة منه».

وأحسب أنني بدوت متشككًا فيما قالته، لأنها أضافت:

«تُت، تُت[1] يا بني. إذا لم يحدث شيء أسوأ من البيرة لنا، فنحن لم نزل ميسوري الحال».

قلت: «أظن ذلك، بل إنني متأكد منه يا عمة».

قالت عمتي: «حسنًا، إذن، لماذا تظن ذلك؟».

عدت: «لأننا شخصان مختلفان تمامًا».

ردت عمتي: «هراء بلا معنى يا تروت».

استمرت عمتي في الاستمتاع الهادئ، مظهرة طيفًا بسيطًا من الشجن، وراحت تشرب البيرة الدافئة بملعقة الشاي، وتنقع شرائح الخبز المحمص فيها.

---

(١) صوت يعني الاعتراض، قصدت به أن يكف عن سكب المزيد من البيرة.

قالت: «اسمع يا تروت، إنني لا أهتم بالوجوه الغريبة بشكل عام، لكنني أحس ميلًا نحو باركس، هل تعلم ذلك؟!».

قلت: «إن سماعي لخبر مثل هذا أثمن عندي من مائة جنيه!».

أردفت عمتي وهي تفرك أنفها قائلة: «إن هذه الحياة عجيبة للغاية. كيف قبلت تلك المرأة الحياة الماضية حاملة لهذا الاسم؟ إنه أمر ثقيل في نظري لا يمكن تحمله. كان من الأسهل بكثير أن تولد حاملة اسم جاكسون، أو أي اسم بشري من هذا القبيل».

قلت: «ربما يكون هذا هو رأيها أيضًا، ولكن هذا ليس خطأها».

ردت عمتي، موافقة على هذا الرأي على مضض: «لا أظن أنها مسؤولة عنه، لكنه أمر مزعج للغاية، المهم أنها الآن تُدعى باركس، وفي هذا الاسم نوع من العزاء. إن باركس مغرمة بك بشكل استثنائي يا تروت».

قلت: «لم تترك فعلًا من دون أن تثبت لي به حبها».

قالت عمتي: «أظن أنها كذلك، لقد فعلت كل ما يدلل على حبها إذ راحت هذه الساذجة المسكينة تتوسل إليَّ وترجوني أن أقبل بعضًا من مالها، لأنها حصلت على جزء وفير منه. يا لها من مغفلة!».

راحت دموع الفرح تنهمر من عين عمتي إلى البيرة الدافئة، ثم استطردت قولها: «إنها أكثر المخلوقات عجبًا على الإطلاق. لقد عرفت، منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها مع تلك الطفلة المسكينة

العزيزة المباركة؛ أمك، وأدركت أنها كانت أكثر البشر سخافة، لكنها تملك صفات طيبة».

تأثرت بالضحك، وانتهزت الفرصة لوضع يدها على عينيها. ما إن أنهت مسح دمعها حتى استأنفت الشراب والحديث في آن واحد.

تنهدت عمتي قائلة: «آه، رحمة الله تشملنا جميعًا. أعرف كل شيء عنها يا تروت، لقد دار بيني وباركس حديث طويل عندما خرجتَ مع دك. صرت أعرف كل شيء عنها. إنني لا أعرف إلى أين تظن هؤلاء الفتيات البائسات أنهن ذاهبات، وإني لأتساءل كيف لا يضربن رؤوسهن في رف الموقد». وإني أحسب أن هذه الفكرة قد راودتها بينما تنظر نحو رف موقدي.

قلت: «يا لكِ من مسكينة يا إيميلي!».

راحت عمتي تقول: «آه، لا تقل أمامي إنها مسكينة. كان يجب أن تفكر في أمرها، قبل أن تتسبب في هذا البؤس، أعطني قبلة يا تروت. إنني آسف لتجربتك القاسية المبكرة».

انحنت إلى الأمام، ثم وضعت كوبها على ركبتي لتحتجزني، ثم قالت:

«آه يا تروت، وهكذا تتوهم إنك قد وقعت في الحب! أليس كذلك؟».

احمر وجهي خجلًا وصرخت قائلًا: «هل أتوهم يا عمة؟! إنني أعشقها من أعماق روحي».

قالت عمتي: «إنها دورا حقًّا! هل تقصد أن تقول إن هذه الصغيرة في غاية الجمال، على ما أظن؟».

أجبتها قائلًا: «يا عمتي العزيزة، لا أحد يستطيع تكوين أدنى فكرة عن ماهيتها».

سألتني عمتي: «آه، أليست سخيفة؟».

«أتقولين سخيفة يا عمة!».

أتصور أنه لم يخطر ببالي قطعًا ولو للحظة واحدة، أن أفكر فيما إذا كانت سخيفة أم لا. لقد استأتُ من الفكرة بالطبع. لكنني كنت بطريقة ما مصدومًا من هذا الأسلوب الجديد الذي تخاطبني به عمتي.

قالت عمتي: «أليست خفيفة العقل؟».

قلت: «خفيفة العقل يا عمة!». لم يسعني إلا أن أكرر هذه التكهنات الجريئة بالشعور نفسه الذي كررت به السؤال السابق.

قالت عمتي: «حسنًا، حسنًا، إنني أسألك فقط، ولا أستخف بها. يا لكما من صغيرين ضعيفين! ولذا تتصوران أنكما خلقتما من أجل أن تكونا معًا، وعليكما أن تسيرا في خضم الحياة كما لو أنكما على مائدة عشاء، مثل قطعتين جميلتين من الحلوى، أليس كذلك يا تروت؟».

كانت تسألني بلطف شديد، وبلين وعطف، مازجة بين المرح والأسف، لذا فقد تأثرتُ تمامًا بكلامها.

أجبتها قائلًا: «أعرف أننا صغيران وعديما الخبرة يا عمة، وأجرؤ على القول إننا نصرح ونفكر أحيانًا في أن علاقتنا محض حماقة بشكل

ما. إلا أنني متأكد من أننا متحابان حقًّا. إذا حسبت يومًا أن دورا يمكن أن تحب أي إنسان آخر، أو تتوقف عن حبي؛ أو أنني يمكن أن أحب أي فتاة أخرى، أو أن أتوقف عن حبها، فإنني لا أستطيع أن أدرك ماذا سأفعل... أظن أني سأجن».

قالت عمتي وهي تهز رأسها وتبتسم في مكر: «آه، يا تروت، إنك لأعمى، أعمى، أعمى».

استطردت عمتي بعد فترة توقف، فقالت: «إن ثمة إنسانًا أعرفه يا تروت يتمتع بمرونة بالغة، وعلى الرغم من هذه المرونة إلا أنه يتمتع بمودة صادقة خالصة، وإنه ليذكرني بهذه الطفلة المسكينة. إن الصدق هو ما يجب أن يبحث عنه الإنسان، فيدعمه ويصلحه يا تروت. يا لروعة الصدق العميق والمودة الخالصة!».

صرختُ: «آه لو تعلمين مدى صدق دورا يا عمتي!».

كررت ما قالته مرة أخرى: «آه يا تروت، يا لك من أعمى، أعمى». أحسست -من دون أن أعرف السبب- بفقدان غامض أو نقص في شيء أحتاج إليه ليظللني مثل سحابة.

قالت عمتي: «ومع ذلك، لا أريد أن أخرج مخلوقين صغيرين من غرورهما بنفسيهما، أو أن أجعلهما غير سعداء فيفقدان شغفهما؛ وإذا كانت العلاقة مجرد ارتباط بين فتاة وفتى صغيرين، ومثل هذه العلاقات في كثير من الأحيان - أتفهم! لا أقول دائمًا! - تؤول في النهاية إلى لا شيء، إلا أننا سنكون جادين في الأمر، ونأمل في قصة مزدهرة في يوم

من الأيام، فلم يزل لدينا ما يكفي من الوقت للتفكير قبل أن تقرر أي شيء».

لم يكن هذا القول في عمومه مريحًا لمحب مفعم بالأمل، لكنني كنت سعيدًا لثقة عمتي فيَّ، وكنت مدركًا لمدى إرهاقها. لذلك فإنني شكرتها بحرارة على عاطفتها النبيلة هذه، وعلى كل كرمها لي، ومن ثَم تمنت لي ليلة سعيدة، وأخذت مشروبها إلى غرفة نومي.

وكم شعرت بالبؤس حين استلقيت على فراشي! كم رحت أفكر وأمعن التفكير في فقري، خاصة في عيني السيد سبنلو. وكيف أنني أحسب أنني لم أعد كما كنت حين صارحت دورا بحبي، وكيف تدفعني الشجاعة إلى إخبارها بحالتي المعيشية، وإعفائها من الخطبة إذا وجدتني غير كفء لها. فكرت كيف سأتدبر أمور معيشتي خلال فترة تدريبي الطويلة، بينما لم أزل غير قادر على الكسب، وما الشيء الذي سأعمله لمساعدة عمتي، بينما لا أرى أي طريقة ستجدي نفعًا. فكرت كيف صارت جيوبي خاوية بلا نقود، وأنني سأرتدي معطفًا رثًّا بعد اليوم، ولن أكون قادرًا على منح دورا ولو القليل من الهدايا، ولن أركب الجياد بعد الآن، أو أظهر نفسي أمامها بأي صورة لامعة مقبولة. أدركت أن تفكيري دنيء وأناني، وكم تعذبت لمعرفة ذلك، فتركت عقلي يركض خلف ضيقي وبؤسي، لأنني كنت مخلصًا لدورا من دون أن أستطيع كبح انشغالي بها. كم شعرت بالخزي في أعماقي لعدم تفكيري في عمتي وأحوالها، وحاولت أن أقلص التفكير في نفسي

بلا جدوى، وكم كنت أنانيًّا فلم أستطع الانفلات من التفكير في دورا، ولم أتمكن من وضع دورا على قدم المساواة مع أي مخلوق آخر. كم تملكني البؤس في تلك الليلة!

أما نومي، فلم يخلُ من الحلم بالفقر بجميع أشكاله، لكن بدا لي أنني أحلم من دون أي مراسم سابقة للنوم. رحت أحلم أنني شريد، أرغب في بيع أعواد الثقاب لدورا، ست حزم مقابل نصف بنس. أما الآن فصرت في مكتب مرتديًا ثياب النوم والحذاء، وقد اعترض السيد سبنلو على الظهور أمام العملاء بذلك الزي البشع. أما الآن فصرت ألتقط من شدة الجوع الفتات المتساقط من بسكويت تيفي الذي اعتاد أن يأكله كل يوم، عندما تدق ساعة كنيسة سانت بول في موعدها. أما الآن فرحت أسعى بلا أمل للحصول على ترخيص للزواج من دورا، وليس لديَّ سوى فردة واحدة من قفاز يورايا هيب في مقابل خدمة الترخيص، الأمر الذي رفضه مجلس العموم بأكمله. رحت أحلم ولم أزل واعيًا إلى حد ما بأنني داخل غرفتي؛ أتقلب مثل السفينة المنكوبة في بحر من الأغطية والملاءات.

كانت عمتي قلقة أيضًا، لأنني سمعتها كثيرًا وقد أخذت تمشي ذهابًا وإيابًا. وبدت مرتين أو ثلاث مرات خلال الليل، مرتدية عباءة طويلة من الصوف تظهر فيها بارتفاع سبعة أقدام، مثل شبح مضطرب يطوف في غرفتي، إلى أن اقتربت من الأريكة التي استلقيت عليها. انتبهت في المرة الأولى مذعورًا، لأعلم أنها استنتجت من ضوء معين في السماء، أن كنيسة وستمنستر تحترق، وأنها جاءت لاستشارتي فيما

يتعلق باحتمالية اشتعال شارع باكنجهام إن غيرت الرياح مسارها. أحسست بعد ذلك وأنا راقد مستكينًا، أنها جلست بالقرب مني، تهمس لنفسها قائلة: «يا له من ولد مسكين!»، مما جعلني أشعر ببؤس مضاعف عشرات المرات، بعد أن أدركت كم كانت حريصة عليَّ، منكرة لذاتها، وكم كنت أنانيًّا محبًّا لنفسي.

كان من الصعب أن أصدق أن ليلة طويلة جدًّا لي يمكن أن تمر قصيرة عند إنسان آخر. دفعتني هذه الفكرة إلى تخيل حفلة حيث يرقص لساعات طوال من دون اعتبار للوقت، حتى تحول تخيلي إلى حلم أيضًا، فسمعت الموسيقى تعزف لحنًا واحدًا بلا انقطاع، ورأيت دورا ترقص رقصة واحدة بلا توقف، من دون أن تعبأ بي. حاول عازف القيثارة عبثًا أن يغطيها طوال الليل بغطاء قاتم متوسط الحجم، إلى أن استيقظت، أو بالأحرى توقفت عن محاولة النوم، بعد أن رأيت الشمس تشرق، فتنفذ أشعتها عبر النافذة أخيرًا.

أما في تلك الأيام، فكان ثمة حمام روماني قديم يقع في نهاية أحد الشوارع المتطرفة خارج ستراند -ربما لم يزل على حاله إلى الآن- اعتدت أن أتحمم فيه وأغطس في أحواضه الباردة. ارتديت ملابسي بهدوء قدر المستطاع، وتركت بيجوتي لتعتني بعمتي، ثم ذهبت إلى مغطس الحمام قبل أن أقوم بأي شيء، ثم تنزهت سيرًا على الأقدام إلى هامستيد. كنت أرجو أن ينعش هذا العلاج السريع ذكائي قليلًا، وأحسب أنه كان مفيدًا لأنني سرعان ما توصلت إلى استنتاج مفاده أن الخطوة الأولى التي يجب أن أتخذها هي محاولة إلغاء مدة تمريني،

واسترداد قسط التأمين. تناولت الفطور في هيث، وسرت عائدًا إلى مجلس العموم، متخطيًا طريقًا مبتلًا وعابرًا بين عطر أزهار الصيف اللطيفة، التي تنمو في الحدائق، فتُحمل إلى المدينة فوق رؤوس الباعة الجائلين، عازمًا على بذل ما أستطيعه لمقابلة ما طرأ على أحوالنا.

وصلت إلى المكتب في وقت مبكر جدًّا، فاضطررت إلى التسكع لنصف ساعة حول مجلس العموم، قبل أن يظهر العجوز تيفي، الذي كان دائمًا أول الحاضرين، ليفتح المكتب بمفتاحه. دخلت وجلست في زاويتي المظللة، أنظر إلى ضوء الشمس المنعكس فوق المداخن المقابلة للمبنى؛ أفكر في دورا، حتى جاء السيد سبنلو بشعره المنفوش المجعد.

قال: «كيف حالك يا كوبرفيلد؟ صباح الخير».

قلت: «صباح الخير يا سيدي. هل تسمح لي بكلمة قبل أن تذهب إلى المحكمة؟».

قال: «بكل تأكيد. تعالَ إلى غرفتي».

تبعته إلى غرفته، وبدأ يرتدي رداءه، ويسوي هندامه أمام مرآة صغيرة معلقة داخل باب خزانة.

قلت: «يؤسفني أن أقول إن لديَّ بعض الأنباء المحبطة من عمتي».

قال «لا، رحماك يا ربي، أرجو ألا يكون شللًا».

أجبته: «لا علاقة للأمر بصحتها يا سيدي. لقد واجهت بعض الخسائر المادية الكبيرة. في الواقع، لم يتبقَّ لها سوى قليل من مال، في الواقع...».

صرخ السيد سبنلو: «إنك تدهشني يا كوبرفيلد».

هززت رأسي، قائلًا: «في الواقع يا سيدي، لقد تبدلت أحوالها، وأردت أن أسألك عما إذا كان من الممكن - مع الوضع في الاعتبار تضحيتنا بجزء من قسط التأمين، بالطبع - إلغاء مدة تدريبي؟». أدهشني تعبير وجهه في اللحظة التي قلت فيها اقتراحي. لا أحد يعلم كم تكبدت عناء تقديم هذا الاقتراح عليه. كان الأمر أشبه بطلب إبعادي عن دورا باعتباره خدمة جليلة.

قال: «هل تقول إلغاء تدريبك كوبرفيلد؟ إلغاؤه؟».

شرحت له في ثبات انفعالي أنني لا أعرف حقًّا كيف سأتدبر شؤون معيشتي، إلا إذا تمكنت من كسب قوتي بنفسي. قلت إنني لا أخاف على مستقبلي، وقد أكدت هذا القول بشدة، كما لو أنني أستحثه على تأكيد جدارتي بأن أكون صهره في يوم من الأيام، ولكنني في الوقت الحاضر، ألتفت إلى تحصيل موارد عيشي. قال السيد سبنلو: «إنني حزين للغاية لسماع هذا الكلام يا كوبرفيلد. أنا حزين للغاية. ليس من المعتاد إلغاء التدريبات لأي سبب من هذا القبيل، فهذا المسلك يبعد عن أخلاقيات المهنة، ومن الخطر المضي في مثل هذه الإجراءات في الوقت الراهن».

غمغمت متوقعًا أن يتنازل بقبول اقتراحي: «إنك لكريم يا سيدي».

قال السيد سبنلو: «العفو، لا تقل ذلك. إنني أقول في الوقت نفسه، لم يكن الأمر ليبدو صعبًا عليَّ أن أطلق يدي وأستطيع اتخاذ القرار وحدي، لولا شراكة السيد جوركنز...».

تحطمت آمالي في لحظة، لكنني بذلت مجهودًا آخر.

قلت: «هل تظن يا سيدي، أنه من الأفضل أن أتحدث إلى السيد جوركنز؟».

هز السيد سبنلو رأسه بشكل محبط. أجاب: «لا سمح الله يا كوبرفيلد، يجب ألا أظلم أي إنسان، خاصة السيد جوركنز. لكنني أعرف شريكي يا كوبرفيلد. إن السيد جوركنز ليس ممن يستطيعون الرد على اقتراح ذي طبيعة غريبة، بل من الصعب جدًّا نقله عن المسار المتبع، وإنك لتعرف من هو!».

إنني على يقين من أنني لم أكن أعرف شيئًا عنه، باستثناء أنه كان في الأصل يعمل بمفرده في هذا المجال، ويعيش الآن بمفرده في منزل بالقرب من ميدان مونتاجو، وأن منزله بحاجة ماسة إلى الطلاء. إنه يأتي إلى المكتب في وقت متأخر جدًّا كل يوم، ثم يغادر كذلك في وقت مبكر للغاية، كما أنه لم يُظهر ما يدل على أنه يُستشار في أي شيء، بل إنه يجلس في مكتب معتم صغير وقذر في الطابق العلوي، حيث لا يقوم بأي عمل على الإطلاق، بل تعلو مكتبه حافظة ورقية صفراء قديمة لم تلوث بالحبر من قبل، ويقال إنها موضوعة في مكانها منذ عشرين عامًا.

سألته: «هل تعترض على عرض الأمر عليه يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو: «لست أعترض بالضبط. إلا أنني أحظى ببعض الخبرة في التعامل مع السيد جوركنز يا كوبرفيلد. كنت أتمنى لو كان الأمر مختلفًا، لأنني سأكون سعيدًا بالاستفادة بآرائكم بأي شكل من

الأشكال. لا يمكنني الاعتراض على مناقشة الأمر مع السيد جوركنز يا كوبرفيلد، لو أنك ارتأيت ذلك ممكنًا».

تلقيت هذا الإذن منه، ثم صافحني بحرارة. جلست أفكر في دورا، وألقي نظرة على ضوء الشمس المتسلل عبر المداخن أسفل جدار المنزل المقابل، حتى جاء السيد جوركنز. صعدت إلى غرفة السيد جوركنز، وكان من الواضح أنني باغته بظهوري في مكتبه.

قال السيد جوركنز: «تفضل يا سيد كوبرفيلد. ادخل».

دخلت ثم جلست، وعرضت قضيتي على السيد جوركنز بالطريقة نفسها التي ذكرتها للسيد سبنلو. لم يكن السيد جوركنز المخلوق الفظيع الذي قد يتوقعه المرء بأي حال من الأحوال، ولكنه كان رجلًا لطيفًا بشوشًا، أملس الوجه، يبلغ من العمر ستين عامًا، استنشق الكثير من السعوط، حتى شاع في مجلس العموم أنه عاش بشكل أساسي على هذا المنشط، مع عدم وجود مساحة صغيرة في نظامه الغذائي لأي طعام آخر.

قال السيد جوركنز بعد أن سمعني بقلق شديد حتى النهاية: «هل عرضت هذا الأمر على السيد سبنلو؟».

أجبت بنعم، وقلت له إن السيد سبنلو قد أوصاني باللجوء إليه.

سألني السيد جوركنز: «هل قال إنه يجب عليَّ أن أعترض على الأمر؟».

اضطررت إلى الاعتراف بأن السيد سبنلو قد اعتبر اعتراضه محتملًا.

قال السيد جوركنز في نبرة عصبية: «يؤسفني القول يا سيد كوبرفيلد، إنني لا أستطيع أن أوافق على طلبكم. في الواقع إنني... لكن عندي موعد في البنك، أستمحيك عذرًا».

وبهذا القول نهض في عجلة من أمره، وكاد يخرج من الغرفة، إلا أنني تجرأت على القول إنني أخشى التساؤل عما إذا كانت هناك طريقة أخرى لترتيب المسألة.

قال السيد جوركنز بعد أن توقف عند الباب ليهز رأسه: «لا، آه، لا»، أردف قائلًا بسرعة كبيرة قبل أن يخرج: «إنني أعترض، كما تعلمون». ثم أضاف، وهو ينظر بقلق نحو الباب مرة أخرى: «يجب أن تكون على علم يا سيد كوبرفيلد، أنه لو اعترض السيد سبنلو على...».

قلت إنه شخصيًّا لا يعترض يا سيدي.

كرر السيد جوركنز بنفاد صبر: «آهٍ، شخصيًّا، أؤكد لك أن ثمة اعتراضًا يا سيد كوبرفيلد. إنه لأمر ميؤوس منه، ما تتمنى أن تفعله لا يمكن فعله. إنني... عندي بالفعل موعد في البنك». وبهذا القول هرب خارجًا، وعلى حد علمي، فقد مرت ثلاثة أيام قبل أن يظهر في مجلس العموم مرة أخرى.

كنت حريصًا جدًّا على ألا أترك بابًا من دون أن أطرقه، لذلك فقد انتظرت حتى جاء السيد سبنلو، ثم قصصت عليه ما حدث، ثم شرحت له أنني أثق في قدرته على إقناع السيد جوركنز واستمالته إذا أولى الأمر أهميته.

رد السيد سبنلو بابتسامة كريمة قائلًا: «يا كوبرفيلد، إنك لا تعرف شريكي السيد جوركنز كما عرفته أنا. لا أفكر في أن أنسب إلى السيد جوركنز أي نوع من الحيلة. لكن السيد جوركنز لديه طريقة لإبداء اعتراضاته تخدع الناس في معظم الأوقات. لا يا كوبرفيلد»، ثم راح يهز رأسه نافيًا وقائلًا: «إن السيد جوركنز لن يبدل رأيه، صدقني».

صرت محتارًا بين السيد سبنلو والسيد جوركنز، أي منهما الشريك المعترض حقًّا؟ لكنني رأيت بوضوح كافٍ أن ثمة قسوة عند طرف من أطراف هذه الشراكة، وأن استرداد ألف جنيه مما دفعته عمتي أمر غير وارد. تملكتني حالة من اليأس، أتذكرها بكل تفاصيلها في سخط، لأني أعلم أن يأسًا قد تعمق في نفسي - على الرغم من أنني كنت على صلة دائمة بدورا - لذا تركت المكتب، وذهبت إلى المنزل.

كنت أحاول أن أفكر في أسوأ الاحتمالات، فأقدم لنفسي التدابير التي يجب أن نقوم بها في المستقبل حين تشتد بنا المصائب. أقبلت عربة تعدو خلفي، ثم توقفت بمحاذاتي، مما جعلني أتطلع إلى من بداخلها. امتدت إليَّ من النافذة يد ناعمة، ثم أطل هذا الوجه الذي لم أرَه يومًا من دون أن أشعر بالصفاء والسعادة، منذ اللحظة الأولى الذي أطل فيها من الدرج الخشبي القديم متجاوزًا حافة الدرابزين العريض، بل إنه هذا الوجه ذو الجمال الناعم المرتبط بالنافذة ذات الزجاج الملون في الكنيسة، وإذا به يبتسم لي.

صرخت بفرح: «أجنيس، آه، يا عزيزتي أجنيس، من بين جميع الخلائق أراكِ! يا لسروري برؤياكِ!».

قالت بصوت محب: «هل أنت مسرور برؤيتي حقًّا؟».

قلت: «أردت أن أتحدث إليكِ حديثًا طويلًا، ولو أنني أملك قبعة ساحر، فلم أكن لأتمنى أن أستدعي إنسانًا غيركِ».

قالت أجنيس: «ما الأمر؟».

تحدثت على استحياء فقلت: «حسنًا، من الأفضل أن أبدأ بالحديث عن دورا أولًا».

قالت أجنيس وهي تضحك: «بالتأكيد، أرجو أن نتحدث عن دورا أولًا».

قلت: «لكنكِ ستتحدثين عن نفسكِ بعد ذلك، إلى أين ستذهبين؟».

كانت متجهة إلى مسكني لزيارة عمتي. كان الجو منعشًا في ذلك اليوم، ففضلت الخروج من العربة التي كانت تفوح منها رائحة ما - كان رأسي بداخل العربة طوال هذا الوقت - تبدو مثل روائح الإسطبل ممزوجة بروائح الخيار. طلبت من الحوذي الانصراف بعربته، وتأبطت أجنيس ذراعي ثم سرنا معًا. لاحت لي أملًا متجسدًا، فكم تغيرت حالتي في دقيقة واحدة، بعد وجود أجنيس بجانبي!

كانت عمتي قد كتبت لها واحدة من رسائلها الغريبة والمفاجئة -التي لم تكن تتجاوز طول ورقة نقدية- وقد أفرغت فيها كامل جهودها في كتابة رسائل مقتضبة كعادتها. ذكرت فيها أنها وقعت في محنة، وأنها ستغادر دوفر إلى الأبد، بعد أن اتخذت قرارها من دون رجعة، وأنها بخير فلا ينبغي لأحد أن ينشغل بأمرها أو ينزعج. جاءت أجنيس

إلى لندن لزيارة عمتي، فقد نشأ بينهما إعجاب متبادل دام طوال سنوات عديدة، وفي الواقع، يعود تاريخ علاقتهما إلى وقت إقامتي في منزل السيد ويكفيلد. قالت أجنيس إنها لم تأتِ وحدها. كان والدها معها ويورايا هيب.

قلت: «هل صارا شريكين الآن؟ حيره الله».

قالت أجنيس: «نعم، يقضيان بعض الأعمال هنا، فاستفدت من مجيئهما، وجئتُ معهما أيضًا. لا تظن أن زيارتي ودية بأكملها وبلا هدف يا تروتوود. إنني أخشى أن أكون متحيزة وقاسية، لكنني لا أحب أن أترك أبي يسافر معه بعيدًا بمفرده». سألتها: «ألا يزال يمارس التأثير نفسه على السيد ويكفيلد يا أجنيس؟».

هزت أجنيس رأسها بالإيجاب، ثم قالت: «إن ثمة تغييرًا كبيرًا في المنزل، حتى إنك لن تجد المنزل القديم الغالي الذي تعرفه. إنهما يعيشان معنا الآن».

قلت: «مَن هما؟».

قالت أجنيس وهي تتفرس في وجهي: «أقصد السيد هيب ووالدته. إنه ينام في غرفتك القديمة».

قلت: «أتمنى لو أنني أعيد ترتيب أحلامه، وساعتها لن ينام في غرفتي طويلًا».

قالت أجنيس: «إنني أحتفظ بغرفتي الصغيرة، التي كنت أتلقى فيها دروسي. كيف مضى بنا الوقت! هل تتذكرها؟ إنها الغرفة الصغيرة

المكسوة بالألواح والمفتوحة على غرفة المعيشة».

قلت: «هل تسألينني إن كنت أتذكر أم لا يا أجنيس؟ لقد رأيتكِ لأول مرة تخرجين من بابها، وقد علقتِ سلة مفاتيحكِ الصغيرة الجذابة بجانبكِ».

قالت أجنيس مبتسمة: «إنها على حالها. وكم أنا سعيدة لأنك تتذكر هذا الأمر بسرور بالغ! كم كنا سعداء!».

قلت: «لقد كنا سعداء حقًّا».

قالت أجنيس بهدوء: «إنني أحتفظ بالغرفة نفسها، لكنني لا أستطيع أن أتخلى عن السيدة هيب في كل الأوقات، كما تعلم. لذا، أشعر أنني مضطرة لتحمل صحبتها، حتى وإن كنت أفضِّل أن أكون وحدي. وإني لا أشكو منها لأي سبب آخر، إلا عندما ترهقني أحيانًا، بسبب مدحها المتواصل لابنها، وهذا أمر طبيعي وغريزي عند أي أم. إنه ابن بار بها».

رحت أنظر إلى أجنيس وهي تقول هذه الكلمات، من دون أن ألاحظ على وجهها ما يشير إلى إدراكها لمقاصد يورايا. التقت عيناها اللطيفتان بعيني، وقد عكست نظراتها صراحتها النقية وجدتها الفائقة، من دون أن يشوب وجهها اللطيف أي تغيير.

قالت أجنيس: «إن الضرر الرئيسي من وجودهما في المنزل هو أنني لا أستطيع أن أكون قريبة من أبي بالشكل الذي أحبه - يحول يورايا هيب بيننا كثيرًا - ولا يمكنني أن أراقبه كما أشاء، وإني لأعرف مدى جرأة ما أقوله. وإني لأرجو أن يكون الحب الخالص والوفاء حصنيه

في النهاية، فينجيانه من أي غش أو غدر. أرجو أن يكون الحب الصادق والوفاء أقوى في النهاية من أي شر أو سوء حظ في هذا العالم».

تلاشت ابتسامة مشرقة، لم أشهدها قَطُّ على أي وجه سواها. لقد انقشعت في اللحظة ذاتها بينما كنت أفكر في روعتها، فكم كانت مألوفة لي ذات يوم! رحنا نقترب من مسكني، فإذا بها تسألني - بعد تغيير سريع طرأ على تعبيرات وجهها - إذا كنت أعرف كيف انقلبت أحوال عمتي. أجبتها قائلًا إنني «لا أعرف»، وإنها لم تخبرني بعد بما حدث لها. شردت أجنيس في تفكير عميق، وقد خيل لي أنني لاحظت ذراعها ترتجف بين يدي.

وجدنا عمتي جالسة وحدها في حالة من الانفعال. لقد شب شجار بينها والسيدة كروب، حول مسألة عامة؛ وهي ملاءمة كماليات الغرف التي يسكنها الجنس اللطيف. لم تبالِ عمتي على الإطلاق بالتشنجات التي تبديها السيدة كروب، ومن ثَم أنهت الخلاف بإخبار تلك السيدة بأن رائحة البراندي الذي أشتريه تفوح منها، وأنها تطلب منها الخروج من الغرفة. وقد اعتبرت السيدة كروب كلا التعبيرين قابلين لرفع قضية، وقد أعربت عن نيتها في تقديم شكوى ضدها أمام «جودي البريطانية»[(١)] ويفترض أنها تعني أنها حصن حرياتنا الوطنية.

أتيح الوقت لعمتي حتى هدأت، بينما كانت بيجوتي بالخارج مع

(١) تستخدم العامية الإنجليزية اسم جودي بمعنى سيدة أو فتاة، ويقصد هنا التاج البريطاني أو القضاء.

السيد دك تطلعه على مشهد الجنود من الحرس الفوارس. وكم سعدت عمتي لرؤية أجنيس، بل إن فرحتها بقدومها أنستها مشكلتها السابقة، وإذا بها تستقبلنا بلطف وطيبة. أشاحت أجنيس قبعتها ووضعتها فوق المنضدة، فجلستُ بجانبها، ولم أستطع منع نفسي من التفكير، بينما أنظر إلى عينيها الودودتين وجبينها اللامع، فأتصور أن وجودها بيننا أمر طبيعي. يا لها من فتاة محل ثقة! على الرغم من أنها صغيرة السن وعديمة الخبرة، فإن عمتي أسرَّت إليها بسرها. يا لصدقها في حبها وكم هي محقة في صراحتها!

بدأنا نتحدث عن خسائر عمتي، وقلت لهم ما حاولت فعله ذاك الصباح.

قالت عمتي: «لم يكن تصرفك حكيمًا يا تروت، لكنك حسن النية. ويجب عليَّ أن أقر بأنك فتى طيب أيها الشاب الكريم، وكم أنا فخورة بك الآن يا عزيزي، وأن الأمور تسير على نحو مقبول. أما الآن يا تروت ويا أجنيس، دعونا نلقي نظرة على حالة بيتسي تروتوود، لنوجهها، ونرى كيف ستقف على قدميها».

لاحظت أن وجه أجنيس شاحبًا، بينما تنظر نحو عمتي باهتمام شديد. أما عمتي، فراحت تربت على قطتها، وتنظر هي الأخرى إلى أجنيس بالاهتمام نفسه.

كانت دائما تحتفظ بمسائلها المالية لنفسها، إلا أنها راحت تقول: «إن بيتسي تروتوود -بالطبع لا أقصد الحديث عن أختك يا عزيزي

تروت، بل أتحدث عن نفسي- كانت تحوز قدرًا من الممتلكات. لا يهم كم تساوي، لكنها كانت تكفي للعيش. بل ربما فاضت ممتلكاتها عن حاجتها فادَّخرت اليسير منها ثم أضافته إليها. قامت بيتسي بمباشرة ممتلكاتها لبعض الوقت، وبعد ذلك، عملت بنصيحة وكيل أعمالها، فاستثمرت أموالها في العقارات. سارت الأمور على ما يرام، وعادت عليها بربح وفير، حتى سددت بيتسي كل ما عليها. إنني أتحدث عن بيتسي كما لو أنها رجل حرب. حسنًا، ثم، راحت بيتسي تبحث عن شيء جديد واستثمار جديد. لقد ظنت أنها تتمتع بحكمة تفوق الآن وكيل أعمالها، حيث لم يصر رجلًا ماهرًا في ذاك الوقت، كما اعتاد أن يكون -وإنني لألمح إلى والدكِ يا أجنيس- فاعتزمت على أن تُسيِّر أمورها بنفسها. حولت استثماراتها إلى سوق أجنبية، وقد كانت سوقًا سيئة للغاية كما اتضح لها فيما بعد. فخسرت أموالها أولًا في سوق التعدين، ثم خسرت في سوق الغوص، حيث استخراج الكنوز الغارقة، أو شيء من هذا الهراء». راحت عمتي تفرك أنفها، واستطردت شارحة: «خسرت بعد ذلك في عمليات التعدين، وأخيرًا حاولت إصلاح أمرها بالكامل واستعادة حقها، فخسرت في الاستثمارات البنكية. لم أكن أعرف قيمة الأسهم البنكية أو مدتها أو نسبة الفائدة والعوائد منها. كما كان البنك في الطرف الآخر من العالم، فصار كمن سقط في فضاء، من دون أن أعرف السبب، وعلى أي حال فقد انهار إلى أشلاء، ولن يستطيع رد الأموال إلى أصحابها ولو كانت ستة بنسات. كانت ممتلكات بيتسي كلها هناك، وقد تلاشت. هذا هو مجمل القول، فخير الكلام ما قل ودل».

اختتمت عمتي كلامها بهذا الملخص الفلسفي، ثم ثبتت عينيها بنوع من الانتصار نحو أجنيس، بعد أن عاد لون بشرتها إلى طبيعته تدريجيًا.

قالت أجنيس: «هل هذا تاريخ ما حدث يا عزيزتي الآنسة تروتوود؟».

قالت عمتي: «أرجو أن يكون ما قلته كافيًا يا بنيتي. أجرؤ على القول بأنه لو كان قد توفر المزيد من مال لنخسره، لما انتهى الأمر عند هذا الحد. لا شك في أن بيتسي كانت ستحاول إلقاء بقية أملاكها كما فعلت من قبل، فتسرد فصلًا آخر من تاريخها. إلا أنه لم يتبقَّ لها مال، ولم تعد للقصة بقية».

أصغت أجنيس إليها حابسة لأنفاسها في البداية. ظل لون بشرتها يتلاشى ثم يعود، إلا أنها راحت تتنفس بحرية أكبر بعد فترة. ظننت أنني أعرف السبب، إذ إنها تخشى من أن يكون والدها التعس مسؤولًا بطريقة ما عما حدث لعمتي.

أمسكت عمتي بيد أجنيس وراحت تضحك، قائلة: «هل هذا كل شيء؟ نعم، هذا كل شيء، إلا إذا أكملنا الحكاية وقلنا «ثم عاشت في سعادة وسلام»، ربما يمكنني إضافة القول إلى بيتسي بعد ذلك في يوم من الأيام. أما الآن يا أجنيس، فإنكِ تتمتعين بعقل راجح. وإنك لصاحب عقل راجح في بعض الأمور يا تروت، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أثني عليك دائمًا». وهنا راحت عمتي تهز رأسها أمام وجهي، بطريقة خاصة بها، ثم أكملت: «ما العمل؟ إذا وضعنا عامل الوقت في الاعتبار

يمكن للبيت أن يأتي بسبعين جنيهًا في السنة على سبيل المثال. أظن أننا قد نعتمد على هذا المبلغ. حسنًا، هذا كل ما نملك». توقفت عمتي عن الكلام، كما تفعل بعض الخيول، إذ تتوقف لفترة قصيرة جدًّا في حين تبدو كما لو أنها تتأهب للاستمرار في العدو لفترة طويلة. ثم استأنفت كلامها بعد فترة من السكون قائلة: «ثم إنني لا أنسى دك. إنه يكفي لمائة عام، لكنه بالطبع سينفق على نفسه. سأتخلى عن أمواله قريبًا، على الرغم من أنني أعلم أنني الشخص الوحيد الذي يقدره شخصيًّا، من دون اعتبار لأملاكه، ومن ثَم لن أنفق أمواله إلا عليه. كيف يمكنني أن أبذل قصارى جهدي لأتدبر حالي أنا وتروت وفقًا لإمكانياتنا؟ ما رأيكِ يا أجنيس؟».

تدخلت قائلًا: «يا عمتي، يجب أن أعمل في أي مهنة».

قالت عمتي في انزعاج: «هل تقصد أنك ستتطوع في الجيش مثلًا؟ أو تعمل في البحر؟ لن أسمع بوقوع أي شيء من هذا القبيل. يجب أن تسلك طريق المحاماة. لن نتعرض لأي من هذه الضربات فوق رؤوس الأسرة، إذا سمحت يا سيد».

كنت على وشك أن أوضح أنني لم أرغب في إدخال هذا النمط من التدبير في الأسرة، لكن أجنيس راحت تسأل عما إذا كان مسكني مستأجر لفترة طويلة أم لا.

قالت عمتي: «لقد سألتِ عن نقطة مهمة يا عزيزتي. إننا لن نتخلص منه لمدة ستة أشهر على الأقل، إلا إذا كان من الممكن أن نؤجره بعائد أقل مما دفعناه، وهذا أمر لا أحسب أننا صانعوه. لقد مات الساكن

الأخير هنا، وسيموت خمسة أشخاص من كل ستة - بالطبع - بسبب هذه المرأة صاحبة الفستان القطني. إن بحوزتي قدرًا يسيرًا من المال، وإنني أتفق معكِ على أن أفضل شيء يمكننا القيام به، هو أن نعيش مدة الإيجار هنا، ونحصل لكِ على غرفة نوم قريبة».

ظننت أنه من واجبي التلميح إلى الانزعاج الذي ستعاني منه عمتي، إذ ستعيش في حالة مستمرة من حرب العصابات مع السيدة كروب، لكنها تخلصت من هذا الاعتراض بإيجاز بقولها إنها مستعدة لإبهار السيدة كروب في أول عرض للأعمال العدائية، برد فعل ستتذكره طوال الفترة المتبقية من حياتها.

قالت أجنيس بخجل: «لقد كنت أفكر يا تروتوود، أنه لو كان لديك الوقت...».

أدرك خجلها اليسير، ورحت أفكر في الساعات الطوال التي كرستها للتجول حول المدينة، والسير في طريق نوروود، فقلت: «بالطبع لديَّ وقت طويل يا أجنيس. إنني دائمًا أتسكع بعد الساعة الرابعة أو الخامسة، كما لديَّ فسحة من الوقت في الصباح. لديَّ الكثير من الوقت بطريقة أو بأخرى».

قالت أجنيس بينما تقترب نحوي وتتحدث بصوت منخفض، وقد صارت نبراتها مفعمة باللين والأمل، بصورة لم أسمعها من قبل: «أعلم أنك لن تمانع إن عملت سكرتيرًا».

قلت: «وهل يمكن أن أمانع يا عزيزتي أجنيس؟».

تابعت أجنيس قائلة: «لأن دكتور سترونج قد انتوى التقاعد عن العمل، وجاء إلى لندن للعيش فيها. ثم إنه سأل أبي إذا كان بإمكانه أن يرشح له سكرتيرًا. ألا تظن أنه سيفضل أن يُقرِّب منه تلميذه القديم المحبوب أكثر من أي شخص آخر؟».

قالت: «آه يا عزيزتي أجنيس، ماذا كنت سأفعل من دونكِ؟! إنكِ ملاكي الطيب دومًا. لقد قلت لكِ ذلك من قبل. إنني لا أفكر فيكِ أبدًا بأي شكل آخر».

أجابت أجنيس بضحكتها اللطيفة، أن ملاكًا طيبًا واحدًا يكفي – قصدت دورا – ومضت تذكرني أن الدكتور قد اعتاد العمل في مكتبه في الصباح الباكر وفي المساء، وربما يناسبه وقت فراغي للعمل معه. كانت سعادتي بفرصة كسب قوت يومي تفوق سعادتي وأملي في كسبه بالعمل مع معلمي القديم؛ باختصار، لقد أخذت بنصيحة أجنيس، فجلست وكتبت رسالة إلى الدكتور، أذكر له فيها غرضي، وحددت موعدًا لزيارته في اليوم التالي في الساعة العاشرة صباحًا. بعثت برسالتي هذه إلى هايجيت –لأنه كان يعيش في ذلك المكان، الذي لا أنساه– ثم ذهبت إلى مكتب البريد بنفسي، من دون أن أضيع دقيقة واحدة.

أينما تحل أجنيس تضفي على مكانها سمتًا مستساغًا من السكون والبهاء. ما إن عدت حتى وجدت طيور عمتي معلقة في قفصها، كما كانت معلقة لفترة طويلة في نافذة الردهة في بيت عمتي، أما المقعد المريح الذي يشبه مقعد عمتي، فكان من الأمتع رؤيته في موضعه عند النافذة المفتوحة. أما المروحة الخضراء المستديرة، التي أحضرتها

عمتي معها، فقد ثبتتها على حلق النافذة. عرفت من قام بكل هذا الترتيب، وقد لاح أنها فعلت هذا بهدوء من دون جلبة. وكان يجب أن أعرف منذ اللحظة الأولى مَن الذي رتب كتبي المبعثرة، فأعادها إلى الترتيب القديم الذي اعتدته منذ أيام دراستي، حتى لو افترضت أن أجنيس على بعد أميال، وإن لم أستطع رؤيتها مشغولة بترتيبها، لتجلت لي ابتسامتها أمام الفوضى التي آلت إليها.

كانت عمتي راضية بمشهد نهر التايمز. بدا بديعًا حقًّا حين انطبعت أشعة الشمس على صفحته، على الرغم من أنه لا يضاهي مشهد البحر أمام بيتها. إلا أنها لم تستطع التراجع عن تذمرها من دخان لندن، فراحت تقول عنه: «إنه مثل الفلفل الذي يتخلل كل شيء». أثار الدخان في البيت ثورة كاملة، وقد كانت بيجوتي جزءًا بارزًا فيها، إذ علق هذا الفلفل بكل ركن من أركان غرفتي. حاولت بيجوتي إزالته محدثة قدرًا هائلًا من الصخب، فرحت أتأمل مدى ضآلة تأثير بيجوتي أمام ما فعلته أجنيس من دون أي ضجيج على الإطلاق. ثم انتبهت على صوت طرقات الباب.

قالت أجنيس، بعد أن بدا عليها الشحوب: «أظن أنه أبي. لقد وعدني بالقدوم».

فتحت الباب، فلم أجد السيد ويكفيلد وحده، بل رافقه يورايا هيب. لم أكن قد رأيت السيد ويكفيلد منذ مدة طويلة. وكنت مستعدًّا لملاحظة تغيير كبير في مظهره، بعد ما سمعته من أجنيس، إلا أن مظهره صدمني.

لم أصدم لأنه بدا أكبر سنًّا بسنوات عديدة، فقد حافظ على نظافة ملابسه القديمة وهندامها، كما لم تصدمني غلظة سرت على ملامح وجهه، أو لأن عينيه صارتا محتقنتين بالدماء. لم تربكني رعشة يده الانفعالية، فقد عرفت سبب هذه الرعشة، التي ظهرت على يده منذ عدة سنوات في أثناء عمله. لم يكن الأمر يتعلق بما فقده من مظهر جميل، أو ما تبدل من سمته القديم لرجل نبيل -لأن الأمر لم يكن كذلك- بل إن الشيء الذي أدهشني أكثر من هذا كله، هو أنه مع ما يظهر عليه من سمات النبل والتميز، إلا أنه قد كتب على نفسه الخضوع أمام هذا المنتحل المدعو يورايا هيب المتسلل تحت أردية الذل. يبدو لي انقلاب هاتين الطبيعتين، حتى صار يورايا ذا سلطة بعد أن سلب السيد ويكفيلد صلاحياته، مشهدًا مؤلمًا بما يفوق قدرتي على وصفه. فلو أنني رأيت قردًا يقتاد رجلًا، لما كنت أحسبه مشهدًا أكثر إهانة ومذلة مما رأيته.

وبدا أنه أدرك في أعماق نفسه ما فعله تمامًا. ما إن دخل، حتى وقف ساكنًا وقد أحنى رأسه مستشعرًا ما حل به. لم يدُم هذا المشهد سوى لحظة واحدة، إذ قالت أجنيس بهدوء: «يا بابا، ها هي الآنسة تروتوود، وها هو تروتوود الذي لم ترَه منذ فترة طويلة»، اقترب مني، ثم مد لي يده مصافحًا عمتي، وصافحني بقدر أكبر من الحرارة والترحاب. أما لحظة السكون التي تحدثت عنها، فإني قد لاحظت خلالها وجه يورايا إذ يرسم ابتسامة شديدة القبح. وأحسب أن أجنيس قد لاحظت ابتسامته البغيضة أيضًا، لأنها انزوت مبتعدة عنه.

رأته عمتي، أو ربما لم ترَه، وإني لأتحدى علم وعلماء الفراسة في أن يسنوا قوانينهم من دون موافقتها، وأحسب أنه لم يظهر إنسان قَطُّ بمثل هذا المظهر الراسخ الذي تحدده وفقًا لمزاجها، فيصير وجهها حائطًا مصمتًا في مناسبات بعينها، من دون أن ينفذ من ملامحها أي ضوء يشير إلى أفكارها، حتى قطعت الصمت كعادتها بمفاجأة.

راحت عمتي تتحدث إلى السيد ويكفيلد، وقد نظر إليها للمرة الأولى منذ زيارته، فقالت: «حسنًا يا ويكفيلد، لقد أخبرت ابنتك كيف أتصرف بحكمة في أموالي الخاصة؛ لأنني لم أستطع الاعتماد عليك لإدارتها، بعد أن صرت تعاني من صدأ في التفكير حول الأمور التجارية. كنا نتشاور معًا، ونتدبر الأمور بشكل جيد، مع مراعاة لجميع الملابسات. إن أجنيس في رأيي تستحق إدارة عمل المكتب بأكمله».

قال يورايا هيب وهو يلوي جسده: «إذا كان بإمكاني أن أدلي بتعليق، فإنني أتفق تمامًا مع الآنسة بيتسي تروتوود، وإنني سأسعد أيما سعادة لو أن الآنسة أجنيس صارت شريكة بالمكتب».

قالت عمتي: «إنك شريك، وكما تعلم هذا الأمر يكفيك على حد ظني. كيف حالك يا سيدي؟».

اعترافًا بهذا السؤال، الموجه إليه باقتضاب غير عادي، أجاب السيد هيب، وهو يمسك بحقيبته الزرقاء التي يحملها في هيئة مضطربة، بأنه على ما يرام، ثم شكر عمتي، داعيًا أن تكون هي الأخرى في خير حال.

ثم تابع يورايا كلامه قائلًا: «وأنت يا سيد، بل يجب أن أقول، السيد كوبرفيلد، أرجو أن تكون في أفضل حال. فكم يسعدني أن أراك، أيها السيد كوبرفيلد، وإن كانت مقابلتك في ظل الظروف الحالية». يبدو أنه كان محقًّا في قوله إذ بدا عليه الاستمتاع بها. «إن الظروف الحالية ليست ما يتمناه الصديق لصديقه، يا سيد كوبرفيلد، لكن المال لا يصنع الرجال». راح يورايا يتحدث بلهجة غرور حمقاء قائلًا: «إنني غير كفء حقًّا مع ضعتي اللا متناهية للتعبير عن الأمر، لكنه ليس المال ما يصنع الرجال».

صافحني بعد هذا القول، لكن طريقته لم تكن كالمصافحة المعتادة، إذ وقف على مسافة بعيدة مني، ثم رفع يدي لأعلى وأنزلها إلى أسفل مثل مقبض المضخة. يخاف من ملامستي إلى حد ما.

أضاف موضحًا فكرته فإذا به يقول: «ما رأيك يا سيد كوبرفيلد -يجب أن أناديك بـ: أيها السيد- ألا ترى أن السيد ويكفيلد في ازدهار يا سيدي؟ إن السنوات التي تنقضي في شراكتنا لا تشير يا سيد كوبرفيلد إلا إلى ارتقائنا وانتشالنا من الضعة - أقصد أنا وأمي - وأننا في تطور. كما تزداد الآنسة أجنيس جمالًا».

راح يتلوى بعد هذه المجاملة، بطريقة لا تُطاق، إلى الحد الذي جعل عمتي - التي كانت تجلس تنظر إليه مباشرة - تفقد صبرها.

قالت عمتي في صرامة: «ليرحل الشيطان مع هذا الرجل، ما الذي يقصده؟ لا تكن كالكهرباء يا سيد».

قال يورايا: «أستميحكِ عذرًا يا آنسة تروتوود. أعلم أنكِ متوترة».

قالت عمتي بغضب عارم: «دعك من هذا الكلام يا سيد، لا يفترض بك قول ذلك، لست متوترة ولا أدَّعي شيئًا من هذا القبيل. فإذا كنت ثعبان البحر، يا سيدي، فلتتصرف مثله. أما إن كنت رجلًا، أفلا تتحكم في أطرافك يا سيد؟! يا إلهي».

انتاب السيد هيب الخجل، كما يحدث لمعظم الناس حين يتعرضون لمثل هذا الموقف المفاجئ، خاصة أن موقفه ازداد حرجًا بعد الطريقة الغاضبة التي تحركت بها عمتي وهي جالسة فوق كرسيها، وقد هزت رأسها كما لو أنها على وشك الانقضاض عليه. إلا أنه راح يقول لي بصوت وديع:

«إنني أدرك جيدًا يا سيد كوبرفيلد أن الآنسة تروتوود سيدة رائعة، إلا أنها ذات مزاج متقلب وسريعة الغضب. أظن أنني تشرفت بمعرفتها حين كنت كاتبًا وضيعًا، وقبل أن تعرفها أنت يا سيد كوبرفيلد، وإنني على يقين بأن ما يحدث الآن في ظل الظروف الحالية هو أمر طبيعي. ويا للعجب إذ إن مزاجها أسوأ مما أبدته لي بكثير! لم آتِ إلا لأعرض عليكم أي مساعدة يمكننا القيام بها في الظروف الحالية، سواء من جانب أمي أو من جانبي، أو من جانب مكتب ويكفيلد وهيب، لأننا نتشرف بتقديم العون حقًّا». ابتسم يورايا ابتسامة سقيمة ثم وجه كلامه إلى شريكه قائلًا: «فهلا سمحتَ بقبول كلامي هذا!».

قال السيد ويكفيلد بطريقة رتيبة ومصطنعة: «إن يورايا هيب نشيط في أعماله يا تروتوود. وإنني أتفق تمامًا معه فيما يقول. إنك تعلم أنني

أهتم بأمرك منذ القدم، وبصرف النظر عن ذلك، فإنني أتفق تمامًا مع ما يقوله يورايا».

راح يورايا يرفع إحدى رجليه ليضعها فوق الأخرى، مخاطرًا بالتعرض لثورة أخرى من عمتي، وإذا به يقول: «آه، يا لهذه الثقة! إنها ونعم الأجر. إلا أنني أرجو أن أكون قادرًا على فعل شيء لتخفيف متاعب العمل يا سيد كوبرفيلد».

قال السيد ويكفيلد، بالنبرة الباهتة ذاتها: «إن يورايا هيب محل ثقة بالنسبة لي. لقد أزاحت شراكتي لرجل مثله ثقل التفكير في كثير من الأعباء».

كنت أعلم أن مكر هذا الثعلب الأحمر هو ما دفعه إلى هذا القول، ليستعرضه أمامي تحت ضوء يشبه ذاك الضوء الذي لاحظته حوله في ليلة غبراء سمَّم فيها راحتي. رأيت الابتسامة البغيضة نفسها ترتسم على وجهه من جديد، ولاحظت الطريقة التي يرمقني بها.

قالت أجنيس بنبرة قلقة: «لن ترحل يا أبي، ألن تتمشى مع تروتوود ومعي؟».

أظن أنه كان سيلتفت إلى يورايا قبل أن يرد، لو لم يسرع يورايا برد مخالف لتوقعه.

قال يورايا: «إنني مضطر إلى إنجاز مهمة تخصني. ولولا انشغالي لفضَّلت أن أبقى مع أصدقائي. سأترك شريكي ممثلًا عن وجودنا. يا آنسة أجنيس، إنني تحت أمركِ في أي وقت. أتمنى لك يومًا سعيدًا يا

سيد كوبرفيلد، وأبعث بوافر تحياتي إلى الآنسة بيتسي تروتوود».

انصرف بعد هذه الكلمات، وقد قبَّل يده الضخمة مبديًا قناع وجهه الزائف أمامنا.

جلسنا لنتحدث عن أيامنا الخوالي الممتعة في كانتربري، واستمر حديثنا لساعة أو ساعتين. ما إن ترك السيد ويكفيلد مع أجنيس، حتى ارتد إلى طبيعته القديمة، على الرغم من سمات الاكتئاب المستقرة على قسماته، والتي لم يستطع التخلص منها قَطُّ. استضاء وجهه على الرغم من كل شيء، وبدت عليه سعادة واضحة بعد أن سمعنا نتذكر أحداثًا صغيرة مرت بنا، وكأنه لم يزل يتذكر الكثير منها خير تذكر. قال إن هذه الأوقات التي ينفرد فيها بي وبأجنيس مرة أخرى تجعله يتمنى ألا تفارقه أبدًا بل ترافقه إلى الجنة. وإنني على يقين من أن تأثير أجنيس الهادئ، ولمسة يدها الحانية على ذراعه، كان لهما أثر المعجزات على قسمات وجهه.

أما عمتي، فكانت مشغولة طوال هذا الوقت في الغرفة الداخلية مع بيجوتي، ولم ترغب في مرافقتنا إلى المكان الذي يقيمان فيه، لكنها أصرت على ذهابي معهما، ومن ثَم ذهبت. تناولنا العشاء معًا. ما إن انتهينا من الطعام حتى جلست أجنيس بجانبه، كما اعتادت أن تجلس قديمًا وقدمت له النبيذ. شرب ما قدمته له كالطفل من دون أن يُعلِّق على أفعالها بكلمة واحدة. جلسنا جميعًا مع حلول المساء عند النافذة. بات الليل وشيكًا، فاستلقى على الأريكة، وقد وضعت أجنيس الوسادة تحت رأسه، وراحت تنحني لتطمئن عليه من وقت لآخر. عادت لتجلس إلى

النافذة، ولم يكن الليل قد أسدل أستاره كاملة، فإذا بي ألحظ الدموع تتلألأ في عينيها.

أدعو الله ألا أنسى هذه الفتاة العزيزة أبدًا؛ إنها لنادرة في حبها وصدقها. لو أنني نسيت دورها في ذاك الوقت من حياتي، فإني بلا شك سأكون قد اقتربت من نهاية حياتي، وإلا فإني سأتذكرها دومًا بكل خير. لقد ملأت قلبي بوافر العزم، وعززتني على ضعفي، وجعلت من نفسها قدوة أحتذي بها. كانت خير مرشد ومعين، ولا أعرف كيف كانت متواضعة ولطيفة إلى هذا الحد الذي جعلها تسدي إليَّ نصائحها بقليل من العبارات. لقد روضت حماسي الأهوج ورتبت أهدافي المبعثرة بداخلي. إن كل خير فعلته ولو كان يسيرًا، وكل ضرر منعته عني، يفرضان عليَّ أن أشير إلى فضلها.

راحت تتحدث معي عن دورا وهي جالسة عند النافذة في ذلك الظلام. استمعت إلى مديحي لها، وثنائي عليها مرة تلو أخرى، فإذا بها تتجول حول شخصية تلك الجنية الصغيرة وتلقي بعض لمحات من نور نقي وثناء، مما جعلها تبدو لعيني أعز وأنقى. آه يا أجنيس، يا شقيقة طفولتي، لو عرفت حينها ما صرت أعرفه بعد ذلك بوقت طويل!

نزلت فالتقيت شحاذًا في الشارع، وعندما أدرت رأسي نحو النافذة، حتى أفكر في عينيها الملائكيتين الهادرتين، إذ بي أغمغم، كما لو أن صدى كلمات عمتي ترن بأذني: «أعمى، أعمى، أعمى».



الفصل السادس والثلاثون

حماسة

بدأت اليوم التالي بالغطس مرة أخرى في الحمام الروماني، ثم توجهت إلى هايجيت. لم أعد أشعر بالإحباط بعد اليوم. لم أعد خائفًا من مظهر المعطف الرث، وانقشع اشتياقي لامتطاء فرس رمادي شجاع. لقد تغيرت طريقة تفكيري بالكامل في محنتنا الأخيرة. كان عليَّ أن أبرهن لعمتي أن ماضيها لم يُهدر ولم يؤول إلى جحود ونكران. كان عليَّ أن أستدعي ما عانيت من ألم في أيام شبابي، وأعاود العمل بقلب حازم وعزم ثابت. كان عليَّ أن أمسك بفأس الحطاب بين يدي، وأشق لنفسي طريقًا وسط غابة المحنة، فأقطع الأشجار حتى أصل إلى دورا. رحت أواصل مسيرتي بخطى متزايدة، كما لو أنني أنفذ ما فكرت فيه بالمسير.

وجدت نفسي على طريق هايجيت المألوف، أتابع مهمة مختلفة عن التي اعتدت القيام بها في استمتاع. بدا لي أن تغييرًا كاملًا طرأ على حياتي بأسرها، إلا أن عزيمتي لم تخُر. لقد ظهر في حياتي الجديدة

هدف جديد، وعزم فريد. كان العمل عظيمًا، وجزاؤه لا يقدر بثمن. إن دورا هي المكافأة، ولا مفر من أن أظفر بها.

ما إن استسلمت إلى هذه الفكرة، حتى شعرت بأسف شديد إذ لم يكن معطفي رثًّا. أردت أن أقطع الأشجار في غابة المحنة، وفي ظل ظروف جديرة بأن تثبت قوتي. فكرت في أن أطلب من رجل عجوز يرتدي نظارة من السلك، ويكسر حجارة على الطريق، أن يقرضني مطرقته لفترة قصيرة، حتى أبدأ في شق طريق بين الجرانيت لأصل إلى دورا. لقد حفَّزت نفسي بحماسة متقدة، ولهثت إلى الحد الذي شعرت فيه بأنني ظفرت بشيء لا أعرف قدره.

سيطرت عليَّ هذه الحالة، وإذا بي أتوجه إلى بيت رأيته أمامي وكان معروضًا للإيجار، فرحت أتفحصه بدقة، لأنني شعرت أنه من الضروري أن أصير عمليًّا. أحسست أنه مناسب للعيش مع دورا إلى حد بعيد. تتقدم البيت حديقة صغيرة؛ سيتجول فيها جيب وينبح على الباعة الجائلين من خلف أسوارها. كما يحوي البيت غرفة كبيرة في الطابق العلوي تصلح لعمتي. خرجت إلى الشارع مرة أخرى، وقد ازدادت حماستي، فأسرعت الخطى وانطلقت متجهًا إلى هايجيت، حتى وصلت مبكرًا قبل الموعد بساعة كاملة من دون أن أعمد إلى ذلك. كان الأولى بي أن أتنزه لتهدئة نفسي، قبل أن أصلح من هندامي.

صار أول اهتماماتي أن أعثر على بيت الدكتور، خاصة بعد أن انتهيت من تحضير نفسي وتهيأتها. لم يكن البيت في هذه الناحية من هايجيت حيث تعيش السيدة ستيرفورث، ولكنه يقبع في الجانب الآخر

من المدينة الصغيرة. ما إن أدركت الأمر حتى عدت، في جاذبية لم أستطع مقاومتها، إلى ممر بجوار بيت السيدة ستيرفورث، ورحت أنظر متطلعًا من إحدى زوايا جدار الحديقة. رأيت غرفته عن قرب، وكانت مغلقة. كانت أبواب الحديقة مفتوحة، وكانت روزا دارتل تمشي حاسرة الرأس، بخطوات سريعة متهورة، ذهابًا وإيابًا فوق الحصى بجانب العشب. لاحت أمامي كما الوحش المفترس؛ يجرجر أغلاله جيئة وذهابًا في حيز خاضع للضرب، وقد انفجر قلبه بين جوانحه.

تراجعت في هدوء مبتعدًا عن مكان مراقبتي، وتجنبت هذا الجزء من الحي، راجيًا ألا أقترب منه. رحت أتمشى حتى العاشرة صباحًا. لم تكن الكنيسة ذات البرج النحيف التي تلوح على قمة التل الآن، قد بنيت بعد حتى تُعلِمني بالوقت. كان في مكانها قصر قديم من الطوب الأحمر استخدم كمدرسة، وإني لأتذكر منزلًا قديمًا أيضًا يبدو أنه كان ملحقًا بالمدرسة.

اقتربت من كوخ الدكتور، فإذا به مكان قديم جدًّا، بدا أنه أنفق عليه بعض المال لترميمه، إذ كان بإمكاني ملاحظة الزخارف والإصلاحات التي لاحت كما لو أنها اكتملت للتوِّ. رأيته يمشي على جانب الحديقة، بالطماق نفسه وكل شيء اعتدته فيه، كما لو أنه لم يتوقف عن سيره منذ أيام تلمذتي. صاحبه رفاقه القدامى أيضًا، فأحاطت به أشجار كثيرة عالية، ولاح غرابان أو ثلاثة غربان تقفز فوق العشب، كما لو أنها تعتني به، أو كما لو أن الغربان في كانتربري قد كتبت عنه، فراحت تراقبه عن كثب وتتفحصه.

أدركت في يأس أنه لا سبيل إلى جذب انتباهه من تلك المسافة مطلقًا، فتجرأت على فتح البوابة، والسير وراءه، حتى ألتقي به عندما يستدير. استدار ثم توجه نحوي، وراح ينظر إليَّ بتمعن بضع لحظات. كان من الواضح أنه لم يكن يتوقع مقابلتي على الإطلاق، إلا أن وجهه الطيب تهلل برؤيتي معبرًا عن سعادة غير عادية انتابته، ثم تناولني بكلتا يديه مُرحبًا.

قال الدكتور: «أهذا أنت يا كوبرفيلد العزيز، أهذا أنت يا رجل! كيف حالك؟ كم يسعدني أن أراك يا كوبرفيلد العزيز، كم تغيرت وتطورت! إنك كما أنت تمامًا - نعم - آه يا للعجب!».

رجوت أن يكون في أفضل حال، هو والسيدة سترونج أيضًا.

قال الدكتور: «آه يا عزيزي، نعم، إن آني بخير، وستسعد برؤيتك أيما سعادة. إنك تحوز مكانة عالية عندها، فقد قالت ذلك أمس، بعدما أطلعتها على رسالتك. أي - نعم، بالتأكيد- هل تتذكر السيد جاك مالدون يا كوبرفيلد؟».

«أتذكره بالطبع يا سيدي».

قال الدكتور: «بالطبع، تتذكره بلا شك. إنه في خير حال أيضًا».

سألته: «هل عاد إلى المنزل يا سيدي؟».

قال الدكتور: «أتقصد عاد من الهند؟ نعم. لم يستطع السيد جاك مالدون تحمل طبيعة المناخ هناك يا عزيزي. والسيدة ماركلهام - ألم تزل تذكر السيدة ماركلهام؟».

هل أنسى الجندي العجوز؟! كيف أنساها في هذه الفترة القصيرة؟!

قال الدكتور: «إن السيدة ماركلهام كانت قد اغتاظت منه أيما غيظ، ويا له من أمر مؤسف! لذلك أعدناه إلى الوطن مرة أخرى، ثم اشترينا له مكانًا صغيرًا ليعمل فيه، وقد انسجم مع عمله الجديد وارتضى به». كنت أعرف ما يكفي عن السيد جاك مالدون، فلا أشك في أن هذا العمل لم يكن سوى عمل هين، بينما يتقاضى عليه أجرًا وفيرًا. راح الدكتور يسير ذاهبًا وآيبًا، واضعًا يده على كتفي، بينما يتهلل وجهه اللطيف في وجهي.

تابع الدكتور قائلًا: «الآن يا عزيزي كوبرفيلد، لنعود إلى اقتراحك. إنني متأكد من أنه أمر ممتع للغاية ومقبول عندي، لكن ألا تظن أنك تستطيع القيام بعمل أفضل؟ لقد حققت تميزًا، كما تعلم، عندما كنا معًا. وإنك لمؤهل للقيام بالكثير من الأعمال الجيدة. لقد وضعت لنفسك حجر الأساس ويمكنك أن تبني عليه صرحًا. أليس من المؤسف أن تكرس ربيع شبابك لمثل هذا العمل الرديء الذي أقوم به؟».

صرت متهللًا مرة أخرى، وإن كنت خائفًا من التعبير عن احتياجي في تعسف، أو أن أكون قد ألححت على طلبي بإصرار، فذكَّرت الدكتور بأنني أمتهن عملًا بالفعل.

قال الدكتور: «حسنًا، هذا صحيح. إنك بلا شك تشغل مهنة وقد انخرطت فعليًّا في دراستها، مما يجعل وضعك مختلفًا، لكن يا صديقي الشاب، ماذا تفعل سبعون جنيهًا في السنة؟».

قلت: «إنها تضاعف من دخلنا يا دكتور سترونج».

أجاب الدكتور: «عجبًا! إنني أفكر في الأمر ولا أقصد أن أقول إن الأمر سيقتصر على حصولك على سبعين جنيهًا في السنة، لأنني كنت أفكر دائمًا في تقديم هدية للصديق الشاب الذي سأسند إليه هذه الوظيفة». أكمل الدكتور كلامه بينما نمشي معًا ذهابًا وإيابًا ولم تزل يده تعلو كتفي: «لقد خصصت بلا شك هدية سنوية، ووضعتها دومًا في الاعتبار».

رحت أتحدث في هذه اللحظات بجد لا هزل فيه، فقلت: «أنت معلمي العزيز الذي أدين له بفضل بالغ يفوق قدرتي على تقديم العرفان له إلى الأبد».

قاطعني الدكتور قائلًا: «لا، لا. العفو».

«لو أنك وظفتني في وقت فراغي الصباحي والمسائي، وحسبت أن سبعين جنيهًا إسترلينيًّا في السنة أجر ترضاه، فسوف تقدم لي خدمة جليلة لا يمكنني الوفاء بحقها».

قال الدكتور بسذاجة: «يا للعجب! أحسب أن هذا الأجر نزر يسير جدًّا أمام هذا العطاء، آه يا ربي رحماك، أما إن استطعت العمل في مهنة أفضل، فهل ستفعل ذلك؟ هل تتعهد إليَّ بذلك الآن؟». كانت هذه هي طريقة الدكتور التي طالما ناشدَنا بها نحن تلاميذه بالقسم معتدًّا بشرفنا.

وأجبت على طريقة مدرستنا القديمة فقلت: «أعدك يا سيدي».

قال الدكتور وهو يربت على كتفي: «وهو كذلك».

ظلت يده تعلو كتفي، ولم نزل سائرين ذهابًا وإيابًا، حتى قلت له في نوع من المجاملة البريئة: «وستتضاعف سعادتي عشرات المرات يا سيدي لو أنك أشركتني في العمل على استكمال القاموس».

توقف الدكتور، ثم ربت على كتفي مرة أخرى بابتسامة، وراح يصرخ بنبرة انتصار مبهج، كما لو أنني قد توغلت في أعماق الحكمة البشرية، فقال: «يا صديقي الشاب العزيز، لقد أصبت القول. إنه القاموس».

كيف يمكن أن يكون العمل أي شيء آخر؟ لقد كانت جيوبه مثل رأسه مكتظة به. كانت أفكاره عن القاموس تكاد تفيض منه في كل الاتجاهات. أخبرني أنه منذ تقاعده من مهنة التدريس راح يتقدم فيه بشكل رائع، وأنه لا شيء أفضل من ترتيب الأدوار للعمل فيه صباحًا ومساءً، لأنه اعتاد أن يتجول في ساعات النهار مرتديًا قبعته ومستغرقًا في التفكير. كانت أوراقه مبعثرة إلى حد ما، بسبب أن السيد جاك مالدون قد قدم مؤخرًا خدماته المتناهية باعتباره أمينًا على أوراقه، لكنه لم يكن معتادًا على هذه المهنة فاختلطت الأوراق. إلا أننا سنصلح ما اختلط قريبًا، وسنواصل السباحة في مهمتنا. قسمنا العمل بعد ذلك بإنصاف، فوجدت أن جهود السيد جاك مالدون أكثر إزعاجًا لي مما توقعت، لأن عمله لم يقتصر على ارتكاب العديد من الأخطاء، بل راح يرسم كثيرًا من الجنود ورؤوس السيدات على صفحات مخطوطة الدكتور، والتي غالبًا ما ورطتني في متاهات من الغموض.

كان الدكتور سعيدًا للغاية بفكرة انضمامنا للعمل معًا على هذا

الإنجاز الرائع، ومن ثَم اتفقنا على أن نبدأ في صباح اليوم التالي في الساعة السابعة. كنا سنعمل لساعتين كل صباح، ثم نستأنف العمل لساعتين أو ثلاث ساعات ليلًا، فيما عدا أيام السبت حيث أرتاح من العمل، بالإضافة إلى إجازتي في أيام الأحد بالطبع، فاعتبرت هذه الشروط سهلة ميسرة.

رتبنا خطة العمل على هذا النحو الذي يرضينا جميعًا، ثم اصطحبني الدكتور إلى المنزل ليقدمني إلى السيدة سترونج، فوجدناها في مكتب الدكتور الجديد، تنفض الغبار عن كتبه، وهي منحة لم يهبها لأي إنسان آخر، فلا أحد يلمس مقدساته الحبيبة.

كانوا قد أجلوا تناول الإفطار انتظارًا لقدومي، فجلسنا إلى المائدة معًا. لم يطل مجلسنا حتى بدا على وجه السيدة سترونج أنها تنتظر وصول شخص ما قبل أن أسمع أي صوت يعلن عن قدومه. أقبل إلى البوابة رجل نبيل ممتطيًا ظهر خيله، ثم قاده إلى الساحة الصغيرة، مدليًا اللجام فوق ذراعه، كما لو أنه في منزله تمامًا، ثم ربطه حول حلقة في جدار الإسطبل الفارغ، ودخل حجرة الطعام، حاملًا السوط في يده. كان القادم هو السيد جاك مالدون. وأحسب أن حال السيد جاك مالدون لم تتحسن على الإطلاق، فلبث كما كان قبل سفره إلى الهند. كنت حينها في حالة اهتياج شرس، ناقم على الشباب الذين لم يشقوا طريقهم بين الأشواك في غابة المحن، وكان يجب أن أتغاضى عن هذا الانطباع الذي استولى عليَّ.

قال الدكتور: «إنه السيد جاك، وهذا كوبرفيلد».

صافحني السيد جاك مالدون، لكن مصافحته خلت من الحرارة التي تخيلتها، بل كانت أقرب إلى المجاملة الفاترة، مما جعلني أسر في نفسي استياءً بالغًا. أما فتوره برمته فبدا مشهدًا مذهلًا، إذ لم يفارقه إلا حين خاطب ابنة عمه آني.

قال الدكتور: «هل تناولت فطورك هذا الصباح يا سيد جاك؟».

أجابه وقد طوح رأسه إلى الخلف مستندًا إلى الكرسي: «نادرًا ما أتناول الإفطار يا سيدي. أجد أنه يضجرني».

سأل الدكتور: «هل ثمة أخبار جديدة اليوم؟».

أجاب السيد مالدون: «لا جديد على الإطلاق يا سيدي، سوى حديث متناقل عن الجوع والسخط في شمال البلاد، لكن ثمة جائعين وساخطين دومًا في أي مكان».

لاحت على الدكتور سمات الجد، كان كمن يرغب في تغيير الموضوع، فقال: «إذن لا جديد على الإطلاق. يقولون إن انعدام الأخبار ليس إلا خبر سار».

عقب السيد مالدون قائلًا: «إن تقريرًا طويلًا في الصحف يدور حول جريمة قتل يا سيدي. لكن إنسانًا ما يُقتل دائمًا، ولذا لم أقرأه».

أفترض أن إظهار اللا مبالاة تجاه كل تصرفات ومشاعر الجنس البشري صفة معيبة في ذلك الوقت، ومشينة على حد ظني، وكما أدركت منذ زمن. لقد عرفت أن هذه اللا مبالاة صارت عرضًا بالفعل، إذ رأيت هذه السمة تظهر متفوقة على غيرها، عندما قابلت بعض السيدات

والسادة المحترمين، ممن كان يجدر بهم أن يولدوا على هيئة حشرات، ربما أثار هذا التصور دهشتي، إذ كان أمرًا جديدًا عليَّ، لكنه بالتأكيد لم يغير رأيي أو يعزز ثقتي في السيد جاك مالدون.

قال السيد مالدون ملتفتًا نحو آني: «جئت لأسأل عما إذا كانت آني ترغب في الذهاب إلى الأوبرا الليلة. إنها آخر ليالي الأنس في هذا الموسم، وستنشد فيها مغنية جديرة بأن تسمعها حقًّا. إنها رائعة الصوت إلا أنها قبيحة المظهر في تكوين عجيب». أنهى جملته ثم عاد إلى فتوره السابق.

التفت الدكتور إليها، وقد بدا عليه السرور بما يرجح أن يرضي زوجته الشابة، وقال: «يجب أن تذهبي يا آني. يجب أن تذهبي».

قالت للدكتور: «أفضل ألا أذهب. أفضل البقاء في المنزل، بل أستسيغ البقاء في المنزل أكثر من الخروج».

لم تلتفت آني إلى ابن عمها، وراحت تتحدث إليَّ فتسألني عن أجنيس، وما إذا كانت تستطيع أن تراها أم أنها لن تأتي في ذلك اليوم. كانت مرتبكة للغاية، حتى إنني تساءلت كيف يمكن للدكتور الذي راح يغمس خبزه في الزبدة أن يتعامى عن أشياء واضحة وجلية.

إلا أنه لم يلحظ شيئًا. أخبرها بلطف أنها لم تزل شابة تحتاج إلى التسلية والترويح، ويجب ألا تترك نفسها فريسة للملل بسبب وليفها العجوز البليد، علاوة على ذلك، أضاف أنه يريد أن يسمعها وهي تغني له أغنيات المطربة الجديدة كلها، فكيف يمكنها أن تغنيها سليمة، إن لم

تذهب لحفلتها؟ هكذا أصر الدكتور على أن تُحضِّر نفسها للذهاب إلى الحفل، وكان على السيد جاك مالدون أن يعود مرة ثانية لتناول العشاء معهما. انصرف السيد مالدون متجهًا إلى محل عمله على ما أظن، ممتطيًا ظهر حصانه، وقد بدا عليه الفتور والخمول.

شعرت بفضول في صباح اليوم التالي، لمعرفة ما إذا كانت آني قد ذهبت إلى الحفل أم لا. علمت أنها لم تفعل، لكنها أرسلت خطابًا إلى لندن لإعلام ابن عمها أنها لن تأتي، ثم خرجت بعد الظهيرة لزيارة أجنيس وأقنعت الدكتور أن يأتي معها. أخبرني الدكتور أنهما عادا إلى المنزل عبر طريق بين الحقول، وأن المساء كان بديعًا ممتعًا. تساءلت بعد ذلك؛ هل كانت ستذهب لو لم تكن أجنيس في المدينة؟ وهل كان لها أثر جيد عليها أيضًا؟!

أظن أنها لم تكن سعيدة، وإن كان وجهها يبدو هانئًا، أو أنها لم تُبدِ غير سمات من رضا زائف. رحت ألقي عليها نظرات خاطفة من وقت إلى آخر، فقد كانت تجلس عند النافذة طوال الوقت الذي نعمل فيه. راحت تعد لنا الفطور، الذي نتناول منه لقيمات خاطفة في أثناء عملنا. غادرت في التاسعة صباحًا، فإذا بي أراها راكعة عند قدمي الدكتور، تلبسه حذاءه وطماقه. لاح لي ظل ناعم أُلقي على وجهها من انعكاس ظلال بعض الأوراق الخضراء المتدلية من النافذة المفتوحة في الغرفة السفلى. رحت أفكر طوال الطريق إلى المكتب في الليلة التي رأيتها فيها تنظر إليه وهو يقرأ.

كنت منهمكًا في العمل في تلك الفترة. أستيقظ في الخامسة

صباحًا، وأعود في التاسعة أو العاشرة ليلًا. إلا أنني شعرت بارتياح لا يوصف لكوني منخرطًا في العمل عن كثب، ولم أكن أسير ببطء قَطُّ لأي سبب، بل شعرت بحماس جعلني أتصور أنني كلما تعبت صرت جديرًا بدورا. لم أفصح لدورا بعد عما حدث من تغير في شخصيتي، لأنها كانت قادمة لزيارة الآنسة ميلز في غضون أيام قليلة، ومن ثَم أجَّلت كل ما انتويت إخبارها به حتى ذلك الحين، واكتفيت بمراسلتي لها -كانت الرسائل بيننا تصل سرًّا عن طريق الآنسة ميلز- وقد أعلمتها بأنني سأخبرها بالكثير. رحت خلال هذه الفترة أقلل من عنايتي بنفسي، ومن الدهان، والصابون المعطر، وماء اللافندر الذي هجرته تمامًا، وبعت ثلاث صدريات بثمن زهيد، لأنها فاخرة للغاية وغير صالحة لعملي الشاق.

لم أكن راضيًا عن هذه الإجراءات برمتها، بل تحرقت نافد الصبر إلى فعل المزيد، فذهبت لزيارة ترادلز، وكان في ذاك الوقت يسكن في منزل خلف شارع كاسل في حي يسمى هولبورن. اصطحبت السيد دك معي، الذي رافقني مرتين قبل ذلك إلى هايجيت، واستأنف رفقته مع الدكتور.

أخذت السيد دك معي، لأنه صار حساسًا متأثرًا بمحنة عمتي، ومؤمنًا أنني صرت أعمل مثل عبد أو مدان، ومن ثَم راح القلق يسيطر عليه، وفقد ابتهاجه وشهيته، بعد أن أحس أنه لا يقوم بأي عمل مفيد. شعر في هذه الحالة أنه غير قادر على إنهاء مذكراته أكثر من أي وقت مضى، وأنه كلما بذل جهدًا أكبر محاولًا العمل أطل عليه رأس الملك

التعس تشارلز الأول. خيل إليَّ أن مرضه سيزداد، إلا إذا أقحمنا عليه بعض الخدع البريئة وجعلناه يتصور أنه يقوم بشيء مفيد، حتى لو لم نتمكن من وضعه في طريق مفيد حقًّا - وهو الأفضل - لذا فإنني اختلقت شيئًا لأصطحبه إلى ترادلز لعله يستطيع مساعدتنا. كتبت إلى ترادلز بيانًا كاملًا قبل ذهابنا إليه، وأخبرته فيه بكل ما حدث، وأرسل ترادلز لي إجابة وافية، معبرًا فيها عن تعاطفه وصداقته.

لقد وجدناه يعمل بجد أمام محبرته وأوراقه، منتعشًا بمنظر الزهرية والمائدة الصغيرة المستديرة القابعين في زاوية مسكنه الصغير. استقبلنا بترحاب حار، وانخرط في صداقة مع السيد دك في لحظة. أعلن السيد دك يقينًا أنه رآه من قبل، فقلنا معًا: «محتمل جدًّا».

كان الموضوع الأول الذي أردت استشارة ترادلز فيه هو أنني علمت أن الكثير من الرجال المتميزين في مختلف المساعي قد بدأوا حياتهم بتدوين مناقشات جلسات البرلمان، وكان ترادلز قد عدَّد لي هذه الصحف، وقال إن أحد آماله العمل بها. جمعت بين الأمرين معًا، وأخبرت ترادلز في رسالتي أنني أرغب في معرفة ما إذا كنت مؤهلًا للسعي في الحصول على هذه المهنة أم لا. أخبرني ترادلز في لقائنا إجابة سؤالي، فقال إن ثمة مهارة آلية واحدة تتطلبها هذه المهنة، ولا يُتجاوز عنها إلا في حالات نادرة، ألا وهي امتلاك مهارة الاختزال. كان التميز في الاختزال مساويًا في صعوبته لإتقان ست لغات، وربما يمكن اكتسابها بالمثابرة والتدرب في غضون بضع سنوات. افترض ترادلز أن هذه المهنة من شأنها أن تيسر لي أموري، لكنني أحسست أن ثمة بعض الأشجار

العالية تحول دون طريقي وما عليَّ سوى تسويتها، ومن ثَم قررت على الفور أن أشق طريقي نحو دورا ماضيًا في الغابة حاملًا فأسي.

قلت: «إنني ممتن جدًّا لك يا عزيزي ترادلز، سأبدأ غدًا».

بدا ترادلز مندهشًا، وكان محقًّا في اندهاشه، لأنه لم يدرك إلى هذه اللحظة مدى حماستي وإقدامي.

قلت: «سأشتري كتابًا به شرح وافٍ لهذه المهارة، وسأنكب عليه في مجلس العموم، حيث لا أجد ما أنشغل به، وسأعمل على تدوين جلساتنا في المحكمة كنوع من التمرن. يا صديقي العزيز ترادلز، فلتثق في أنني سأتقن الأمر».

قال ترادلز بعد أن جحظت عيناه: «عجبًا، لم أعرف أنك إنسان دؤوب إلى هذا الحد يا كوبرفيلد».

لا أعرف كيف كان عليه أن يعرف ذلك عني لأن الأمر كان جديدًا عليَّ. نحَّيت هذا الموضوع جانبًا، وطرحت موضوع السيد دك على طاولة المناقشة.

قال السيد دك بلهفة: «كما ترى، إذا كان بإمكاني أن أبذل نفسي في عمل يا سيد ترادلز، إذ من الممكن أن أقرع طبلة أو أنفخ في أي شيء، فإني سأفعل».

يا للمسكين! لا يساورني شك في أنه كان يفضل في أعماق قلبه أن يقوم بمثل هذا العمل على غيره. أجاب ترادلز الذي لم يستطع أن يبتسم في وجه العالم:

«لكنك كاتب حسن الخط يا سيدي. ألم تخبرني بذلك يا كوبرفيلد؟».

قلت: «إنه ممتاز». وقد كان ممتازًا بالفعل، وكان يكتب بدقة متناهية.

قال ترادلز: «ألا تظن أنك تستطيع نسخ المخطوطات يا سيدي، إذا جئت بها إليك؟».

نظر السيد دك إليَّ بريبة، وقال: «ما رأيك يا تروتوود؟».

هززت رأسي، وهز السيد دك، وتنهد، ثم قال: «أخبره عن المذكرات».

شرحت لترادلز مدى صعوبة إبقاء الملك تشارلز الأول بعيدًا عن مخطوطات السيد دك، فإذا بالسيد دك ينظر نحو ترادلز باحترام شديد وجدية ثم راح يمص إبهامه.

قال ترادلز بعد قليل من التفكير: «إنكم تعلمون أن مثل هذه الكتابات التي أتحدث عنها جاهزة بالفعل، ولا داعي لتدخل السيد دك في إتمامها. ألن يُحدث هذا فرقًا يا كوبرفيلد؟ وفي جميع الأحوال، أليس من الأفضل أن نحاول؟».

منحتنا هذه الفكرة أملًا جديدًا. رحت أنا وترادلز نفكر معًا، بينما راح السيد دك يراقبنا بقلق من فوق مقعده. أعددنا خطة واستطعنا بموجبها توجيهه إلى العمل في اليوم التالي بنجاح منقطع النظير.

جهزنا له العمل الذي أعده له ترادلز، فوضعناه على طاولة بجوار النافذة في شارع باكنجهام. كان من المفترض أن ينسخ عدة نسخ – نسيت

عددها - من مستند قانوني حول حقوق المرور. ثم وضعنا على طاولة أخرى آخر نسخة أصلية غير مكتملة من مذكراته الموقرة. كانت تعليماتنا إلى السيد دك أن ينسخ ما يراه أمامه بالضبط، من دون أدنى تحريف عن الأصل، وإذا شعر بضرورة التلميح بأدنى إشارة إلى الملك تشارلز الأول، فعليه أن ينتقل سريعًا إلى المذكرات. حثناه على أن يكون جادًّا في عمله، وأسندنا إلى عمتي مراقبته. أبلغتنا عمتي بعد ذلك، أنه كان في البداية مثل رجل يقرع على الطبول بعصوين، كما قسَّم انتباهه بين العملين، إلا أنه أدرك بعد فترة كم أن هذه الطريقة مربكة ومرهقة، فتناول المخطوط المطلوب نسخه بعد أن تجلى أمام عينيه واضحًا، فانكب على نسخة منتظمًا في العمل، وأجل كتابة المذكرات إلى وقت آخر ملائم. كنا باختصار حريصين أشد الحرص على ألا نشغله بشيء يفوق ما يستطيع الإفادة منه، وعلى الرغم من أنه لم يبدأ العمل منذ بداية الأسبوع إلا أنه كسب في ليلة السبت التالية عشرة شلنات وتسعة بنسات. ولن أنسى طوال حياتي توجهه إلى جميع المحلات التجارية في الحي لتغيير هذا الكنز إلى فئات الستة بنسات، ثم إحضاره إلى عمتي على شكل قلب مرصوص فوق صينية، وقد اغرورقت عيناه بدموع الفرح والفخر. لاح كمن سُحِر منذ اللحظة الأولى من توظيفه في عمل مفيد، وإذا وُجد رجل سعيد في العالم في ليلة السبت تلك، فقد كان المخلوق الممتن الذي آمن بأن عمتي أروع امرأة في الوجود، وبأنني أروع شاب فيه.

قال السيد دك وهو يصافحني في الزاوية: «إنني لا أتضور جوعًا بعد الآن يا تروتوود. سوف أعولها يا سيدي»، ثم طوح أصابعه العشر في

الهواء، كما لو أنها عشرة بنوك.

لم أعرف أيهما أكثر سعادة، ترادلز أم أنا. تحدث ترادلز بغتة، بعد أن أخرج رسالة من جيبه وناولها لي، قائلًا: «حسنًا، لقد كنت على وشك نسيان أمر السيد ميكوبر تمامًا».

كانت الرسالة موجهة إليَّ، إذ لم يفوت السيد ميكوبر قَطُّ أي فرصة ممكنة لكتابة رسالة لي بعد الاستئذان من ترادلز وتقديم الاحترام له، فقال:

«عزيزي كوبرفيلد،

لعلك غير مستعد لاستقبال تلميح بظهور أمر عارض، وربما ذكرت لك في موقف سابق أنني توقعت وقوع هذا الحدث.

إنني على وشك الاستقرار في إحدى قرى مقاطعات جزيرتنا العزيزة - حيث يمكن وصف المجتمع بأنه مزيج سعيد من الفلاحين والكهنة - وسأرتبط مباشرة بإحدى المهن المتعلقة بالتعليم. سترافقني السيدة ميكوبر مع ذريتنا، ربما تعثر على رفاتنا في المستقبل وقد امتزج في مقبرة بحفنة جليلة من تراب هذه البقعة التي أشرت إليها. هل يمكنني القول إنها بقعة معروفة من الصين إلى بيرو؟

وإني لمُودِّع بابل الجديدة[١]، حيث تناوبت علينا النوائب وكثرت علينا فيها المحن، وإني والسيدة ميكوبر لا نستطيع أن نتغافل عن أننا

---

(١) يصف المدينة التي انتقل إليها بأنها بابل الجديدة إشارة إلى أنه ذهب إليها كمنفى، كما ذكر في العهد القديم.

سنهجر لسنوات، بل ربما إلى الأبد، رجلًا تربطنا به علاقات قوية، وتضحيات في لب حياتنا المنزلية. فإذا سمحت بمرافقة صديقنا المشترك، السيد توماس ترادلز، إلى منزلنا الحالي في عشية يوم المغادرة لنتبادل الأمنيات الطيبة والمناسبة لهذه الظروف، فإنك ستمنح بقدومك البركة إلى

إنسان

صديق

إلى الأبد

ويلكنز ميكوبر».

كان من دواعي سروري أن وجدت أن السيد ميكوبر قد نفض عن كاهله الغبار والرماد، وأن شيئًا ما قد ظهر أخيرًا. علمت من ترادلز أن الدعوة أشارت إلى المساء، فأعربت عن استعدادي لتلبيتها، وانطلقنا معًا إلى المسكن الذي يقطنه السيد ميكوبر باسم السيد مورتيمر، والذي يقع بالقرب من نهاية شارع جريز آن.

كانت مساحة هذا السكن محدودة للغاية، حتى إننا وجدنا التوأم وقد صارا يبلغان الآن من العمر ثماني أو تسع سنوات، وإذا بهما ينامان في غرفة جلوس الأسرة. كان السيد ميكوبر قد أعد - في وعاء الغسيل- سائلًا أسماه «مشروبًا» من المشروبات اللذيذة التي اشتهر بها. وقد سعدت في هذه المناسبة بأن أجدد معرفتي بالسيد ميكوبر الذي لاح فتى واعدًا، يبلغ من العمر نحو اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، يتمتع بنشاط

في حركته مثل شباب هذه السن. كما أنني تعرفت من جديد على أخته الآنسة ميكوبر التي أخبرنا السيد ميكوبر عنها، فقال: «إن والدتها قد جددت فيها شبابها مثل العنقاء».

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزي كوبرفيلد، ستجدنا أنت والسيد ترادلز على وشك الهجرة، وإننا لنعتذر عن أي مضايقات صغيرة تتعلق بهذا الأمر العارض».

ألقيت نظرة سريعة على المكان بينما أحاول التفكير في رد مناسب، فلاحظت أن أمتعة الأسرة جاهزة ومحزومة، وأنها لم تكن كبيرة الحجم بأي حال من الأحوال. هنأت السيدة ميكوبر على الإقدام على هذه الخطوة.

قالت السيدة ميكوبر: «عزيزي السيد كوبرفيلد، إنني واثقة تمامًا في اهتمامك الودي بجميع شؤوننا. قد تعتبر عائلتي أن هذا التغيير نفيًا، فليحسبوه كذلك إذا رغبوا، لكنني زوجة وأم ولن أتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا».

أبدى ترادلز موافقة على كلامها، بعد أن ناشدته عين السيدة ميكوبر أن يفصح عن رأيه.

قالت السيدة ميكوبر: «إنها ليست سوى وجهة نظري على الأقل يا عزيزي السيد كوبرفيلد ويا سيد ترادلز. لقد أخذت على نفسي عهدًا بعدما كررت كلمات ارتباطي به التي لا رجعة فيها، فقلت «أنا إيما، قبلت زواجك يا ويلكنز». لقد تلوت هذه الصلاة أمام شمعة ليلة

أمس، والنتيجة التي توصلت إليها هي أنني لم أستطع التخلي عن السيد ميكوبر. وإنني وإن كنت مخطئة في فهمي لطبيعة الزواج، إلا أنني لن أتخلى عنه أبدًا».

قال السيد ميكوبر بنفاد صبر: «يا عزيزتي، لا يراودني أدنى شك في أنكِ ستفعلين أي شيء من هذا القبيل».

أردفت السيدة ميكوبر قائلة: «إنني أعرف يا عزيزي السيد كوبرفيلد أنني الآن على وشك أن أخالط الغرباء، وأدرك أيضًا أن الكثير من أفراد عائلتي، الذين كتب إليهم السيد ميكوبر أجمل العبارات، معلنًا لهم هذه الحقيقة، لم يعيروا السيد ميكوبر اهتمامًا بالرد. وفي الواقع قد أكون ممن يؤمن بالخرافات، ولكن يبدو لي أن السيد ميكوبر مُقدَّر له ألا يتلقى أي إجابات مطلقًا مهما تفاقمت عدد رسائله إليهم. وأستخلص من صمت عائلتي أنهم معترضون على القرار الذي اتخذته، ولكنني لن أسمح لنفسي بالانحراف عن واجبي يا سيد كوبرفيلد، حتى ولو طلب أبي وأمي ذلك مني، لو أنهما على قيد الحياة».

أعربت عن رأيي فقلت إن الأمور تسير في الاتجاه الصحيح. قالت السيدة ميكوبر: «إن استقرار المرء في مدينة تشبه الكاتدرائية يعد نوعًا من التضحية، ولكن لا شك يا سيد كوبرفيلد أن مثل هذه التضحية لا تضاهي أبدًا تضحية رجل يتمتع بمواهب جمة مثل السيد ميكوبر».

قلت: «آه، هل ستذهبان إلى مدينة تشبه الكاتدرائية؟».

أجاب السيد ميكوبر الذي راح يقدم إلينا مشروبه من إبريق الغسيل اليدوي، فقال:

«سنذهب إلى كانتربري. وفي الواقع يا عزيزي كوبرفيلد، لقد اتخذت بعض الترتيبات وتعهدت بموجبها أن أتعاقد مع صديقنا هيب، لمساعدته وخدمته بصفتي كاتبه السري».

حدقت في السيد ميكوبر وقد بدا أنه استمتع بما رآه من دهشتي.

قال في لهجة رسمية: «إنني مدين بالاعتراف بأن التفكير العملي، والاقتراحات الحكيمة للسيدة ميكوبر، هي التي أدت إلى هذه النتيجة إلى حد كبير. إن القفاز الذي ألقته السيدة ميكوبر في مناسبة سابقة[١]، أُذيع خبره، ومن ثَم التقطه صديقي هيب، مما آل بنا إلى هذا التعاقد بيننا. أما صديقي هيب، فإنه رجل يتمتع بحنكة ملحوظة، وإني لأستحسن التحدث عنه بكل احترام ممكن. لم يحدد صديقي هيب أجرًا مجزيًا مرتفعًا للغاية، لكنه أسدى إليَّ الكثير للتخلص من الصعوبات المالية، في مقابل خدماتي الجليلة». راح السيد ميكوبر يُحقِّر من نفسه في افتخار، بطريقته القديمة اللطيفة المعهودة، فقال: «إنني أؤمن أنني سأقتطع مما أتمتع به من ذكاء ولباقة جزءًا لأعمل به، وسوف أكرسهما لخدمة صديقي هيب. إنني على علم ببعض مبادئ القانون - بصفتي مدعى عليه في قضايا مدنية - وسأقدم على الفور على دراسة أحد أبرز القانونيين الإنجليز وأكثرهم شهرة. أظن أنه لا ضرورة إلى أن أضيف أنني ألمح إلى القاضي السيد بلاكستون».

---

(١) كانت عادة إلقاء القفاز تعني الإقدام والشجاعة، والمقصود هو المبادرة وقبول التحدي.

قاطعت السيدة ميكوبر هذه الملاحظات، كما قاطعت بالطبع جزءًا لا بأس به من الملاحظات التي قيلت ذاك المساء، بعد أن اكتشفت أن ميكوبر الصغير جالس فوق حذائه، أو أنه ممسك رأسه بكلتا ذراعيه كما لو أنه يشعر بأن رأسه أجوف يتململ، أو بعد ركله لترادلز من أسفل الطاولة عن طريق الخطأ، أو تحريك قدميه فوق بعضهما البعض، أو إفساحهما لمسافات بعيدة مما يبدو شائنًا وغير طبيعي، أو مستلقيًا إلى جنبه وقد انحشر شعره بين كؤوس النبيذ، أو تململت أطرافه في شكل آخر غير لائق ولا تقبله أعراف المجتمع. أما سيد ميكوبر الصغير، فراح يستقبل تلك الاكتشافات بروح من الاستياء.

جلستُ طوال الوقت مندهشًا مما أفصح به السيد ميكوبر، ورحت أتساءل عن مغزى كلامه، حتى استأنفت السيدة ميكوبر الكلام، فصرفت انتباهي إليها.

قالت السيدة ميكوبر: «إن كل ما أطلبه بشكل خاص من السيد ميكوبر هو أن يتوخى الحذر يا عزيزي السيد كوبرفيلد، فلا تبعده دراسة هذا الفرع من القانون عن نطاق مواهبه، حتى يستطيع في النهاية أن يتسلق قمة أهدافه. وإنني على قناعة تامة بأن السيد ميكوبر عليه أن يبذل عقله ليتوصل إلى مهنة تتلاءم مع مواهبه الخصبة، وفصاحة لغته، وعليه أن يتميز عمن سواه». استطردت السيدة ميكوبر حديثها بنبرة أكثر عمقًا الآن، فقالت: «أريد أن أستشيرك يا سيد ترادلز، ألا يصح للسيد ميكوبر أن يصير قاضيًا، أو مستشارًا؟ هل يستطيع الإنسان زج نفسه

خارج نطاق هذه الملابسات فيصير في منصب يتجاوز العمل الذي قبله السيد ميكوبر؟».

راح السيد ميكوبر يلقي نظرة فضولية على ترادلز وإذا به يقول: «يا عزيزي، إن أمامنا وقت كافٍ للبحث في هذه الأسئلة».

قالت: «لا يا ميكوبر، إن خطأك في هذه الحياة هو أنك لا تتطلع إلى المستقبل. إنك ملزم - إنصافًا لعائلتك وإن لم يكن لنفسك - بأن تتمتع بنظرة شاملة إلى أقصى نقطة في الأفق قد تقودك إليها قدراتك».

سعل السيد ميكوبر ثم احتسى مشروبه في جو من الرضا والأريحية، بينما لم تزل نظراته الخاطفة واقعة على ترادلز، كما لو أنه يرغب في سماع رأيه.

تحدث ترادلز، محاولًا التمهل في إظهار حقيقة رأيه، فقال: «إن الحالة الجلية لهذه القضية يا سيدة ميكوبر؛ أعني أن الحقيقة الواقعة، كما تعلمون تشير إلى...».

قاطعته السيدة ميكوبر قائلة: «يا عزيزي السيد ترادلز، لا أود سوى سماع الحقيقة، وأرجو أن تكون مجردة وخالية من الإسهاب قدر الإمكان في هذا الموضوع الذي يشغل أهمية كبيرة عندنا».

قال ترادلز: «إن هذا الفرع من القانون، حتى لو كان السيد ميكوبر محاميًا عاديًّا...».

عادت السيدة ميكوبر إلى مقاطعته قائلة: «بالضبط». («يا ويلكنز، إنك تحدق بعينيك ولن يمكنك أن تستعيد نظرك من جراء هذا التحديق»).

استأنف ترادلز قائلًا: «لا علاقة لهذا الفرع من القانون بأي شيء. إن المحامي دون سواه هو المؤهل لمثل هذه القضايا. أما السيد ميكوبر فلا يمكن أن يكون محاميًا من دون أن يلتحق بالدراسة القانونية لمدة خمس سنوات».

قالت السيدة ميكوبر، بأسلوبها العملي اللطيف: «هل أفهم مما تقول يا عزيزي السيد ترادلز أنه بعد انتهاء تلك الفترة، سيصير السيد ميكوبر مؤهلًا للعمل كقاضٍ أو مستشار؟».

أجاب ترادلز بتركيز قوي على هذه العبارة قائلًا: «سيصير مؤهلًا».

قالت السيدة ميكوبر: «شكرًا لك، فهذا كافٍ تمامًا. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن السيد ميكوبر لن يخسر أي امتياز بالتزامه بهذه الواجبات، وقد هدأ قلقي الآن. إنني أتحدث بدافع أنثوي بالضرورة، بل كنت دائمًا أرى أن السيد ميكوبر يتمتع بشيء سمعته من أبي عندما كنت أعيش في منزله؛ شيء يُسمى «العقل القضائي»، وأرجو أن يلتحق السيد ميكوبر الآن بمجال يُطور فيه هذا العقل نفسه، ومن ثَم يبلغ مركزًا قياديًّا».

أحسب أن السيد ميكوبر رأى في نفسه هذه العقلية القضائية تمامًا، كما لو أنه قد التحق بالبرلمان، فمرر يده برضا على رأسه الأصلع، وقال باستسلام جلي:

«يا عزيزي، لن نعلم الغيب. إن صار مقدرًا لي ارتداء شعر مستعار، فإنني على الأقل مستعد لذلك». أشار هنا إلى صلعته المميزة، ثم قال:

«إنني لن أندم على فقدان شعري، فربما حُرمت منه لغرض معين. لا أستطيع أن أجزم بالأمر. إنني لأعتزم يا عزيزي كوبرفيلد على أن أعلم ابني حتى يخدم الكنيسة. ولن أنكر أنني سأفرح بدوري للوصول إلى مكانة مرموقة تساعدني على بلوغ مرادي».

قلت بينما أفكر بين الحين والآخر في يورايا هيب: «الخدمة الكنسية؟».

قال السيد ميكوبر: «نعم. إنه صاحب صوت بديع، وسيبدأ مرنمًا. ستُمكِّنه إقامتنا في كانتربري، ورفقتنا المحلية، من الاستفادة بلا شك من أي وظيفة شاغرة في الكاتدرائية».

نظرت إلى السيد ميكوبر الصغير مرة أخرى، فرأيت وجهه وقد اعتلاه تعبير خاص، كما لو أن صوته محتجز من وراء حاجبيه، بعد أن غنى لنا (أغنية بين الإنشاد والنوم) بحيث بدا لي صوته حشرجات «نقار الخشب». وبعد العديد من الإطراءات على هذا الأداء، جذبنا الحديث إلى بعض الموضوعات العامة. وكنت قد عجزت عن كتمان ما فاض داخلي من يأس من ظروف حياتي المتغيرة، لذا فقد رحت أقصها على السيد ميكوبر والسيدة زوجته. ولا أستطيع أن أعبر عن السعادة البالغة التي ظهرت عليهما بعد علمهما بما تواجهه عمتي من محن، مما جعلهما أكثر راحة وودًّا.

صرنا على وشك الانتهاء من مشروبنا الأخير، فوجَّهت نفسي شطر ترادلز، وذكَّرته بأن علينا ألا نفترق من دون أن نتمنى لأصدقائنا الصحة والسعادة والنجاح في حياتهم المهنية الجديدة. وطلبت من السيد

ميكوبر أن يملأ كؤوسنا لنشرب نخبهما، ثم صافحته من فوق الطاولة، وقبلت السيدة ميكوبر، لإحياء ذكرى هذه المناسبة الحافلة بالأحداث. قلدني ترادلز في الجزء الأول، لكنه لم يعتبر نفسه صديقًا قديمًا بما يكفي للقيام بالمغامرة بالثانية.

تحدث السيد ميكوبر وقد دس إبهاميه في جيبي صدريته، فقال: «يا عزيزي كوبرفيلد، يا رفيق شبابي - إن جاز التعبير - ويا صديقي المحترم ترادلز - إذا سمحت لي أن أدعوك بهذه الصفة - فلتسمحا لي أن أتحدث باسم السيدة ميكوبر، وباسمي، وباسم ذريتنا، فأشكركما بأحر العبارات الصادقة على هذه الأمنيات الطيبة». راح السيد ميكوبر يتحدث كما لو أنهم سيقطعون خمسمائة ألف ميل، فاستطرد قائلًا: «إنه لمن المتوقع في عشية الهجرة التي ستدفعنا إلى حياة جديدة تمامًا، أن أقدم بعض الإطراءات لاثنين من أعز الأصدقاء إلى قلبي. إلا أني أريد أن أقول إنه أيًا كانت المكانة التي قد أحرزها في المجتمع، من جراء منافع المهنة التي صرت على وشك الالتحاق بها، فإني سأسعى جاهدًا ألا أخذل مكانتي، وستعمل السيدة ميكوبر على تزيينها. وقد كنت تحت ضغط مؤقت بسبب الأزمات المالية، التي قيَّدتني لسداد مستحقاتها على الفور، ولكنها ظلت عالقة بسبب بعض الظروف، فكنت مضطرًّا إلى الظهور في مظهر يتنافى مع طبيعتي -وإني لأقصد النظارة- كما دفعتني إلى حمل اسم لا أستطيع أن أؤسس عليه أي إجراءات قانونية. وكل ما أستطيع قوله في هذا الصدد هو أن السحابة قد انقشعت بهذا المشهد الكئيب، وبرز رب النهار مرة أخرى على قمم الجبال. فلن يحل

يوم الاثنين المقبل، إلا وتصل العربية في الساعة الرابعة بعد الظهر إلى كانتربري، فتدب قدمي فوق موطني الأصلي وأسترد اسمي؛ ميكوبر».

عاد السيد ميكوبر إلى مجلسه في نهاية حديثه، ثم شرب كأسين متتاليتين من شراب البانش. ثم قال في وقار شديد:

«ثمة شيء آخر يجب أن أفعله قبل أن نفترق، وهو عمل يقتضي العدالة. لقد وضع صديقي السيد توماس ترادلز «اسمه» في مناسبتين -إذا كان بإمكاني استخدام هذا التعبير الشائع، حيث دون اسمه في سندات صرف خاصة بإيجار محل إقامتي. تعرض السيد توماس ترادلز في المرة الأولى- دعني أقول باختصار - لصدمة أمام هذا الدين. أما الدين الثاني فلم يحن موعد سداده بعد. كان المبلغ الأول المستحق...». وهنا أشار السيد ميكوبر بعناية إلى أوراق أمامه، ثم قال: «أحسب أنه ثلاثة وعشرون جنيهًا، وأربعة شلنات، وتسعة بنسات ونصف، أما مقدار الدين الثاني وفقًا لأوراقي المدونة، فيبلغ ثمانية عشر جنيهًا، وستة شلنات، وبنسين. وهذه المبالغ مجتمعة، تصل إجمالًا -إذا كان حسابي صحيحًا- إلى واحد وأربعين جنيهًا، وعشرة شلنات، وأحد عشر بنسًا ونصف. وأفضل أن يقدم صديقي كوبرفيلد معروفًا لي فيتحقق من هذا المجموع».

راجعت الحساب ووجدته صحيحًا.

قال السيد ميكوبر: «إن مغادرة هذه المدينة، ومفارقة صديقي السيد توماس ترادلز، من دون تبرئة ذمتي من الجزء المالي المتعلق بهذا الالتزام، هما أمران سيؤثران عليَّ إلى حد لا يحتمل. لذلك، فقد

أعددت الأمر لصديقي السيد توماس ترادلز، وأنا أحمل بين يدي الآن وثيقة تحقق الهدف المنشود، فأرجو أن أسلم لصديقي السيد توماس ترادلز إقرارًا شخصيًّا بأنني أدين له بمبلغ وقدره واحد وأربعون جنيهًا، وعشرة شلنات، وأحد عشر بنسًا ونصف. ويسعدني أن أستعيد كرامتي بهذا الإقرار، وأن أستطيع المشي منتصب القامة مرة أخرى أمام رفقائي الرجال».

وبعد هذه المقدمة التي أثرت على السيد ميكوبر تأثيرًا بالغًا، وضع بياناته على الإقرار وأسلمه إلى يد ترادلز، وقال إنه يرجو له التوفيق في سبل الحياة كلها. وإنني على قناعة تامة بأن ما فعله السيد ميكوبر كان بالنسبة إليه مساويًا تمامًا لسداد المال، بل إن ترادلز نفسه لم يفرق بين الأمرين؛ إذ لم تسنح له الفرصة للتفكير. مشى السيد ميكوبر منتصب القامة أمام زميله، بقوة هذا العمل الفاضل، وقد بدا صدره عريضًا مرة أخرى حين أضاء لنا الطريق نزولًا إلى الطابق السفلي. كان وداعنا حارًّا من الجانبين كليهما. اصطحبت ترادلز حتى باب منزله، ثم تمشيت إلى المنزل وحدي، بينما رحت أفكر في أمر من بين الأمور الغريبة والمتناقضة التي تشغلني؛ وهو أنني أدين للسيد ميكوبر بذكريات حانية، لم أزل أحتفظ بها في ذاكرتي إذ كنت نزيلًا عنده، لكنه لم يطلب مني المال قَطُّ. لم أمتلك أدنى شجاعة لرفض أي طلب يطلبه، ولا يخامرني أدنى شك في أنه كان يعرف ذلك – أراني أدون فضله عليَّ، كما فعلت للتوِّ.



الفصل السابع والثلاثون

قليل من الماء البارد

ما إن مر أسبوع على نمط حياتي الجديد، حتى صرت أشد من أي وقت مضى، وأقوى عزمًا أمام القرارات العملية الهائلة التي ترتبت على محنتنا. واصلت السعي مسرعًا إلى غايتي التي أنشدها. حزمت أمري على أن آخذ أموري بأكبر قدر ممكن من الجدية، فأعمل بكامل طاقاتي على تحقيق هدفي. لقد كرَّست نفسي فصارت ضحية لمأربي، حتى إنني فكرت في اتباع نظام غذائي نباتي، متصورًا لسبب غامض أنني عندما أصير مخلوقًا آكلًا للنباتات، فإنني أضحي من أجل دورا.

أما دورا الصغيرة فلم تدرك حتى هذه اللحظة شيئًا عن عزيمتي اليائسة، بخلاف ما تدونه رسائلي إليها فتلقي بظلال على أمري. حل يوم سبت جديد، فتوجهت دورا في المساء إلى منزل الآنسة ميلز. خرج السيد ميلز إلى نادي الويست[1] (أدركت هذه الرسالة وأنا في

---

(١) لعبة بطاقات إنجليزية كلاسيكية، لُعبت على نطاق واسع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

الشارع حين أبصرت قفص الطيور موضوعًا عند النافذة الوسطى لغرفة الاستقبال)، وكان عليَّ الذهاب إلى هناك لاحتساء الشاي.

استقر مقامنا حينها في شارع باكنجهام، حيث واصل السيد دك نسخه للمخطوطات وهو في حالة من السعادة الفائقة. كما أحرزت عمتي انتصارًا بارزًا على السيدة كروب، بعد أن سددت لها مستحقاتها، وألقت الجرة الأولى من النافذة بدلًا من وضعها على الدرج، وبذلك أمَّنت عمتي نفسها من مخاطر الصعود والنزول، وازدادت انتصاراتها في العالم الخارجي. أثارت هذه الإجراءات الصارمة رعبًا شديدًا في نفس السيدة كروب، حتى إنها استقرت في مطبخها الخاص، بعد أن حسبت أن عمتي امرأة مجنونة. لم تبالِ عمتي إلى حد كبير برأي السيدة كروب أو رأي أي إنسان آخر، بل دعمت هذه الفكرة عنها بدلًا من تثبيطها، فما لبثت السيدة كروب التي اتسمت بالجرأة من أيام قلائل، أن صارت وديعة خافتة للغاية، تتحاشى مقابلة عمتي على السلم، وتسعى لإخفاء جسدها البدين خلف الأبواب – وإن كانت تترك هامشًا عريضًا من قماش ثوبها مرئيًّا – أو تنكمش مختبئة في زوايا المبنى المظلمة. منح هذا الأمر لعمتي نوعًا من الرضا لا يوصف، وإني لأحسب أنها استمتعت بالتجول صعودًا وهبوطًا، مرتدية قبعتها التي تعلو قمة رأسها في الأوقات التي يُحتمل أن تظهر فيها السيدة كروب في طريقها.

كانت عمتي أنيقة ومبتكرة بصورة غير عادية، لذا فقد أدخلت عددًا من التحسينات الطفيفة في ترتيب مسكننا، مما جعله يبدو أكثر ثراءً لا

فقرًا. لقد حوَّلت المخزن إلى غرفة لي لتبديل الملابس، واشترت سريرًا وزيَّنته لي، فبدا بالنهار كخزانة الكتب، ثم كسرير إذا ما حل الليل. صرت هدفًا لعنايتها المستمرة، ولم تكن أمي المسكينة لتحبني أكثر من عمتي، ولا أحرص على سعادتي وراحتي منها.

اعتبرت بيجوتي نفسها ذات حظ كبير، إذ سُمح لها بالمشاركة في ترتيبات عمتي لي، وعلى الرغم من أنها لم تزل تحتفظ بشيء من شعورها القديم بالرهبة من عمتي، فقد تلقت الكثير من علامات التشجيع والحث على الثقة بالنفس، حتى صارتا صديقتين رائعتين. إن الوقت قد حان الآن (أتحدث عن يوم السبت عندما كنت أحتسي الشاي عند الآنسة ميلز) لكي تعود بيجوتي إلى المنزل، لتؤدي واجباتها التي تعهدت بها نيابة عن هام، ومن ثَم قالت عمتي لها: «وداعًا يا باركس، اعتني بنفسك، أجزم أنني لم أفكر قَطُّ في أنني قد أكون آسفة، كما أنا آسفة الآن لفراقكِ».

اصطحبت بيجوتي إلى مكتب العربات، وودعتها. بكت عند فراقنا، ثم أوصتني بأخيها كما أوصاني هام قبلها. لم نسمع عنه أي خبر منذ رحيله حتى هذا الأصيل المشمس.

قالت بيجوتي: «أما الآن يا عزيزي ديفي، فإن احتجت إلى أموال لمصروفات تدريبك، أو أردت يا عزيزي أن يدعمك إنسان إلى أن تسلك طريقك (ويجب أن تفعل أي الفعلين، أو كليهما يا حبيبي)، فمن لديه الحق في أن تطلب منه أن يقرضك، غيري أنا؛ تلك الخادمة العجوز الغبية؟!».

لم أكن من الجحود بحيث أتجاهل الرد على كلامها، فقلت لها لو أنني اقترضت أموالًا من أي إنسان، فسيكون أنتِ. وقد قبلت منها مبلغًا كبيرًا على الفور، وأحسب أن هذا الفعل قد منح بيجوتي راحة أكبر من أي شيء يمكن أن أفعله من أجلها.

همست بيجوتي قائلة: «يا عزيزي، أخبر ملاكك الصغير الجميل أنني أحب أن أراها، ولو لدقيقة واحدة، وأخبرها أنني سآتي قبل أن تتزوج ابني، فأنسق منزلكما ليصير جميلًا رائعًا، إذا سمحتما لي».

قلت لها إنني لن أدع أحدًا غيرها يلمسه، فرحت بيجوتي فرحة كبيرة حتى إنها سافرت مبتهجة النفس طيبة الخاطر.

تحاملت على نفسي قدر استطاعتي في عملي في مجلس العموم طوال اليوم، متنقلًا بين عدد متنوع من التخصصات، ثم توجهت في الموعد المحدد إلى الشارع الذي يقيم فيه السيد ميلز في المساء. تكاسل السيد ميلز عن الخروج، فنام بعد أن تناول العشاء، كما أنني لم أبصر قفص الطيور معلقًا في النافذة الوسطى.

انتظرت خروجه لوقت طويل، حتى إنني تمنيت وبشدة أن يوقع النادي عليه غرامة مالية بسبب تأخره. خرج السيد في النهاية، ثم رأيت دورا تعلق قفص الطيور، وتختلس النظر من الشرفة بحثًا عني، ثم ركضت إلى الداخل مرة أخرى بعدما لمحتني، بينما مكث جيب في الخلف ينبح نباحًا ضاريًا إثر كلب هائل لجزار، لو أمسكه لابتلعه كما لو كان حبة دواء.

أقبلت دورا إلى باب غرفة المعيشة لاستقبالي، وأقبل جيب مندفعًا

إلى الخارج، متدحرجًا ومهرولًا ناحيتي ظنًّا منه أنني قاطع طريق. جلسنا جميعًا سعداء ومتحابين قدر الإمكان، لكن سرعان ما حملتُ الخراب إلى أحضان فرحتنا -ليس لأنني قصدت أن أغتم، لكنني كنت ممتلئًا بأمري ففاض كيلي- سألت دورا، من دون أدنى تمهيد للأمر، هل تستطيع أن تحب متسولًا؟

يا لجميلتي الصغيرة، فكيف أذهلت دورا! كان استقبالها الوحيد للكلمة أن اصفر وجهها وتخشبت كما لو أنها طاقية نوم، أو عكازان، أو ساق خشبية، أو كلب يحمل دورقًا في فمه، أو شيء من هذا القبيل، فإذا بها تحدق في وجهي بأروع اندهاش.

سألتني دورا مكفهرة الوجه: «كيف تتجرأ فتسألني عن شيء بهذا الغباء؟ أحب متسولًا!».

قلت: «يا دورا، يا أعز من نفسي، إنني متسول».

أجابت دورا، وهي تصفع يدي: «كيف يمكنك أن تكون بهذا السخف حتى تجلس أمامي وتروي مثل هذه القصص؟ سأنادي جيب كي يعضك».

كانت طريقتها الطفولية أشهى طريقة في العالم في ناظري، لكن كان من الضروري أن أفصح عن أمري، فتحدثت في جد وقلت:

«يا دورا، يا حياتي، لقد أفلس حبيبكِ ديفيد».

قالت دورا وهي تهز جدائلها: «أنذرك بأنني سأنادي جيب ليعضك، إذا بقيت على هذا السخف».

لكنني بدوت جادًّا، حتى توقفت دورا عن هز جدائلها، ثم وضعت يدها الصغيرة المرتعشة على كتفي، وقد بدت خائفة وقلقة في البداية، ثم شرعت في البكاء. كان منظرها مروعًا، فإذا بي أجثو على ركبتيَّ أمام الأريكة لأداعبها وأناشدها ألا تمزق قلبي، ولكنها لم تكف عن البكاء لبعض الوقت، بل لم تفعل دورا الصغيرة المسكينة شيئًا سوى أن صرخت قائلة: «رحماك يا ربي، يا للهول!»، وآهٍ، كم كانت خائفة مذعورة! ولكن أين جوليا ميلز؟! آه، هل أصطحبها إلى جوليا ميلز، وأنصرف بعيدًا؟! رحت أحدث نفسي محتملًا عذابي.

استطعت أن أجعل دورا تنظر نحوي أخيرًا، بعد معاناة من التوسلات والرجاء. اعتلى وجهها تعبير مروع، انقشع عنها تدريجيًّا بعد أن لمست وجهها حتى عاد إلى روعته، ثم لصقت خدها الناعم الجميل بخدي. أخبرتها حينها وقد طوقتها بذراعي، كم أحببتها كثيرًا، وكيف صارت غالية عزيزة، ثم شعرت أنه من عين الصواب أن أعرض عليها التحرر من عهد خطوبتها لأنني صرت فقيرًا الآن. أخبرتها كيف لا أستطيع تحمل الحياة أو استكمالها لو أني فقدتها، وكيف أنني لن أخشى الفقر، إذا لم تخف منه، لأن ذراعي عفية وقلبي قوي بإلهامها. أخبرتها كيف كنت أعمل بشجاعة لم يعلمها سوى العشاق، وكيف بدأت في التفكير في الحياة بوجه عملي، متطلعًا إلى المستقبل. أخبرتها كيف صارت اللقمة المكتسبة بالكد أحلى من وليمة موروثة. حدثتها بأكثر من هذا الكلامَ للغرض نفسه، فإذا بي أُطلِق موجة من بلاغة عاطفية مرتجلة عن كاملها، على الرغم من أنني كنت أفكر في هذا الأمر طوال الليل والنهار، منذ أن

أذهلتني عمتي بالإفصاح عن محنتنا.

قلت بنشوة بعد أن أدركت مدى تشبثها بي: «هل ما زال قلبكِ لي يا عزيزتي؟».

صرخت دورا: «آه، نعم. آه، نعم، إنه بأسره لك. آه، لا تكن فظًّا».

هل أنا فظ؟! مع دورا؟!

قالت دورا وهي تقترب مني: «لا تحدثني عن الفقر والعمل الجاد، آه، لا، لا».

قلت: «يا حبيبتي الغالية، إن اللقمة التي كسبتها عن جدارة بالكد...».

قالت دورا: «نعم بالتأكيد، لكنني لا أريد أن أسمع المزيد عن اللقيمات، ويجب أن يتناول جيب قطعة من اللحم كل يوم في الساعة الثانية عشرة، وإلا سيموت».

لقد فتنت بطريقتها الطفولية الساحرة. شرحت لدورا برفق أن جيب سيحصل على قطعة اللحم كعادته. ورحت أرسم لها صورة لمنزلنا المقتصد، الذي سأقيمه بعملي ودأبي - رحت أرسم هذا المنزل الصغير مستدعيًا صورة المنزل الذي رأيته في هايجيت، وصورة عمتي في غرفتها في الطابق العلوي.

قلت بحنان: «هل ما زلت فظًّا إلى الآن يا دورا؟».

صرخت دورا: «آه، كلا، كلا، ولكن أرجو أن تُبقي عمتك في غرفتها دومًا. وآمل ألا تكون عجوزًا مؤنِّبة».

إذا استطعت أن أحب دورا أكثر من أي وقت مضى، فإني متيقن من أنني أحببتها بهذه الصورة حينها، إلا أنني أحسست أنها ليست واقعية أو عملية. لقد أضعفت حماستي الجديدة الغضة، بعد أن أدركت صعوبة بالغة في استثارة حماستها والتواصل معها. حاولت معها مرة أخرى بعدما استردت هدوءها، فراحت تفرك أذني جيب وهو مستلقٍ على حجرها. اتخذت هيئة جادة، وقلت:

«حبيبتي، هل تأذنين لي بقول شيء؟».

قالت دورا بدلال: «آه، من فضلك لا تكن عمليًّا، لأن ذلك يخيفني جدًّا».

قلت: «يا حبيبة قلبي، ليس في هذا كله ما يثير قلقكِ. أريدكِ أن تفكري في الأمر بشكل مختلف تمامًا. أريد أن تقوي هذه الأمور أعصابكِ، وتلهمكِ حسن التصرف يا دورا».

صرخت دورا: «آه، لكن هذا أمر صادم للغاية».

قلت: «لا يا حبيبتي، إن المثابرة وقوة الشخصية ستمكننا من تحمل أشياء أسوأ من ذلك بكثير».

قالت دورا وهي تهز جدائل شعرها: «لكنني لست قوية على الإطلاق؛ هل أنا قوية يا جيب؟ آه، فلتُقبل جيب، ولتكن لطيفًا».

كان من المستحيل أن أقاوم تقبيل جيب، بعدما رفعته إليَّ وقربته لهذا الغرض، ومطت فمها الصغير المشرق الوردي ليتخذ هيئة التقبيل، حيث وجهتني إلى هذا الفعل، وأصرت على إجرائه بالشكل المتماثل

لها، فأقبله وسط رأسه، فوق أنفه تحديدًا. فعلت ما أمرتني به -مكافئًا نفسي بعد طاعتي لها بقبلة منها- فإذا بها تسحرني فتسلب سمات جسدي الجادة، من دون أن أدري كم لبثت.

قلت: «لكن، يا دورا، يا حبيبتي، لقد أردت أن أذكر شيئًا».

حتى أعتى قضاة المحكمة قد يقع في حبها، لو أبصرها حين طوت يديها الصغيرتين ورفعتهما متوسلة وراجية ألا أصير مروِّعًا بعد الآن.

قلت لها بنبرة تأكيد: «لن أروعكِ بكل تأكيد يا عزيزتي، لكن لو أنكِ يا دورا يا حبيبتي تحملين نفسكِ على التفكير في بعض المواقف - من دون يأس، كما تعلمين، بعيدًا عن الحزن - فكري في أنكِ - فقط لتشجيع نفسكِ - مخطوبة لرجل فقير...».

صرخت دورا مقاطعة: «لا تقل هذا، إنه أمر مروع للغاية».

قلت بمرح: «يا روحي الغالية، الأمر ليس مروعًا على الإطلاق، لو أنكِ ستفكرين لبعض الوقت، فإنكِ ستشرفين بين الحين والآخر على التدبير المنزلي في بيت والدكِ، وتسعين لاكتساب القليل من المهارات؛ كالحساب على سبيل المثال».

تلقت دورا الصغيرة المسكينة هذا الاقتراح بانفعال يمزج بين النحيب والصراخ.

تابعت كلامي فقلت: «... سيكون الأمر مفيدًا جدًّا لنا فيما بعد. فإذا وعدتِني بالقراءة قليلًا في كتاب طهي صغير سأرسله إليكِ، لكان خيرًا لكل منا». استطردت حديثي في نوع من الحماسة فقلت: «لقد صار

طريقنا في الحياة صلبًا ووعرًا يا دورا، وعلينا أن نمهده لخطانا. يجب أن نكافح حتى نسير إلى الأمام ونتحلى بالشجاعة، فأمامنا من العقبات ما يستوجب علينا مواجهتها وسحقها».

كنت أسترسل وأخوض في حديثي بحماسة بالغة، ولكني أدركت أنه من غير الضروري المضي قدمًا. لقد قلت ما يكفي، وها هي خائفة مرة أخرى. آه، كم كانت خائفة مذعورة! ولكن أين جوليا ميلز؟! آه، هل أصطحبها إلى جوليا ميلز، وأنصرف بعيدًا؟! باختصار، صرت مشتتًا تمامًا، أجول ذهابًا وإيابًا مهتاجًا في غرفة الاستقبال.

ظننت أنني قتلتها رعبًا هذه المرة، فرحت أنثر الماء على وجهها. جثوت على ركبتيَّ، ونتفت شعري. لقد وسمت نفسي بالوحش الضاري، الوحش الذي لا يرحم. ناشدتها المغفرة. توسلت إليها أن تتطلع نحوي. هجمت على صندوق أدوات الآنسة ميلز لأبحث فيه عن زجاجة عطر. كان ذهني مشتتًا فالتقطت حاوية إبر عاجية بدلًا من العطر، وأسقطت كل الإبر فوق دورا. رحت أهز قبضة يدي في وجه جيب، فقد كان مسعورًا هائجًا مثلي. أقبلت على كل انفعال وحشي يمكنني القيام به، متجاوزًا حدود العقل والمنطق حتى دخلت الآنسة ميلز الغرفة.

صاحت الآنسة ميلز، منكبة على مساعدة صديقتها: «مَن فعل هذا بها؟».

أجبتها قائلًا: «أنا يا آنسة ميلز، لقد فعلت ذلك، انظري إلى هذا المخلوق المدمر أمامكِ» - أو قلت كلمات بهذا المعنى، ثم حجبت وجهي عن الضوء مستعينًا بوسادة الأريكة.

ظنت الآنسة ميلز في البداية أن شجارًا وقع بيننا، وأننا نقترب من تخوم صحراء الهجر، لكنها سرعان ما اكتشفت حقيقة الأمور، بعد أن احتضنتها دورا الصغيرة الحنون، وراحت تصرخ قائلة إنني «عامل فقير»، ثم بكت على حالي واحتضنتني، وسألتني هل أسمح لها أن تعطيني أموالها كلها لأحتفظ بها، ثم هوت معانقة الآنسة ميلز، وهي تبكي كما لو أن قلبها الرقيق قد تحطم.

لا بد أن الآنسة ميلز ولدت لتكون نعمة وإنعامًا علينا. لقد فهمت مني بكلمات موجزة حقيقة ما يدور، وراحت تعزي دورا، ثم أقنعتها تدريجيًّا أنني لست عاملًا - أظن أن دورا فهمت من طريقتي في توضيح وضعي أنني ملاح، أرنو إلى توازن جسدي فوق الأمواج، أسير على لوح خشبي طوال اليوم دافعًا عربة يدوية - وهكذا وفقت الآنسة ميلز بيننا في سلام. ظللتنا السكينة تمامًا، فصعدت دورا لتضع بعض ماء الورد على عينيها فترطبهما، ودقت الآنسة ميلز الجرس معلنة عن وقت احتساء الشاي. أخبرت الآنسة ميلز في هذه الفسحة من الوقت أن مكانتها وصداقتها ارتفعتا في نظري، وأن نبض قلبي حتمًا سيتوقف لو أنني نسيت يومًا كرمها وعطفها.

رحت أشرح للآنسة ميلز بعد ذلك ما حاولتُ، من دون جدوى، أن أشرحه لدورا. ردت الآنسة ميلز أنها ترى من حيث المبدأ العام، أن كوخًا من الرضا خير من قصر فخم بارد، وأنه إن وُجد الحب، وُجد كل شيء.

قلت للآنسة ميلز إنها محقة تمامًا، وأقدر على فهم هذا الأمر أفضل مني، وأنا الذي أحب دورا حبًّا لم يسبق أن اختبره عاشق حتى الآن، لكن

الآنسة ميلز علقت في يأس قائلة إنها ودت لو أدركت بعض القلوب حقيقة هذا الشعور، فأوضحت لها أنني قصدت التعليق على الأحياء من الذكور من بني جنسي.

وجَّهت حديثي إلى الآنسة ميلز، فسألتها عما إذا كانت ترى أي ميزة عملية في الاقتراح الذي كنت حريصًا على طرحه على دورا، من تعلم الحسابات، والتدبير المنزلي، وقراءة كتاب الطهي؟

كانت هذه هي إجابة الآنسة ميلز بعد تفكير:

«سأكون واضحة معك يا سيد كوبرفيلد. إن المعاناة العقلية وآلام التجربة تحل عند البعض محل الطبائع وخبرة السنين، وسأكون صريحة معك كما لو أنني رئيسة دير. أقول لك لا، إن اقتراحك لا يناسب دورا التي نعرفها. إن دورا العزيزة ابنة مدللة للطبيعة. إنها نوع من الإشراق، والنسيم، والمرح. سأكون على راحتي معك فأعترف لك بأنه لو كان من الممكن تنفيذ اقتراحك، فقد تصير الأمور بخير، لكن...»، ثم هزت الآنسة ميلز رأسها.

لقد شجعني إقرار الآنسة ميلز الأخير على سؤالها عن أمر دورا، فهل تتوافر لديها أي فرصة لجذب انتباهها إلى مثل هذه الاستعدادات لخوض حياة جادة، وهل سيعود عليها الأمر بفائدة؟ ردت الآنسة ميلز على هذا السؤال بالإيجاب. رحت أطلب منها أن تتولى مسؤولية كتاب الطهي بنفسها. وإذا استطاعت أن تقنع دورا بقبول الأمر من دون أن تخيفها، فإنها بذلك ستسدي إليَّ خدمة جليلة. قبلت الآنسة ميلز هذا الأمر أيضًا وتعهدت لي بذلك، لكنها لم تكن متفائلة.

عادت دورا إلينا، وقد بدت مخلوقًا صغيرًا بديعًا، حتى إنني شككت حقًّا فيما إذا كانت بحاجة إلى أن تزعج نفسها بمثل هذه الأمور التقليدية. راحت تلاطفني بحب، وقد لاحت لناظري آسرة للغاية (خاصة عندما جعلت جيب يقف على رجليه الخلفيتين ليتناول الخبز المحمص، وعندما تظاهرت بإمساك أنفه أمام إبريق الشاي الساخن لمعاقبته على رفضه الانصياع لأوامرها). شعرت أنني وحش ضارٍ قد تسلل إلى داخل تعريشة جِنِّية، حين تذكرت أنني أفزعتها وجعلتها تبكي.

ما إن انتهينا من الشاي حتى التقطنا الجيتار، فراحت دورا تغني تلك الأغاني الفرنسية القديمة المحببة إليها، والتي تدور حول استحالة ترك الرقص في أي يوم من الأيام. أما أنغامها «لا را لا، لا را لا»، فقد جعلتني أحس أنني أكثر وحشية من ذي قبل.

لم ينغص علينا سوى شيء واحد، كان قد وقع قبل انصرافي بفترة وجيزة، إذ ألمحت الآنسة ميلز ببعض الإشارات إلى صباح الغد، فقلت إنني مضطر لسوء الحظ إلى بذل نفسي في هذه المرحلة، لأستيقظ في الخامسة فجرًا. لا يسعني أن أجزم بأن دورا ظنت أنني أعمل حارسًا خاصًا، لكن قولي كان قد ترك انطباعًا طاغيًا عليها، فتوقفت عن العزف والغناء.

ظل الأمر عالقًا في ذهنها حتى قمت لأودعها، فقالت لي - بطريقتها البديعة في الإقناع الجميلة - كما لو أنني دمية، هكذا اعتدت أن أفكر في نظرتها لي:

«أما الآن فلا تستيقظ في الساعة الخامسة أيها الفتى المشاغب، إنه أمر غير منطقي على الإطلاق».

قلت: «يا حبيبتي، يجب أن أقوم بعملي».

عادت دورا: «ولكن لا تستيقظ في هذا الوقت، لماذا عليك أن تفعل ذلك؟».

كان من المستحيل أن أجيب هذا الوجه الجميل المندهش، من دون إبداء الخفة والمرح، والقول بأننا يجب أن نعمل لكي نعيش.

صرخت دورا: «آه، كم هذا سخيف!».

قلت: «كيف نعيش من دون عمل يا دورا؟».

قالت دورا: «كيف؟ قل لي كيف؟!».

ظنت أنها حسمت إجابة هذا الإشكالية تمامًا، ومن ثَم أعطتني قبلة صغيرة منبعثة مباشرة من قلبها البريء المنتصر، حتى إنني ما كنت لأزحزح عنها غرورها بإجابتها ولو في مقابل ثروة ضخمة.

حسنًا، لقد أحببتها، وواصلت الخوض في حبها في متعة من التفاني الكامل. إلا أنني لم أتغافل عن الجد في العمل، بل شاركت في كثير من المجالات المختلفة، وحين أجلس مستريحًا في الليل في مقابل عمتي، أفكر كيف أخفتُ دورا في ذاك الوقت، وكيف كان من الأفضل لو شققت طريقي حاملًا الجيتار متخللًا غابة المحن، إلى أن تصورت أن رأسي قد شاب.



الفصل الثامن والثلاثون

حل الشراكة

لم أسمح لقرار تدوين المناقشات البرلمانية أن يفتر. لقد كان واحدًا من المجالات التي سعيت إلى خوض غمارها على الفور، إذ أبقيت شغفي به متقدًا، ورحت أطرق عليه ساخنًا بمثابرة، زهوت بها أمام نفسي بصدق. اشتريت كتابًا معتمدًا يشرح فن التدوين وأسرار الاختزال[١] (كلفني عشرة شلنات وستة بنسات)، وانغمست في بحر مضطرب حتى رسوت في غضون أسابيع قليلة على حافة الجنون. كانت النقاط ترمز إلى معانٍ متباينة تتنوع من موضع إلى آخر؛ تُكتب في موضع ما فتعني شيئًا، وتُكتب في آخر فيتغير مدلولها تمامًا، وكذلك تنقلب دلالات الدوائر انقلابًا مدهشًا، وتختلف المعاني والاستدلالات التي تنتج عن علامات تشبه أرجل الذباب، وكذلك تحدث تغيرات هائلة في المعنى في حالة كتابة قوس في غير مكانه. لم يزعجني كل هذا في ساعات يقظتي فحسب، بل راحت العلامات تظهر في نومي

---

(١) أسلوب كتابة سريعة يعتمد الرموز أو المختصرات بدلاً من الحروف أو الكلمات أو الجمل.

وأحلامي. رحت أتلمس طريقي متخبطًا بين هذه المصاعب كالأعمى، وما إن تمكنت من إتقان أبجدية الاختزال، التي لم تختلف عن دراسة متاهات معبد فرعوني، حتى لاحت أمامي مواكب من الأهوال الجديدة، تسمى الرموز الشائعة، ولم أعرف رموزًا أكثر استبدادًا ولا أشد وطأة على الإطلاق. وعلى سبيل المثال، كان أحد الرموز يشبه بداية نسيج العنكبوت ويعني التوقع، وآخر يشبه صاروخًا أو قلمًا ومحبرة ويرمز إلى أن هذا الأمر غير مهم. وثبت هذه الرموز الشائعة البائسة في ذهني، فإذا بها تطرد منه كل ما عداها، ومن ثَم رحت أبدأ من جديد. كنت أنساها، ثم أستعيدها، ثم تسقط رموز غيرها عن ذاكرتي؛ باختصار، كان الأمر مفجعًا حقًّا.

كان الأمر مفجعًا، لكن دورا كانت بمثابة مرسى لزورقي الهائم بين العواصف، ومربط حبالي المعقودة في غابة المحن التي واصلت تقطيع أشواكها، واحدة تلو الأخرى، بعزيمة متقدة، حتى إنني في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر كنت أمام تجربة لكتابة خطابات نواب مجلس العموم المفوهين. لن أنسى أبدًا كيف ابتعد هذا الخطيب عني قبل أن أبدأ في تدوين كلامه، تاركًا قلمي المرتبك يترنح حول الورقة كما لو كان أنه في نوبة جنون.

لم تثمر هذه المحاولة، وكان الأمر واضحًا تمامًا لي. كنت أحلق عاليًا في فضاء لم ينبغِ لي أن أرنو إليه قَطُّ. ولذلك فإنني لجأت إلى ترادلز طلبًا لمشورته، فاقترح أن يملي عليَّ بنفسه الخطب ببطء وبسكنات طويلة تتوافق مع ضعفي. كم كنت ممتنًّا لمساعدته الودية،

ومن ثَم قبلت هذا الاقتراح. انقضت الليالي، بل لم تمضِ ليلة تقريبًا، من دون أن نعقد برلمانًا خاصًا لفترات طويلة في شارع باكنجهام، بعد عودتي من منزل الدكتور.

وددت لو أرى مثل هذا البرلمان في أي مكان آخر. لقد مثلت عمتي والسيد دك الحكومة تارة والمعارضة تارة أخرى (بحسب ما يقتضيه الموقف)، أما ترادلز فراح يُجسد المتحدثين في إنفيلد، أو مجموعة من الخطب البرلمانية، ممن وجهوا انتقادات مدهشة ضدهم. وقف ترادلز بجانب الطاولة، مشيرًا بإصبعه إلى موضع صفحة خطابه، وناشرًا ذراعه اليمنى فوق رأسه، مجسدًا السيد بت، أو السيد فوكس، أو السيد شريدان، أو السيد بارك، أو اللورد كسلري، أو السيد سدموث، أو السيد كانينج، فينطلق في أشد الاحتجاجات عنفًا، ليقدم أبشع الإدانات وأغلظ صنوف التشهير لعمتي والسيد دك لإسرافهما وفسادهما. أما أنا فكنت أجلس على مسافة قصيرة، ساندًا دفتري فوق ركبتي، لألاحقه بكل ما أوتيت من قوة. كان عدم اتساق وتهور ترادلز يضاهيان ما يفعله أي سياسي حقيقي، فلم يكن ينقضي أسبوع حتى ينقلب في منهجه وسياسته، فيغدو إلى مسارات شتى رافعًا أعلامًا متباينة على ساريات شتى. كانت عمتي تشبه إلى حد كبير وزير مالية جامد، لا تتدخل مقاطعة بأي كلمة إلا لمرة أو اثنتين قائلة كلمات مثل «مرحى» أو «لا»، أو «آه» تبعًا لما يتطلبه سياق الخطاب، وكانت مثل هذه الكلمات إشارة دائمة إلى السيد دك (رجل الريف المثالي) ليتبعها مرددًا الصيحة نفسها. ظل السيد دك يطالب بمثل هذه الأشياء خلال مسيرته البرلمانية، وصار

مسؤولًا عن عواقبها الوخيمة، مما جلب له نوعًا من الارتباك. أظن أن خوفًا انتابه من أنه قد فعل شيئًا ما من شأنه إبادة الدستور البريطاني، أو تدمير البلاد.

رحنا نتابع هذه المناقشات في كثير من الأحيان حتى منتصف الليل، أو إلى أن تذبل الشموع. كان لكثرة هذه التدريبات أثرًا جيدًا، إذ بدأت في مواكبة ترادلز بشكل معقول، وكان الأولى بي أن أستشعر لذة الانتصار لولا أنني لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن موضوع ملاحظاتي. أما الرموز التي دونتها، فكانت أشبه بنسخ من نقوش صينية على مجموعة هائلة من صناديق الشاي، أو أحرف ذهبية مدونة على زجاجات حمراء وخضراء كبيرة كالتي توضع في متاجر الكيميائيين.

لم أستطع شيئًا سوى التقهقر إلى الوراء والبدء من جديد. كان الأمر صعبًا للغاية، بل رجعت أدراجي بقلب مثقل مهموم، وبدأت في العمل بجد ومنهجية على الأرض المملة ذاتها بخطى حلزون، فرحت أتوقف لفحص كل بقعة في طريقي بدقة، فأتفقد المسارات جميعها، وأبذل قصارى جهدي لتمييز هذه الرموز المراوغة أينما قابلتها. كنت ملتزمًا عادتي بموعد ذهابي إلى المكتب، وبموعدي مع الدكتور أيضًا. عملت بجد شديد، أو كما يقول التعبير الشائع، مثل حصان يجر عربة. توجهت ذات يوم إلى مجلس العموم كعادتي، فالتقيت بالسيد سبنلو عند الباب وقد بدا جادًّا عابسًا، يتحدث إلى نفسه. كان معتادًا على الشكوى من آلام في رأسه - كان عنقه قصيرًا جدًّا، وأظن أنه كان يفرط في تناول الطعام - وكنت أخشى في البداية أن يكون مرضه متعلقًا بسمنته، إلا أنه سرعان ما بدد قلقي.

لم يرد السيد سبنلو عليَّ بلطفه المعتاد حين بادرته قائلًا: «صباح الخير»، بل نظر إليَّ بفتور، وطلب مني ببرود أن أرافقه إلى مقهى بعينه، وكان له في تلك الأيام باب يؤدي إلى مبنى المكاتب، داخل ممر صغير من كنيسة القديس بولس. امتثلت لأوامره وأنا في غاية الارتباك، محمومًا، كما لو أن براعم مخاوفي على وشك الانفجار. سمحت له بالمضي قدمًا ليتقدمني قليلًا، بسبب ضيق الطريق، فلاحظت أنه يترنح برأسه في هيئة لا تبشر بخير، مما زاد عقلي اضطرابًا وشكًّا في أنه قد اكتشف أمري مع حبيبتي دورا.

لو أنني لم أخمن هذا الاكتشاف، ونحن في طريقنا إلى المقهى، لم أكن لأفشل في إدراك الأمر بعدما تبعته إلى غرفة في الطابق العلوي، فوجدت الآنسة مردستون جالسة وخلفها خزانة جانبية، كانت عبارة عن عدة أكواب مقلوبة تحتوي على الليمون، واثنين من تلك الصناديق الاستثنائية مسنودة إلى الزوايا والأركان لغرس السكاكين والشوك داخلها. ومن حسن حظ البشرية أن الزمن قد عفا عليها الآن.

مدت الآنسة مردستون إليَّ أظافر أصابعها الباردة، وجلست متخشبة جامدة للغاية. ثم أغلق السيد سبنلو الباب، وأشار إليَّ بالجلوس، بينما ظل واقفًا إلى جانب المدفأة.

قال السيد سبنلو: «أرجو يا آنسة مردستون أن تتفضلي بإخراج ما في جعبتكِ للسيد كوبرفيلد».

أحسب أن جعبتها بالقسوة نفسها التي عهدتها في طفولتي، والتي تفترس مثل عضة هوجاء. ضغطت الآنسة مردستون على شفتيها،

بالتوّازي مع إخراج ما في حقيبتها التي فتحتها في الوقت ذاته مع فتح فمها قليلًا - وأخرجت رسالتي الأخيرة إلى دورا، التي تعج بتعابير المحبة والوفاء.

قال السيد سبنلو: «أظن أن هذا خطك يا سيد كوبرفيلد؟».

صرت ملتاعًا محمومًا، وكان الصوت الذي أصدرته مختلفًا تمامًا عن صوتي، حين قلت: «إنه كذلك يا سيدي».

تحدث السيد سبنلو بعد أن أخرجت الآنسة مردستون من حقيبتها ثلة من رسائلي، مربوطة على هيئة دائرية بأغلى الشرائط الزرقاء، فقال: «إذا لم أكن مخطئًا، فهذه أيضًا بقلمك يا سيد كوبرفيلد؟».

تناولتها منها بارتباك مروع، وألقيت نظرة خاطفة على بعض العبارات الظاهرة أعلاها، مثل: «دورا يا أعز إنسانة على الإطلاق»، و«يا ملاكي الحبيب الغالي»، و«يا حبيبتي المباركة إلى الأبد»، وما شابه ذلك من عبارات، فاحمر وجهي خجلًا وأطرقت برأسي بعيدًا.

قال السيد سبنلو بلهجة باردة، بعد أن أعدت إليه الرسائل بطريقة آلية: «لا، شكرًا لك، لن أحرمك منها. هلا تفضلتِ بالمضي قدمًا يا آنسة مردستون».

راحت هذه المخلوقة اللطيفة، بعد لحظة استقصاء نظرت فيها نحو السجادة، تتحدث بلهجة جافة على النحو التالي: «يجب أن أعترف أن شكوكًا راودتني لبعض الوقت حول مشاعر الآنسة سبنلو تجاه ديفيد كوبرفيلد. ورحت ألاحظ الآنسة سبنلو وديفيد كوبرفيلد بعد أن التقيا

للمرة الأولى، فإذا بانطباعي عن الأمر حينها لم يكن مقبولًا. إن فساد قلب الإنسان ...».

قاطعها السيد سبنلو قائلًا: «أرجوكِ يا سيدتي، فلتقتصري على ذكر الحقائق».

حولت الآنسة مردستون عينيها، ثم هزت رأسها كما لو كانت تحتج على هذه المقاطعة غير اللائقة، وقد استأنفت كلامها عابسة فقالت:

«بما أن حديثي يقتصر على ذكر الحقائق، فسوف أذكرها بأكبر قدر ممكن من الجفاء. ربما يصير هذا المسار مقبولًا. لقد قلت يا سيدي منذ قليل، إن شكوكًا راودتني لبعض الوقت حول مشاعر الآنسة سبنلو تجاه ديفيد كوبرفيلد. لقد حاولت مرارًا العثور على إثبات حاسم يقطع الشك باليقين، لكن من دون جدوى، ولذلك فإنني امتنعت عن ذكر هذه الهواجس لوالد الآنسة سبنلو». نظرت إليه في صرامة، واستطردت تقول: «لمعرفتي بمدى ضآلة حكمة التصرف في مثل هذه الحالات، ونكران أداء الواجب بضمير حي».

بدا أن السيد سبنلو خائف متململ أمام الصرامة المهذبة لأسلوب الآنسة مردستون، وقلل من شدة لهجتها بإيماءة صغيرة بيده تبعث على الصلح.

تابعت الآنسة مردستون كلامها بصوت ساخر قائلة: «وعند عودتي إلى نوروود، بعد فترة من الغياب بسبب زواج أخي، وبعد عودة الآنسة سبنلو من زيارتها لصديقتها الآنسة ميلز، أتاحت لي تصرفات الآنسة

سبنلو مجالًا للشك يفوق شكوكي الماضية. لذلك رحت أراقب الآنسة سبنلو عن كثب».

يا لعزيزتي دورا الصغيرة الرقيقة، كيف لم تنتبه إلى عين التنين؟!

أردفت الآنسة مردستون قائلة: «لم أجد دليلًا حتى الليلة الماضية. بدا لي أن الآنسة سبنلو قد تلقت الكثير من الرسائل من صديقتها الآنسة ميلز. إلا أن الآنسة ميلز كانت صديقة لدورا تحت غطاء من موافقة كاملة من والدها». كانت هذه ضربة قوية أخرى وجهتها إلى السيد سبنلو. أكملت: «لم يكن لي أن أتدخل في هذا الأمر. وإذا لم يُسمح لي بالتلميح إلى فساد القلب البشري، فيجوز لي على الأقل -بل يجب السماح لي الآن- بالإشارة إلى وضع الثقة في غير محلها».

تمتم السيد سبنلو معتذرًا وموافقًا.

تابعت الآنسة مردستون: «لاحظت الليلة الماضية بعد تناول الشاي، أن الكلب الصغير بدأ يتدحرج ويهدر حول غرفة الاستقبال، وهو يحمل شيئًا بين فكيه». قلت للآنسة سبنلو: «يا دورا، ما الذي يحمله هذا الكلب بين فكيه؟ إنها ورقة». تحسست الآنسة سبنلو فستانها على الفور، ثم أطلقت صرخة مباغتة، وركضت متجهة نحو الكلب. تدخلت وقلت: «يا دورا، يا حبيبتي، يجب أن تسمحي لي برؤيتها».

ويحك يا جيب، أيها الذليل البائس! أهذا الغم من عملك إذن؟!

قالت الآنسة مردستون: «لقد حاولت الآنسة سبنلو رشوتي بالقبلات، وإلهائي بصناديق الحياكة، وبعض قطع المجوهرات الصغيرة - قد ترفعت عن هذا بالطبع. تراجع الكلب الصغير تحت

الأريكة بعد اقترابي منه، ولكني استطعت بصعوبة بالغة إخراجه من مكانه بمساعدة مكواة ملتهبة. ظل محتفظًا بالرسالة في فمه بعد أن طردته من مكانه. سعيت لأخذها منه، على الرغم من وجود خطر وشيك من تعرضي للعض، فقد أمسك بالرسالة بين أسنانه بإصرار شديد، حتى إن جسده ظل معلقًا في الهواء وأنا ممسكة بالرسالة. حصلت عليها في نهاية المطاف، وبعد الاطلاع عليها، أدركت أن الآنسة سبنلو تحتفظ بالعديد من هذه الرسائل، واستطعت في النهاية أن أحصل منها على رزمة الرسائل التي صارت الآن في يد ديفيد كوبرفيلد».

توقفت هنا عن الكلام. وأغلقت حقيبتها مرة أخرى، وكذلك أغلقت فمها. بدا أنها من الممكن أن تنكسر، لكنها لن تنحني أبدًا.

قال السيد سبنلو وهو يستدير إليَّ: «ها قد سمعت الآنسة مردستون. فهل من الممكن أن أسألك يا سيد كوبرفيلد، إذا كان لديك أي شيء للرد على ما قالته؟».

لاح لخاطري صورة كنز قلبي الصغير الجميل، وهي تبكي وتنتحب طوال الليل، مفكرة في كونها وحيدة، وخائفة وبائسة، بعد أن توسلت وناشدت تلك المرأة ذات القلب الصخري لتسامحها. كانت قد منحتها تلك القبلات، وصناديق الحياكة، والحلي، من دون جدوى. أتصورها تنتحب أمام هذه المحنة القاسية التي مرت بها لأجلي. أضعفت صورتها من جأشي الواهن الذي تمكنت من حشده وحاولت الحفاظ عليه. وأخشى أن رعشة قد انتابتني لدقيقة أو نحو ذلك، على الرغم من أنني بذلت قصارى جهدي لإخفائها.

قلت: «لا يوجد شيء يمكنني قوله يا سيدي، إلا أن اللوم كله يقع على عاتقي. أما دورا...».

قاطعني والدها بوقار: «فلتدعوها بالآنسة سبنلو من فضلك».

واصلت كلامي بعد أن ابتلعت هذا التوجيه البارد، فقلت: «... استحثتني وأقنعتني، فوافقت على إخفاء الأمر، وإني لآسف عليه».

قال السيد سبنلو، وهو يمشي جيئة وذهابًا على السجادة المبسوطة جوار المدفأة، مؤكدًا ما قاله بجسده كله بدلًا من رأسه، بسبب تصلب ربطة عنقه وظهره: «إنك الملام أشد اللوم يا سيدي، لقد قمت بعمل خفي وغير لائق يا سيد كوبرفيلد. لقد اصطحبت رجلًا نبيلًا إلى منزلي، بغض النظر عما إذا كان في التاسعة عشرة أو التاسعة والعشرين أو التسعين من عمره، فإني قد اصطحبته إلى هناك بنفس واثقة. إذا أساء إلى ثقتي، فإنه ارتكب فعلًا مشينًا يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «أؤكد لك أنني أشعر بذلك يا سيدي. لكنني لم أفكر في الأمر من هذه الناحية من قبل. إنني - مع خالص تقديري، بصراحة، وفي واقع الأمر يا سيد سبنلو، لم أفكر في ذلك من قبل. إنني أحب الآنسة سبنلو إلى الحد ...».

قال السيد سبنلو بعد أن احمر وجهه خجلًا: «صه، كلام فارغ، أرجوك لا تقل لي في وجهي إنك تحب ابنتي يا سيد كوبرفيلد».

رحت أحدثه في مذلة، فقلت: «وهل يمكن الدفاع عن سلوكي إذا لم أكن أحبها يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو بعد أن توقف: «هل يمكنك الدفاع عن سلوكك إذا أقررت بذلك يا سيدي؟ هل فكرت في سنك، وسن ابنتي يا سيد كوبرفيلد؟ هل فكرت في عواقب تخطي الثقة التي يجب أن تبقى بيني وابنتي؟ هل فكرت في مكانة ابنتي في الحياة، والمشاريع التي أفكر فيها لمستقبلها، ومخالفتها لوصيتي لها؟ هل فكرت في أي شيء من هذا يا سيد كوبرفيلد؟».

أجبته، متحدثًا إليه باحترام وحزن معًا: «أخشى أن أقول إنني لم أفكر في الأمر يا سيدي، لكن أرجو أن تصدقني، لقد فكرت في موقفي من الحياة. لقد شرحت ذلك لك، لقد كنا مرتبطين بالفعل عندما...».

تحدث السيد سبنلو بصورة لم أعهدها من قبل، فكان كالمتأثر بشراب البانش، يضرب كفًّا بكف - لم أستطع منع نفسي من ملاحظة هذا الانفعال وإن كنت مغمومًا، فقال: «أرجوك، لا تتحدث معي عن الارتباط يا سيد كوبرفيلد».

ضحكت الآنسة مردستون التي لم تحرك ساكنًا بخلاف ما أبدته من احتقار.

بدأت الحديث مرة أخرى، مستبدلًا بأشكال التعبير غير المستساغة له، أخرى جديدة، فقلت: «شرحت لك موقفي المتغير يا سيدي، فكان هذا الإخفاء الذي قدت إليه الآنسة سبنلو قد بدأ يؤرقني. ومنذ أن تغيرت ظروفي صرت تحت وطأة إجهاد عصبي مروع، بذلت كل طاقتي لتحسينه. إنني متأكد من أنني سأحسن ظروفي في وقت مناسب. هل ستمنحني الوقت، أي فترة زمنية طويلة؟ فكلانا لم يزل صغير السن يا سيدي ...».

قاطعني السيد سبنلو، وأومأ برأسه عدة مرات، ثم تحدث عابس الوجه فقال: «إنك على حق، كلاكما صغير جدًّا. إن كل ما جرى محض هراء، ويجب أن نضع حدًّا له. ارمِ هذه الرسائل بعيدًا واحرقها في النار. أعطني رسائل الآنسة سبنلو لأحرقها في النار، وعلى الرغم من أن تعاملنا المستقبلي يجب، كما تعرف، أن يقتصر على العمل في مجلس العموم هنا، فإننا سنتفق على عدم ذكر الماضي مرة أخرى. تعالَ يا سيد كوبرفيلد، إنك لست من معدومي الإحساس، وهذه هي الحدود المعقولة».

كلا. لم أقتنع بهذه الفكرة ولم أستطع قبولها. كنت آسفًا ندِمًا، لكن ثمة اعتبارات أكبر من العقل. إن الحب فوق كل الاعتبارات الأرضية، لقد أحببت دورا حب عبادة، كما أحبتني تمامًا. لم أقل ذلك بالضبط، بل خففت وطأته قدر استطاعتي، لكني ضمَّنته هذه المعاني، وصممت عليه. لا أظن أنني تحدثت بلهجة سخيفة للغاية، لكنني أعلم أنني كنت حازمًا في قولي.

قال السيد سبنلو: «حسنًا يا سيد كوبرفيلد، يجب أن أجرب نفوذي مع ابنتي».

تكلمت الآنسة مردستون، بصوت معبر، بعد شهيق طويل، والذي لم يبدُ تنهيدًا ولا أنينًا ولكنه كان يشبههما، فقالت إنه كان من الأجدر به أن يفعل ذلك منذ البداية.

قال السيد سبنلو وقد وجد في هذا الكلام دعمًا لموقفه: «يجب أن أجرب نفوذي مع ابنتي. هل ترفض أن تأخذ هذه الرسائل يا سيد كوبرفيلد؟».

كنت قد وضعت الرسائل على الطاولة.

نعم أرفض. أخبرته أنني آمل ألا يظن أنني أخطأت حين رفضت طلبه، لكنني لا أستطيع أن آخذ هذه الرسائل من الآنسة مردستون.

قال السيد سبنلو: «ولا أنا؟».

أجبته باحترام بالغ بلا، ولا منه.

قال السيد سبنلو: «عظيم جدًّا».

ساد الصمت، ولم أستطع أن أقرر ما إذا كنت سأنصرف أم أبقى. تحركت بهدوء أخيرًا نحو الباب، واعتزمت أن أقول إنه من الأفضل أن أنسحب ومن ثَم يستفتي قلبه، فإذا به يقول وقد أوغل يديه في جيوب معطفه -وهو كل ما يستطيع فعله- وكان مظهره أولى أن أدعوه بالتقي الورع:

«لعلك تعلم يا سيد كوبرفيلد، أن لديَّ بعض الأملاك، وأن ابنتي هي أقرب وأعز أقاربي».

سرعان ما أجبته بأنني أرجو ألا يكون الخطأ الذي زللت فيه بسبب حبي الميؤوس منه، قد يدفعه إلى الاعتقاد بأنني من المرتزقة.

قال السيد سبنلو: «إنني لا ألمح إلى الأمر في ضوء هذه الفكرة، لكن سيكون من الأفضل لك ولنا جميعًا، إذا كنت مرتزقًا يا سيد كوبرفيلد؛ أعني لو كنت كذلك لصرت أكثر تحفظًا وأقل تأثرًا بكل هذا الهراء الأهوج. كلا. لست أقصد إلا أن أقول إنه من وجهة نظر أخرى، لعلك على دراية بأنني صاحب أملاك سأورثها لابنتي».

أكدت كلامه تمامًا.

قال السيد سبنلو: «ولا يمكنك أن تفكر، بعد ما أحرزته من خبرة بما نراه هنا كل يوم في مجلس العموم من تصرفات الناس المتباينة غير المسؤولة والهوجاء -فيما يتعلق بترتيبات وصاياهم وإجراءات توزيع التركة- ولا يمكن لي من بين جميع الموضوعات التي أجد فيها أغرب تناقضات البشرية، أن أغفل هذا الأمر فيما يخصني».

رحت أميل رأسي موافقًا.

قال السيد سبنلو، وقد زادت نبرته ورعًا وتأثرًا، وهو يهز رأسه ببطء مرتكزًا على أصابع قدميه ثم كعبيه بالتناوب: «لا ينبغي أن أسمح لابنتي أن تتأثر بحماقة كهذه من حماقات الشباب. إنها ليست سوى نزوة، وهراء مطلق، لن يلبث في غضون فترة وجيزة إلا أن يزن مثقال ريشة أو أخف. لكن ربما... ربما إذا لم تتخلَّ تمامًا عن هذا الفعل السخيف، فإنني قد أضطر في لحظة قلق أن أحميها من عواقب أي خطوة حمقاء تدفع بها إلى طريق الزواج، وأحيطها بحمايتي من عواقب أي نزق. أما الآن يا سيد كوبرفيلد، فإني أرجو ألا تضطرني، ولو لربع ساعة، أن أبدل تلك الصفحة المنطوية من كتاب حياتي، فأعيد النظر أو أمحو ما خلصت إليه بصياغته النهائية منذ عهد بعيد».

ساد هدوء، واستقرت عليه السكينة مع نسيم الغروب الهادر، مما كان له أبلغ الأثر. لقد صار مسالمًا ومستكينًا، وبدا أنه اطمأن إلى أنه سيدبر شؤونه ويرتبها بمثالية، وأن الأمر قد انقضى. أحسب أنني رأيت حقًّا دموعًا تنهمر من عينيه، من عمق إحساسه بكل ما مضى.

لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ لم أستطع أن أنكر حبي لدورا ولا أن أتخلى عن حبيبة قلبي. أخبرني أنه من الأفضل أن أقضي أسبوعًا للتفكير فيما قاله، فكيف أقول إنني لا أحتاج إلى أسبوع، بل كيف يمكن أن أغفل عن يقيني بأن أسابيع عدة لا يمكنها أن تنزع مني هذا الحب؟

قال السيد سبنلو وهو يصلح من ربطة عنقه بكلتا يديه: «تستطيع في هذه المدة أن تتشاور مع الآنسة تروتوود، أو مع أي إنسان لديه أي خبرة في الحياة. خذ أسبوعًا للتفكير يا سيد كوبرفيلد».

استسلمت، وخرجت من الغرفة راسمًا على وجهي ما استطعت من سمات الوفاء والغم واليأس. تبعني حاجبا الآنسة مردستون الثقيلان إلى الباب -أقول حاجبيها بدلًا من عينيها، لأنهما كانا أبرز ما في وجهها- وراحت تنظر إليَّ بالنظرات ذاتها، التي كانت ترمقني بها في ساعات الصباح الأولى في منزلنا، بل بالتحديد في صالة الاستقبال في بلندرستون، إلى الحد الذي قد يدفعني إلى الظن بأنني أخطأت في دروسي مرة أخرى، بل صار العبء الثقيل الذي يشغل ذهني هو تذكري لكتاب الإملاء القديم البشع الذي يحوي نقوشًا جافة بيضاوية الشكل، والتي كانت تُخيل إليَّ مثل زجاج مقعر داخل إطار نظارات.

وصلت إلى المكتب، فأشرت إلى تيفي القديم وبقية زملائي بتركي وشأني، ثم جلست على مكتبي منزويًا أفكر في هذا الزلزال الذي هزني. رحت ألعن جيب في مرارة ويأس، بعد أن سيطرت عليَّ حالة من العذاب والرثاء لدورا. رحت أتساءل كيف لم أحمل قبعتي مسرعًا في جنون إلى نوروود. قادني تفكيري إلى أنهم سيروعونها، ويدفعونها

إلى البكاء، بينما أنا غائب عنها لا أستطيع تهدئتها. كانت هذه الأفكار مؤلمة أشد الألم، حتى إنها دفعتني إلى كتابة رسالة جامحة إلى السيد سبنلو، أتوسل فيها إليه ألا يحملها عواقب قدري الأغبر. لقد ناشدته أن يرحم روحها المرهفة، فلا يسحق هذه الزهرة الهشة. أتذكر بوضوح أنني مضيت أخاطبه بكلمات عامة، لا بصفته والد دورا، بل كما لو أنه غول، أو تنين وانتلي[١]. أغلقت هذه الرسالة ووضعتها على مكتبه قبل عودته، وعندما دخل رأيته عبر باب غرفته - فقد كان نصف مفتوح - وقد تناولها وقرأها.

لم يقل شيئًا عنها طوال الصباح، ولكنه دعاني إليه قبل مغادرته ظهرًا، وأخبرني أنني لست بحاجة إلى الشعور بالقلق على الإطلاق حيال حال ابنته وسعادتها. قال إنه قد أكد لها أن كل هذه الأحداث محض هراء، ولم يزد. لقد حسب أنه أب متسامح (وقد كان كذلك بالفعل)، وقد أعفاني من أي قلق عليها.

قال لي: «قد تضطرني يا سيد كوبرفيلد، إذا دفعك سلوك أحمق أو عنيد، إلى أن أرسل ابنتي إلى خارج البلاد مرة أخرى لفترة ما، إلا أن رأيي فيك هو أنك أفضل من أن تسلك هذا المسلك. أرجو أن تتسم بقدر أكبر من الحكمة في غضون أيام قلائل. أما الآنسة مردستون...» -لأنني أشرت إليها في الرسالة- «فإنني أحترم يقظة هذه السيدة، وأشعر بفضلها، إلا أنني منعتها من الحديث عن هذا الأمر. إن كل ما أرغب فيه

(١) تنين مُجسَّد على حجر رملي في شمال غرب مدينة شيفيلد بإنجلترا، تحكي الأسطورة أنه قُتل على يد أحد الفرسان.

يا سيد كوبرفيلد هو أن تنسى ما جرى. حقًّا كل ما عليك فعله يا سيد كوبرفيلد هو النسيان».

أهذا كل ما عليَّ فعله! لقد كتبت إلى الآنسة ميلز، فنقلت إليها مرارة هذا الشعور. رحت أقول لها بسخرية كما في كوميديا سوداء إن كل ما عليَّ فعله هو أن أنسى دورا. كان هذا هو كل شيء، لكن ما معناه؟! توسلت إلى الآنسة ميلز طالبًا أن تقابلني في هذا المساء. وإذا لم تستطع ذلك أو عارضه وجود السيد ميلز، فإنني أطلب مقابلتها سرًّا في المطبخ الخلفي عند موضع عصارة الملابس. أخبرتها أن عقلي راح يترنح منزلقًا عن عرشه، وأنها الوحيدة -أعني الآنسة ميلز- التي يمكنها منع الإطاحة به. وقعت الرسالة بقولي، إني خادمها المشتت. لم أتمالك نفسي بعد قراءة هذه العبارات قبل أن أرسلها، فشعرت أنها أشبه بطراز وأسلوب السيد ميكوبر.

أرسلتها على الرغم من كل شيء، ثم توجهت في الليل إلى الشارع الذي تسكن فيه الآنسة ميلز، ورحت أجُوبه ذهابًا وإيابًا، حتى أقبلت إليَّ خادمتها خلسة، واصطحبتني في الطريق وصولًا إلى المطبخ الخلفي. لقد أدركت منذ ذلك الحين من الأسباب ما يجعلني أظن بأنه ما من شيء على الأرض كان يمنعني من الدخول من الباب الأمامي، أو الجلوس في غرفة المعيشة، باستثناء حب الآنسة ميلز للرومانسية والغموض.

أفضيت في المطبخ الخلفي بما جئت به مهتاجًا. أحسب أنني ما ذهبت إلى هناك، إلا لأفرغ حماقاتي، وأنا على يقين تام بأنني كنت أحمق بالفعل. تلقت الآنسة ميلز رسالة عاجلة من دورا، تخبرها أن

كل شيء قد كشف، وتقول: «آه، تعالي إليَّ يا جوليا، هيا، تعالي»، لكن الآنسة ميلز لم تثق في قبول وجود ما أسمته «السلطات العُليا»، ومن ثَم لم تذهب، وهكذا كنا جميعًا تائهين في ظلمات صحراء قاحلة.

تدفق من الآنسة ميلز سيل رائع من الكلمات، وأحبت أن تسكبها على مسامعي. اختلطت دموعها بدموعي، إلا أنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بأنها أحست لذة مروعة في مصابنا. وإني لأجرؤ على القول بأنها راحت تلاطف محنتنا، وتستغل مصابنا إلى أقصى حد. قالت الآنسة ميلز إن هوة عميقة انفتحت بيني وبين دورا، ولا يمكن للحب إلا أن يمتد إليها فيحيطها بطيف ألوانه، وإن الحب عليه أن يتألم في هذا العالم القاسي، هكذا كان الأمر فيما مضى، وسيبقى إلى الأبد، ولكن هذا لا يهم، لأن القلوب المحصورة ستنفجر داخل أنسجة العنكبوت أخيرًا، حتى ينتقم الحب ويظفر.

كان في كلامها نوع من العزاء اليسير، إلا أن الآنسة ميلز قالت إنها لن تشجع الآمال الكاذبة. لقد تركتني أكثر غمًّا من ذي قبل. شكرتها وأعربت لها عن امتناني العميق، وقد أحسست أنها صديقة وفية. لقد عزمنا على أن تذهب إلى دورا في الصباح، وأن تحاول طمأنتها بكل وسيلة ممكنة، سواء بالنظرات أو الكلمات التي تؤكد لها إخلاصي وبؤسي. افترقنا بعد أن غمرنا الحزن، وأحسب أن الآنسة ميلز قد استمتعت تمامًا به.

أفضيت إلى عمتي بكل شيء بعد وصولي إلى المنزل، ثم أويت إلى فراشي يائسًا على الرغم من كل ما قالته لمواساتي. استيقظت

مستيئسًا وخرجت يائسًا. كنت في صباح يوم سبت، فتوجهت مباشرة إلى مجلس العموم.

انتابتني الدهشة فور وصولي إلى باب المكتب حيث رأيت بعض العاملين يقفون في الخارج يتحدثون معًا، ونحو ستة مارة يحدقون في النوافذ المغلقة. أسرعت من خطوي، ومررت من بينهم، متعجبًا من مظهرهم، إلى أن دخلت إلى المكتب على عجل.

وجدت الكتبة على مكاتبهم، لكنهم لا يؤدون أعمالهم. وأبصرت تيفي -أكبر العاملين- لأول مرة في حياته جالسًا على كرسي غير كرسيه، من دون أن يخلع قبعته ويعلقها.

قال عندما دخلت: «يا لها من كارثة مروعة يا سيد كوبرفيلد!».

صرخت: «ما هي؟ ماذا جرى؟».

صرخ تيفي كما صرخ معه الباقون، وهم يدورون حولي قائلين: «ألا تعرف؟».

رحت أنظر من وجه إلى آخر قائلًا: «لا».

قال تيفي: «السيد سبنلو».

قلت: «ماذا حدث له؟».

قال: «لقد مات».

حسبت أن المكتب أخذ يترنح، لا أنا، وقد أمسك بي أحد الكتبة قبل أن أسقط. أجلسوني، وأحلوا ربطة عنقي، وجلبوا لي بعض الماء. ولا أدري كم من الوقت مضى وأنا على هذه الحال.

قلت: «هل مات؟».

قال تيفي: «لقد تناول العشاء في البلدة أمس، واستقل عربته وحيدًا، بعد أن أرسل الحوذي إلى المنزل بالحافلة، كما كان يفعل في بعض الأحيان، كما تعلم».

قلت: «حسنًا، وماذا بعد؟».

قال: «وصلت العربة إلى المنزل من دونه. توقفت الخيول عند بوابة الإسطبل. خرج السائس ومعه الفانوس. فلم يجد أحدًا في العربة».

سألت: «هل جمحت خيول العربة؟».

قال تيفي وهو يضع نظارته: «لم يبدُ عليها أي إرهاق. ولم تكن أجسادها ساخنة، بل فهمت أنها راحت تسير بالوتيرة المعتادة. أما الزمام فقد كسر عنها، لكنها راحت تجره فوق الأرض. استيقظ أهل المنزل مباشرة على هذا الخبر، وخرج ثلاثة منهم على طول الطريق، فوجدوه على بُعد ميل من المنزل».

تدخل أحد الكتبة الصغار قائلًا: «وجدوه على بُعد أكثر من ميل يا سيد تيفي».

قال تيفي: «أحق هذا؟ أحسب أنك على صواب، وجدوه على بُعد أكثر من ميل، في مكان غير بعيد عن الكنيسة، منطرحًا على وجهه، وقد استلقى جزء من جسده على جانب الطريق والباقي على الطريق نفسه. لعله أصيب بنوبة فجائية، أو خرج عن العربة حين شعر بإعياء قبل ظهور النوبة، أو لعله مات في لحظة بعينها. لا شك في أنه كان فاقد

الوعي تمامًا خارج العربة، ولا يبدو أن أحدًا يعرف ما إذا كان قد استمر في التنفس خارجها أم لا، لكن من المؤكد أنه لم يتكلم قَطُّ. كانوا قد استدعوا المساعدة الطبية في أسرع وقت، لكنها لم تُجدِ نفعًا».

لا أستطيع أن أصف حالتي حين تلقيت هذا الخبر. كنت مصدومًا من هذا الحدث المفاجئ، الذي وقع لتوِّه لشخص اختلفت معه في أمر من الأمور، فإذا بشعور من فراغ مروع يحيط بالغرفة التي شغلها مؤخرًا، حيث بدا لي أن مقعده ومكتبه ينتظرانه. لاح خط يده الذي اكتتبه بالأمس شبحًا هائمًا وقد استحال فصله عن المكان. شعرت حين انفتح الباب أنه مقبل آتٍ لدخول مكتبه. أما هذا الصمت والسكون الساريان في المكتب، والإنصات النهم لأي حديث عن الحادث الذي سيطر على الزملاء، وتوافد أناس آخرون دخولًا وخروجًا من المكتب طوال اليوم، لاهين أنفسهم بالحديث عن الموضوع، فإنها في جملتها أحداث يسهل على الإنسان تصورها. ما لا أستطيع وصفه هو كيف أنني شعرت في أعماق قلبي بغيرة كامنة من الموت. كيف شعرت كما لو أن قوته ستزحزحني من مكانتي في عقل دورا. لا يمكن للكلمات أن تصف كيف رحت -على مضض- أحسدها على حزنها. كيف شعرت بالاضطراب حين فكرت في أنها تبكي حزنًا على أحد سواي، أو أنها تتلقى من غيري المواساة. كيف انتابتني رغبة جشعة في أسرها بعيدًا عن أي إنسان سواي، لأكون أنا لها الكل في الكل، في هذا الوقت غير المناسب دون غيره من الأوقات.

كنت في خضم هذه الحالة النفسية -التي لم أمر بها وحدي بل إنها معروفة عند الناس- وإذا بي أتوجه إلى نوروود في تلك الليلة، فعرفت من أحد الخدم بعد سؤالي وأنا بالباب أن الآنسة ميلز موجودة، ومن ثَم طلبت من عمتي أن تكتب رسالة إليها، وقد فعلت ما طلبته. قدمت عزائي لموت السيد سبنلو المفاجئ، وأعربت عن حزني بصدق، وذرفت الدموع ألمًا عليه. ناشدتها أن تقول لدورا -إذا كانت دورا في حالة تسمح لها بسماع ذلك- إنه قد تحدث معي بأقصى درجات اللطف والاحترام، ولم يذكر اسمها إلا بكل حنان وود، من دون أن يتفوه بكلمة واحدة مؤذية. أعلم أنني أقدمت على هذا القول بدافع من الأنانية، لأستدعي ذكر اسمي أمامها، لكنني حاولت أن أقنع نفسي أنه عمل عادل لإنعاش ذكراه. لعلني كنت أصدق ذلك.

تلقت عمتي في اليوم التالي بضعة أسطر ردًّا على رسالتها معنونة باسمها من الخارج، وموجهة إليَّ من الداخل. لقد تغلب الحزن على دورا، وعندما سألتها صديقتها هل تسمح لها بإرسال تحياتها وخالص حبها إليَّ، إذا بها لا تجيب إلا بالصراخ، لأنها كانت تبكي دائمًا قائلة: «آه يا أبي العزيز، آه، أيها الأب المسكين»، لكنها لم تقل لا، مما دفعني إلى تفسير الأمر أعجب التفسيرات.

حضر السيد جوركنز إلى المكتب بعد أيام قليلة، إذ كان في نوروود منذ وقوع الحادث. كان هو وتيفي مجتمعين على انفراد لبعض الوقت، ثم أطل تيفي من الباب وطلب مني الدخول.

قال السيد جوركنز: «آه، إنني والسيد تيفي على وشك فحص المكاتب والأدراج وغيرها من مستودعات المتوفى يا سيد كوبرفيلد، بهدف ختم أوراقه الخاصة والبحث عن الوصية، حيث إنه لا أثر لهذه الأشياء في أي مكان آخر. وقد يكون من الأفضل أن تساعدنا إذا سمحت».

كنت ملتاعًا أتطلع إلى معرفة أي شيء عن الظروف التي ستحيط بدورا؛ مَن سيتولى وصايتها وما إلى ذلك من أمور تخص وضعها الحالي. بدأنا البحث على الفور. أخذ السيد جوركنز يفتح الأدراج والمكاتب، وأخرجنا الأوراق جميعها. وضعنا أوراق المكتب في جهة، والأوراق الخاصة - وكانت محدودة - في جهة أخرى. رحنا نعمل في جد وتركيز، فإذا وجدنا ختمًا طائشًا، أو حقيبة أقلام رصاص، أو خاتمًا، أو أي شيء صغير من هذا النوع؛ أضفناه إلى متعلقاته الشخصية، كما أننا رحنا نتحدث بهدوء شديد في أثناء عملنا هذا.

أغلقنا عدة رزم بعد فحصها، واستمر عملنا بهدوء وسط الغبار، وإذا بالسيد جوركنز يحدثني بالكلمات نفسها التي كان يتحدث بها عن شريكه الراحل، فقال:

«إن السيد سبنلو لم يكن لينحرف عن مساره. إنك تعرف طبيعته، إنني أميل إلى الظن بأنه لم يدوّن أي وصية».

قلت: «حسنًا، أعرف أنه ترك وصية».

توقفا عن العمل وأخذا ينظران إليَّ.

قلت: «لقد أخبرني في اليوم الذي رأيته فيه وكان آخر عهدي به، أنه ترك وصية، وأن شؤونه قد حسمت منذ فترة طويلة».

هز السيد جوركنز والعجوز تيفي رأسيهما في وقت واحد بالموافقة.

قال تيفي: «الأمر لا يبدو مبشرًا».

قال السيد جوركنز: «غير مبشر على الإطلاق».

شعرت بالحديث قائلًا: «إنني على يقن أن...».

قاطعني تيفي بينما يضع يده فوق ذراعي، ويغمض عينيه وهو يهز رأسه قائلًا: «اسمع يا سيد كوبرفيلد، لو أنك قضيت في هذه المهنة ما قضيناه، لعلمت أنه ما من شيء في هذه الدنيا يربك الرجال أكثر من الوصية، فلا يمكن الوثوق فيما يقولون إلا بنزر قليل».

أجبته بإصرار: «حقًّا، يا للعجب، لقد أدلى بهذه الملاحظة ذاتها».

أردف تيفي قائلًا: «إنني أتصور أن الأمر محسوم، ورأيي هو أنه... لم يترك وصية».

بدا لي الأمر مذهلًا، لكن صار جليًّا أنه لم يترك وصية، بل إنه لم يكن يفكر في كتابة أي وصايا مطلقًا. لم تقدم أوراقه دليلًا على وجودها، بل لم يظهر تلميحًا أو مخططًا أو مذكرة تشي بوجود نية لترك وصية، ومما أثار دهشتي أيضًا أن مقتنياته كانت في حالة من الفوضى والاضطراب. سمعت أنه من الصعب تحديد ما عليه من ديون، أو ما سدده من فواتير، أو حصر ما يمتلكه عند موته. كان من المحتمل أنه هو نفسه لم يلم بجميع هذه الأمور لسنوات عدة. اتضح شيئًا فشيئًا أنه كان يحرص على

المنافسة في كل ما يخص المظهر، فإذا هو حسن المظهر بين أعضاء مجلس العموم، وقد أنفق ما يفوق دخله المهني على ذلك. لم يكن دخله ضخمًا، فإذا بمصروفاته قد قللت من موارده في أيامه الأخيرة. وإن كان في يوم من الأيام صاحب ممتلكات واسعة -وهو أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد- فإنه تقلص جدًّا بالفعل. لقد بيع الأثاث وتراكمت رسوم الإيجار في نوروود، كما أخبرني تيفي -الذي لم يدرك مدى اهتمامي بالقصة- أنه سدد عن المتوفى جميع الديون العالقة، وخصم حصته من الديون غير المعروفة أو المشكوك فيها، وكذلك المستحقة للشركة، وأنها في مجملها لن تتجاوز الألف جنيه، مقابل الأصول المتبقية كلها.

انتهت هذه الإجراءات بعد انقضاء نحو ستة أسابيع على الوفاة، وقد عانيت أشد العذاب طوال هذه الفترة. حسبت أنني آذيت نفسي بيدي، بعدما أخبرتني الآنسة ميلز أن دورا الصغيرة محطمة الفؤاد لم تكن تتفوه بشيء حين يُذكر اسمي غير أن تقول: «آه يا أبي المسكين، آه يا أبي العزيز». لم يكن لدورا أقارب سوى عمتين عذراوين، تقيمان في بوتني، ولم تكونا على اتصال بأخيهما لسنوات عديدة إلا بقدر يسير. أخبرتني الآنسة ميلز أن هذا لا يعني أنهم تشاجروا معًا، ولكن بعد أن دُعيتا لاحتساء الشاي احتفالًا بطقس تعميد دورا، وكانتا قد اعتبرتا أنفسهما مقربتين بحيث يجدر بهما أن تدعيان إلى الغداء، فقد أعربتا عن رأيهما هذا في رسالة، فقالتا: «إنه من الخير لجميع الأطراف أن نبقى بعيدتين». ومنذ ذلك الحين شقتا طريقهما في الحياة، وشق أخوهما طريقه بعيدًا عنهما.

ها قد خرجت هاتان المرأتان من معزلهما الآن، واقترحتا اصطحاب دورا للعيش في بوتني. تشبثت دورا بهما وراحت تبكي وتصرخ قائلة: «نعم يا عمتيَّ، أرجوكما أن تصحباني أنا وجوليا ميلز وجيب إلى بوتني»، ولذا فقد رحلوا بعد وقت قصير من الجنازة.

لا أعرف كيف اتسع الوقت لي لأحوم حول بوتني. لقد ابتكرت بطريقة أو بأخرى، مسارًا للتجول في الحي لأكثر من مرة. التزمت الآنسة ميلز بواجبات الصداقة وحرصت على مراعاتها، فراحت تدون لي يوميات دورا، ثم تقابلني أحيانًا في حي المكاتب فتقرأها لي، وإن لم يسمح لها الوقت بالقراءة، فإذا بها تعيرني إياها. وكم أعتز بهذه المذكرات، التي احتفظت بعينة منها، كما تقول إحداها:

«الاثنين. لم تزل حلوتي د. مكتئبة للغاية. تشكو من الصداع. انتبهت إلى جيب ولجمال جسده وأناقته، فداعبته. وهكذا أيقظت الذكريات، وفتحت بوابات من الحزن. فاض الحزن عن جوفها. (هل الدموع قطرات تنسكب من القلب؟) ج. م.».

«الثلاثاء. د. واهنة ومنفعلة. جميلة حتى في شحوبها. (ألا نلاحظ هذا على القمر أيضًا؟ ج.م) خرجت د. مع ج. م. واصطحباج لاستنشاق الهواء في عربة. نبح ج. على أحد الكناسين، فتسبب في ابتسامة جلية على ملامح وجه د. (من هذه الروابط الطفيفة تتألف سلسلة الحياة) ج.م.».

«الأربعاء. د. مبتهجة إلى حد ما. أنشدت لها أغنية «أجراس المساء». لم تهدأ بل كان تأثيرها عكسيًّا. انفعلت د. بشكل لا يوصف.

وجدتها تبكي بعد ذلك في غرفتها. تلوت عليها أبياتًا من الشعر عنها وعن الغزال الصغير. لم تُجدِ نفعًا. أشرت أيضًا إلى الصبر المتجسد في نصب تذكاري. (لماذا جسد في نصب تذكاري؟) ج. م.».

«الخميس. تتحسن د. بالتأكيد. أمضت ليلة هادئة. مسحة طفيفة من لون خمري لاح على خديها مرة أخرى. ذكرت اسم د. ك. على استحياء وحذر ونحن نتريض. تغلب الحزن على د. على الفور. قالت: «آه يا عزيزتي جوليا، آه، لقد كنت طفلة شقية وغير بارة»، واسيتها وداعبتها. رسمت صورة خيالية لـ د. ك. على حافة قبر. تغلب الحزن على د. مرة أخرى. قالت: «آه، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ آه، خذني إلى مكان آخر»، لفني قلق بالغ. فقدت د. وعيها، استعنا بكوب ماء من متجر قريب. (تقارب مجازي. مطرقة تعلو الباب؛ حياة بشرية متقلبة. واحسرتاه!) ج. م.».

«الجمعة. يوم الحادث. يظهر رجل في المطبخ بحقيبة زرقاء، راح يقول: «أحذية السيدات تُركت للإصلاح». ردت الطاهية: «لم نطلب هذه الخدمة». وقف الرجل يجادلها. انسحبت الطاهية للاستفسار، تاركة الرجل وحده مع جيب. عادت الطاهية، ولم يزل الرجل يجادل في الأمر، لكنه رحل في النهاية. صار جيب في عداد المفقودين. فُقد ج. أبلغنا الشرطة بالحادث. وصفت الرجل بأنفه العريض، وساقيه الشبيهتين بسياج الجسر. بحثنا في كل اتجاه. تبكي د. بمرارة على غياب ج. ولا عزاء. تجدد الإشارة إلى الغزال الصغير. مناسبة ولكنها غير مجدية. في المساء، يظهر صبي غريب ينادي. دخل إلى الصالون.

يتسم بأنف واسع، لكن ساقيه لا تشبهان السياج. يقول إنه يريد جنيهًا ويدل على الكلب. يرفض المزيد من التوضيح، على الرغم من الضغط عليه بشدة. تدفع د. الجنيه. تذهب الطاهية إلى منزل صغير، فتجد ج. مقيدًا إلى رجل الطاولة بمفرده. تبتهج د. وترقص حول ج. بينما يتناول عشاءه. تشجعت أمام هذا التغيير السعيد، فذكرت اسم د. ك. تبكي د. وتقول: «إنه من المؤسف أن أفكر في أي شيء سوى بابا المسكين»، تحتضن ج. وتبكي حتى تنام. (ألا يجب على د. ك. أن يصبر أمام نوائب الزمن؟) ج. م.».

كانت الآنسة ميلز ومذكراتها عزائي الوحيد في هذه الفترة. كانت رؤيتي لها عقب رؤيتها لدورا بقليل، وتتبع الحرف الأول من اسم دورا في صفحات مذكراتها قد زاداني تعاسة، ولكنها كانت وسائل راحتي الوحيدة. شعرت أنني كنت أعيش في قصر من الأوراق، وقد انهار، ولم يتبقَّ سوى الآنسة ميلز بينما أمكث بين الأنقاض. شعرت أن ساحرًا عجيبًا قد رسم دائرة سحرية حول ربة قلبي البريئة، فلا شيء في الواقع سوى أجنحة القدر القوية التي يمكنها أن تعين الكثير من الناس على تجاوز المحن ستمكنني من الدخول إليها.



الفصل التاسع والثلاثون

ويكفيلد وهيب

لاحت عمتي لي قلقة مرتبكة بسبب اكتئابي الذي طال، تظاهرت برغبة ملحة لدفعي للذهاب إلى دوفر لأتأكد من سير الأمور في منزلها في مسارها الطبيعي، وإبرام عقد مع المستأجر نفسه لمدة أطول من الإيجار. كانت جانيت قد عُيِّنت في خدمة السيدة سترونج، وقد كنت أراها كل يوم. ظلت مترددة قبل مغادرتها دوفر، تفكر فيما إذا كانت ستقطع علاقتها بجنس الرجال كما اعتادت من قبل، أو تتزوج من الربان، لكنها قررت ألا تتزوج، ليس حفاظًا على مبدأ عدم الزواج، على ما أظن، بل لأنها لم تحب ذلك الرجل.

تكبدت ألم فراق الآنسة ميلز، إلا أنني اقتنعت بذريعة عمتي، إذ رأيت أنها وسيلة ستمكنني من قضاء بضع ساعات من الهدوء مع أجنيس. استأذنت الدكتور الطيب في الغياب لثلاثة أيام عاجلة. أذن الدكتور لي بهذه الراحة، وتمنى لي لو أخذت فترة أطول للاسترخاء، لكن طاقتي لم تكن لتحتمل هذا الغياب، وبهذا قررت الذهاب ثم العودة حين أستطيع.

أما مجلس العموم، فلم أشعر أنني أحظى بفرصة كبيرة بالعمل فيه، بل والحقيقة أننا لم نحظَ بسمعة مميزة بين المحامين، وأخذ وضعنا في الانحدار سريعًا حيث المجهول. كان العمل مهملًا في عهد السيد جوركنز، قبل فترة شراكته مع السيد سبنلو، وعلى الرغم من تطوره بعد ضخ دم جديد، وبالإدارة التي قدمها السيد سبنلو، فإنه لم يرتكز على أساس قوي لتحمل ما يطرأ من تغيرات من دون أن يهتز، مثلما حدث في هذه الضربة التي أصابته بعد الفقدان المفاجئ لمديره النشط. لقد انحدرت أعمال المكتب. كان السيد جوركنز ذا سمعة ذائعة الصيت في الشركة، إلا أنه كان رجلًا هادئًا وغير مبالٍ، ولم تؤثر شهرته في الخارج، ولم تدعم استمرار العمل. تسلمت في هذه الأوقات عملي تحت إشرافه، فرأيته يستنشق سعوطه ويترك العمل هائمًا، فما ندمت على الألف جنيه التي دفعتها عمتي يومًا، أكثر من ندمي عليها في تلك اللحظة.

لم يكن هذا كله أسوأ ما في الأمر، فقد ظهر عدد من الدخلاء والغرباء في مجلس العموم، ممن ليسوا من أرباب مهنة المحاماة، انخرطوا في أعمال وسيطة، وأنجزوها تحت مظلة من المحامين الحقيقيين، الذين قدموا أسماءهم مقابل حصة في الغنيمة - ظهر عدد كبير من هؤلاء القوم أيضًا. صار مكتبنا الآن بحاجة إلى أعمال أيًّا ما كانت، ومن ثَم انضممنا إلى هذه الفرقة النبيلة، ورحنا نلقي بالإغراءات على السماسرة والدخلاء لجلب قضاياهم إلينا. كانت تراخيص الزواج والوصايا الصغيرة هي كل ما كنا نبحث عنه، كما

رحنا نتنافس منافسة شرسة على مثل هذه القضايا التي تجلب لنا أتعابًا مرتفعة. تناثر خاطفو القضايا والمخادعون في جميع الطرق المؤدية إلى مجلس العموم، محاولين بذل قصارى جهدهم لقطع الطريق على أي إنسان في ثياب الحداد، وكل من تبدو عليه مظاهر الخجل، ومن ثَم إغراؤهم للتعامل مع المكاتب المملوكة لأرباب عملهم. راح هؤلاء يتبعون التعليمات وينفذونها بدقة بالغة، حتى دُفعت مرتين دفعًا إلى مكتب خصمنا الرئيسي قبل أن يعرفني الناس بالنظر. أدت المصالح المتضاربة لهؤلاء السادة إلى إثارة مشاعرهم وأحقادهم، بل وقعت تصادمات شخصية بينهم، فانفضح أعضاء مجلس العموم أمام عميلنا الرئيسي (الذي كان يعمل سابقًا في تجارة النبيذ، ثم عمل بعد ذلك في مسار السمسرة والرهون) الذي أصيب في شجار وراح يتجول لعدة أيام بعينين متورمتين. لم يعتد أي من هؤلاء الكشافة أن يفكر في مساعدة سيدة عجوز ترتدي ثوب الحداد حتى تستطيع أن تنزل عن عربتها كنوع من الأدب، بل ربما يقتل أي محامٍ تسأل عنه السيدة العجوز، ثم يخبرها أن رب عمله يمثل الخليفة الشرعي والموكل عن هذا المحامي بعد وفاته، ثم تُساق السيدة العجوز (التي تتأثر بشكل كبير في أغلب الأوقات) إلى مكتب صاحب العمل. جُلب العديد من الأسرى إليَّ بهذه الطريقة ذاتها. أما المنافسة على تراخيص الزواج، فقد ارتفعت إلى درجة أن الرجل الخجول الذي يسعى للحصول على ترخيص، لا يسعه غير تسليم نفسه لأول صائد له، وإلا تشاجر السماسرة عليه، فيصير فريسة لأقواهم. كان من عادة أحد الكتبة عندنا، وهو من دخلاء

المهنة أيضًا، أن يجلس مرتديًا قبعته في ذروة هذه المنافسات، حتى يكون مستعدًّا للاندفاع بحلف اليمين أمام أي ضحية سيقت إلى المكتب. وأحسب أن هذه الطريقة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا. رأيت في المرة الأخيرة التي زرت فيها مجلس العموم رجلًا مدنيًّا قوي البدن يرتدي بذلة بيضاء، قد انقض عليَّ فور وصولي إلى الباب، بينما راح يهمس في أذني بعبارة «رخصة زواج؟». استطعت بعد عناء منعه من أن يرفعني بذراعيه ليأخذني إلى مكتب محاميه.

اسمحوا لي أن أنتقل من هذا الاستطراد إلى دوفر، حيث وجدت كل شيء في المنزل على حاله، واستطعت طمأنة عمتي بشكل كبير بعد إبلاغها أن المستأجر قد ورث عداءها للحمير، وراح يشن حربًا متواصلة عليها. سويت بعض الأعمال الصغيرة التي كان عليَّ التعامل معها هناك، وقضيت ليلتي في دوفر، ثم تمشيت في الصباح متجهًا إلى كانتربري. كان الشتاء قد حل مرة أخرى، وإذا بنسيمه البارد ورياحه الهادرة، تجدد داخلي شعاعًا من الأمل.

وصلت إلى كانتربري، فتجولت في شوارعها القديمة وقد لفتني سعادة وسكينة، فهدأ انفعالي، وطاب قلبي. رحت أشاهد اللافتات القديمة، والأسماء التي أعرفها تعلو المحلات التجارية، وكبار السن ممن يخدمون فيها. بدا لي أن الوقت قد مر طويلًا، منذ أن كنت تلميذًا هناك، وكم تعجبت لأن المكان لم يتغير كثيرًا، حتى فكرت في مدى ضآلة ما اعتراني من تغيير كذلك. وإني أقر أنه من الغريب أن يكون هذا التأثير الهادئ الذي لم ينفصل في ذهني عن أجنيس، بدا كما لو أنه

انتشر وذاع في المدينة التي سكنتها. صارت أبراج الكاتدرائية ساكنة، بل وكذلك بدت الطيور والغربان، فلاح صوت الهواء من حولها أعلى من أصواتها التي قاربت السكون التام. صارت مداخل البلدة محطمة، بعد أن كانت تعج بالتماثيل، فإذا بها قد انهارت منطرحة منذ زمن طويل، مثلما فارقها الحجاج الذين قصدوا التمتع برؤيتها. صارت الزوايا ساكنة، حيث تسلل اللبلاب ناميًا على مدى قرون فافترش نهايات الجملون والجدران المدمرة، وغطى البيوت القديمة والمناظر الطبيعية لمراعي الحقول والبساتين والحدائق. لقد شعرت بالهواء الهادئ نفسه والسكينة ذاتها في كل مكان، وفي كل شيء.

وصلت إلى منزل السيد ويكفيلد، فوجدت السيد ميكوبر في الغرفة الصغيرة بالطابق الأرضي، حيث اعتاد يورايا هيب الجلوس. كان عاكفًا على الكتابة بعزم كبير، مرتديًا بذلة سوداء ذات مظهر رسمي، وقد بدا قوي البنية عظيم الهيئة في هذا المكتب الصغير.

كان السيد ميكوبر سعيدًا لرؤيتي، لكنه كان مرتبكًا أيضًا إلى حد ما. كان على وشك اصطحابي إلى مكتب يورايا على الفور، إلا أنني رفضت الذهاب معه قائلًا: «إنني -كما تعرف- أتذكر المنزل منذ عهد قديم، وسوف أجد طريقي إليه في الطابق العلوي. هل أحببت العمل بالقانون يا سيد ميكوبر؟».

أجاب: «يا عزيزي كوبرفيلد. إن رجلًا يتمتع بقدرات عالية على التخيل تمنعه كثرة التفصيلات والتشعبات من إحكام دراسة القانون». ألقى

نظرة خاطفة على بعض الرسائل التي كان يكتبها، ثم استطرد قائلًا: «حتى العقل لا يمكن أن يصير حرًّا في مراسلاتنا المهنية، فلا يرتقي إلى أي شكل من أشكال التعبير الفائق. ومع ذلك، فإنها مهنة عظيمة. مهنة عظيمة».

أخبرني أنه صار مستأجرًا لمنزل يورايا هيب القديم، وأن السيدة ميكوبر ستسعد باستقبالي مرة أخرى تحت سقف بيتها.

قال السيد ميكوبر: «إنه مسكن متواضع - وإني لأقتبس تعبيرًا مفضلًا عن صديقي هيب: لكنه قد يكون بمثابة نقطة انطلاق لسكن منزلي أكثر فخامة».

سألته ما إذا كان راضيًا حتى الآن بمعاملة صديقه هيب له، فإذا به ينهض ليتأكد أن الباب مغلق، قبل أن يجيب عن سؤالي بصوت منخفض قائلًا:

«يا عزيزي كوبرفيلد، الرجل الذي يعمل تحت ضغط من الأزمات المالية يجد نفسه في وضع محرج، وهذا ينطبق على الناس كافة. لا يتقلص هذا العيب، حين يدفعه العوز إلى سحب مكافآته المالية أو جزء من راتبه، قبل استحقاق صرفه المحدد. كل ما يمكنني قوله هو أن صديقي هيب قد استجاب للنداءات -التي لست بحاجة إلى ذكرها بالتحديد- بطريقة تُحسب له بما يتناسب مع ما يشرف عقله وقلبه».

قلت: «لم أتصور أنه كريم يصرف من حر ماله».

قال السيد ميكوبر: «عفوًا، إنني أتحدث عن تجربتي مع صديقي هيب».

قلت: «إنني سعيد أن تجربتك معه طيبة للغاية».

قال السيد ميكوبر: «إنك ذو خلق كريم يا عزيزي كوبرفيلد». ثم همهم ببعض الألحان.

سألته حتى أغير الموضوع: «هل ترى السيد ويكفيلد كثيرًا؟».

قال السيد ميكوبر باستخفاف: «ليس كثيرًا. إني لأجرؤ على القول بأن السيد ويكفيلد رجل طيب النيات، لكنه... باختصار، لقد عفا عليه الزمن».

قلت: «أخشى أن يكون شريكه من يدفعه إلى أن يصير على هذه الصورة».

تحدث السيد ميكوبر، بعد أن انتابته بعض الاضطرابات فوق كرسيه، فقال: «يا عزيزي كوبرفيلد، اسمح لي أن أدلي بملاحظة، إنني هنا لأنني محل للثقة. إنني هنا في موضع ثقة. إن مناقشة بعض الموضوعات، حتى مع السيدة ميكوبر نفسها (التي طالما شاركتني تقلبات حياتي المختلفة، كما أنها امرأة ذات عقل مبهر)، أمر لا يتوافق مع الواجبات التي توكل إليَّ الآن. لذلك أود أن أقول إن ثمة فارقًا بين علاقاتنا الودية - التي أثق أنها لن تتبدل أبدًا - وحدود عملنا، كما لو أنها على جانب من هذا الخط». أخذ السيد ميكوبر يرسم خطًّا وهميًّا على المكتب المقابل له، ثم أكمل قائلًا: «في هذا النطاق يكمن العقل البشري كاملًا، مع استثناء تافه ينتقل إلى الناحية الأخرى وهذا هو الاستثناء؛ أعني شؤون السيدين ويكفيلد وهيب بكل انتماءاتهما ومصالحهما. أثق أنني لن أسيء إلى

رفيق شبابي؛ أفإن قدمت إليه هذا الاقتراح، ألن يحكم عليه بحيادية ورجاحة عقل؟».

لاحظت تغيرًا واضطرابًا يطرأ على السيد ميكوبر، ما لبث أن سيطر عليه بإحكام، كما لو كانت واجباته الجديدة غير ملائمة، فشعرت أنه لا يحق لي الاستهانة بكلامه. فإذا به يبادر بمصافحتي كما لو أنه ارتاح واطمأن لما أخبرني به.

قال السيد ميكوبر: «دعني أؤكد لك يا كوبرفيلد أنني مسحور بالآنسة ويكفيلد. إنها شابة فاتنة للغاية، تتمتع بجاذبية ومواهب وذات خلق عظيم. أقسم لك بشرفي»، وراح يُقبِّل يده مرارًا وتكرارًا وأخذ ينحني بلطف قائلًا: «إنني أبجل الآنسة ويكفيلد».

قلت: «كم أنا سعيد بهذا».

قال السيد ميكوبر: «أيها العزيز كوبرفيلد، لولا أن أكدت لنا - في تلك المناسبة اللطيفة التي قضيناها في سعادة معك في الظهيرة - أن حرف الدال هو حرفك الأحب، لظننا أنه بلا شك حرف الألف».

لقد مررنا جميعًا بهذه التجربة الشعورية، والتي تنتابنا من حين إلى آخر، حين نقول أو نفعل شيئًا، فنستشعر أنه قيل من قبل وفعلناه من قبل منذ زمن بعيد - فقد كنا محاطين منذ زمن غابر بالوجوه والأشياء نفسها، وفي الظروف نفسها أيضًا - فعرفنا ما سيقال بالضبط، كما لو أننا تذكرناه فجأة. ولم ينتابني هذا الانطباع الغامض في حياتي بصورة أقوى مما أحسست حين نطق هذه الكلمات.

استأذنت من السيد ميكوبر حينها، وأوصيته بأن يحمل سلامي لجميع من في المنزل. ما إن تركته حتى عاد إلى مقعده وتناول قلمه، ثم هز رأسه ليستعيد أفكاره، ويستدعي الكتابة بسهولة. أدركت بوضوح أن ثمة شيئًا قد حال بيننا منذ أن تقلد وظائفه الجديدة، مما منع كلًّا منا من الاقتراب من الآخر بخلاف ما اعتدنا عليه، ومن ثَم تبدلت طبيعة علاقتنا تمامًا.

لم أجد أحدًا في غرفة الاستقبال القديمة العجيبة، على الرغم من ظهور آثار لوجود السيدة هيب. تجولت ببصري في أنحاء غرفة أجنيس، فرأيتها جالسة بجانب المدفأة على مكتب قديم الطراز، منهمكة في كتابة شيء ما.

انطبع خيال جسدي مشوشًا الضوء، فإذا بها ترفع رأسها ناظرة إلى أعلى. يا لفرحي أن أكون سببًا في تغيير هذا الوجه المشرق اليقظ، فأصير دافع هذا الاحترام والترحيب!

جلسنا معًا، جنبًا إلى جنب، فرحت أقول: «آه يا أجنيس، لقد اشتقت إليكِ كثيرًا».

فأجابت: «حقًّا؟ مرة أخرى! أبهذه السرعة؟».

أومأت برأسي بالإيجاب.

قلت: «لا أعرف كيف حدث هذا يا أجنيس. يبدو أنني أحتاج إلى الاستعانة بعقل مدبر. كنت معتادًا على أن تفكري في أموري في الأيام

الخوالي البهية التي قضيتها هنا، وقد جئت إليكِ كعادتي لطلب المشورة والنصح، وأحسب حقًّا أنني فقدت الموهبة».

قالت أجنيس بمرح: «وما هي؟».

أجبتها: «لا أعرف ماذا أسميها. أحسب أنني جاد ومثابر، ألستُ كذلك؟».

قالت أجنيس: «إنني متأكدة من ذلك».

سألتها في شيء من التردد: «وإنني لصبور يا أجنيس، ألستُ كذلك؟».

عادت أجنيس ضاحكة: «بلى، إلى حد بعيد».

قلت: «ومع ذلك أنا حزين وقلق للغاية، كما أنني مضطرب ومتردد إلى أبعد الحدود. أحتاج إلى شيء حتى أطمئن على نفسي، فأرغب فيما قد أسميه ملاذًا، هل أطلق عليه ملاذًا؟».

قالت أجنيس: «سمِّه ما شئت بما تستطيع التعبير به».

قلت: «حسنًا، اسمعي، لقد جئتِ إلى لندن، فإذا بي أهرع إليكِ محددًا هدفًا ومنهجًا في آن واحد. يدفعني هدفي إلى أن آتي إلى هنا، فإذا بي في لحظة أتبدل لأصير إنسانًا جديدًا. لم تتغير الظروف التي أرَّقتني منذ أن دخلت هذه الغرفة، لكن تأثيرًا يعتريني خلال هذه الفترة القصيرة، فيغيرني. وآه، كيف تحسنت حالتي؟! ما هذا؟! وأي سر تحملينه يا أجنيس؟!».

كان رأسها محنيًّا، تنظر إلى النار.

قلت: «إنها القصة القديمة، فلا تضحكي عندما أقول إن التأثير يظهر دائمًا في صغائر الأمور كما يظهر في الأمور العظيمة. كانت مشكلاتي القديمة تافهة، أما الآن فمشكلاتي خطيرة، ولكن كلما ابتعدت عن الفتاة التي وجدتها في محل أختي...».

وهنا، نظرت أجنيس إلى أعلى - بوجهها الملائكي - ثم قربت إليَّ يدها، فقبلتها.

استطردت قائلًا: «حين أحتاج إليكِ يا أجنيس ولا أجد السبيل إليكِ لنصحي كما في بداية عهدي بكِ، فإنني أشعر أنني كالتائه في الصحراء، والذي عليه أن يواجه مختلف صنوف الصعاب. وحين أتيت إليكِ أخيرًا (كما أفعل دائمًا)، فإنني ألوذ بالسلام والسعادة. ها قد عدت إلى المنزل الآن، كما المسافر المتعب، لأجد هذا الإحساس المبارك بالراحة والنعيم».

شعرت بصدق ما قلته، متأثرًا به أعمق التأثير، إلى الحد الذي خار فيه صوتي، فأخفيت وجهي بيدي، وانفجرت دموعي تسيل. أدون ما حدث بصدق، مهما كانت التناقضات الموجودة بداخلي، فهذه هي حال الكثير منا. لعل هذه التناقضات تختلف من إنسان إلى آخر، أو لعلها أقل حدة، لكن أيًّا ما فعلته، وإن انحرفت عن صوت قلبي، إلا أنني لم أكن أدرك شيئًا عن أمري. إن كل ما عرفته هو أنني كنت شديد الصدق، حين شعرت بالراحة والسلام لوجود أجنيس بالقرب مني.

كان أسلوبها أخويًّا هادئًا، وعيناها مشرقتين، وصوتها رقيقًا، فاستطاعت بهذا السكون المحبب - الذي أحال المنزل الذي كانت تسكن فيه منذ زمن بعيد إلى مكان مقدس - أن تشدني من هذا الضعف سريعًا، ومن ثَم قادتني إلى رواية كل ما حدث بعد لقائنا الأخير.

قلت بعدما أنهيت قصتي: «لا أجد كلمة أخرى لأقولها يا أجنيس، إنني الآن أعتمد عليكِ».

قالت أجنيس بابتسامة لطيفة: «لكن لا يصح أن يعتمد الأمر عليَّ يا تروتوود. يجب أن يعتمد على إنسان آخر».

قلت: «تقصدين دورا؟».

قالت: «بالتأكيد».

قلت بنوع من الإحراج: «حسنًا، إنني لم أقل لكِ من قبل يا أجنيس أن دورا من الصعب أن... لن أقول إنه من الصعب أن أعتمد عليها بشكل عام، لأنها روح نقية وصادقة، ولكن من الصعب جدًّا أن... إنني حقًّا لا أعرف كيف أعبر عن الأمر يا أجنيس. إنها مخلوقة خجولة، ومن السهل أن تشعر بالذعر والخوف. لقد حدث شيء بيننا منذ مدة، وقبل وفاة والدها. كنت أظن أنه من الصواب أن أوضح لها... لكنني سأخبركِ - إذا صبرتِ معي - كيف سارت الأمور».

وهكذا، أخبرت أجنيس عن إعلاني لفقري، وعن كتاب الطبخ، وحسابات التدبير المنزلي، وكل شيء.

استدعت أجنيس ابتسامتها قائلة: «آه يا تروتوود، يا لأسلوبك القديم المتهور نفسه! لعلك كنت قادرًا على خوض الحياة في جد، من دون أن تفاجئ فتاة منزوية ومحبة وساذجة مثلها. آه يا دورا المسكينة».

لم أسمع في حياتي قَطُّ صوتًا بهذا اللطف والسماحة، بالطريقة التي لاحت في نبرتها في هذا الرد. أحسست أن الأمر أشبه برؤيتي لها بينما تعانق دورا في إعجاب وحنان، فإذا بها توبخني ضمنيًّا، عن طريق حمايتها ورعايتها لها؛ تلوم تسرعي الأهوج الذي أفزع هذا القلب الصغير. أحسست أن الأمر أشبه برؤيتي لدورا وهي تعانق أجنيس بكل ما لديها من خفة وفتنة من دون تصنع، فتشكرها وتناشدها مداعبة أن تحميها، بينما تظهر محبتها لي بكل براءة وطفولية.

شعرت بامتنان بالغ لأجنيس، وزاد إعجابي بها، وتخيلت الفتاتين معًا، في مشهد مشرق، تبدوان فيه صديقتين حميمتين، كل منهما تزين الأخرى وتجملها.

نظرت إلى النار لفترة قصيرة، ثم رحت أسأل أجنيس: «ماذا أفعل يا أجنيس؟ ما العمل الصحيح الذي عليَّ القيام به؟».

قالت أجنيس: «أظن، أن الطريق المشرف الذي يجب اتباعه، هو أن تكتب إلى هاتين السيدتين. ألا ترى أن الطرق السرية هي دروب غير لائقة؟».

قلت: «نعم، ما دمتِ ترينها كذلك».

ردت أجنيس بتردد وخجل: «إنني لست أهلًا للحكم على مثل

هذه الأمور، لكنني بالتأكيد أشعر... باختصار، أشعر أن تصرفك بسرية وخفاء، هو سلوك لا يتوافق معك».

قلت: «أخشى أن أكون كذلك، في رأيكِ السامي للغاية عني يا أجنيس».

قالت: «إن مثلك يتمتع بفطرة صادقة، وبالتالي من الخير أن تكتب إلى هاتين السيدتين. الأفضل أن تروي لهما ما حدث، بأكبر قدر ممكن من الوضوح والصراحة، وأود أن تستأذن طلبًا لزيارتهما في منزلهما في الوقت الذي يناسبهما. أما وإنك شاب تسعى إلى تعزيز مكانتك في الحياة، فأحسب أنه من الأفضل أن تذكر لهما أنك ستتعهد بالالتزام بأي شروط تفرضانها عليك. فلتحثهما على قبول طلبك، من دون الرجوع إلى دورا أو مناقشتها، لتحددا وقتًا مناسبًا لهما». أكملت أجنيس حديثها بلطف قائلة: «لن أكون حادة أو أقترح فعل المزيد، بل أفضل أن أثق في إخلاصي ومثابرتي، كما أثق في دورا».

قلت: «ولكن ماذا لو أنهما أفزعتا دورا وتحدثتا إليها مرة أخرى يا أجنيس؟ إن فعلتا فإن دورا ستبكي، من دون أن تقول أي شيء عني».

سألتني أجنيس بملامحها العطوفة نفسها: «هل هذا محتمل؟».

فقلت: «بارك الله فيها، إنها تخاف بسهولة مثل الطيور. قد يحدث ذلك، أو ربما كانتا أختي السيد سبنلو (هاتان السيدتان المسنتان من الشخصيات غريبة الأطوار) ومن ثَم لا ينبغي على الأرجح مخاطبتهما بهذه الطريقة».

رفعت أجنيس عينيها الناعمتين نحو عيني، وقالت: «لا أظن ذلك يا تروتوود، إلا أنني سأفكر في الأمر. لعل الأفضل أن نفكر فيما إذا كان من الصواب القيام بذلك أم لا، فإذا خلصنا إلى الصواب، فلنفعله».

لم يرادوني شك في صواب هذه الفكرة، فأقبلت بقلب متعافٍ لا يخلو من إحساس عميق بأهمية مهمتي، فكرست فترة الظهيرة بأكملها لتكوين مسودة لهذه الرسالة. تخلت أجنيس عن مكتبها لي، لأجل هذا الغرض العظيم، لكنني نزلت أولًا إلى الطابق السفلي للقاء السيد ويكفيلد ويورايا هيب.

وجدت يورايا وقد حصل على حجرة مكتب جديد تفوح منها رائحة الجبس، تحيط بها حديقة، بينما يبدو حقيرًا بصورة غير معهودة، وسط مجموعة من الكتب والأوراق. استقبلني بطريقته المألوفة المتملقة، وتظاهر بأنه لم يسمع بنبأ وصولي من السيد ميكوبر، وقد سمحت لنفسي بتكذيب هذه الحجة. رافقني بعد ذلك إلى غرفة السيد ويكفيلد، التي لاحت أمامي مثل شبح لغرفته في الماضي - حيث جردت من مختلف وسائل الراحة والرفاهية، في سبيل إيواء هذا الشريك الجديد - ثم وقف يورايا أمام النار، ليدفئ ظهره، وأخذ يفرك ذقنه بيده، بينما أتبادل مع السيد ويكفيلد التحية.

قال السيد ويكفيلد: «هلا بقيت معنا يا تروتوود، خلال فترة وجودك في كانتربري؟».

قلت: «هل يتسع المكان لي؟».

قال يورايا: «بالتأكيد يا سيد كوبرفيلد - يجب أن أناديك بـ: يا أيها السيد، لكن الأولى تصدر مني بصورة طبيعية - سأتخلى عن غرفتك القديمة بكل سرور، إذا قبلت ذلك».

قال السيد ويكفيلد: «كلا، لماذا نزعجك؟ تتوفر غرفة أخرى. تتوفر غرفة أخرى».

قال يورايا مصطنعًا ابتسامة: «آه، لكنك تعرف أنني سأكون سعيدًا حقًّا».

اختصرت الأمر وقلت إنني سأنام في الغرفة الأخرى وإلا مضيت، فوافقا. استأذنت في الانصراف حتى وقت تناول الغداء، ثم صعدت إلى الطابق العلوي مرة أخرى.

كم تمنيت ألا أحظى برفقة أحد سوى أجنيس! إلا أن السيدة هيب استأذنت في إحضار أدوات حياكتها والجلوس بالقرب من نار المدفأة في هذه الغرفة، بدعوى أنها ملائمة لمرضى الروماتيزم، وأطيب ريحًا في هذا الوقت من غرفة الاستقبال أو الطعام. تمنيت لو وضعتها تحت رحمة الريح على قمة برج من أبراج الكنيسة، ولم أكن لأندم على ذلك، إلا أنني تصرفت بأدب، فألقيت عليها التحية والسلام.

قالت السيدة هيب ردًّا على سؤالي عن حالها وصحتها: «إنني ممتنة لك يا سيدي، فأنا في خير حال. لا أطمع في شيء غير أن أرى يورايا مستقرًّا في الحياة، وهذا كل ما أرجوه. ما رأيك في يوري يا سيدي؟».

حسبت أنه يبدو أكثر شرًّا من أي وقت مضى، إلا أنني أجبتها أنني لا ألاحظ فيه أي تغيير.

قالت السيدة هيب: «آه، ألا تظن أنه تغير؟ اسمح لي هنا أن أخالفك الرأي. ألا تلاحظ أنه قد صار أكثر نحافة؟».

أجبتها قائلًا: «ليس أكثر من المعتاد».

قالت السيدة هيب: «وليكن! إنك لا تنظر إليه بعين الأم».

قابلت عين والدته عيني، فأحسست أنها تنظر بشر إلى بقية العالم، وإن كانت تنظر إلى ابنها بنظرة حانية، وأظن أنهما كانا مخلصين لبعضهما بعض. تحولت نظراتها بعد ذلك إلى أجنيس.

سألتها السيدة هيب: «ألا تلاحظين يا آنسة ويكفيلد أنه قد صار أنحف؟».

قالت أجنيس وهي تتابع عملها بهدوء: «لا، إنكِ مهتمة به للغاية. إنه في أفضل حال».

استأنفت السيدة هيب الحياكة بعد أن أصدرت عطسة مدوية.

لم تتوقف قَطُّ، ولم تتركنا لحظة. كنت قد وصلت في وقت مبكر من اليوم، وقد تبقى ثلاث أو أربع ساعات على موعد الغداء. إلا أنها مكثت في مكانها، تزج إبرتها في رتابة مثل ساعة زجاجية تسكب رمالها. ظلت جالسة إلى جانب نار المدفأة، بينما جلست إلى المكتب الذي يقابلها وجلست أجنيس بجواري.

رحت أفكر في رسالتي بتأنٍّ، فإذا رفعت عيني قابلت وجه أجنيس المتأمل، ورأيته واضحًا، فأشعر بتشجيع ينبعث من ملامحها الملائكية، إلا أنني لم أزل مدركًا في اللحظة ذاتها لتلك العين الشريرة التي تلتفت إليَّ، أو تتجه نحوها، ثم تعود إليَّ مرة أخرى، ثم تهبط إلى غزلها خفية. أي غزل هذا؟ لا أعرف، إنني لم أتعلم هذه المهارة، لكن ما صنعته بدا لي مثل الشبكة. راحت تعمل بعيدان صينية مخصصة للحياكة، فلاحت مع ألسنة النار مثل ساحرة شريرة، يقيدها ذلك الخير المتوهج الذي يجلس الآن مقابلًا لها، ولكنها على استعداد لإلقاء شبكتها في أي وقت.

حافظت على مراقبتها لنا بالعينين الغامضتين أنفسهما في أثناء الغداء. ثم أخذ ابنها دورها في المراقبة بعد انتهاء الغداء. أما بعد أن تُرِكنا أنا والسيد ويكفيلد معًا، إذا بيورايا يتصنع ابتساماته لنا، حتى إنني لم أستطع تحمل ذلك المشهد. راحت الأم تحوك وتراقب مرة أخرى في غرفة الاستقبال بعد أن جلست إلى جوار البيانو، بينما راحت أجنيس تغني وتعزف. طلبت الأم من أجنيس أن تغني أغنية ما، قائلة إن يوري يحبها (راح يورايا يتثاءب فوق كرسيه الكبير)، بينما راحت تنظر إليه من حين لآخر، وأخبرت أجنيس أنه في حالة انتشاء من الموسيقى. أحسب أنها نادرًا ما تحدثت من دون ذكر ابنها، وإني لأتعجب إذا لم تفعل ذلك، فقد كان من الواضح أن هذا هو الواجب المنوط بها.

استمر الوضع على هذه الحال حتى حان وقت النوم. كان مشهد الأم وابنها أقرب إلى خفافيش كبيرة تحوم حول المنزل بأكمله، تُعتمه بهيئتها القبيحة. لم أشعر بالارتياح، ومن ثَم فضَّلت أن أمكث في الطابق

السفلي، أراقب الحياكة كما أتأمل كل شيء، بدلًا من أن آوي إلى الفراش. ولم تمر سوى ساعات النوم حتى استأنفت في اليوم التالي الحياكة والمراقبة من جديد، وقد استمرتا طوال اليوم.

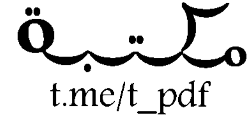
لم تسنح لي الفرصة لأتحدث إلى أجنيس ولو لعشر دقائق. ولم أستطع أن أطلعها على رسالتي، فاقترحت عليها أن تخرج لتتمشى معي. إلا أن السيدة هيب راحت تشكو مرة تلو أخرى من أنها في حالة سيئة، ومن ثَم مكثت أجنيس برفقتها. خرجت بمفردي وقت الغسق لأفكر فيما يجب أن أفعله، كما فكرت في أن أمنع أجنيس مما هي مقبلة عليه، بعد ما قاله لي يورايا هيب عنها في لندن، لأن كلامه أقلقني من جديد.

لم أكن قد ابتعدت بما يكفي عن البلدة، فلم أزل على طريق رامسجيت الممهد، حتى سمعت صوتًا من ورائي يرحب بي عبر الغبار. لم أخطئ في التعرف على الإنسان الهزيل ذي المعطف الضخم. توقفت، وكان السائر خلفي هو يورايا هيب.

قلت: «ما الأمر؟».

قال: «ما أسرعك! إن ساقيَّ طويلتان جدًّا، لكنك أتعبتهما بسرعتك».

قلت: «إلى أين تتجه؟».



قال: «إني ذاهب معك يا سيد كوبرفيلد، إذا سمحت لي بمتعة التمشي مع صديق قديم».

قلت بعد صمت محاولًا أن أبدو نشيطًا: «يورايا».

قال يورايا: «سيد كوبرفيلد».

قلت: «أقول لك الحق، وأرجو ألا تحسبها إهانة، لقد خرجت لأمشي وحدي، لا لأحظى برفقة».

رمقني بطرف عينه، وقال بابتسامة مجحفة: «أتقصد الابتعاد عن أمي؟».

قلت: «نعم، حقًّا».

قال: «آه، لكنك تعلم أننا متواضعان للغاية. ونظرًا لأننا نعلم منزلتنا الواهنة، فإننا يجب أن نحرص حقًّا على ألا نرتطم بالحائط لأننا لا نمتلك حيلة سوى الحب يا سيدي».

رفع يديه إلى ذقنه، ثم فركهما بهدوء، وضحك متأنيًا مثل قرد خبيث ماكر، بل أظن أنه لا يبدو لي مثل البشر.

قال ولم يزل يتلوى بطريقته البشعة، ويهز رأسه أمام وجهي: «كما ترى أنك لمنافس خطير جدًّا يا سيد كوبرفيلد كعادتك دومًا».

قلت: «هل تراقب الآنسة ويكفيلد، وتجعل منزلها بائسًا بسببي؟».

أجاب: «آه، يا سيد كوبرفيلد، إنها كلمات في غاية القسوة».

قلت: «فسِّر معاني الكلمات كما تحب، إنك تفهم مقصدي يا يورايا، أعرف ذلك».

قال: «آه، كلا، يجب أن تصوغ مقصدك في كلمات. حقًّا، إنني لا أفهم مقصدك».

أجبرت نفسي على الاتزان والهدوء في الحديث معه مراعاة لأجنيس، فقلت: «هل تفترض أنني أعتبر الآنسة ويكفيلد في مكانة غير مكانة الأخت العزيزة؟».

أجاب: «حسنًا يا سيد كوبرفيلد، إنك تدرك أنني لست ملزمًا بالإجابة عن هذا السؤال. لا يجوز لك، كما تعلم أن... ولكنني - كما تعرف - ربما...».

لم أرَ في حياتي قَطُّ شيئًا يضاهي هذا المكر المضمر في ملامحه، ولا مثل عينيه الخاويتين من أي انعكاس من دون ظل لرمش واحد.

قاطعته قائلًا: «اسمع، من أجل الآنسة ويكفيلد...».

صرخ بالتواء مريض منزويًا على نفسه، فقال: «هلا نادِها بأجنيس كما تناديها دومًا يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «من أجل أجنيس ويكفيلد، فليحفظها الله».

«شكرًا لك على هذا الفضل يا سيد كوبرفيلد».

«سأخبرك بما كنت سأقوله - لجاك كيتش[1] - أو تحت أي ظرف من الظروف».

قال يورايا وهو يمد عنقه ويمسك أذنه بكفه: «لمن يا سيدي؟».

قلت: «للجلاد، أو لأبعد شخص يمكن أن يخطر على بالي». كانت ملامحه في هذه اللحظة تلائم هذا التشبيه وتجعله طبيعيًّا تمامًا.

---

(١) جلاد إنجليزي شهير، استخدمه الملك تشارلز الثاني في تنفيذ أحكام الإعدام والتعذيب، واشتهر بوحشيته.

قلت: «إنني مرتبط بشابة. أرجو أن يريحك هذا الأمر».

قال يورايا: «أتقسم بشرفك؟».

كنت على وشك أن أمنحه تأكيدًا تلبية لطلبه، لكنه أمسك يدي وضغط عليها.

قال: «آه يا سيد كوبرفيلد، ليتك تعاطفت معي وبادلتني ثقتي بعدما بحت لك بمكنون قلبي، في تلك الليلة التي سهرنا فيها طويلًا أمام نيران المدفأة في غرفة جلوسك، فلو أنك فعلت ما كنت لأشك فيك أبدًا. سآخذ أمي كذلك بعيدًا الآن وأنا مطمئن فرح. أعلم أنك ستعذرني على ما بدر مني من حيطات الحب، أليس كذلك؟ يا للأسف يا سيد كوبرفيلد، لمَ لم تتنازل فتبادلني ثقتي؟! إنني متأكد من أنني هيأت لك كل الفرص لتثق بي. لكنك لم تتنازل قَطُّ، ولم تحقق ما كنت أتمناه. أعلم أنك لم تحبني قَطُّ، لكنني أعجبت بك للغاية».

ظل يضغط على يدي بأصابعه الرطبة المريبة طوال حديثه، بينما كنت أبذل قصارى جهدي لإفلاتهما، لكنني فشلت تمامًا. لقد ثبَّتهما تحت كُم معطفه الكبير ذي اللون التوتي، فرحت أسير معه بالإكراه تقريبًا، متأبطًا ذراعه.

قال يورايا بعد لحظة أدار فيها وجهه ناحيتي: «هل ستعود إلى المنزل؟». وكان القمر بازغًا يلقي أشعته الفضية على النوافذ.

تحدثت بعد أن قطعت صمتي الطويل: «قبل أن نترك الموضوع، يجب أن تفهم أنني أحسب أن أجنيس ويكفيلد في مكانة أعلى منك،

كما أنها بعيدة عن كل تطلعاتك، مثلها مثل ذلك القمر».

قال يورايا: «فلنهدأ، حسنًا، إنني أقر يا سيد كوبرفيلد أنك إلى الآن لم تحبني إلا أنني أعجبت بك. أحسب أنك تراني منحطًا للغاية إلى الآن، ألا ينبغي أن أتساءل عن ذلك؟».

قلت: «إنني أكره افتعال التواضع، كما أكره افتعال أي شيء آخر».

قال يورايا، وهو يبدو شاحبًا في ضوء القمر: «ها أنت تقولها الآن، كنت أعرف ذلك، لكنك لا تستطيع أن تتخيل مذلة إنسان في مكانتي يا سيد كوبرفيلد، لقد نشأت أنا وأبي في مدرسة خيرية للبنين، وكذلك نشأت أمي أيضًا في مؤسسة خيرية عامة. لقد علَّمونا جميعًا أن نسلك بقدر كبير من المذلة، فلم نعرف سواها من الصباح إلى المساء. كان علينا أن نكون وضعاء أمام هذا، وأن نكون أذلاء أمام ذلك، وأن نخلع قبعاتنا هنا، وننحني هناك، وأن ندرك دائمًا حجم مكانتنا ونذل أنفسنا أمام السادة. وكم كان لنا من سادة! حصل أبي على ميدالية تكريمًا لتواضعه، وحصلت على الميدالية ذاتها. وظفر أبي في الكنيسة لضعته، وكان يتمتع بمنزلة بين السادة، ولكونه رجلًا حسن التصرف أصروا على جلبه إلى هذا المكان. يقول أبي لي: «كن متضعًا يا يورايا، وستستمر. هذا ما تعلمته أنا وأنت في المدرسة، وإنه خير السلوك. كن متضعًا، وستحيا»، وحقًّا قمنا بذلك بنجاح».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يخطر ببالي أن هذا النفاق البغيض للتواضع الزائف ربما يكون موروثًا من عائلة هيب. لقد رأيت الحصاد، لكنني لم أفكر قَطُّ في البذور.

قال يورايا: «عندما كنت صبيًّا صغيرًا، تعرفت على معنى الخذلان ورافقته، فالتهمته مثل فطيرة شهية. توقفت عند هذه النقطة الفارقة في تعليمي، وقلت لنفسي: «تمسكي بها بقوة». لقد عرضتَ عليَّ أن تعلمني اللاتينية، وكنت أعرف هذه اللغة بما فيه الكفاية، لكن أبي كان يقول: «إن الناس يحبون أن يرأسوك، فاجعل نفسك في مرتبة أقل منهم». إنني حتى هذه اللحظة حقير للغاية يا سيد كوبرفيلد، لكنني أتمتع بقليل من القوة».

تحدث إليَّ بكل هذا الحديث، لكنني رأيت وجهه بازغًا في ضوء القمر، وقد فهمت أنه يعتزم تعويض مذلته باستخدام قوته. لم أشك قَطُّ في لؤمه ومكره وحقده، لكنني أدركت في هذه اللحظة ولأول مرة، كيف تكون الروح الوحشية الانتقامية التي لا تهدأ، وقد كانت بلا شك وليدة هذا القمع المبكر، والكبت طويل الأمد.

ها قد انتهى هنا من حديثه عن نفسه، وخلصنا إلى نتيجة مقبولة، أدت إلى سحب يده ليستطيع إمساك ذقنه فيما يشبه عناقًا آخر لنفسه. ولم أكد أتخلص من يده حتى ابتعدت عنه، وكنت مصممًا على ألا أعاود الاقتراب منه. سرنا بعد ذلك عائدين إلى المنزل جنبًا إلى جنب، ولم نتبادل سوى قليل من الحديث. لا أعرف هل ارتفعت معنوياته بعد هذا الحوار الذي دار بيننا، أم أنه أحب هذا الانغماس والتأمل في الماضي وذكرياته. المهم أن معنوياته قد تأثرت، إذ راح يتحدث على الغداء أكثر من المعتاد. وطلب من والدته أن تكف عن دورها الرقابي

منذ لحظة عودتنا إلى المنزل. راح يتحدث عن نفسه، وعن أن فترة مكوثه بلا زواج قد طالت. نظر ذات مرة إلى أجنيس، فتمنيت لو تخليت عن كل ما أملك في سبيل قتله.

صرنا نحن الرجال الثلاثة بمفردنا بعد الغداء، فإذا بيورايا يدخل في حالة تميل إلى المغامرة. لعله تناول القليل من النبيذ أو لم يتناوله على الإطلاق، فأحسب أن شعورًا وقحًا من الانتصار كان قد سيطر عليه، وربما أغراه وجودي لعرض هذه الجرأة.

لاحظت ليلة أمس، أنه حاول إغراء السيد ويكفيلد على الإكثار من الشراب، وفهمت من تعبيرات وجه أجنيس قبل أن تخرج أنها تنبهني إلى أن يقتصر الشراب على كأس واحدة، وبعدها أقترح الانصراف لمرافقتها. كنت أعتزم فعل ذلك اليوم، إلا أن يورايا كان أسرع مني.

تحدث يورايا إلى السيد ويكفيلد، وهو يجلس مقابلًا له عند طرف الطاولة، فقال: «إننا لا نرى زائرنا الحالي إلا نادرًا يا سيدي، ويجب أن أقترح أن أرحب به بكأس أو كأسين من النبيذ، إذا لم تمانع يا سيد كوبرفيلد، في صحتك وسعادتك».

لقد اضطررت إلى قبول الكأس من اليد التي مدها نحوي، وبإحساس مختلف كل الاختلاف أمسكت بيد الرجل المحطم... أمسكت بيد شريكه.

قال يورايا: «هيا يا شريكي، إذا جاز لي أن أستأذن الآن، فإني أطلب أن نشرب كأسًا أو اثنتين في نخب كوبرفيلد».

لقد تجاوزت ما اقترحه السيد ويكفيلد بشرب نخب في صحة عمتي، ثم في صحة السيد دك، ثم نخب في صحة «المحامين»، ثم نخب يورايا. راح يشرب لكل نخب كأسين، وبدا عليه الضعف وانسحاب الوعي، ومجاهدته ليتماسك أمامنا من دون جدوى، وصراعه بين عار مذلته أمام سيطرة يورايا عليه ورغبته في التصالح معه بإرضائه. بينما ابتهج يورايا ابتهاجًا ظاهرًا وأخذ يتلوى ويمسك بي. وكم أشعر بالغثيان والألم حين أسترجع هذا المشهد، فإذا بيدي ترتعش وتنأى عن كتابته ووصفه!

قال يورايا أخيرًا: «تعالَ أيها الشريك، سأمنحك كأسًا، وإني أطلب بكل اتضاع كأسًا كبيرة، لأنني سأشرب نخب أطهر الفتيات».

كان والدها يحمل كأسه الفارغة في يده. رأيته يضعها، ثم ينظر إلى الصورة التي تشبهها، وقد وضع يده على جبهته، ثم تراجع منزويًا في كرسيه.

استطرد يورايا قائلًا: «إنني إنسان وضيع لا أرتقي إلى أن أشرب نخبها، لكنني معجب بها... بل أعشقها».

لا أتصور ألمًا يضاهي ما يحمله رأس والدها الأشيب، ولم يلح لخاطري مشهد أكثر فظاعة من هذا المشهد، بما يحمله من ألم نفسي تجلى في رعشة يديه في هذه اللحظة.

قال يورايا متجاهلًا عاقبة تصرفه أو غير مدرك لأثر أفعاله: «أجنيس... إن أجنيس ويكفيلد هي... يمكنني أن أقول إنها أرقى بنات

جنسها. هل يمكنني التحدث بحرية كما هو الأمر بين صديقين؟ أن يكون المرء والدها لهو فخر وعزة، ولكن أن أصير زوجها...».

كيف أنقذني من هذا الكلام سماع صرخة ثانية من أبيها، مثل التي أطلقها على الطاولة! قال يورايا بعد أن تحول لونه إلى شحوب الموتى: «ما الخطب؟ أرجو ألا تكون قد أصبت بالجنون يا سيد ويكفيلد، بعد أن بحت لك بكل شيء. إذا قلت إنني أطمح في الزواج من أجنيس، فهذا من حقي تمامًا مثل أي رجل آخر، بل إني أحق بها من أي رجل آخر».

أحطت السيد ويكفيلد بذراعي، وناشدته بكل ما يخطر ببالي من عزيز وغالٍ، واستحلفته مرات عديدة بحبه لأجنيس أن يهدأ قليلًا. لقد بدا عليه غضب عارم في تلك اللحظة؛ غضب قد يدفعه إلى تمزيق شعره، أو ضرب رأسه، أو إفلات نفسه مني، أو إجباري على التخلي عنه بقوة، بينما لم يرد على كلامي ولو بكلمة واحدة، ولم ينظر إلى أحد، كأنه لا يرى شيئًا، وبدا كمن يصارع شيئًا لا يراه ولا يعرف كنهه، وإذا بوجهه محدقًا مشدوهًا. كم كان المشهد مروعًا!

رحت أحدثه بعبارات غير مترابطة، وتوسلت إليه راجيًا ألا يستسلم لهذا الشعور الوحشي، وأن ينصت إلى قولي. استحلفته أن يفكر في أجنيس، وفي العلاقة الطيبة التي تربطني بها، ليتذكر كيف نشأنا وتربينا أنا وأجنيس معًا، وكيف كرَّمتها وأحببتها، وكيف كان فخورًا وسعيدًا بها. حاولت أن أجلب صورتها لذهنه بأي صورة ممكنة، حتى إنني

عاتبته على التفكير بها في مثل هذا المشهد. لعلّي قد أثَّرت فيه بشيء ما، أو كبحت من وحشية انفعاله، أو قللت من معاناة هذا المشهد. بدأ بعدها ينظر إليَّ، ولاحت نظراته غريبة في البداية، ثم تسلل الإدراك والصحو إلى عينيه. تحدث في النهاية قائلًا: «أعرف هذا يا تروتوود! يا ابني الحبيب وإنك... أعرف، لكن انظر إليه».

أشار إلى يورايا الذي لاح شاحبًا ومنزويًا في أحد الأركان، وكان من الواضح أنه انحرف كثيرًا عن حساباته، متفاجئًا من عواقب فعلته.

استطرد السيد ويكفيلد: «انظر إلى جلادي هذا، لقد تخليت عن اسمي وسمعتي أمامه خطوة بخطوة، كما تخليت عن السلام والهدوء، ومنزلي ومأواي».

قال يورايا بلهجة من التسوية العقيمة والسريعة لمنهزم: «لقد حافظتُ على اسمك وسمعتك، وسلامك وهدوئك، ومنزلك ومأواك أيضًا، لا تكن أحمق يا سيد ويكفيلد. وإذا كنت قد تجاوزت قليلًا ما كنت مُعدًّا له، فإنني أظن أنني أستطيع العودة إلى أدراجي، أليس كذلك؟ ولا ضرر من ذلك».

قال السيد ويكفيلد: «لقد بحثت عن الدوافع الفردية عند الجميع، وكنت مقتنعًا بأن رابطة المصلحة هي الدافع الذي ربطنا. لكن انظروا إلى ما هو عليه الآن... آه، انظر إلى ما هو عليه».

صرخ يورايا مشيرًا بإصبعه الطويلة نحوي: «من الأفضل أن توقفه عن هذا الكلام يا كوبرفيلد، إن استطعت، لأنه سيقول كلامًا لا معنى

له الآن -هلا منعته- سيأسف على كلامه بعد ذلك، وستأسف أنت لسماعه».

صرخ السيد ويكفيلد فيَّ يائسًا: «سأقول أي شيء أريده، لماذا لا أكون تحت وطأة أي قوة في العالم ما دمت تحت رحمتك؟».

قال يورايا: «انتبه، إني أحذرك، إذا لم تغلق فمه، فإنك لست بصديقه الحقيقي. لماذا لا تكون تحت وطأة أي قوة في العالم يا سيد ويكفيلد؟ لأن لديك ابنة. أنت وأنا نعرف ما نعرفه، أليس كذلك؟ دع الكلاب والفتن نائمة، فمن يريد أن يوقظها؟ بالطبع لست أنا من يرغب في ذلك. ألا يمكنك أن ترى أنني أتضع بقدر ما أستطيع؟ وإني لأقول أمامكما أنني لو تطلعت إلى ما هو أبعد من منزلتي، فإني آسف. فماذا ستقول الآن يا سيدي؟».

صاح السيد ويكفيلد وهو يفرك يديه: «آه يا تروتوود، آه يا تروتوود، انظر إلى أي حال وصلت، منذ أن رأيتك لأول مرة في هذا المنزل! لقد كنت آنذاك على حافة المنحدر، وها أنا في طريقي الكئيب الذي أقطعه منذ ذلك الحين إلى الهاوية. لقد دمرني التساهل والضعف... التساهل بين الذكرى والنسيان. لقد تحول حزني الطبيعي على والدة ابنتي إلى مرض. تحول حبي الفطري لابنتي إلى مرض. لقد أصبت كل شيء لمسته بالاعتلال. وكما تعلم، لقد جلبت البؤس على من أحببته بشدة. ظننت أنه من الممكن أن أحب مخلوقًا واحدًا في العالم بصدق، من دون أن أحب البقية. ظننت أنه من الممكن أن أحزن بصدق على مخلوق واحد خرج من العالم، ولا أحزن كهذا الحزن على غيره. هكذا حرفت

دروس حياتي وانقلبت. لقد افترست قلبي الجبان المريض، ثم افترسني هو بدوره. لقد عشت ضعيفًا في حزني، ضعيفًا في حبي، ضعيفًا في هروبي البائس من ظلمة كليهما، وصرت أنظر إلى الخراب الذي أنا عليه، فأكرهني، وأهرب من نفسي».

سقط على كرسيه، وبكى منكسرًا. فارقه انفعاله الذي شب فيه، فخرج يورايا من انزوائه.

قال السيد ويكفيلد وهو يمد يديه، كما لو أنه يستنكر حكمي عليه: «لا أعرف ما فعلته في أثناء سورتي وسخطي. إنه أعلم بذلك مني» - كان يقصد يورايا هيب - «لأنه كان دائمًا عند مرفقي يهمس في أذني. ألا ترى حجر الرَّحى الذي ثبته حول رقبتي؟! ستجده في منزلي، وستجده في عملي. وها قد سمعته منذ وقت قصير، فهل عليَّ أن أقول المزيد؟!».

قال يورايا بلهجة تجمع بين التحدي والتملق: «لم تكن بحاجة إلى قول كل هذا الكلام، ولا حتى لقول نصفه، ولا أي شيء منه على الإطلاق. ولولا النبيذ لما تصورت الأمر على هذا النحو مطلقًا. ستفكر في الأمر غدًا بشكل أفضل يا سيدي. وإذا كنت قد قلت أكثر مما يلزم، أو أكثر مما قصدت، فماذا إذن؟ أنا لم أدعِّم هذا الكلام بشيء».

فُتح الباب، ودخلت أجنيس، من دون أثر للون الدماء الحية في وجهها، ثم وضعت ذراعها حول عنقه، وقالت في ثبات: «يا أبي، إنك لست بخير. تعالَ معي».

وضع رأسه على كتفها منهكًا من الظلم في خزي بالغ، ثم خرج معها. التقت عيناي بعينيها للحظة، فأدركت أنها تعلم ما مر بنا.

قال يورايا: «لم أكن أتوقع أنه سيكون خشنًا قاسيًا يا سيد كوبرفيلد. إلا أنني لن أعتبر أن شيئًا قد وقع، سأعود صديقًا له في الغد. إن هذا في صالحه. وإنني لحريص كل الحرص على خيره ومصلحته».

لم أجبه، وصعدت إلى الطابق العلوي إلى الغرفة الهادئة حيث كانت أجنيس تجلس فيها بجانبي كثيرًا بينما أنا عاكف على كتبي. لم يقترب مني أحد حتى وقت متأخر من الليل. تناولت كتابًا وحاولت قراءته. سمعت صوت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة، وكنت لم أزل أقرأ من دون أن أعرف ما الذي قرأته، إلى أن لمستني أجنيس بيدها.

قالت: «ستسافر في الصباح الباكر يا تروتوود، دعنا نودع بعضنا الآن».

كانت تبكي، لكن وجهها ظل هادئًا وجميلًا.

مدت إليَّ يدها قائلة: «فليبارك الله فيك».

قلت: «يا أجنيس العزيزة، أراكِ تطلبين ألا أتحدث عن شيء مما جرى الليلة، فهل بوسعي أن أفعل أي شيء؟».

فأجابت: «الله موجود، وإني لأثق به».

قلت: «ألا أستطيع فعل شيء؛ أنا الذي يأتي إليكِ بكل أحزانه البائسة؟».

أجابت: «وإني لأجعلها أخف بكثير. لا شيء يا عزيزي تروتوود».

قلت: «يا عزيزتي أجنيس، إنها جرأة مني - أنا الفقير جدًّا أمام كل ما أنتِ فيه من غنى بالخير، وحسن القرار، والصفات النبيلة كافة - أن أشك أو أعترض على رأيك، لكنكِ تعلمين كم أحبكِ وكيف أدين لكِ بالكثير. لكن لن تضحي بنفسكِ أبدًا من أجل إحساس مضلل بالواجب يا أجنيس، أليس كذلك؟».

ظهر عليها الاضطراب في هذه اللحظة، وكان يفوق أي اضطراب رأيته عليها في أي وقت مضى، وإذا بها تقتلع يديها مني، وتتراجع خطوة إلى الوراء.

قلت: «قولي إنكِ لا تفكرين بهذه الطريقة يا عزيزتي أجنيس، يا أكثر من أختي، فكري في نعمة قلبكِ الذي لا يُقدر بثمن، وفي هذا الحب بين جوانحكِ».

آه، ها هو هذا الوجه الملائكي يتمثل أمامي بعد مرور الزمن، فيتجلى مظهره في تلك اللحظة، ساهمًا لا يبدو عليه العجب أو الاتهام أو الندم. آه، لقد رأيته بعد مرور الزمن، وبعد انقضاء الأيام. ها هي نظراتها تخبو، كما تخبو الآن ابتسامتها الجميلة، وتخبرني أنها لا تخشى على نفسها شيئًا، ولا داعي من الخوف عليها، ثم ودعتني وتركتني بعد أن دعتني: «يا أخي».

كان الظلام لم يزل مسيطرًا على أول الصباح، حين ركبتُ العربة عند باب النُّزل، ثم انطلقت ولم يزل ضوء النهار على وشك البزوغ.

رحت أفكر فيها، وقد جلست إلى جانب الحوذي فإذا بي ألمح يورايا بين خليط الليل والنهار.

قال بصوت خافت، بعد أن تعلق بحديد سطح العربة: «يا كوبرفيلد، ظننت أنك ستسعد لسماع هذا النبأ قبل رحيلك، حيث أزيلت الخلافات بيننا. لقد دخلت إلى غرفته، وعادت كل الأمور سلسة بيننا. وعلى الرغم من أنني لست ذا شأن، فإنني نافع له، كما تعلم. كما أنه يدرك مصلحته حين تذهب عنه وطأة الخمر. يا له من رجل طيب على الرغم من كل شيء يا سيد كوبرفيلد».

أجبرت نفسي على أن أقول إنني مسرور لأنه قدم اعتذاره.

قال يورايا: «آه، بالتأكيد، وما قيمة الاعتذار - كما تعلم - إذا كان صادرًا من إنسان وضيع؟ إنه لأمر سهل للغاية! كلام بسيط! وأحسب أنك قد قطفت في هذه اللحظة ثمرة لم تنضج بعد يا سيد كوبرفيلد».

أجبته: «أظن أنني فعلت ذلك».

قال يورايا: «لقد فعلت ذلك الليلة الماضية. لكنها ستنضج فيما بعد. إن كل ما تحتاج إليه هو الصبر. وإنني أستطيع الانتظار».

أكثر من وداعه وتحياته، ثم نزل بعدما شرع الحوذي في التحرك مرة أخرى. ظل يأكل شيئًا لإبعاد هواء الصباح الرطب. لم أعرف ما الذي يمضغه، لكن حركات فمه لاحت كما لو أن الثمرة قد نضجت بالفعل، وأنه راح يلتهمها بشفتيه متلذذًا.

الفصل الأربعون

المتجول

دارت بيننا محادثة جادة في شارع باكنجهام في تلك الليلة، حول الأحداث الأخيرة التي ذكرتها بالتفصيل في الفصل الأخير. كانت عمتي مهتمة بما حدث للغاية، بل راحت تسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا مطوقة ذراعيها لأكثر من ساعتين بعدما سمعت ما سمعته. كانت كلما شعرت بالانزعاج من شيء ما جابت المكان بهذه المشية، بل ومن الممكن دومًا تقدير مقدار انزعاجها بطول مدة مشيتها. كانت في هذه المرة شديدة الانزعاج، حتى إنها وجدت أنه من الضروري فتح باب غرفة النوم، والتجول في دورات تشمل النطاق الكامل لغرف النوم بأكملها من الجدار إلى الجدار. جلست أنا والسيد دك ساكنين بجانب النار، بينما واصلت عمتي الدخول والخروج، على طول هذا المسار المحدود بوتيرة ثابتة، تتوافق مع انتظام عقارب الساعة.

صرت أنا وعمتي وحدنا بعد أن أوى السيد دك إلى فراشه. جلست أكتب رسالتي إلى السيدتين العجوزتين، أما عمتي فكانت قد سئمت

من المشي في ذلك الوقت، فجلست بجوار المدفأة وقد أحكمت عليها طرف ثوبها كالمعتاد. إلا أنها بدلًا من الجلوس بطريقتها المعتادة، ممسكة بكأسها المسندة إلى ركبتها، تركتها مهملة فوق رف المدفأة، وأسندت كوعها الأيسر على ذراعها اليمنى كما أسندت ذقنها على يدها اليسرى، ومكثت على هذه الحال ساهمة متفكرة. كنت كلما رفعت عيني لأفكر في أمر ما التقيت بعينيها، فإذا بها تؤمئ إليَّ وتقول بنبرة مؤكدة: «إنني في أحسن حال يا عزيزي، لكني أشعر بالحزن والأسف».

كنت مشغولًا للغاية حتى إنني لم ألاحظ، إلا بعد أن أوت إلى فراشها، أنها تركت خليطها الليلي -كما كانت تسميه دائمًا- من دون أن تتذوقه، بل تركته فوق رف المدفأة. أقبلت إلى باب حجرتها بطريقة ألطف من المعتاد، بعد أن طرقت بابها لأطلعها على هذا الاكتشاف، لكنها اكتفت بأن تقول: «فقدت الرغبة في الشراب الليلة يا تروت»، ثم هزت رأسها وأوت إلى فراشها مرة أخرى.

قرأت عمتي رسالتي للسيدتين العجوزتين في الصباح، ووافقتْ عليها. وضعت رسالتي بالبريد، ولم يعد لديَّ أي شيء آخر لأفعله، إلا أن أنتظر الرد متحليًا بالصبر قدر المستطاع. مكثت على هذه الحال من الانتظار ما يقرب من أسبوع، إلى أن غادرت بيت الدكتور ذات ليلة باردة، متجهًا نحو المنزل.

كان يومًا مريرًا، إذ هبت رياح شمالية شرقية باردة واستمرت حدتها لبعض الوقت. امتزجت الرياح القارسة مع الضوء، فحلت الثلوج.

أتذكر أن سقوطها كان ثقيلًا ومتواترًا في تكتلات كبيرة وسميكة. كانت الضوضاء المنبعثة من عجلات العربات وأقدام العابرين مكتومة كما لو أن الشوارع قد افترشت بطبقات سميكة من الريش.

سلكت أقصر طريق إلى المنزل - فلم أكن إلا لأختصر الطريق في مثل هذه الليلة - فمررت بشارع سانت مارتن. الآن، لاحت لي الكنيسة التي منحت اسمها لهذا الشارع، بازغة بين ممر ضيق في ذلك الوقت. لا تمتد أمامها أي مساحة مفتوحة، ثم ينتهي الممر عند شارع ستراند. مررت بدرجات سلم الممر، فإذا بي أقابل وجه امرأة في إحدى الزوايا. نظرت في وجهي وعبرت الممر الضيق، ثم اختفت. كنت أعرفها. لقد رأيتها في مكان ما، لكني لا أستطيع تذكره بالتحديد. شيء كان يربطني بها، وقد نفذت إلى قلبي مباشرة، إلا أنني كنت أفكر في شيء آخر عندما صادفتها، فصرت في حيرة من أمري.

لاح لي من درجات سلم الكنيسة شبح رجل ينحني لإزاحة بعض الثلوج الناعمة واحتجازها. التقى وجهه بوجهي في اللحظة ذاتها، ولا أتذكر أنني توقفت عن المسير على الرغم من دهشتي. مضيت في طريقي على أي حال، إلا أنه قام ثم استدار وأقبل نحوي، فإذا بي أقف وجهًا لوجه أمام السيد بيجوتي.

أدركت حينها أن المرأة التي رمقتني كانت مارثا التي أعطتها إيميلي المال في تلك الليلة، حين كنا في المطبخ. إنها مارثا إندل - جنبًا إلى جنب مع إنسان لم يُطِق رؤية ابنة أخته العزيزة معها، كما أخبرني هام، ولو منحوه كل الكنوز الغارقة في البحار.

تصافحنا بحرارة. ولم يستطع أي منا أن يتفوه بكلمة واحدة في البداية.

إلا أنه بدأ حديثه بعد أن أحكم عليَّ قبضته بشدة، فقال: «يا سيد ديفي، يفرح قلبي بلقياك، يا له من لقاء طيب!».

قلت: «من الجميل أن أقابل صديقي القديم العزيز».

قال: «لقد كنت أفكر الليلة في تفقد أحوالك يا سيدي، ولكني أعرف أن عمتك تسكن الآن معك. أما أنا فكنت متجهًا إلى يارموث، وخشيت أن يكون الوقت متأخرًا جدًّا لزيارتك. وكان الأفضل أن آتي إليك في الصباح الباكر يا سيدي، قبل أن أرحل».

قلت: «هل سترحل مرة أخرى؟».

أجاب وهو يهز رأسه في تمهل: «نعم يا سيدي، سأرحل غدًا».

سألته: «إلى أين ستذهب الآن؟».

أجاب، وهو ينفض الثلج عن شعره الطويل: «حسنًا، كنت على وشك أن أنطلق إلى مكان ما».

كانت أحد مداخل فندق الصليب الذهبي تطل في تلك الأيام على ممر جانبي، يقابل المكان الذي التقيته فيه، وهو مكان لا أنساه لأنه يرتبط في ذاكرتي بسوء حظ هذا الرجل. أشرت إلى مدخل الفندق، وتأبطت ذراعه، ومشينا. كان الممر مطلًّا على غرفتين أو ثلاث غرف عامة خارج ساحة الفندق. تفقدت إحداها فوجدتها فارغة، وقد أشعلت فيها نيران المدفأة، فاصطحبته إليها.

أبصرت وجهه في الضوء، فلاحظت أن وجهه قد أحرق من لفحات الشمس بالإضافة إلى شعره الطويل الأشعث، وقد لاح رماديًّا، انتشرت التجاعيد في وجهه واعرضَّت جبهته. بدت عليه سمات كدحه وتجواله مع تقلبات الطقس، لكنه بدا قويًّا جدًّا، وكأنه رجل يدعمه ثبات هدفه، فلا يثنيه شيء عن عزمه.

نفض الثلج عن قبعته وملابسه، وأزاله بعيدًا عن وجهه، بينما أراقب حركاته هذه وأنا داخل الغرفة. جلس أمامي على طاولة، وأدار ظهره للباب الذي دخلنا منه، ثم مد يده الخشنة إليَّ مرة أخرى، وأمسكني بحرارة.

قال: «سأخبرك يا سيد ديفي أين كنت طوال الأيام السابقة، وسأقص عليك كل ما سمعته. لقد تجولت في أماكن شتى، لكني لم أعرف سوى القليل، وسأقوله لك».

قرعت الجرس لأطلب شرابًا ساخنًا. لكنه لم يرغب في أن يشرب شيئًا أقوى من البيرة، وخلال انتظارنا لإعداد المشروبات وتدفئتها على النار، جلس ساهمًا يفكر. بدا على وجهه شرود هائل، فلم أجرؤ على إزعاجه.

قال وهو يرفع رأسه بعد أن تركنا الخادم: «كانت تحدثني كثيرًا وهي طفلة عن البحر والسواحل التي صارت أمواج البحر فيها زرقاء داكنة، تلمع تحت أشعة الشمس. ظننتُ لفترة طويلة أن غرق والدها دفعها إلى التفكير في هذا الأمر كثيرًا. وكما تعرف، فإنني لست متيقنًا من هذا الأمر تمامًا، لكن ربما كانت تتصور - أو تتخيل - أنه انجرف

بفعل هذه الأمواج الداكنة، فدفعته إلى أماكن تنمو فيها الزهور دائمًا وتهب عليه الرياح في بلدة مشرقة».

أجبته: «لعلها أخيلة الطفولة».

قال السيد بيجوتي: «لاح لخاطري حين اختفت أنه قد أخذها إلى تلك البلاد. وتصورت أنه راح يحدثها عن عجائب شتى، وأنها ستصير سيدة ذات شأن، وكيف جعلها تصغي إليه وانساقت له في كل شيء. وحين قابلنا والدته، أدركت أنني محق تمامًا. شققت طريقي في البحر إلى فرنسا، ونزلت بها، كما لو أنني هبطت من السماء».

رأيت الباب يتحرك، والثلج ينجرف للداخل. كما رأيت السيد بيجوتي يتحرك قليلًا، ويمد يده بهدوء لإبقاء الباب مفتوحًا.

قال السيد بيجوتي: «لقد علمت بوجود رجل إنجليزي في السلطة الفرنسية، فأخبرته أنني جئت للبحث عن ابنة أخي. أحضر لي أوراقًا لأنني أردت شيئًا يسهل تنقلي داخل فرنسا -لا أعرف حقًّا ماذا يسمونها- وأراد أن يعطيني مالًا، لكنني شكرته وأخبرته أنني لست بحاجة إليه. وبلا شك رحت أشكره على كرمه. قال لي: «لقد راسلتُ بعض الأشخاص مقدمًا، وسأتحدث مع آخرين ممن يأتون إليَّ بهذه الطريقة نفسها، وسيعرفك كثيرون، حيث البلاد البعيدة التي ستسافر إليها بمفردك». شكرته بأحسن الكلمات، وأعربت له عن امتناني لمعروفه، وانطلقت بعيدًا أجوب في فرنسا».

قلت: «أكنت وحيدًا تسير على الأقدام؟».

أجابني: «سيرًا على الأقدام في أغلب الأحيان، ومرات في عربات مع أناس يذهبون إلى السوق، وأوقات أخرى في حافلات فارغة. رحت أقطع أميالًا في يوم واحد، أرافق فيها غالبًا جنديًّا فقيرًا أو رجلًا مسافرًا لرؤية أصدقائه. لم أستطع التحدث مع كثيرين؛ لا أنا أتحدث لغتهم ولا هم يتحدثون لغتي، لكن كان كل منا رفقة طيبة للآخر، على طول الطرق المغبر».

أدركت ما لاقاه من طيب رفقة من نبرته الطيبة الودودة.

استطرد قائلًا: «كنت أنزل إلى أي بلدة، فأتلمس طريقي إلى الفندق، وأنتظر عند مدخله حتى يظهر أي إنسان (وكان هذا الإنسان يظهر في الغالب) يفهم الإنجليزية. أخبره أنني أبحث عن ابنة أخي. وكان مثل هؤلاء الأشخاص ممن أقابلهم يحدثونني عن نزلاء هذا الفندق، ومن ثَم أنتظر لعلَّي أرى ابنة أخي من بين الداخلين والخارجين. أما حين لا أصل إلى مرادي، فإذا بي أنطلق ماضيًا في سبيلي، وشيئًا فشيئًا أنزل إلى قرية جديدة هنا أو هناك، فأجدني معروفًا بين أناسها الفقراء. كانوا يستقبلونني عند أبواب منازلهم، ويهبونني ما يقدرون عليه من طعام وشراب، ويرشدونني إلى مواضع صالحة للنوم. التقيتُ يا سيد ديفي بكثير من النساء ممن لديهن بنات في عمر إيميلي تقريبًا، فوجدتهن ينتظرنني - برحمة من الله - على حدود القرية، ليقدمن لي أشياء طيبة. كان لبعضهن بنات مُتن صغيرات، والله وحده يعلم كم كانت أمهاتهن كريمات طيبات».

كانت مارثا تقف عند الباب. وقد رأيت وجهها الهزيل يصغي إلى حديثنا. وخشيت أن يدير رأسه فيراها كما رأيتها.

قال السيد بيجوتي: «كن يضعن أطفالهن غالبًا - ولا سيما بناتهن الصغيرات - فوق ركبتي. ولو أنك مررت بأبوابهن ليلًا، لرأيتني جالسًا معهن كما لو أنهن بناتي العزيزات. آه، يا ابنتي الحبيبة».

تغلب عليه الحزن فجأة، فانتحب بصوت عالٍ. رفعت يدي المرتعشة ووضعتها على يده التي وضعها أمام وجهه. قال: «شكرًا لك يا سيدي، لا تشغل بالك».

أبعد يده عن وجهه ثم أسندها إلى صدره وتابع قصته، فقال: «كن يسرن معي في الصباح، لميل أو ميلين في الطريق، وعندما نفترق أقول لهن: «إنني ممتن للغاية، فليحفظكن الله»، ويبدو أنهن كن يفهمن مقصدي دومًا، فيُجبن عليه بلطف. وصلت أخيرًا إلى البحر. قد تظن أنه لم يكن من الصعب على رجل ملَّاح مثلي أن يشق طريقه إلى إيطاليا بحرًا. ما إن وصلت إليها، حتى رحت أتجول بين أرجائها كما فعلت من قبل. كان أناسها طيبين وأكرموني، وكان عليَّ أن أتجول من مدينة إلى أخرى في هذه البلاد، لكنني تلقيت أخبارًا عن رؤيتها وسط الجبال السويسرية. قال رجل لي إن خادمه شاهدهم هناك؛ رأى الثلاثة معًا[1]، وأخبرني كيف سافروا إلى هناك وأين نزلوا. اتجهت إلى الجبال يا سيد ديفي، واصلًا ليلي بنهاري. مهما كنت أمضي بعيدًا، كانت الجبال تلوح بعيدة عني، لكنني وصلت إليها ثم تجاوزتها. اقتربت من المكان الذي حدده لي، إلا أنني رحت أفكر مناجيًا نفسي: «ماذا سأفعل حين أراها؟»».

---

(١) يقصد إيميلي وستيرفورث وليتيمر.

كان الوجه المنصت إلينا غير العابئ بالليل العاصف لم يزل بالباب، وإذا بيدها تتوسلني أن أدعها تنصت ولا أطردها من مكانها.

قال السيد بيجوتي: «لم يراودني شك فيها قَطُّ. لا، لم يخامرني أدنى شك، هلا سمحوا لها برؤية وجهي! هلا سمحوا لها أن تسمع صوتي، فيتركوها ماثلة أمامي أُذكرها بالبيت الذي هربت منه، وبراءة الطفولة التي كانت عليها! وإنها وإن كبرت وصارت سيدة كما الملكات، فإنها ستجثو عند قدميَّ! إنني على يقين تام من هذا. لقد جاءني صوتها في المنام كثيرًا تصرخ قائلة: «عمي»، كما رأيتها تسقط أمامي مثل الموتى. رأيتها في نومي كثيرًا، وكنت أتقدم نحوها ثم أهمس لها قائلًا: «يا إيميلي، يا عزيزتي، لقد جئتكِ وإني أسامحكِ، وسأصطحبكِ إلى المنزل»».

توقف عن الكلام وهز رأسه، ثم استمر في التَّنهُّد.

قال: «أما هو فلا يمثل شيئًا بالنسبة إليَّ الآن. إن إيميلي هي كل شيء. لقد اشتريت ثوبًا ريفيًّا لترتديه بمجرد أن أعثر عليها، وإنني على يقين من أنها ستسير بجانبي فوق هذا الطريق الصلب، فتذهب معي إلى حيث أريد، ولن تطيل فراقي أكثر من هذا أبدًا. إن كل ما أفكر به في هذه اللحظة هو أنها ستلبس هذا الثوب، وتتخلص مما كانت ترتديه، لآخذها بين ذراعي مرة أخرى، وأسير متجهًا إلى المنزل. سأتوقف في الطريق أحيانًا، حتى تشفى قدماها من الرضوض ويندمل قلبها الذي عانى من كدمات أسوأ. ولا أظن أنني يجب أن ألتفت إليه كثيرًا. إلا أنني سيد ديفي لم ألحق بهم، لك أن تتخيل! لقد فات الأوان، ورحلوا. ولم

أستطع معرفة إلى أين ذهبوا. قال البعض إنهم غادروا، وآخرون قالوا إنهم ذهبوا هناك. لقد سافرت بعيدًا، واتجهت إلى هنا وهناك، لكنني لم أجد إيميلي، فعدت إلى المنزل».

سألته: «ومتى جئت؟».

قال السيد بيجوتي: «منذ أربعة أيام. لقد رأيت القارب القديم مظلمًا، ولمحت النور فوق النافذة. اقتربت وألقيت نظرة عبر الزجاج، فرأيت السيدة جامدج، هذه المخلوقة الأمينة جالسة كما تركتها بمفردها بجوار النار. ناديتها قائلًا: «لا تخافي، أنا دانيال»، ثم دخلت إليها. لم أستطع أن أفهم قَطُّ كيف بدا القارب القديم غريبًا لعيني».

أخرج السيد بيجوتي من جيب صدريته - بحذر وعناية فائقين - حزمة صغيرة من الأوراق تحتوي على رسالتين أو ثلاث أو ما شابه، ثم وضعها فوق الطاولة.

قال وهو يختار ورقة من بينهم: «كانت هذه أول رسالة منها قبل أسبوع من رحيلي. أرفقت معها خمسين جنيهًا ورقية، ملفوفة في ورقة ومعنونة باسمي. كانت قد زجتها من تحت أعتاب الباب ليلًا. حاولت إخفاء خطها، لكنها لم تستطع إخفاءه عني».

طوى الورقة مرة أخرى، بصبر وعناية شديدين، وأعادها كما كانت تمامًا، ثم نحاها جانبًا.

فتح رسالة أخرى وقال: «وهذه رسالة موجهة إلى السيدة جامدج منذ شهرين أو ثلاثة أشهر». نظر إليها لبعض اللحظات ثم ناولها

لي، وأضاف بصوت منخفض قائلًا: «هلا تفضلت بقراءتها يا سيدي المحترم».

قرأت ما يلي:

«آه، أي شعور سيراودكِ حين ترين هذا الخط، وتعلمين أنه من عمل يدي الشريرة، لكن حاولي، حاولي - ليس من أجلي، ولكن من أجل عمي الطيب- حاولي أن تجعلي قلبكِ يلين لي ويتحنن ولو لوقت قصير فقط! أدعو الله أن تحاولي أن تترفقي بفتاة بائسة، فتكتبي شيئًا ولو على قطعة صغيرة من الورق تخبريني عن أحواله، وعما قاله عني قبل أن تمتنعوا عن ذكر اسمي بينكم. هل رأيتِه وقد راح يفكر ذات ليلة في الفتاة التي أحبها، فشرد ساهمًا حين حان الوقت القديم لعودتي إلى المنزل؟ آه يا لقلبي المنكسر الذي يفكر فيه! إني أركع أمامكِ، وأتوسل إليكِ وأناشدكِ ألا تكوني قاسية معي بالقدر الذي أستحقه - إنني أعلم جيدًا أنني أستحق القسوة - ولكن هلا تتعطفي وتجودي بكرمكِ، فتكتبين شيئًا لي عنه، وترسلينه إليَّ! لستِ في حاجة إلى مناداتي بقولكِ يا صغيرتي، ولا حاجة لكِ إلى مناداتي بالاسم الذي دنسته بعاري، لكن فلتصغي إلى عذابي وترحميني، فتكتبي لي كلمة لأطمئن على عمي الذي لن أراه مرة أخرى ولن تقع عليه عيني في هذه الحياة أبدًا.

عزيزتي، إذا كان قلبكِ قاسيًا عليَّ - وإني أعلم استحقاقي لهذه القسوة - فلتصغي إلى مَن كنت على وشك أن أدعوه زوجي، طالما كان الأمر صعبًا عليكِ يا عزيزتي، ولتسأليه - هو الذي ظلمته أكثر من غيره - قبل أن تقرري رفض توسلاتي البائسة إليكِ تمامًا! فهلا كان رحيمًا

حانيًا، فيسمح لكِ بكتابة شيء لي لأقرأه - أحسب أنه سيأذن لكِ بمجرد أن تطلبي منه ذلك، لأنه الشجاع والمتسامح كعهده دومًا، ثم أخبريه - في حالة موافقته فقط - أنني حين أسمع الريح تهب في الليل، أشعر كما لو أنها مرت به وبعمي سورة من غضب عليَّ، كانت في طريق صعودها إلى الله. أخبريه أنني لو مت غدًا - وآهٍ، لو أنني أستطيع، لهنأت جدًّا بالموت! - فإنني سأدعو له ولعمي بكلماتي الأخيرة، وسأدعو له بحياة سعيدة مع أنفاسي الأخيرة».

أرفقت أموالًا مع هذه الرسالة أيضًا، وكانت خمسة جنيهات. لم يمسها أحد مثل المبلغ السابق، ثم أعاد السيد بيجوتي طيها بالطريقة نفسها. كانت الرسالة قد أضافت تعليمات مفصلة عن العنوان الذي سيرسل إليه الرد، وهي تفصيلات تكشف عن تدخل عدة أيادٍ، مما جعل من الصعب الوصول إلى أي استنتاج منطقي عن مكان اختفائها، وإن كان من غير المستبعد على الأقل أن يشير إلى تلك البقعة التي قيل إنها شوهدت بها.

سألت السيد بيجوتي: «وما الإجابة التي أرسلتها؟».

قال: «إن السيدة جامدج ليست على مستوى عالٍ من التعليم يا سيدي، لقد كتب هام الرد. وقالا لها إنني ذهبت للبحث عنها، وأخبراها عن كلماتي الأخيرة قبل الرحيل».

قلت: «هل هذه رسالة أخرى بين يديك؟».

كشف السيد بيجوتي عما بيده قائلًا: «إنه المال يا سيدي. كما ترى

أنه عشرة جنيهات، ومعها ورقة مكتوب فيها «من صديق مخلص»، مثل ما سبقها من أموال. كانت النقود السابقة قد وضعت تحت أعتاب الباب، أما هذه فأرسلتها بالبريد أول أمس. إنني ذاهب للبحث عنها في المكان الظاهر على ختم الرسالة».

أظهر الختم لي، وكان من بلدة تقع أعلى نهر الراين. وجد في يارموث بعض التجار الأجانب ممن يعرفون هذا البلد، وقد رسموا له خريطة بسيطة على الورق، وقد استطاع أن يفهم هذا المخطط جيدًا، فأخرجها ووضعها بيننا على المائدة. كان قد أسند ذقنه على إحدى يديه، وتتبع بالأخرى مساره على الخريطة.

سألته عن حال هام، فهز رأسه، وقال: «إنه يعمل بقدر ما يستطيع الرجال أن يكدوا ويعملوا. لقد صار ذا اسم ذائع في هذه الناحية، مثل أي رجل مجتهد في أي مكان في هذا الميدان. تمتد إليه يد أي إنسان لمساعدته، وكما تعرف، فإنه على استعداد لمساعدة أي إنسان كذلك. إنه لا يشكو أبدًا، لكن أختي تظن - وهذا سر بيننا فقط - أن جرحه عميق لا يلتئم».

قلت: «رجل مسكين، إنني أصدق ما قالته».

قال السيد بيجوتي في همس مهيب: «لم يعد يهتم بحياته يا سيد ديفي أو يعبأ بها. ولو طلبوا رجلًا لعمل قاسٍ في طقس قاسٍ، إذا به يبادر إليه مسرعًا. وإذا ظهر واجب صعب وخطر، إذ به يؤديه على الرغم مما يحفه من مخاطر، بل إنه يتقدم على جميع رفاقه لتلبيته، ومع ذلك كله فإنه وديع كالطفل، بل لم يظهر طفل في يارموث لا يعرفه».

جمع الرسائل بعناية، ورتبها بيده، ثم جمعها في حزمة صغيرة، ووضعها بحنان في جيب صدريته مرة أخرى. اختفى الوجه المطل من الباب. رحت أراقب الثلج بينما ينجرف إلى الداخل، لكنني لم أرَ أي شيء آخر عند الباب.

قال وهو يفتش في حقيبته: «وبعد أن رأيتك الليلة يا سيد ديفي -ويا له من أمر رائع لي!- فإني مسافر غدًا في الصباح الباكر. وها قد رأيت كل ما تحصلت عليه». وضع يده على مكان رزمة الأوراق الصغيرة، وأكمل قائلًا: «إن كل ما يزعجني هو أن أفكر في أي ضرر قد يلحق بي، قبل أن أرد هذه الأموال. فإذا قُدِّر لي أن أموت، أو أتوه، أو أسرق، أو اختفى هذا المال بأي طريقة أخرى، ولم يعرف مرسلها ماذا فعلت بها قَطُّ، فإني أظن أن الآخرة لن تستوعبني! أتصور أنني يجب عليَّ حينها أن أعود، فأرد إليه ماله».

نهض، فنهضت أيضًا. تصافحنا مرة أخرى قبل أن نرحل.

قال: «سأقطع مسافة عشرة آلاف ميل، سأمضي في سبيلي حتى أسقط ميتًا، أو أضع هذه الأموال أمامه. وإذا فعلت ذلك، ووجدت عزيزتي إيميلي، فسأكون راضيًا شاكرًا. وإذا لم أجدها، فربما ستسمع في يوم ما، أن عمها المحب لم ينتهِ من بحثه عنها قَطُّ إلا حين أنهى حياته. وإذا كنت أعرفها حق المعرفة، فإن هذا النبأ كفيل بردها إلى منزلها في النهاية».

خرج في ذلك الليل القاسي، فإذا بي أبصر شبح تلك الإنسانة الوحيدة يبتعد مسرعًا. فأقبلت عليه على عجل متظاهرًا أنني نسيت

شيئًا، وأجريت معه محادثة حتى رحلت عنا.

تحدث السيد البيجوتي عن منزل للمسافرين على طريق دوفر، حيث قال إنه يعرف أنه سيجد فيه مسكنًا نظيفًا وبسيطًا يقضي فيه الليل. سرت معه فوق جسر وستمنستر، ثم افترقنا عند شاطئ ساري. بدا كل شيء في مخيلتي، كما لو أنه يلتزم بالسكينة تقديسًا له، وإذا به يستأنف رحلته الأليمة عبر الثلوج.

عدت إلى ساحة الفندق، وقد ألح عليَّ شبح ذاك الوجه، فرحت أنظر متطلعًا إليه حولي، إلا أنني لم أجده. لقد غطى الثلج آثار أقدامنا الأخيرة. كان مساري الجديد هو المسار الوحيد المرئي، بل بدأت آثار قدميَّ تتوارى هي الأخرى، بعد أن تساقطت الثلوج بسرعة كبيرة. سرت بينما أنظر من فوق كتفي متلفتًا ورائي.



تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

يصعب عليّ الابتعاد عن هذا الكتاب أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم؛ حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طيلة عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافا هو علي هين مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

تشارلز ديكنز


ISBN 978-977-765-332-9

